جاك دروز

التاريخ العام للاشتراكية

من الأصول إلى عام ١٨٧٥

الجزء الأول - القسم الثاني

ترجمة

الدكتور أنطون حمصي



الإشراف الفني زهير الحمو

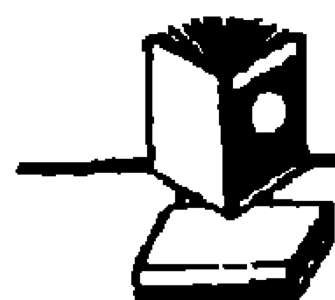
جاك دروز

التاريخ العام للاشتراكية

من الأصول إلى عام ١٨٧٥

الجزء الأول - القسم الثاني

ترجمة
الدكتور أنطون حمصي



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

HISTOIRE GÉNÉRALE
DU
SOCIALISME

PUPLIÉE SOUS LA DIRECTION DE JAQUES DROZ

TOME I : Des origines à 1875

التاريخ العام للاشتراكية : من الأصول إلى عام ١٨٧٥ = Histoire générale du socialisme/ جاك دروز؛ ترجمة أنطون حمصي. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ج١؛ ٢٤سم. -(دراسات فكرية؛ ٤٧)

الكتاب عبارة عن قسمين

١-٣٣٥ درو ت ٢-٥ر٣٢٠ درو ت ٣-العنوان
٤-العنوان الموازي ٥-دروز ٦-حمصي ٧-السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٧٨٥/ ٥ / ١٩٩٩

دراسات فكرية

« ٤٧ »

الفصل الثاني

الاشتراكية الفرنسية من ١٨١٥ إلى ١٨٤٨

جان بروها

إن إحدى السمات المميزة لفرنسا ما بين ١٨١٥ و١٨٤٨ هي فيض المذاهب والمدارس الاشتراكية. وإذا قارنا بين فرنسا وإنكلترا، ومن باب أولى بألمانيا تلك الفترة، فإن فرنسا، من دون أي شك، هي بلد الاشتراكية. وبالفعل، وحتى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، تتصف فرنسا ببقايا النظام الاقتصادي القديم: أولوية الاقتصاد الزراعي، رجحان منتجات الضرورة الأولى التي تشكل أساس الغذاء في هذا القطاع، تقدم وسائل النقل الرخيص والكبير الطاقة (لم يكن هناك، عام ١٨٥٠، سوى ٣٠٠٠كيلومتر من الخطوط الحديدية المستثمرة)، إنتاج صناعي يسيطر عليه إنتاج المواد الاستهلاكية، ضعف الائتمان، عدم كفاية صنع سلع الإنتاج وضعف التركيز الصناعي.

ويحصي تعداد ١٨٥٦، ٣١٨٥٠٠٠٠ من السكان ثلثاهم (٢٢٢٥٠٠٠٠) يعيشون من عمل الأرض. وعلى الرغم من تأميم أملاك الكهنوت ومصادرة قسم من ملكية النبلاء أثناء الثورة، فإن الملكية الكبرى ذات الأصل الأرستقراطي ما زالت تلعب دوراً كبيراً. وهو ما يجب أن نضيف إليه نمو الملكية العقارية الكبيرة التي اكتسبها البورجوازيون.

ويلي ذلك أن المواجهات الاجتماعية أعقد بكثير مما يمكن أن يظن إذا اكتفينا بملاحظة المعارك السياسية كما يمكن أن تنمو داخل بلد قانوني ضيق نسبياً. ولكن الحياة الاجتماعية بقيت، على الرغم من الثورة، حتى

عام ١٨٣٠ على الأقل، تحت سيطرة التناقض بين الأرستقراطية والبورجوازية الذي كان ما يزال بعيداً عن التصفية. وهذا التنازع يعبر عن نفسه بتسويات، أحياناً، وبمعارك صريحة أحياناً أخرى. وتشكل أولى سنوات عودة النظام الملكي طور تسوية. فقد احتفظ بالأساسي من النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للثورة والإمبراطورية. فلا يمكن بعث الامتيازات الإقطاعية لكبار الملاكين العقاريين ولا الملكية المطلقة. إلا أنه أمكن، في نقطتين هامتين، تحقيق اتفاق بين النبلاء وكبار البورجوازيين: الأولى هي إبعاد الجماهير الشعبية، بواسطة نظام انتخابي قائم على حد ضريبي، عن اللعبة السياسية واعتماد سياسة اقتصادية ترضي، عن طريق فرض رسوم جمركية، الزراعيين والذين يخشون، من بين أصحاب المشاغل، المزاحمة الإنكليزية. أليس تاجراً، هومبلو-كونتيه، وكان ليبرالياً من جهة أخرى، هو الذي صرح قائلاً: "سعر القمح المرتفع يرغم العامل على العمل بصورة أسرع وأفضل. فهو يحفز مهارته وحميته ويسمح بخفض للنتاج الصناعي مناسب للبيع". إن هذه الحماية- وهي حل سهل- تلجم ضروب التقدم الصناعي بجعله الطفرات في ميدان تقدم التقنيات والطاقة دون فائدة. وهذه التسوية قائمة على توازن تبين هشاشته الأزمات الاقتصادية، وخاصة تلك التي بدأت عام ١٨٢٧. ومنذ ذلك الحين، تبدو مصالح البورجوازية التي اكتسبت قوة غير ممكنة التوفيق مع مصالح الأرستقراطية.

وفي هذا الصراع، يلعب العمال، خاصة، دور قوة مساندة. وبإيجاز، تدخل، عام ١٨١٥، في فترة لا يمكن للحركة العمالية أن تقوّم، خلالها، على الرغم من تجلياتها الأولى، كقوة يمكن لتدخلها أن يكون حاسماً. وفي جميع الأحوال، نمت الرأسمالية إلى حد يكفي من أجل أن يظهر البؤس العمالي، من جهة، وتناقضات عالم يغتني، فيه، قسم ضئيل من السكان (الربح يتضاعف مرتين، بل ثلاث وأربع مرات أحياناً)، في حين تفتقر

أغلبية السكان، مـــن جهـــة أخـــرى. "يزيـــد الإنتـــاج في حـــين تنخفـــض المتـــع".
هـــذه الجملـــة الـــتي قالهـــا سيســـموندي، عـــام ١٨٢٧ بصـــدد إنكلـــترا تنطبـــق،
أيضاً، على فرنسا. وهي تصـــف النتـــائج الاجتماعيـــة للثـــورة الصناعيـــة.

إلا أن ذكـــر الســـياق، وحـــده، لا يســـمح بفـــهم الانبثـــاق المبكـــر والصـــاخب للمذاهب الاشـــتراكية في فرنســـا. ففرنســـا تعيـــش فعـــلاً- وهـــذه هـــي أصالتـــها بالقياس مع بلدان مثـــل إنكلـــترا وألمانيـــا- تحـــت علامـــة ثـــورة كـــبرى قلبـــت، بعنف، البـــنى الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة والسياســـية للأمـــة. فقـــد أنزلـــت هـــذه الثورة، في البـــدء، ضربـــة بمبـــدأ الملكيـــة نفســـه ولـــو لم يكـــن ذلـــك إلا بعلمنـــة الأمـــلاك الكنســـية. وتشـــكل الاتجاهـــات المســـاواتية للجمهوريـــة الجبليـــة ســـابقة سوف يعلن اشـــتراكيون وشـــيوعيون الانتمـــاء إليـــها بحماســـة يزيـــد منـــها كـــون الجمهورية قـــد وجـــدت في البابوفيـــة أكـــثر التعبـــيرات عنـــها تقدمـــاً. وهـــو مـــا تضـــاف إليـــه مبـــادرات أخـــرى: الاقـــتراع العـــام الـــذي أعلـــن عـــام ١٧٩٢، الديمقراطيـــة السياســـية، شـــرط الديمقراطيـــة الاجتماعيـــة، تدخـــل الدولـــة في العلاقات الاقتصاديـــة.

إن تقليـــد ١٧٨٩-١٧٩٤ يثـــير التـــأمل في موضـــوع الثـــورات مـــن جهـــة أولى. وهو يلقي، مـــن جهـــة ثانيـــة، الضـــوء علـــى النســـبية التاريخيـــة لصـــور الملكيـــة، وهو يجد، أخـــيراً، حـــتى حـــوالي عـــام ١٨٤٨ علـــى الأقـــل، مســـتنبتاً صالحـــاً في طبقـــات عاملـــة مدينيـــة قريبـــة جـــداً مـــن جماعـــة العـــراة. تلـــك هـــي بعـــض الأسباب التي ظهرت، من أجلـــها، الاشـــتراكية مبكـــرة جـــداً في فرنســـا.

وقد افتخـــر بيـــير لـــورو، وهـــو تلميـــذ متـــأخر لســـان ســـيمون ومنشـــق عنـــه، بكونه قد أدخـــل كلمـــة "اشـــتراكية" في المفـــردات الفرنســـية. فقـــد كتـــب عـــام ١٨٥١، في الجـــزء الأول مـــن مؤلفاتـــه الكاملـــة، يقـــول: "اخـــترعت، منـــذ عشـــرين ســـنة، مصطلـــح الاشـــتراكية لأعـــارض بـــه مصطلـــح الفرديـــة". وفي عـــام ١٨٦٣، كـــرر، في "إضـــراب ســـاماريه"، ذلـــك قـــائلاً: "أنـــا الأول الـــذي استعمل كلمة الاشتراكية. لقـــد كـــانت تعبـــيراً جديـــداً، آنـــذاك، تعبـــيراً جديـــداً

ضرورياً. وقد صنعت هذه الكلمة بالمقابلة مع كلمة الفردية التي كانت قد بدأت في الرواج". ونجد كلمة اشتراكية، منذ تشرين الثاني ١٨٣١، في جريدة "غلوب" السان سيمونية، وعام ١٨٣٣ في جريدة فورييرية، "المشرك" لفكتور كونسيديران. وكانت الكلمة شائعة إلى حد يكفي من أجل أن يستطيع لويس رايبو أن يبدأ، في الأول من آب ١٨٣٦، في "مجلة العالمين"، سلسلة مقالات بعنوان: "الاشتراكيون الحديثون". وعلى كل حال، سبق المذهب الكلمة بكثير. فالتأمل النقدي في المجتمع كما هو موجود والصورة التي تكون عليها والبحث عن وسائل تحويله وإنضاج "نموذج" تنظيم اجتماعي جديد سوف يزيل التباينات بين الأغنياء والفقراء ويسمح بنمو متناغم للقوى الاقتصادية هي، بتعابير أريد لها أن تكون عامة جداً، بعض مركبات ما بدئ بتسميته، آنذاك، اشتراكية.

إلا أن هناك ضرورة لتمييزات زمنية. وهي مفروضة علينا بتطور المذاهب وتأرجحات السياقات الاقتصادية والطفرات في بنى المجتمع الفرنسي. فلا يمكن للاشتراكية، في صياغاتها كما في طبيعة انتشارها، أن تنتزع، في أية برهة، من سياق يؤثر، فيها، وسوف يؤثر، فيها، تدريجياً.

ا – الطوباويون الكبار

تفتحت الاشتراكية الطوباوية في فترة انتقال. فالتقدم في الإنتاج الصناعي بطيء جداً، والآلة البخارية ما تزال استثناء، في حين يسيطر المحرك المائي، وبقيت مكننة الآلات، ما عدا في غزل القطن، قليلة التقدم. وفي التعدين، كان صهر المعادن بالفحم الحجري معروفاً، ولكن نموه كان محدوداً جداً. وظهرت الخطوط الحديدية ولكن الذين آمنوا بمستقبلها كانوا نادرين جداً حتى حوالي ١٨٤٠. إلا أنه حتى لو لم تدخل أشكال الإنتاج الصناعي الجديدة إلا بصورة جنينية، فإنه يمكن أن تعد، من جانب عقول حصيفة، شروط التقدم الصناعي.

وتزايد عــدد العمــال. إلا أنــه لا يمكــن الكــلام عــن طبقــة عاملــة متجانســة. فقد ضمــت بروليتــاريي مصــانع انتزعتــهم أولى ضــروب التقــدم مــن الريــف، ولكنــها ضمــت، أيضــاً، صناعــاً في ورشــات وحرفيــين وعمــالاً- فلاحــين علــى الرغــم مــن أن الصناعــة الريفيــة كــانت تنحــدر. وبقيــت بورجوازيــة الحانوت والورشة الصغــيرة هامــة عدديــاً.

وعرف العمال وضعــاً صعبــاً جــداً تفــاقم، أيضــاً، بفعــل الأزمــات الاقتصاديــة عــام ١٨١٧-١٨١٨، وفي فــترة ١٨٢٨- ١٨٣٢. وغالبــاً مــا اتخــذت المعــارك العماليــة طابعــاً بدائيــاً. فبــين ١٨١٥ و١٨٣٠، هــاجم العمــال الآلات، وكــانت حــالات تحطيمــها متواتــرة جــداً، خاصــة في الصناعــات النســيجية الآخــذة في المكننــة. ويمكــن تمييــز عــدة نمــاذج مــن المنظمــات العمالية. وكان بعضها ينتمي إلى مــاض بعيــد جــداً مثــل هيئــات الحــرف الــتي كانت مــا تــزال حيــة جــداً وتحــاول، عبثــاً، إصــلاح نفســها لتتكيــف مــع الشــروط الجديــدة. وكــانت الأخــرى أحــدث: فــهي جمعيــات المســاعدة المتبادلة التي ظــهرت بأسمــاء متنوعــة، كالجمعيــات الخيريــة وجمعيــات الادخــار والأخويــات إلخ... وكــانت تــنزع إلى التضــاعف علــى اعتبــار أنــه أحصــي منــها، في بــاريس وحدهــا، ١٣٨، عــام ١٨٢١، و١٨٤ عــام ١٨٢٦. و لم تكــن الإدارات تضعــها في متنــاول قــانون لوشــابولييه طالمــا اقتصــر نشــاطها، بــالضبط، علــى التضــامن. ومــن الناحيــة الفعليــة، تجــاوزت بعــض هــذه الجمعيــات الإطــار التضــامني وتولــت وظــائف جمعيــات مقاومــة بمنحــها مســاعدات في حالــة البطالــة مــع إمكــان مماهــاة الإضــراب بالبطالــة. وهــذه كانت الحال مــع جمعيــة الواجــب المتبــادل الــتي أسســها، عــام ١٨٢٨، عمــال الحرير في ليون والــتي لم تضــم، حقــاً، ســوى معلمــي ورشــات. وعلــى كــل حال، لم تجمــع هيئــات الحــرف وجمعيــات المســاعدات المتبادلــة ســوى أعــداد لا قيمة لهــا.

إلا أنه حدثت إضرابــات لزيــادة الأجــور أو ضــد تخفيضــها وضــد إطالــة يــوم

العمل وضد مراقبة الاستخدام من جانب البلديات أو الشرطة. بل وإن نشرة من نشرات الشرطة سوف تمضي حتى الحديث عن "هوس التكتلات". ولكن هذه الإضرابات كانت محلية، قاصرة على مدينة أو مهنة. وكان ينبغي وقوع أزمة مثل تلك التي بدأت حوالي ١٨٢٥ وأدت إلى ارتفاع في كلفة الحياة وهبوط الأجور من أجل أن يتعمم التحرك العمالي، وهو ما لا يعني وجود تنسيق. فقد كانت هناك، إذن، نشاطات عمالية، دفاعية خاصة، أكثر تواتراً مما يمكن لتاريخ سياسي لعهد عودة النظام الملكي أن يحملنا على ظنه وكاشفة إلى حد يكفي من أجل إمكان إدراك المسألة العمالية. إلا أن هذه الحركة العمالية لم ترتفع إلى ما فوق العفوية: فقد كانت ارتكاسات تشنجية غالباً ما تكون شديدة، ولكن لا غد لها. فما من وجود لمنظمات قيادة أو تأطير، ولا لمذاهب ولا لطرح للنظام الاجتماعي القائم على بساط البحث. وعندما تكون هناك شواغل سياسية، فإنها من صنع أكثر الحرفيين ثقافة وأكثرهم تجذراً في حياة المدينة والذين تبقى التقاليد المساواتية للعراة قوية دائماً، وكذلك تقديس النابوليونية الذي غذاه جنود الإمبراطورية السابقين. ونادراً ما كانت الصلة تقوم بين الاهتمامات السياسية والمطالب العمالية. فالعمال "المسيسون" ما زالوا يسيرون على خطى البورجوازية الليبرالية.

ونظراً لانعدام حركة عمالية حقيقية، فقد كان عهد عودة النظام الملكي مرحلة حضانة أيديولوجية. ومنظرو الاقتصاد السياسي كانوا واقعين تحت تأثير مرحلة ارتفاع الأسعار الطويلة التي انتهت حوالي ١٨١٧ فقط. ولم يكن يمكن وضع أسس الاقتصاد الليبرالي، وبالتالي مشروعية الملكية، موضع مساءلة. فاللامساواة واقعة طبيعية في نظر دستوت ترايسي (١٧٥٤-١٨٣٦) الذي صدر كتابه "مطول في الاقتصاد السياسي" عام ١٨٢٣. وإذا كان وجود البؤس في العالم أمراً لا يمكن إنكاره، بل وإذا كان يترع إلى التفاقم، فذلك بسبب وجود فائض من

السكان. وقد كتب جان باتيست ساي، في "دروس في الاقتصاد السياسي" (١٨٢٨-١٨٢٩)، يقول: "من اللطيف أن يفكر المرء في أن المجتمع يستطيع التلطيف من كل الحظوظ العاثرة غير المستحقة. إلا أن الإيمان بذلك غير مسموح به لسوء الحظ". ولا يمكن أن تكون هناك أزمات فيض إنتاج عامة، بل هناك، فقط، أزمات طارئة أو جزئية أو موضعية أو قطاعية. وقد نشر ليونار سيسموند دوسيسموندي (١٧٣٣- ١٨٤٢) الذي كان تأثيره في الاشتراكية الفرنسية ملحوظاً كتابه "المبادئ الجديدة للاقتصاد السياسي أو الثروة في علاقاتها بالسكان" عام ١٨١٩. وقد تأثر المؤلف "تأثراً شديداً" بفعل "آلام عمال المشاغل القاسية" الناجمة عن "الأزمة التجارية" لعام ١٨١٧-١٨١٨. وكتب يقول: "يمكن، تقريباً، أن نقول أن المجتمع الحديث يعيش على حساب البروليتاري". فالتركيز يزيد من القدرة الإنتاجية، ولكنه، إذ يؤدي إلى إفقار العمال، يضيق من القدرة الاستهلاكية، وهو ما يولد الأزمات. إلا أنه إذا كان سيسموندي "غنياً بالنظريات"، فإنه "فقير في العلاج" (إيلي هاليفي). وبالفعل، فهو يتمنى العودة إلى تنظيمات اقتصادية قديمة ولا ينادي إلا بإصلاحات ترمي إلى إيقاف إفقار البروليتاريين. والواقع أن سيسموندي، وهو متشائم جذري وقدري في أعماقه، لا يلمح حلاً أبداً. "يبدو لي تصور حالة للملكية مختلفة اختلافاً مطلقاً عن تلك التي تعرفنا عليها الخبرة أمراً فوق طاقة القوى البشرية تقريباً".

وعلى كل حال، فإن سيسموندي يحضر للنقد الاشتراكي بقدر ما يدين الليبرالية الاقتصادية أو، على الأقل، بقدر ما يلقي الضوء على الكوارث التي تسببها.

وهذا النقد من صنع الاشتراكيين الذين سموا بالطوباويين. فلديهم، فعلاً، سمات مشتركة تعود إلى الطوباوية. فهم، أولاً، يستلهمون طوباوية للعقل (ومن هنا جاء تعبير إرنست لابروس: الاشتراكيون المفهوميون").

فيكفي، في نظرهم، تصور نموذج عقلاني للمجتمع أو، في نظر فورييه، تصور نموذج مطابق لمقتضيات الطبيعة من أجل أن يتبناه الجميع بسبب عقلانيته، على اعتبار أن الحس السليم هو أفضل ما في العالم توزعاً. وجذبتهم، أيضاً، التجارب التي تجري ضمن حدود مجتمعات صغيرة مغلقة حيث يتحقق، فوق ذلك، حلم حياة أخوية. وسوف تنتج هذه التجارب نتائج من الفائدة بحيث سيصبح كل العالم، بفعل العدوى، اشتراكياً. وهؤلاء الطوباويون لا يهتمون بالوسائل التي سيمكن، بواسطتها، تحقيق المجتمع المثالي. فلا تهمهم الأشكال المؤسسية كثيراً، ولا يسعون إلى اكتشاف القوى الاجتماعية التي سيستندون إليها. فالطوباوي يعد نفسه، بسهولة، مسيحاً، صاحب رؤى أو نبياً على الأقل. ورسالته هي صنع "خبر سعيد" يعلن عنه. إلا أن كل شيء ليس طوباوية لدى الطوباويين. فهم قادرون على استباقات مدهشة سواء أدار الأمر حول الخطوط الحديدية والمصارف، لدى سان سيمون، أم حول التعاونيات الإنتاجية والاستهلاكية لدى فورييه. ولكن كم من متحولات! فلكل طوباوي طوباويته.

سان سيمون والسان سيمونية

الإنسان والعمل

يجب على شخص سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) نفسه أن يشد الانتباه لأن هناك صلات وثيقة بين الإنسان والمذهب. فسان سيمون، كبابوف، بيكاردي الأصل، ولكنه، خلافاً لبابوف، ينتمي إلى أسرة كبيرة جداً، أسرة الدوق دو سان سيمون كاتب المذكرات: "المنحدر من شارلمان". وكان، وهو النبيل الليبرالي الذي تغذى، مبكراً جداً، بفلسفة الأنوار، قد قاتل في أمريكا إلى جانب الثوار "من أجل الحرية الصناعية لأمريكا"، كما سيكتب فيما بعد. وقد انضم، بحماس، إلى مبادئ الثورة. وفي عام

١٧٩٠، تخلى، أمام فلاحي فالفي- سور- واز، عن لقب سيد القرية الذي كانت تملكه أسرته: "لم يعد هناك أسياد أيها السادة!". وقد ارتاد في كاميريه وبيرون، الجمعيات الشعبية واليعقوبية. وتلقى اسم "المبعوث" من كلود بونوم. ولكن الأعمال، ولا سيما المضاربات على بيع أملاك الكهنوت، وفيما بعد على أملاك المهاجرين التي صادرتها الأمة، كانت تشوقه بقدر ما كانت تشوقه المناظرات السياسية. وبمساعدة الكونت دو رودرن، وهو سكسوني كان في خدمة ملك بروسيا، ومصرفي من نيوشاتيل، بيريغو، اشترى استثمارات كاملة ليعيد بيعها قطعاً صغيرة. وانتهى به الأمر إلى اعتقاله. وقد حرر بعد ٩ ترميدور، وعاد إلى المضاربات ولكنه لم يتوقف عن التدخل في شؤون الثورة. وحوالي ١٨٠٥-١٨٠٦، أفلس نهائياً. وقد عمل ناسخاً في سوق الأشياء المستعملة ومصححاً في مطبعة وموظفاً في مكتبة، وعاش في ضنك إن لم يكن في بؤس. وساعده على العيش، خلال سنتين، أحد خدمه السابقين، ديار الذي ضارب، على وجه الاحتمال، هو أيضاً، على الأملاك القومية. وفي عام ١٨٢٣، في حين كان قد حاول الانتحار أثناء نوبة يأس، تولى أمر عيشه المصرفي الشاب أولاند رودريغ الذي أصبح تلميذه، وتوفي، بعد سنتين، في ٢٢ أيار ١٨٢٥.

إن هذه الحياة المضطربة، حسب تعبير سان سيمون نفسه، "نهر تجارب":"لقد بذلت كل جهودي لمعرفة طباع مختلف طبقات المجتمع وآرائها، بأكثر مما كان في مقدوري من الضبط". وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الحياة المهنية الخارجة، هي الأخرى، عن المألوف تطابقت مع فترة كثيفة جداً على اعتبار أن سان سيمون عاش، على التعاقب، الثورة الأمريكية وثورة ١٧٨٩ والقنصلية والإمبراطورية وعهد عودة النظام الملكي. ولا يمكن فهم مؤلفات سان سيمون التي تندرج، فعلاً، بين ١٨٠٣ (رسائل أحد سكان جنيف إلى معاصريه) و١٨٢٥ (المسيحية

الجديدة) دون أن نعيد وضعها في هذا السياق التاريخي. فسان سيمون لم ينضج تصوراته دفعة واحدة. فقد كتب يقول: "العودات المتواترة إلى الأفكار هي التي يتوصل المرء بها، إلى تحليلها، بشكل كامل، والتآلف معها وإعطائها قاعدة متينة".

فهناك خطر مؤكد في تقديم عمل غير مضبوط التلاحم، بل ويمكن أن نؤكد أن مؤلفه مات دون أن يتمه، في دراسة إجمالية. فيجب متابعة تيار هذا الفكر على طول التشعبات التي سلكها وعدم الوقوع في شرك الطرائق الأدبية وبلاغة الملاحم النثرية الموروثة عن القرن الثامن عشر. وقد كان لسان سيمون معاونون: اليعقوبي المساواتي السابق ريغومر تازين وأوغستان توديز وأوغست كونت. وليس من السهل، دائماً، تقويم إسهامات كل منهم. وغالبا ما شوهت التنسيقات التي اقترحها التلاميذ فكر المعلم. ويجب، أخيراً، أن يحسب حساب لتطور مؤكد لدى سان سيمون. ولنضف إلى ذلك أن قسماً كبيراً من العمل بقي، طويلاً، في حالة مخطوطات وإننا لا نملك، حتى اليوم، طبعة مؤلفات كاملة لسان سيمون.

مسيرة الإنسانية

توصل سان سيمون، مبكراً جداً، إلى الفكرة القائلة أن للظواهر الإنسانية، بصورة أساسية، طابعاً تاريخياً وأنه لا يمكن فهم المجتمعات إلا في صيرورتها.

"لم يكن التاريخ، حتى منتصف القرن السابق، قط، سوى ترجمة للسلطة لا تظهر، فيها، الأمم إلا كأدوات وضحايا وتوجد، فيها، مبعثرة، بعض المدلولات المنفردة عن حضارة الشعوب". "إن "العصر الذهبي" لا يقع "في مهد الجنس البشري بين جهل الأزمنة الأولى وفظاظتها"، "إنه أمامنا".

يـرى سـان سـيمون التـاريخ كتعـاقب فـترات "عضويـة" وفـترات "متأزمـة" (وهو تصـور سـينظّر، فيـه التلاميـذ). وتتصـف الأطـوار "العضويـة" بوحـدة الفكر (أو الإيمـان) وببعـض الاشـتراك في المصـالح. فـالعصر الإقطـاعي، مثـلاً، يعـرّف بتـوازن بـين السـلطة الروحيـة (البابويـة واللاهوتيـة) وسـلطة زمنيـة ("إقطاعية وعسـكرية"). ففـي زمـن تكـون الحـرب، فيـه، الوسـيلة الوحيـدة للإثـراء تعـود القـوة إلى الإقطـاعيين- العسـكريين. واختـلال تنظيـم النظـام الإقطـاعي مدمـوغ بتحـرر الكومونـات وظـهور العلـوم الوضعيـة. وهـذه الأزمة تبلغ ذروتها مع القـرن الثـامن عشـر. وعـهد عـودة النظـام الملكـي هـو فترة انتقاليـة تتواجـه، فيـها، الأفكـار، وكذلـك القـوى الاجتماعيـة: ونهايـة هذه المعركـة يجـب أن تكـون المجتمـع الصنـاعي الـذي يكـون هدفـه سـيطرة الإنسان علـى الطبيعـة. وبقـدر مـا ترجـح الصناعـة، تـترع طبقـة الصنـاعيين إلى الانتصـار كطبقـة قـائدة. فـلا يمكـن للإنسـان أن يفلـت مـن حركـة التـاريخ.

ويلح سان سيمون، في هـذا البحـث عـن تـاريخ أراده علميـاً، علـى عـدد مـن العوامـل المحـددة في نظـره. ودور الطفـرات في التقنيـات بـدا لـه أساسـياً: "إن الصناعة هي التي تقع، فيـها، في نهايـة التحليـل، كـل قـوى المجتمـع الحقيقيـة". وهكذا يفسر سـان سـيمون، مثـلاً، انحطـاط النبالـة نتيجـة لاكتشـاف بـارود المدفع "نظراً لكون الفلاحـين قـد أصبحـوا، بتأثـير هـذا الاكتشـاف، في قـدرة النبـلاء في الدفـاع عـن الأرض القوميـة". والتـاريخ مقـدم بموجـب نمـو الصناعة مع تعريف الصناعة بأنهـا جملـة أشـكال الإنتـاج.

وكل تغير في النظام الاجتمـاعي يقتضـي تغـيراً في الملكيـة:

"يمكـن للحمـاس للأمـلاك العامـة أن يحمـل علـى قبـول التضحيـات الـتي يقتضيها هذا التغيـير، وهـذه هـي الفـترة الأولى مـن الثـورة. إلا أنـه سـرعان ما يخـيم النـدم عليـها وترفـض، وهـذه هـي الفـترة الثانيـة. إلا أنـه لا يمكـن التغلـب علـى مقاومـة المـالكين. ومـن هنـا الحـرب الأهليـة والتحريمـات

والمذابح".

وهكذا كان الأمر مع ثورة ١٧٨٩ التي كانت بمثابة "نضال طبقي بين النبالة والبورجوازية وغير المالكين". وعلى عكس معظم الليبراليين الذين كانوا يعدون ١٧٨٩ نهاية، كان سان سيمون يعلن أن الثورة الحقيقية لم تصنع بعد. فكل شكل اجتماعي يجب أن ينظر إليه بوصفه كلية عناصره المكونة مستقلة ومترابطة في الوقت نفسه. فما من شيء سكوني. وهناك في كل شكل اجتماعي "قوى متهافتة" وقوى "تأثيرها" في طريقه إلى أن يصبح "راجحاً". وهناك طبقات آفلة وطبقات متقدمة.

وهذا التفسير يتعايش، فضلاً عن ذلك، لدى سان سيمون مع فحص نقدي لمبادئ ١٧٨٩. فالحفاظ على الحرية لا يمكن أن يكون هدف العقد الاجتماعي. ذلك لأن "الفكرة الميتافيزيكية والمبهمة للحرية كما يجري تداولها اليوم ستترع، إذا ظلت تعتبر أساس المذاهب السياسية، بصورة كاملة، إلى إعاقة تأثير الجمهور في الأفراد. وسوف تكون، في هذه النقطة، معاكسة لنمو الحضارة وتنظيم منظومة مرتبة جيداً تقتضي أن ترتبط الأجزاء ارتباطاً قوياً بالمجموع وفي تبعية له". والهدف الحقيقي للتنظيم الاجتماعي ليس الحرية ولا المساواة ولا السيادة الشعبية ولا النظام، بل هو السعادة الاجتماعية التي لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق "تنظيم اجتماعي متين، أي مدموج، مباشرة، في مصلحة الأغلبية". وهكذا ينضج، لدى سان سيمون، علم للإنسان.

"المجتمع يقوم على الصناعة"

ومنذ ذلك الحين، فإن المهمة الرئيسية للمجتمع هي تنمية إنتاج الثروات. وهذا ما تقوم عليه، منذ البداية، أصالة الفكر السان سيموني: فمستقبل البشرية ليس تابعاً لإعادة توزيع جديد للثروات كما هي موجودة، حقاً، في تنميتها. وهذه التنمية تتوقف على الصناعة.

"المجتمع، بكامله، يقوم على الصناعة. فالصناعة هي الضمانة الوحيدة لوجوده، المصدر الوحيد لكل الثروات وكل أنواع الازدهار. فأفضل حالة للأشياء، في الصناعة هي، إذن، أفضل حالة للمجتمع. هذه هي، في الوقت نفسه، نقطة انطلاق كل جهودنا وهدفها".

ويجب أن يحتل الصناعيون، بالتالي، المرتبة الأولى. ولكن الصناعي يعني، لسان سيمون، المنتج: "الصناعي رجل يعمل للإنتاج أو ليضع في متناول مختلف أعضاء المجتمع وسيلة مادية، أو أكثر، لتلبية حاجاتهم أو أذواقهم الجسدية". وهكذا يسمى منتجاً "مزارع يزرع القمح ويربي طيوراً وحيوانات"، "صانع عربات أو بيطار أو صانع أقفال أو نجار... صانع أحذية أو قبعات أو أقمشة أو أجواخ أو حرير كشمير... تاجر أو سائق عربة أو بحار مستخدم في سفن تجارية...".والنبالة غير مفيدة، كالبورجوازية الريعية غير العاملة من جهة أخرى: "أكتب للصناعيين ضد رجال الحاشية والنبلاء، أي من أجل النحل ضد الزنابير". فلينتبه الزنابير! "فإذا اتخذ طنينها طابعاً مغالياً في تحريضيته، فإن النحلات ستعرف كيف ستعلمها أنه إذا كانت وظيفتها صنع العسل، فإنها تملك، مع ذلك، إبرة لمعاقبة موقعي الاضطراب في الخلية". ذلك هو معنى كراس ١٨١٩ الذي سيعطيه أولاند رودريغ، عام ١٨٣٢، عنوان "الحكمة" الذي أصبح شهيراً.

إذا فقدت فرنسا، فجأة، أحسن منتجيها، "فإن الأمة تصبح جسداً بلا روح في البرهة التي تفقدهم فيها". وإذا اختفى، على العكس من ذلك، "الثلاثون ألف فرد الذين اشتهروا بأنهم أفضل أفراد الدولة"، "فإن هذا الطارئ سيحزن، بالتأكيد، الفرنسيين لأنهم طيبون". ولكنه لن ينجم عن هذه الخسارة "أي ضرر سياسي للدولة" لأنه "سيكون من السهل جداً أن تملأ المواقع التي أصبحت شاغرة". وبما أن الرجال الذين تكون أعمالهم ذات فائدة إيجابية للمجتمع هم، وحدهم، الذين يجعلهم الأمراء

والحكـام الآخـرون الذيـن ليسـوا سـوى روتينيـين عديمـي الكفـاءة أتباعـاً"، فذلك لأن "المجتمع الحـالي هـو العـالم المقلـوب حقـاً". وبمـا أن الأسـرة المالكـة قد وضعت موضع مسـاءلة، وبمـا أن النظـام الاجتمـاعي قـد هـدد، فقـد مثـل سان سيمون أمام محكمة جنايـات السـين الـتي برأتـه.

وتقـابل المعارضـة بـين "الزنابـير" و"النحـلات"، بـين الطبقـات الكسـول والطبقات المنتجة، بالنسـبة لسـان سـيمون، خـط قطيعـة تاريخيـة مـع مـاض يحـافظ علـى بقائـه ومسـتقبل يـتزع إلى النمـو. وإذا كـان سـان سـيمون، في كتاباته الأولى، في هـذا الطـور الـذي سمـي، أحيانـاً، الطـور "العلمـي"، يـأمل من المعرفة تحويل المجتمع، فقـد أصبـح، بعـد ذلـك الحـين، يعـول علـى طبقـة، طبقة الصنـاعيين. وتبـدو لـه المواجـهات الـتي تحـدث داخـل هـذه "الطبقـة"، ثانويـة. فـهي لا تسـتطيع الإسـاءة إلى الجبهـة المشـتركة للمنتجـين ضـد الكسـالى.

وكان الصناعيون الليبراليون، في البدايـة علـى الأقـل، ممتنـين مـن كـون سـان سـيمون قـد جعـل مـن نفسـه، علـى هـذا النحـو، داعيـة الصناعـة. وفي عام١٨١٦، شرع سـان سـيمون في نشـر سلسـلة مـن المجلـدات تحـت عنـوان عام هو "الصناعـة" بالتعـاون مـع أوغوسـتان تيـيري وعـالم الاقتصـاد سـانت أوبـان، عضـو حكومـة التريبونـا السـابق، والكيميـائي شـابتال الـذي كـان وزيـراً في عـهد القنصليـة، ثم أوغسـت كونـت. وكـان بـين أول المكتتبـين مصرفيـين وأصحـاب مشـاغل مثـل كازيمـير بيرييـه ولافيـت وهوتنغـر وديليسـير. وفي عـام ١٨٢١، نظـم روجيـه دوليـل، بنـاء علـى طلـب سـان سيمون، ولجوقة مشغل تـيرنو العماليـة، "نشـيد الصنـاعيين":

الصناعة ذات المائـة ألـف ذراع
تنشر أجنحتها الذهبيـة
فتجتاز، فرحـة، مناخاتنـا
وتخصب قاراتنـا

الصحراء تعمر على صوتها
الأرض المجدبة تصبح خصبة
ومن أجل لذات العالم
تعطي العالم قوانين.

الحزب الوطني والصناعة

جعل سان سيمون من نفسه، بتمجيده النزعة الصناعية، الناطق بلسان بورجوازية المصنع والمصرف الكبيرة التي تعارض الأرستقراطية العقارية. فلا يمكن لوحدة "الحزب الوطني" وهدفه المشترك أن يتضررا بالمواجهة بين البورجوازية والبروليتاريا. وبقدر ما يحمل التاريخ النضال ضد الأرستقراطية الكسول إلى الصف الأول من المشهد، يبدو البروليتاريون والبورجوازيون متضامنين.

في عام ١٨١٩، يعرف سان سيمون، في الكراس العاشر، "السياسي"، "الحزب الصناعي". "يتألف الحزب الوطني:

"١- من أولئك الذين ينفذون أعمالاً ذات فائدة مباشرة للمجتمع.

"٢- من أولئك الذين يديرون هذه الأعمال أو الذين انخرطت رؤوس أموالهم في المشروعات الصناعية.

"٣- من أولئك الذين يسهمون في الإنتاج بأعمال مفيدة للمنتجين".

أما بالنسبة للحزب اللا وطني فهو مؤلف:

"١- من أولئك الذين يستهلكون ولا ينتجون.

"٢- من أولئك الذين لا تفيد أعمالهم المجتمع ولا تخدم المنتجين أبداً.

"٣- من كل أولئك الذين يبشرون بمبادئ سياسية تضر تطبيقاتها بالإنتاج وتنزع إلى حرمان الصناعيين من الدرجة الأولى من الاعتبار الاجتماعي".

فالعدو هو رأس المال العقاري. والسيطرة التي يمارسها الملاك العقاري

على صاحب المشروع الزراعي (المزارع أو المرابع) ليس لها من أصل إلا القوة. ولوضع حد لاستغلال العامل من جانب الكسول، ينادي سان سيمون بثلاثة أنماط من التدابير: تقاسم فضل القيمة المكتسب من الأرض، خلال مدة الإيجار، بين الملاك والعامل، إلزام الملاك بالاقتراض من أجل التحسينات برهن الأرض، والائتمان الزراعي أخيراً.

"قانون الملكية"

وفضلاً عن ذلك، وسواء أدار الأمر حول الملكية العقارية أم حول ملكية المنقولات، يميز سان سيمون بين حق الملكية وقانون الملكية.

"الضروري هو قانون ينشئ حق الملكية وليس قانوناً ينشئ هذه الصورة أو تلك. فعلى صيانة حق الملكية يتوقف وجود المجتمع، وليس على صيانة القانون الذي كرس، بدئياً، هذا الحق. فهذا القانون يتوقف، هو نفسه، على قانون أعلى وأعم منه، على قانون الطبيعة الذي يحقق العقل البشري، بموجبه، ضروب تقدم مستمرة، قانون تستمد كل المجتمعات منه الحق في تعديل مؤسساتها وتحسينها، قانون أعلى يمنع من تكبيل الأجيال القادمة بترتيبات كائنة ما تكون طبيعتها. وهكذا، إذن، فإن الأسئلة التالية: ما هي الأشياء القابلة لأن تكون أملاكاً؟ ما الوسائل التي يستطيع الأفراد، بواسطتها، اكتساب أملاك؟ ما الصورة التي يحق لهم استخدامها بها عندما يكتسبونها؟ هي أسئلة يحق لمشرعي كل البلدان وكل الأزمنة أن يعالجوها كلما وجدوا ذلك مناسباً، لأن حق الملكية الفردي لا يمكن أن يقوم إلا على الفائدة المشتركة والعامة لممارسة هذا الحق، وهي فائدة يمكن أن تتنوع بتنوع الأزمنة".

وقد احتفظت الاشتراكية بهذا المدلول، مدلول النسبية التاريخية لـ"قانون الملكية".

ويرى سان سيمون، في "حول النظام الصناعي" (١٨٢٠- ١٨٢١)،

وفي كتاب "تعاليم الصناعيين" (١٨٢٣- ١٨٢٤)، أن التركيز ضروري لزيادة الثروات: التركز الصناعي والتركز المالي: "كل المزارعين والصناع الآخرين مرتبطون فيما بينهم بطبقة التجار، ولكل التجار في المصرفيين وكلاء مشتركون بينهم بحيث يمكن، وينبغي، أن يعتبر هؤلاء المصرفيين الوكلاء العامين للصناعة". إن "الصناعة المصرفية... هي التي أعطت الصناعيين وسيلة إنشاء نظام الائتمان".

التنظيم السياسي

ليس للتنظيم السياسي من معنى إلا إذا اتجه نحو الأهداف نفسها. فلا يمكن تأمل المؤسسات في حد ذاتها. فهي مرتبطة بالكيان الاجتماعي. ومنذ ذلك الحين، ليس المهم السياسي، بل التنظيم الاجتماعي. فالمشاريع السياسية لسان سيمون لا تقبل، إذن، الفصل عن منظور مجتمع صناعي يلمحه انطلاقاً من الواقع.

وبما أن "إدارة الأشياء" يجب أن تحل محل "حكم البشر"، فمن المناسب "تكليف أهم الصناعيين بإدارة الثروة العامة". ويتصور سان سيمون ثلاثة مجالس. وسوف يتألف مجلس الاختراع، في أغلبيته، من مهندسين، ولكنه سيضم، أيضاً، شعراء وفنانين. وإليه سيعود وضع مشروع أشغال كبرى وأعياد عامة كل سنة. وسوف يخضع هذا المشروع لتقويم مجلس ثان، مجلس الفحص المؤلف من فيزيولوجيين وفيزيائيين ورياضيين. وسوف يؤخذ أعضاء مجلس التنفيذ، أخيراً، من بين مديري مشروعات صناعية وزراعية ومصرفية. وهم لن يتلقوا، بسبب ثرواتهم، أي راتب. وسوف يؤمن تنفيذ الخطط التي أقرها المجلسان الآخران. والنتيجة هي "أنه يجب أن يعهد، لتنظيم المجتمع بأنسب الطرق ولتقدم العلوم وازدهار الصناعة، بالسلطة الروحية إلى العلماء وبإدارة السلطة الزمنية للصناعيين". و لم يعد الأمر يدور حول ممارسة سلطة على البشر، بل حول تأثير في الأشياء:

فلم تعد هنـاك، إذن، حاجـة إلى وصايـة حكوميـة.فـ:الطاقـات" هـي الـتي يجب أن تدير المصـالح العامـة للجماعـة.

نحو المسيحية الجديـدة

عند الانطـلاق، أكـد سـان سـيمون، كـابن حقيقـي للقـرن الثـامن عشـر، نفسـه ملحـداً ومادياً. وهـو يعلـن، في "مدخـل إلى الأعمـال العلميـة للقـرن التاسـع عشـر"، عـن مشـروع موسـوعة جديـدة. وضمـن هـذه الـروح يتصـدى لمسـائل المجتمـع بتعريفـه "السياسـة بوصفـها علـم الإنتـاج". إلا أنـه أبـدى، سـريعاً جـداً، شـيئاً مـن لأرسـتقراطية العقـل. فقـد كتـب، عـام ١٨٠٧-١٨٠٨، يقـول: "أعتقـد أني برهنـت علـى أن فكـرة لله يجـب أن لا تسـتعمل في العلـوم الفيزيائيـة،ولكـني لا أقـول أنهـا يجـب أن لا تسـتخدم في التركيبات السياسـية لزمـن طويـل علـى الأقـل. إنهـا أفضـل طريقـة وجـدت لتـبرير الترتيبـات التشـريعية العليـا... فيجـب أن ترتـدي الآراء العلميـة الـتي تعلمها المدرسة الأشـكال الـتي تجعلـها مقدسـة ليمكـن تعليمـها لأطفـال كـل الطبقات والجهلـة مـن كـل الأعمـار". وهـذا الاتجـاه يقـوى مـع السـنوات الأخيرة، ولكنه يتخـذ دلالـة جديـدة. فسـان سـيمون الـذي كـان قـد عـول أكثر ممـا ينبغـي علـى أنـوار العقـل لم يحسـب حسـاباً كافيـاً لقـوة المصـالح المتناقضة غالبـاً. فـلا تسـتطيع الأنـوار تنويـر الطبقـات الجاهلـة والـتي بقيـت مؤمن على الرغم من طـور نـزع المسـيحية الثـوري الـذي لم تكـن لـه، قـط، أبعاد حركـة شـعبية. فمـن الضـروري وجـود طـور انتقـالي سـيكون، فيـه، علـم للنخبـة، "الفيزيائيـة"، والألوهيـة للجمـهور: "أعتقـد أن قـوة الأشـياء تريد أن يكـون هنـاك مذهبـان متمـيزان: الفيزيائيـة للنـاس المثقفـين والألوهيـة للطبقات الجاهلـة". وعلـى كـل حـال، "يجـب أن يوجـه الديـن المجتمـع نحـو الهـدف الكبـير، هـدف تحسـين مصـير أفقـر الطبقـات بأسـرع مـا يمكـن". والمسـيحية، في صورتهـا الحاليـة، لا تسـتطيع إنجـاز هـذه المهمـة. وسـان

سيمون يدحض الكاثوليكية كما يدحض البروتستانتية. ومن هنا جاءت المسيحية الجديدة: "كان الهدف البدائي للدين المسيحي إبادة العبودية. وبما أنه تم بلوغ هذا الهدف، فيجب أن يقترح الدين هدفاً جديداً يكون أكثر تقدماً من الأول هو: إقامة تنظيم اجتماعي يضمن العمل، دون انقطاع، لكل البروليتاريين وتعليماً وضعياً لكل أعضاء المجتمع ومتعاً يكون من طبيعتها تنمية ذكائهم". ولا شك في أنه ما من دين دون عقائد، ولكن "العبادة والعقيدة لن يجري تصورهما من جانبهم (أي المسيحيين الجدد) إلا كإضافات هدفها الرئيسي تثبيت انتباه المؤمنين من كل الطبقات على الأخلاق". فالأمر يدور، قبل كل شيء، حول بعض مبادئ الأخلاق: "لقد قال الله: يجب على البشر أن يتصرفوا كأخوة حيال بعضهم بعضاً. إن هذا المبدأ السامي يحتوي على كل ما هو إلهي في الديانة المسيحية". "التنظيم المسيحي الجديد سيستنتج المؤسسات الزمنية، كالمؤسسات الروحية، من المبدأ القائل أن كل البشر يجب أن يتصرفوا كأخوة حيال بعضهم بعضاً. وسوف يقود المؤسسات، من أية طبيعة كانت، نحو زيادة رخاء أفقر الطبقات".

وذلك هو معنى كتاب سان سيمون الأخير: "المسيحية الجديدة". ولم يتوفر الوقت للمؤلف من أجل إنضاج هذا الدين. وينبغي أن لا نتصوره بموجب البناء الذي شوهه بعض التلاميذ. ويبدو، أيضاً، أن هناك صلة نسب بين العبادات الثورية و"المسيحية الجديدة"، وأمكن التقريب بين التصور السان سيموني من عقيدة محبة الرب للبشر.

الخطوات الطوباوية

يرى سان سيمون أن فترة متأزمة تنتهي مع القرن الثامن عشر. ويفتتح القرن التاسع عشر فترة عضوية، فترة النظام الصناعي. إلا أنه ما يزال ينبغي إقناع الحكام بذلك- وهذه الخطوات هي التي يمكن أن نلمح،

فيها، وجهاً جديداً للطوباوية السان سيمونية. وكان قد عول، في البداية، على نابوليون. فمنذ عام ١٨٠٣، كان قد وجه إلى القنصل الأول نسخة من كتابه "رسائل أحد سكان جنيف" معتبراً أنه كان "الوحيد، بين معاصريه، القادر على الحكم عليه". وفي عام ١٨٠٧، ختم كتابه "مدخل إلى الأعمال العلمية للقرن التاسع عشر" بتقريظ بليغ لنابوليون: "كي نقدم للإمبراطور نصباً جديراً به، يجب أن ننحت في جبل سان برنار ونصنع منه تمثالاً ليس له من قاعدة سوى الأرض نفسها". ولكن كل حماسة سان سيمون تتلاشى عندما يتبين له أن الإمبراطور يتابع الحرب ولا يفاوض إنكلترا. وأصبحت المصالحة مع إنكلترا فكرة ثابتة لدى سان سيمون. فهو يرى، فيها، أحد شروط الانتقال من طور الأزمة إلى الطور العضوي. ولهذا السبب، يتخيل برلماناً فرنسياً- إنكليزياً يعطي، فيه، للإنكليز ثلثي المقاعد بحكم خبرتهم البرلمانية. وتتراكم الخيبات. ويلتفت سان سيمون إلى القيصر ألكسندر الأول الذي يقدم له كتابه "حول إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي". وهو يدعو لويس الثامن عشر نفسه إلى تحويل ملكيته التي ظلت إقطاعية إلى ملكية صناعية: فيكفي مرسوم يعهد إلى النواب الصناعيين بوضع موازنة. ويبقى مقتنعاً بأن التصنيع هو الذي تتوقف عليه سعادة البشرية. وتنسب إليه، عام ١٨٢٠، أحاديث متحمسة: "ستحل الآلات محل السواعد، وسوف يقود قائد جيش العمال الكبير، رحلة البشرية.

تناقضات التصنيع والقضية العمالية

إذا كان سان سيمون قد اجتذب، عند الانطلاق الصناعيين، فسرعان ما تحدد الطلاق بين التصنيع السان سيموني والصناعيين الذين كان دافعهم الربح وليس "السعادة للعدد الأكبر". والممولون الذين كانوا قد شجعوا سان سيمون، تخلوا عنه، بمن فيهم تيرنو نفسه الذي ظل وفياً له زمناً

طويـلاً.

هل خيـــب رؤسـاء المشـروعات أملـه؟ هـل أدرك أولى تجليـات التنـاقض بـين البورجوازيـين والبروليتـاريين؟ لا يمكـن تـأكيد ذلـك. ولكـن تطـور سـان سـيمون أمـر لا ينكـر. فخـلال زمـن طويـل، خشـي الانتفاضـات العماليـة. و لم تكـن أطروحاتـه تتنـاقض، آنـذاك، مـع ليبراليـة زمانـه السياسـية والاقتصادية. واعتبـاراً مـن عـام ١٨٢٠، انشـغل بالقضيـة العماليـة أكـثر مـن أي وقت مضـى. وفي عـام ١٨٢١، كتـب نشـرة بعنـوان "مـن هـنري سـان سيمون إلى السـادة العمـال": "الهـدف الرئيسـي الـذي أقترحـه علـى نفسـي، في أعمالي، هـو تحسـين وضعكـم بقـدر مـا يمكـن ذلـك". وهـو يوحـي إلى العمـال بـأن يقـترحوا علـى رؤسـاء بيوتـات الثقافـة والصناعـة والتجـارة الرئيسية برنامج أشغال كبرى ويحـرر، مـن أجلـهم، نموذجـاً لرسـالة.

"إن طبقتنـا، أيـها السـادة، هـي الـتي تتحمـل، مباشـرة، عواقـب الإدارة الرديئة الحالية. إنهـا تدفـع قسـماً كبـيراً مـن الضرائـب ولا تتلقـى أي معـاش. وهي تعـاني، وحدهـا، نقـص الكسـب. فمـن الطبيعـي، إذن، أن نكـون نحـن الذين نبدي المزيـد مـن التفنـن في إيجـاد العـلاج للأمـراض الـتي تثقـل علينـا، بشكل خـاص". إلا أن العمـال يعتـبرون أنفسـهم "تـابعين". وهـم لا يضعـون سلطة "الرؤساء" موضـع مسـاءلة: "أنتـم أغنيـاء، ونحـن فقـراء. أنتـم تشـتغلون برؤوسكم، ونحـن نشـتغل بسـواعدنا. وينجـم عـن هذيـن الفرقـين الأساسـيين بيننا أننا أتباع لكـم ويجـب أن نكـون كذلـك". إلا أن علينـا نحـن "أن نـأخذ زمام المبادرة للدلالة على وسـيلة وضـع حـد لضـروب بؤسـنا الـتي سـتتوقف، بداهة، في البرهة التي ستدار، فيـها، الشـؤون العامـة بصـورة مناسـبة".

ولا يلح سان سيمون علـى بـؤس العمـال، فقـط، بـل، أيضـاً، علـى طاقتـهم. ففـي عـام ١٨٢٤، أراد البرهنـة علـى "أن البروليتـاريين قـادرون علـى حسـن إدارة ملكيـات". ويتـألف الشـعب، اليـوم، "مـن رجـال لم يعـودوا يحتـاجون إلى إخضاعـهم لمراقبـة خاصـة، رجـال ذكـاؤهم نـام وقدرتهـم علـى التبصـر

متفتحة إلى درجة تكفي من أجل أن يقوم، دون عاقبة سيئة، نظام تنظيم اجتماعي يقبلهم كشركاء". وفي الوقت الحاضر، "تقوم أكثر الوسائل مباشرة من أجل إجراء التحسين الأخلاقي والجسدي لأغلبية السكان تخفيض نفقات الدولة اللازمة لإيجاد عمل لكل الرجال السليمي الأجساد لضمان حياتهم الجسدية، وتلك التي تستهدف نشر المعارف الوضعية المكتسبة في أسرع وقت ممكن، وتلك، أخيراً، التي تستطيع أن تضمن للأفراد الذين يؤلفون هذه الطبقة المسرات والمتع التي من شأنها تنمية ذكائهم، كنفقات من الدرجة الأولى". وبعد ذلك، ندخل عصر الأشغال الكبرى ونصل إلى مجتمع أخوي. إلا أنه "لا يكفي لتحسين وضع الجماهير أن يغير مكان الامتيازات بل يجب إفناؤها، ولا يكفي تغيير التجاوزات بل يجب إلغاؤها".

تراث مزدوج الدلالة

أعلنت أكثرية التيارات تنوعاً انتماءها إلى سان سيمون. فتكنوقراطيو الأمس واليوم ينتسبون إليه، ومع ذلك، فإن اسمه مسجل، في موسكو، على مسلة، بين أبطال الشيوعية. وقد أمكن التساؤل، بشيء من الصواب، عما إذا كان سان سيمون يستحق أن تكون صورته في قاعة أسلاف الاشتراكية. فتناقضات نزعته الصناعية ارتهنت تراثه. فلم تكن هناك، بالنسبة لسان سيمون، تناقضات: فضروب تقدم الصناعة يجب أن تولد السعادة المشتركة. والحق هو أنه لا يمكن الاحتفاظ من عمله إلا بتمجيد التقدم الصناعي. ونفهم أن يجد بعض تلاميذه أنفسهم، بعد بضع سنوات، على رأس مشروعات رأسمالية كبيرة دون أن يكفوا عن أن يكونوا، من بعض النواحي، سيمونيين. إلا أنه كانت لدى سان سيمون، أيضاً، بداية ارتسام لتصور علمي للتطور البشري وإرادة حمل التقدم الصناعي على خدمة تحسين شروط حياة "أكثر الطبقات عدداً وأفقرها".

ويكرر، في إحـــدى كتاباتــه الأخـــيرة، أن "علـــى كـــل مجتمـــع أن ينظـــم نفســـه بأنســب صـــورة لجعلـــه يصـــل إلى هـــذا الهـــدف". وســـوف يســـتطيع ليـــــون هاليفي، صديقه، أن يصرح علـــى حافـــة قـــبره بأنـــه "نـــام علـــى حلـــم الســـعادة العامة". وهذا مـــا قـــاد مـــاركس إلى أن يخلـــص إلى مـــا يلـــي: "إن كتـــاب ســـان سيمون الأخير ***المســـيحية الجديـــدة*** هـــو، وحـــده، الـــذي يتبـــدى، فيـــه، بوصفـــه الناطق بلســـان الطبقـــة الكادحـــة". ولنضـــف إلى ذلـــك أن ســـان ســـيمون يضـــع الالتزام بالعمل وتنظيـــم العمـــل فـــوق كـــل شـــيء. تلـــك هـــي الأســـباب الـــتي يجب أن يعتبر سان سيمون مـــن أجلـــها، مـــع أخـــذ العصـــر الـــذي عـــاش، فيـــه، بعين الاعتبار، رائـــداً مـــن رواد الاشـــتراكية.

من المدرســـة إلى الكنيســـة

عندمـــا مـــات ســـان ســـيمون، عـــام ١٨٢٥، لم يكـــن، بعـــد، معروفـــاً إلا مـــن مجموعة صغيرة من العلماء والأدبـــاء ورجـــال العمـــال. فـــلا يبـــدو أنـــه قـــد أثـــر بالعمال آنـــذاك.

وســـوف يعمـــد بعـــض تلاميـــذه، المتعســـفين غالبـــاً، بعـــد موتـــه، إلى خلـــق مدرسة، بل طائفـــة، وأخـــيراً كنيســـة. وبـــين أوائـــل تلاميـــذه، ســـيطرت ثـــلاث شـــخصيات منـــذ البدايـــة: أولانـــد رودريـــغ (١٧٩٤-١٨٥١)، المعيـــد الســـابق في مدرســـة البوليتكنيـــك ومديـــر صنـــدوق الرهونـــات، وســـانت أرمـــان بـــازار (١٧٩١-١٨٣٢)، أحـــد مؤسســـي شـــركة الفحميـــات الفرنســـية وبروســـبير أنفانتان، المســـتقيل مـــن مدرســـة البوليتكنيـــك ومديـــر مصـــرف ســـابق في ســـان بطرســـبورغ. وتجمعـــت حـــول هـــؤلاء الرجـــال الثلاثـــة نخبـــة مـــن خريجـــي البوليتكنيـــك والفلاســـفة والسياســـيين. وخصـــص إيشـــتال الغـــني والشـــاب قســـماً مـــن ثروتـــه هـــذه المدرســـة. وكـــان الســـان ســـيمونيون حساســـين للأزمـــات الاقتصاديـــة. فـــهي، بالنســـبة إليـــهم، ناجمـــة عـــن التملـــك الخـــاص لـــرؤوس الأمـــوال الـــذي لا يولـــد اســـتغلال الإنســـان للإنســـان فقـــط، بـــل

"الفوضى الاقتصادية، أيضاً". فيجب، منذ ذلك الحين، "أن تتجمع كل أدوات العمل، الأراضي ورؤوس الأموال، التي تشكل، اليوم، جوهر الملكيات الخاصة المجزأ في رصيد اجتماعي وأن يستثمر هذا الرصيد شراكة وتسلسلياً". ويجب أن تلغى الوراثة. وسوف توزع الدولة، وقد أصبحت الوريثة الوحيدة، أدوات العمل (الأرض ورؤوس الأموال) آخذة في الاعتبار مصالح الإنتاج الذي ستديره "منظومة عامة من المصارف". وسوف تكون هناك سلسلة كاملة من المصارف الإقليمية والمحلية والنقابية سيوزع، عن طريقها، مصرف وطني رؤوس الأموال التي يجب أن تستثمر من أجل إسباغ الانسجام على فعاليات الأمة الاقتصادية.

وقام التلاميذ بتنسيق فكر المعلم في صحف كالأسبوعية "المنتج" (صدرت بين ١ تشرين الأول ١٨٢٥ و١٢ كانون الأول ١٨٢٦) و"المنظم" الصادرة اعتباراً من ١٢ آب ١٨٢٩. وقد ألقوا، أيضاً، محاضرات جمعت نصوصها في مجلدين بعنوان "عرض المذهب السان سيموني".

وانطلاقاً من بعض الأفكار الواردة في "المسيحية الجديدة"، سوف يصل السان سيمونيون إلى دين حقيقي يحقق الوحدة بين العاطفة (الحب بين البشر) والعقل والقوة (قوة تحويل الصناعة). الدين أو الأخلاق، اللاهوت أو العلم (على اعتبار أن الأمر يدور حول معرفة عمل الخالق) والعبادة أو الصناعة (الصناعة عبادة لأنها "تتابع... عمل الخالق")، تلك هي الوجوه الثلاث الكبرى للنشاط الاجتماعي. ونجد في المجتمع هذه الثلاثية: الكهنة للأخلاق، العلماء للعقل، والصناعيون. وكان سان سيمون، لهذا الدين الجديد، الكاشف، النبي. وأصبحت المدرسة كنيسة سمي أنفانتان وبازار، بالانتخاب، في كانون الأول ١٨٢٩، أبوين لها. وظهر منتمون جدد: هنري فورنيل (١٧٩٩-١٨٧٦)، وهو خريج البوليتكنيك ومهندس مناجم، ميشيل شوفالييه (١٨٠٦-١٨٧٩)، وهو

بوليتكنيكي ثم مهندس في مناجم الشمال، جان رينو (١٨٠٦-١٨٦٣)، وهو، بدوره، بوليتكنيكي ومهندس مناجم، الأخوة بيير (١٧٩٠-١٨٧٦) وفرنسوا (١٧٩٩-١٨٨٥) وإدمون (١٨٠٤-١٨٣٢) تالابو، الأخوان إميل (١٨٠٠-١٨٧٥) وإيزاك (١٨٠٦-١٨٨٠) بيرير، إميل بارو (١٨٠٠-١٨٦٩)، شارل دوفاييه (١٨٠٣-١٨٦٦)، بيير لورو (١٧٩٧-١٨٧١)، هيبوليت كارنو (١٨٠١-١٨٨٨).

وأعطت ثورة ١٨٣٠ اندفاعة جديدة للسان سيمونية فبفضل بيير لورو، انتقلت جريدة "غلوب" إلى أيدي السان سيمونيين واتخذت، عام ١٨٣٠، الاسم الفرعي "جريدة مذهب سان سيمون"، وقام بإدارتها ميشيل شوفالييه. وخلق تعليم خاص للعمال سمي "درجة العمال"، ثم "درجة الصناعيين". ونظمت إرساليات إلى المقاطعات عرف بعضها، كما في ليون، نجاحاً مؤكداً. وبحدت "غلوب" العمل وتصورت منجزات كبيرة تحت إدارة مهندسين سيكونون "ضباط جيش العمال السلمي". وسوف توجد الاعتمادات اللازمة بإلغاء وراثة الحواشي وإنشاء ضريبة تصاعدية على التركات. وفي شباط ١٨٣٢، اقترح ميشيل شوفالييه "نظامه المتوسطي" وهو مزيج عجيب من الصوفية ("المتوسط، السرير الزوجي للشرق والغرب") والواقعية (خطة الخطوط الحديدية: خط حديدي يصل إلى كل خليج متوسطي). وتزايدت "الأسرة" السان سيمونية نزوعاً إلى الانطواء على نفسها. وسببت إدارة الانعزال عند أنفانتان وتدينه وانتظاره للمرأة- المسيح رحيل بازار ولورو وكارنو ورينو وأولند رودريغ. وأغلقت الشرطة صالة شارع تيلبوت التي كان السان سيمونيون يبشرون فيها. وأصبح أنفانتان بابا الدين الجديد. واعتصم آخر المؤمنين في مينيلمونتان. وقام كل منهم بنصيبه من الخدمة المشتركة. وكان "رهبان" مينيلمونتان يرتدون لباساً يزرر من الظهر ليرغموا أنفسهم على الاستعانة بأخ. وقررت الحكومة ملاحقة المعتزلين

بتهمة تشكيل جمعية غير مرخصة والاعتداء على الأخلاق العامة. وركزت المطالعة على الدفاع عن النظام الاجتماعي: "لدينا مجتمع، لدينا نظام اجتماعي، جيد أو سيئ، يجب علينا المحافظة عليه...نقول أنه يجب علينا، نحن أعضاء الأسرة الكبيرة، أن نقاتل كل جمعية خاصة لها عملاء في الضواحي لمهاجمة هذه الأسرة الكبيرة". وقد حكم على أنفانتان وشوفالييه ودوفاييريه بالسجن لمدة سنة. وكانت هذه نهاية الكنيسة السان سيمونية. "بعد حملة من بضعة أشهر، رأى هذا الجيش المزود بهذه الهيئة الجميلة من انضباط نفسه مقتصراً على بضعة ضباط مغمورين" (لويس رايبو).

تفرق السان سيمونيين

كان ذلك الشتات السان سيموني، شتات الأجساد، وكذلك شتات النفوس. لم يعد هناك كنيسة، ولم تعد هناك عقيدة. بعضهم مضى إلى مصر مثل أنفانتان الذي انتزعه عفو من سجن سانت بيلاجي قبل إنهائه لعقوبته. وبعد ذلك، أصبحت السان سيمونية تنتمي إلى تاريخ المشروعات الكبيرة: قناة السويس، مشاريع استعمار الجزائر، تأسيس شركات خطوط حديدية، تنمية الائتمان، التبادل الحر إلخ... ولم تعد من شأن دراسة للاشتراكية. وكما يؤكد ميشيل شوفالييه، في درسه الافتتاحي في الكوليج دو فرانس: لم يكن ينبغي "الاهتمام بتوزيع الثروات، بل في زيادتها فقط". وقد جرى تجاوز تناقضات السان سيمونية، ولكن ذلك كان لمصلحة النزعة الصناعية "الخالصة" دون إشارة إلى "طبقة البروليتاريين".

وما كان لدى سان سيمون من اشتراكية ما زال حياً في حلقات عمالية صغيرة ويلهم بضعة شعراء أو مغنين عماليين. ومن جهة أخرى، وهذا هو الأهم، فإن الاشتراكيين الفرنسيين الذين لم يتأثروا بالسان سيمونية

نادرون جداً، وكذلك هو الأمر بالنسبة لعدد كبير من الكتاب. فقد كان أنفانتان، إذن، على صواب حين قال أن "العالم سيتقاسم جثتها"، وكذلك كان كارل ماركس على صواب حين كتب يوماً: السان سيمونية كعلبة مغلقة مليئة بالبذور: لقد فتحت العلبة ولا أحد يعرف أين طار محتواها، ولكن كل حبة وجدت سكة، ورأيناها تخرج من الأرض واحدة تلو الأخرى". سان سيمون اشتراكي؟ يمكن الجدال في ذلك. ولكن، هل سان سيمون رائد للاشتراكية؟ وهل كان سان سيمون ملهماً للاشتراكيين؟ إن أحداً لا يستطيع إنكار ذلك.

شارل فورييه

إذا كان فورييه، كسان سيمون، يربط، تقليدياً، بالاشتراكية الطوباوية، فإنه يبقى أن بين الاثنين فروقاً ملحوظة. ألم يكتب فورييه، عام ١٨٣١، كراساً بعنوان "أشراك طائفتي سان سيمون ودجلهما".

وليس الفرق الزمني عديم الأهمية. فقد ولد فورييه عام ١٧٧٢، أي بعد سان سيمون باثني عشر عاماً: ولهذا السبب كان تأثره بقرن الأنوار أقل بكثير. ولكنه، خاصة، مات بعد مؤلف "المسيحية الجديدة" باثني عشر عاماً. وبذلك استطاع أن يكون شاهداً على أزمتي ١٨٢٦ و١٨٣٣ الاقتصاديتين، وكذلك على الانتفاضات العمالية في عامي ١٨٣١ و١٨٣٤. ومن جهة أخرى، وخلافاً لسان سيمون، ألح فورييه، خاصة، على مسائل الاستهلاك والزراعة وعلى سيكولوجية العمل. والميل إلى المناداة (كنقطة انطلاق للطفرة الاجتماعية على الأقل) بتجارب منعزلة أوضح أيضاً.

فورييه أو التاجر رغماً عنه

تختلف أصول فورييه وشخصيته اختلافاً واضحاً عن سان سيمون. فإذا كان سان سيمون بيكاردياً كبابوف، فإن فورييه كان، كبرودون، من

منطقة فرانش كونتيه.فقد ولد في بيزانسون في وسط بورجوازيين ميسورين. وكان أبوه، تاجر الجوخ، قاضياً قنصلياً أول، أي أنه كان يرأس محكمة المدينة التجارية. وكان فورييه قد كره، وهو فتى صغير، التجارة، هذه "الزريبة الجشعة" التي تستلزم الاحتيالات والأكاذيب. وحكم عليه قدر سيئ بأن يمارس، طيلة حياته، مهنة "محاسب حانوت". وهاهو، بعد بضع محاولات هرب، وكيل تجاري متجول. وقد اجتاز فرنسا وقسماً من أوروبا. وأقام في ليون بفضل قسم من ثروة أبيه. وقد استورد مواد من بلدان عديدة، قطناً ورزاً وسكر وقهوة. ولكن ذلك كان عام ١٧٩٣ وفي أوج الحرب الأهلية: وقد حاصرت قوات الكونفنسيون مدينة ليون. وصودرت سلع فورييه أو دمرت. واشتبه بفورييه، فاعتقل ثم أطلق سراحه ولكنه أفلس، في نهاية المطاف، كلياً. ويبدو أنه قد انطبع، حقاً، بتأثير ليون التي سيعود إليها مراراً، حتى ولو كان في قول ميشليه ("ليون صنعت فورييه") بعض المبالغة. والتأثير مزدوج. فهناك، من جهة، تقليد الإشراقية التي ما زالت حية في ليون، ومن جهة أخرى البؤس الذي لا يمكن للشعب أن يهرب منه إلا بالحلم: "يزيد الرجال "المتمدنون" (الكلمة تشير، بالنسبة لفورييه، إلى معاصريه) غنى بالأوهام كونهم فقراء في المتع". وبعد كثير من المغامرات (حتى أنه خدم سنتين في لواء الفرسان القناصة)، عاد إلى مهنته كعامل في التجارة "منفقاً أيامه في خدمة غش التجار" وفي "الاختبال والتبلد في وظائف كاذبة ومهنية"، "مشاغل تافهة وغير متوافقة مع الدراسة". وبفضل هذه التجربة الشاقة جداً عليه، "يصور بقدر متساو من البراعة والمتعة المضاربة المجنونة، وكذلك الروح الحانوتية المنتشرة، عموماً، في تجارة زمنه الفرنسية" (ف.أنغلز).

أمكن أن يقال أنه كان لدى فورييه ازدواج حقيقي في الشخصية. فالعازب العنيد، الدقيق، المهووس، الموظف المنضبط المعتاد على موائد المضيف لمندوبي التجارة المتجولين وعلى النزل العائلية البلزاكية يتعايش مع صاحب الرؤى، الحالم، النبي المقتنع بأنه يحمل رسالة خلاص إلى البشرية المعذبة، الذي سيقول تلميذه، فكتور كونسيديران، على قبره، أنه: "كريستوف كولومبوس الاجتماعي ومكتشف قانون المصائر العامة". و لم يستطع فورييه أن يكرس نفسه، بصورة كاملة، لعمله إلا اعتباراً من عام ١٨٠٣ بفضل مساعدة أسرته وأوائل تلاميذه.

العمل

هذا العمل شخصي جداً، وينتاب فورييه، من جراء ذلك، الاعتزاز، بل الغرور. فهو يتباهى بكونه جاهلاً: "إن جهلي نفسه هو الذي يجب أن يشكر القرن عليه القدر الذي أرغمني، إذ انتزعني من الدراسات لينفيني ويسجنني في فروع المصارف، على أن أنمي مخزوني الخاص وأهمل مساجلات الآخرين كي لا انشغل إلا بأفكاري وأستثمر العبقرية الابتكارية التي غمرتني الطبيعة بها". والواقع هو أن فورييه قام، حتى السابعة عشرة من عمره، بدراسات جدية في بيزانسون. ولكن الشواهد التي تفيض كتاباته بها لا تشهد إلا على عدد محدود من القراءات. وهو لا يعد نفسه كاتباً وكان يتمنى لو كتب مؤلفاته آخرون. ومفرداته غريبة: فهي تفيض بالتعابير الجديدة وذلك لأنه مزود بخيال لفظي خارق (قورن، أحياناً، برابليه)، من جهة، ولأنه يذكر أشياء يبدو له أن اللغة الفرنسية لا تملك كلمات مناسبة لها.

يطور فورييه، في أول كتاب له ظهر عام ١٨٠٨، نظرية كلية ووحدوية للعالم والمجتمعات البشرية معاً. ويدور الأمر حول "نظرية الحركات الأربع والمصائر العامة. نشرة توضيحية وإعلان عن اكتشافها". وقد صدر الكتاب دون اسم مؤلفه. إن لـ"الحركات" الثلاث، المادية والعضوية والغريزية "نابضاً مشتركاً هو الجاذبية. والأمر هو كذلك بالنسبة لـ"الحركة الرابعة" الحركة الاجتماعية. فالكواكب والنباتات والحيوانات تخضع لقانون الجاذبية الذي أراده الخالق. ولا يستطيع الإنسان، هو أيضاً، إلا أن يخضع لـ"جاذبياته" ويتصرف بموجب المنحدر الذي تدفع به إليه، بصورة طبيعية، أهواؤه. ونيوتن لم يكتشف سوى ربع الجاذبية الكونية.

"أضاعت البشرية، قبلي، عدة ألوف من السنين في النضال ضد الطبيعة. وأنا أول من انحنى أمامها بدراسة الجاذبية، جهاز قوانينها. لقد تنازلت فابتسمت للفاني الوحيد الذي تملق لها، وسلمتني كل كنوزها. وأتيت، وقد امتلكت كتاب الأقدار، على تبديد الظلمات السياسية والأخلاقية، وعلى خرائب العلوم غير الموثوقة أرفع نظرية التناغم الكوني".

وفي عام ١٨٢٢، نشر فورييه "المطول في الترابط الأهلي- الزراعي" الذي أعيد طبعه عام ١٨٣٤ بعنوان "نظرية الوحدة الكونية". وصدرت بالتعاقب، "العالم الصناعي والمجتمعي الجديد أو اختراع طريقة جذابة وطبيعية موزعة" (١٨٢٩) و"الصناعة الزائفة، المجزأة، المنفرة والكاذبة والترياق، الصناعة الطبيعية المتراكبة، الجذابة، الحقيقية والتي تعطي إنتاجاً مضاعفاً أربع مرات" (١٨٣٥-١٨٣٦). ويجب أن نضيف إلى ذلك المقالات التي نشرت في "الإصلاح الصناعي أو المشترك" (١٨٣٢-١٨٣٦) وفي "المشترك" (١٨٣٥-١٨٣٦). وبقيت كتابات عديدة

لفورييه، تزيد عنها لدى سان سيمون أيضاً، على حالة مخطوطات. و لم تنشر إحدى أكثرها كشفاً عن فكره، "العالم العاشق الجديد"، إلا عام ١٩٦٧. وقد أجرى تلاميذه، في النصوص التي نشرت بعد موته، اقتطاعات ذات دلالة كبيرة جداً على حالتهم الذهنية. فقد كان هناك، بالنسبة إليهم، فورييه يهذي وفورييه آخر كانوا يعتبرونه عاقلاً. فقد أخفوا، بقدر ما استطاعوا، الأول- كما لو كان يمكن، مثلاً، الفصل بين نظرية فورييه الاجتماعية وتصوره للعالم، كما لو لم تكن كل الأهواء، بالنسبة لفورييه، من اصل إلهي.

والمفردات التي يستخدمه فورييه لعناوين مؤلفاته يمكن أن تفاجئنا للوهلة الأولى. وهي تتضح عندما نعرف ما هو التصور الذي يقترحه لحركة التاريخ العامة في خطوطه الكبرى.

فالمجتمع في حركة أزلية لأن "الحركة الاجتماعية تنفر من الحالة السكونية". "فكل مجتمع يحمل، في ذاته، القدرة على توليد المجتمع الذي يليه. ويصل إلى أزمة الولادة عندما يبلغ اكتمال صفاته الأساسية". وفورييه المهووس بالسلاسل والتصنيفات يميز ستاً وثلاثين مرحلة نعرف التسع الأولى منها. وتتصف كل مرحلة بحالة معينة للصناعة (كلمة الصناعة تنطبق على العمل الزراعي والتجارة كما على العمل المشغلي). وقد كانت هناك فترات سبقت الصناعة، ثم تلك التي تقابل الصناعة الصغرى ("البطريركية") والصناعة الوسطى ("البربرية"). وقد وصلنا إلى المرحلة السادسة، المعاصرة لفورييه والتي يسميها "الصناعة الكبرى، الحضارة".

العالم مقلوباً

نقد "الحضارة" هو أحد الفصول الأساسية في عمل فورييه. وبما أن هذه "الحضارة" تقابل، إذا استعملنا مفردات أخرى، صعود الرأسمالية، فإن

نقد فورييه يفتح الطريق أمام نقد اشتراكي حقيقي: "نجد لدى فورييه نقداً للحالة الاجتماعية القائمة، مليئاً بالظرف وعلى الطريقة الفرنسية حقاً. ولكنه ينفذ، مع ذلك، إلى الأعماق" (ف.أنغلز). فالحضارة هي "الفوضى الصناعية" التي هي أصل كل أنواع اختلال النظام الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والأخلاقية.

"هل رأينا، قط، نظاماً اجتماعياً يستحق أكثر مما تستحق الحضارة عنوان العالم المقلوب مهما يكن اتجاه تنظيمه؟لقد غيرت، عشر مرات، الأنظمة الإدارية منذ عام ١٧٨٩، ولكن بروتوس هذا، ذا العشرين شكلاً متنوعاً ما زال لا يقدم سوى عكس العدالة والعقل، كتلة صغيرة من الكسالى تسخر من الكثرة المحكوم عليها يعمل عاق، السعادة في أحوال استثنائية، سبع اسر تعيسة مقابل أسرة تتمتع بالرخاء، سياسة قمعية، دائماً، بالضرورة، مرغمة على تسليح عدد صغير من العبيد الأجراء لاحتواء كثرة من العبيد المجردين من السلاح، تنسيق بين الحكومات، دائماً، لوقف تقدم الأنوار".

ولهذه الفوضى سببان: تجزؤ الملكية والطفيلية التجارية. ويميز فورييه بين "الملكية البسيطة" التي تكرس الحق المطلق لفرد و"الملكية المركبة" المعرفة بوصفها "إخضاع الممتلكات الفردية لحاجات الجمهور". و"الحضارة" هي انتصار "الملكية البسيطة": "كل واحد يريد، في الحضارة، أن يعتصم ويصنع من ملكيته قلعة". أما بالنسبة للطفيلية الاجتماعية، فهي نتيجة التجارة. لقد أصبحت تفاحة فورييه في شهرة حكاية سان سيمون. فقد رأى فورييه وهو يتناول العشاء، عام ١٧٩٨، في مطعم باريسي، مسافراً يدفع أربعة عشر فلساً ثمناً لتفاحة، في حين كان يشتري، من المنتج، في النورماندي، مائة تفاحة بأربعة عشر فلساً. وهذا ما قاده إلى "الاشتباه بخلل أساسي في الآلية الصناعية". وكانت ثلاث تفاحات قد دخلت التاريخ من قبل: تفاحة آدم وحواء، تفاحة باريس وتفاحة نيوتن. وهذه

رابعة هي تفاحة فورييه. فهي تكمل "رباعية التفاح الشهيرة". ولا نعلم، قط، ما إذا كان فورييه يمزح أو يتكلم بجدية. وفضلاً عن ذلك، فقد كان لديه من روح الفكاهة أكثر مما يظن بصورة عامة. وبعض مبالغاته تعود، أيضاً، إلى اهتمامه بأن يفاجئ، بأن يصدم. أليس ذلك، أيضاً، نوع من الدعاية الإعلانية؟ وعلى كل حال، "فإن التجارة هي بالنسبة للمنتجين والملاكين ما هي عليه حملات شرذمة قطاع الطرق التي تختبئ في الغابات وتأتي لنهب المناطق المحروسة حراسة سيئة". وخلافاً لسان سيمون، يهاجم فورييه المصارف بصورة خاصة: "الصندوق كلي القوة في الحضارة".

وكل شيء مشوه في هذا العالم المقلوب: الإنتاج (فبسبب التجزؤ والتبذير الذي يؤدي إليه، لا يكاد أن ينتج، في الحضارة، ربع ما سينتجه التشارك)، الاستهلاك، التوزيع (الفقر يولد، في الحضارة، من الوفرة نفسها) والتداول (تكاثر الوسطاء غير المنتجين الذين هم "زنابير"، "عناكب"، "نسور" و"مصاصو دماء"). وهكذا، إذن، "كل شيء هو حلقة مفرغة في الصناعة المجزأة أو المتحضرة. فهي تخلق، بضروب تقدمها، عناصر السعادة، ولكنها لا تخلق السعادة".

مثل هذا النظام لا يمكن أن يبقى إلا بالقوة. والدولة هي أداتها الأولى بين أيدي أرستقراطية تجارية ومالية. وتتدخل الأخلاق في الاتجاه نفسه بتعليمها الفقراء "ازدراء الحواس ونكران الذات". وهي ليست سوى "عنف مجمل". "فالوعاظ يصنعون لنا، على هذا النحو، مائة متعة سخيفة لا يستطيع أحد أن يفهم منها شيئاً وخيالهم، من هذه الناحية، يشهد على كونه يحسون بضرورة هذه الموازنات التي لا تستطيع الحضارة تأمينها حتى للطبقة الغنية". وفي "الحضارة احتقان" للعواطف، وسوف يتحدث فرويد، في هذا الصدد، عن كبت. ولكن فورييه، خلافاً لفرويد، يحلل هذا "الاحتقان" بموجب البنى الاجتماعية: "إن نظامنا الاجتماعي"

هو الذي يخلق "لكل أب في أبنائه جيشاً من المتآمرين المتعمدين". وكل العواطف جيدة، وإذا كانت هناك عواطف نسميها سيئة، فذلك لأنها تنجم عن ظاهرة "الاحتقان": "كل عاطفة محتقنة تخلق العاطفة المضادة لها والتي هي مؤذية بقدر ما كان من شأن العاطفة الطبيعية أن تكون خيرة". والأخلاق ضامنة الحضارة هي إهانة لله لأنها تجعل منه "ميكانيكياً عابثاً، لو كان قد وضع في نفوسنا نوابض وقوى يجب إعاقة عملها".

والعلوم منحرفة، أيضاً، لأنها تضع نفسها في خدمة الحضارة. فالعلماء "قد طاش صوابهم وفقدوا الاتجاه أمام التجارة وترددوا بين التزلف والنقد. وأخيراً، رجحت كفة الذهب في الميزان وأصبحوا، نهائياً، الخدم المتواضعين للتجار والمعجبين بالعلم التجاري الذي طالما تهكموا عليه".

وانحرفت الحرية، أيضاً، لأنه ما من حرية حقيقية في الحضارة. فليست كل المناقشات حول الحرية سوى خدع وتضليل. ويذكر فورييه، أولاً، الحرية البسيطة أو الجسدية ("فيدون حر، حقاً، في الذهاب إلى الأوبرا إلا أنه تلزمه ليرة كي يدخل إليها"). وهذه الحرية مختزلة، أيضاً، بالنسبة للعامل: فهي ليست سوى الحرية الجسدية السلبية. فالعامل، بالفعل، "مرغم على العمل تحت طائلة الموت جوعاً وليس له، في الأسبوع، سوى يوم واحد من الحرية الجسدية الفعالة، هو يوم الأحد". و"الطبقة الفقيرة" محرومة، كلياً، من "الحرية السياسية والاجتماعية" و"مرغمة على الاسترقاق في الأعمال المأجورة التي تقيد النفس، كما تقيد الجسد". و"أول حق ليس الحق في الحرية التي هي حق وهمي، بل الحق في التغذي، في الأكل عند الجوع". "لقد أمضينا، إذن، قروناً ونحن نماحك حول حقوق الإنسان دون أن نفكر في الاعتراف بأكثرها جوهرية، حق العمل الذي لا يكون الآخرون، دونه شيئاً". فالحرية الحقيقية هي الحرية المركبة، المتواردة أو الفائضة التركيب. "إنها تفترض وحدة الانتماء، القبول الفردي لكل واحد، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً، وتجمعهم

المتحمس لممارسة الصناعة وللحفاظ على النظام القائم". ولا يمكن أن تتحقق إلا في نظام مجتمعي.

المشرك

تحمل "الحضارة"، في ذاتها، بذور مرحلة جديدة: مرحلة "الصناعة المجتمعية، الحقيقية والجذابة". ونقطة الانطلاق هي تنظيم:الشراكة المترلية الزراعية" أو الكتيبة التي ستقيم في مشرك. إن هناك، دون شك، الكثير من الخيال لدى فورييه لأن لديه حس التفاصيل ولا يريد ترك شيء في الظل. ومن جهة أخرى، فهو يكيف مشروعه، مشروع المجتمع المشاعي مع ميوله الخاصة مقتنعاً بأن آخرين يشاطرونه عواطفه. فإذا كان للسكر هذا الدور في مطبخ المشرك، فذلك لأن فورييه يعبد السكريات. وبما أنه يخشى تيارات الهواء، فسوف تكون هناك أزقة- أروقة مزججة ومدفأة. أهي طوباوية؟ يمكن أن نشك في ذلك، اليوم، عندما نفكر في الهندسة المعمارية لمهندس مثل لوكوربوزييه.

إلا أن الأساسي ليس هنا أبداً. فهو يقع في مبدأ التنظيم الجماعي نفسه. فالفعالية، فيه، زراعية خاصة: "المشاغل التي طالما نودي بها في نظام المحدثين السياسي الذي يضعها في مستوى الزراعة لا تظهر، في الحالة المجتمعية، إلا بوصفها ملحقة ومتممة للنظام الزراعي، كوظائف تابعة لما يناسبه". والعمل يجب أن يتحول من كونه منفراً إلى كونه جذاباً. فعلى كل واحد أن يعمل حسب ميوله أو، بعبارة أضبط، حسب عواطفه. وقد ميز فورييه "اثني عشر نابضاً مسماة عواطف بدائية" تولد بالتراكب، ٨١٠ طباع مختلفة على وجه الضبط. ذلك أنه بما أن كل شيء في العالم (المعادن، النباتات، الحيوانات) يخضع لقانون التجميع في سلاسل، فالأمر هو نفسه بالنسبة للعواطف. ويلي ذلك أن الجماعة المشركية (رجالاً ونساء) ستتضمن عددا مضاعفاً من الطباع أي ١٦٢٠ طبعاً. ولا يتوقف

التناغم عل حذف التباينات، بل على استخدامها لمصلحة الجميع. والعمل لم يعد لعنة، شرطاً للتكفير، بل يصبح متعة لأن كل واحد سيعمل بالتوافق مع عواطفه الخاصة، والتركيب يحدد تشكل "السلاسل". فالعمل ليس، في حد ذاته، عذاباً: وما يجعله مزعجاً هو الشروط التي يجري فيها: "تقول لنا الأخلاق: أحبوا العمل! إنها نصيحة ساخرة ومضحكة. فلتعط عملاً لمن يطلبونه ولتعلم كيف تجعله محبباً، ذلك لأنه مزعج، في الحضارة، من جراء عدم كفاية الأجر والقلق من الافتقار إليه وظلم أرباب العمل وكآبة الورشات وطول مدة العمل واطراد الوظائف". وسوف يرفع تقسيم العمل إلى الدرجة العليا. فسوف تتكون مجموعات عمل قائمة على التشارك في الميول- وكل شريك يستطيع، فضلاً عن ذلك، تبديل عمل عدة مرات في اليوم لتلبية واحدة من اثنتي عاطفة جذرية: الرفرفة أو التناوب، "وهي حاجة إلى تنويع دوري". وميل الأطفال إلى القذارة سوف يستثمر هو نفسه. فسوف يشكلون "الشرذمات الصغيرة"، وسوف يعملون، مثلاً، وهم "منظفو الأقذار المتحمسون"، في تنظيف حفر المراحيض ويستطيعون، على هذا النحو، أن يشقوا لأنفسهم، في المهن القذرة، مجالاً واسعاً للمجد الصناعي ومحبة البشر الموحدة".

والتمييز بين العروق وبين الجنسين ملغى في المشرك.

"لن يقترف التناغم، مثلنا، حماقة استبعاد النساء من الطب والتعليم لقصرهن على المطبخ والطهي. وسوف تعلم أن الطبيعة توزع على الجنسين، بالتساوي، القابلية للعلوم والفنون... وهكذا فإن الفلاسفة الذين يريدون أن يستبعدوا، طغياناً منهم، أحد الجنسين من عمل يشبهون معمري جزر الأنتيل الذين يودون، بضروب تعذيبهم، إلى خبل زنوجهم المتبلدين، فعلاً، بتأثير تربية بربرية ثم يزعمون أن هؤلاء الزنوج ليسوا على مستوى الجنس البشري. إن رأي الفلاسفة في النساء مساو في

صوابه لـرأي المعمرين في الزنوج...".

والتسلسلات باقية في المشرك. فهناك أغنياء وهناك فقراء واقتراحات فورييه، فيما يتعلق بالملكية، ينقصها الوضوح. فهو مقتنع بأن روح الملكية المجتمعية هي "أحد أقوى النوابض للتوفيق بين الغني والفقير". وأفقر الناس هم، أنفسهم، ليسوا أجراء، بل هم مشتركون في المصلحة بحيث يكونون ملاكين للمنطقة، كلها، بالمساهمة. وأرباح الاستثمار توزع إلى ثلاثة أقسام غير متساوية: خمسة أجزاء من اثني عشر للعمل اليدوي، أربعة أجزاء لرأس المال المساهم وثلاثة أجزاء للمعارف النظرية والعملية. وعلى كل حال، يضمن لكل مساهم حد أدنى يؤمن حقه في الحياة. وإذا كانت هناك رؤوس أموال، فليس هناك رأسماليون معرفون كرجال كسالى يعيشون من عمل الآخرين. والاستهلاك جماعي. ويجري تناول الوجبات وتربية الأطفال بصورة مشتركة. وتقوم علاقات جديدة بين الجنسين، إذ تتحرر العواطف العشقية، تدريجياً، من كل القيود التي تفرضها "الحضارة".

المراحل والوسائل

سوف يجري التقدم على مراحل لأن فورييه يرى أن محاولة منعزلة لا يمكن اعتبارها، في ذاتها، بل كنقطة انطلاق. فسوف يكون هناك دور "الضمان" أو "نصف الشراكة". وسوف تكون فترة تحضير. وسوف تخفض مستودعات للمنتجات وأسواق تجارية نفقات الإدارة. وسوف تخلق تأمينات متبادلة. وسوف يسحق التجار بالضرائب ويستقبل، في مزارع-ملاجئ، أولئك الذين سيلجؤون، إذا طردوا من الحانوت، إلى الأرض. وربما لن تكون هذه المرحلة الأولى ضرورية، ولكن فورييه سلم، بها، كما يبدو، في السنوات الأخيرة من حياته. وسوف تظهر المشارك مع الطور الثاني: طور الاشتراكية أو التشارك البسيط. وسوف يتم

التوصل، أخيراً، إلى مرحلة التناغم أو التشارك المركب. وعند ذلك ستجري الأشغال الكبرى.

وسوف ينبغي مهاجمة "الصحراء بعشرة أو عشرين مليون ساعد، إذا كان ذلك ضرورياً، ولكثرة ما يكتسب من أراض وما يزرع ويشجر، سوف يتم التوصل إلى ترطيب البلد وتثبيت الرمال وإحلال مناطق خصبة محل الصحراء. وسوف تشق أقنية للمراكب هناك حيث لا نستطيع حتى صنع جداول للري. ولن تبحر السفن الكبيرة عبر المضائق، كمضيقي السويس وبنما، فحسب، بل أيضاً، داخل القارات، كتلك بين البحر الكاسي وبحار أزوف وفارس وآرال. وسوف تبحر من كيبيك إلى البحيرات الكبرى، وأخيراً من البحر كله إلى البحيرات الكبيرة".

ولن تعود هناك حاجة إلى سلطة سياسية. فكما هو الأمر لدى سان سيمون، لا يدور الأمر حول حكم البشر بل حول إدارة الأشياء.

ولا يمكن الحصول على النظام المجتمعي الذي سيشكل ثورة بوسائل ثورية. وفورييه لا ينتظر شيئاً من العمل السياسي ولا من تدخل الشعب. من المؤكد أنه قد ندد بـ"عادة خفض أجر العامل بقدر المستطاع وبناء نجاح أصحاب المشاغل على بؤسه الأقصى". وقد وصف العمل المأجور بـ"القنانة غير المباشرة": "الكثرة، أو الطبقة الفقيرة، بعيدة عن الإسهام في تزايد الثروة ولا تتلقى منها سوى مزيد من الحرمانات لأنها ترى تنوعاً أكبر من الخيرات التي لا تستطيع التمتع بها. بل إنها لا تضمن أن تحصل على العمل المنفر الذي يصنع عذابها ولا يوفر لها مزية أخرى خلاف عدم الموت جوعاً".

إلا أن فورييه لا يعول، أبداً، على عمل البروليتاريين. وما يقوله عن الطريقة التي كان يمكن، بها، تجنب ثورة ١٧٨٩ مميزة جداً لطوباويته: "كان يكفي فتح مسابقة، تخصص جوائز جيدة لأحسن المذكرات حول المنهج الذي يجب أن يتبع بتنظيم الزراعة المركبة التي تولد منها التجارة

ذات النمــط الحقيقــي". وفيمــا يخــص "الثــورة المقبلــة" فمــن المناســب تحقيــق مشترك. ويمكن لعشــرة ملايــين أن يكفــوا عنــد الانطــلاق. وهــذه مجــرد بدايــة على اعتبار أنه من شــأن كــل الشــعوب أن تتبــنى النظــام بعــد أربــع ســنوات من نجــاح أول مشــترك. وحــوالي نهايــة حياتــه، أصبــح أكــثر حــذراً وتصــور، كما رأينــا، فــترات انتقاليــة. وكذلــك يضــاعف فورييــه، علــى غــرار ســان سيمون، ولكن بمشــاريع اكــثر تحديــداً ودقــة، مــن الخطــوات مــع الحكومــات متوجــهاً، علــى التــوالي، إلى وزراء نــابوليون وعــهد عــودة النظــام الملكــي ولويس فيليب. وهــو يتصــور أســهماً قيمــة كــل منــها عشــرة آلاف فرنــك: "إذا أخــذ الأمــير الأســهم الأولى، فــإن رجــال الحاشــية والمصرفيــين ســيأخذون، علــى الفــور، الأســهم الباقيــة". ويفكــر فورييــه، بعــد ذلــك، بشــريك مــوص خــاص يكــون المرشــح للتأســيس. ويتوجــه، عبثــاً، إلى شــاتوبريان وأرملــة بــايرون وجــورج صــاند. واعتبــاراً مــن ١٨٢٦، كــان يعــود، كــل يــوم، إلى بيتــه ظــهراً، ســاعة الموعــد الــذي حــدده للمرشــحين المحتملين. و لم يأت، أبداً، أحــد ليطــرق بابــه.

الــتراث

على وجه الإجمــال، كــان تأثــير الفوريبرية أقــل مــن تأثــير الســان ســيمونية. وإذا كــانت المدرســة المســماة بالمجتمعيــة قــد تكونــت مبكــرة جــداً، فســوف تنمــو، خاصــة، بــين ١٨٣٠ و١٨٤٠. وســوف نلقاهــا، فيمــا بعــد، مــع كونســيديران. وقــد جــرت عــدة محــاولات لتحقيــق مشــارك. فمنــذ ١٨٣٢، أنشأ تلميــذ، بوديــه-دولاري، نــائب إيتــامب الــذي تنكــر لــه فورييــه، مــن جهــة أخــرى، مســتعمرة كونديــه- ســور- فيغــر المجتمعيــة قــرب رامبوييــه. وفي عــام ١٨٣٥، نديــن لأحــد ســكان ليــون، ميشــيل ديريــون، بخلــق "التجــارة الحقيقيــة والاجتماعيــة". ويمكــن أن نذكــر، أيضــاً، مســتعمرة ســيتو المجتمعيــة (كــوت دور)، في فــترة ١٨٤١-١٨٤٥، واتحــاد ســاهي الصنــاعي

(البرازيل)، في فترة ١٨٤١-١٨٤٤، والاتحاد الزراعي لسان دنيس- آن- سيغ (الجزائر)، عام ١٨٤٦، جمعية الإعمار في التكساس، وهي مبادرة من فكتور كونسيديران، ومشرك جان باتيست غودان العائلي في الآردين، في غيز. وبصورة عامة، فشلت كل هذه المحاولات. وعندما لم يكن الفشل تاماً كان المشروع ينحرف عن اتجاهه الأول. فقد أصبح مشروعاً رأسمالياً. وفي أحسن الأحوال، تحول إلى تعاونية.

هل كان فورييه يظن أن النظام المجتمعي لن يؤدي إلى زوال الطبقات (مفهوم الطبقة مبهم، لديه، فوق ذلك)، بل إلى التعاون بينها؟ ومن جهة أخرى، فإنه يعد رائداً للتعاون تعسفياً إلى حد ما: "يدور الأمر هنا حول أب بالتبني أكثر منه حول نسالة طبيعية" (هنري ديروش). والمشرك ليس، بالنسبة لفورييه، غاية في ذاته. فليست له، في حد ذاته، أية قيمة. وهو لا يتخذ معناه إلا في الانتقال إلى حالة مجتمعية معممة. فالأمر يدور حول "منطقة اختبار" أو "محاولة". وليس للتوقف عند مشرك، أو حتى عدة مشارك (إذا سلمنا أنها تستطيع البقاء)، بداهة، لدى فورييه، أي معنى. وهكذا، فإن "فوريرية" التعاونيين هي فوريرية منشقة.

وإذا كان فورييه قد ركز، أخيراً على بؤس البروليتاري ووضع التبعية لديه، فإن تناقض القوى الاجتماعية قد فاته إلى حد بعيد جداً. إلا أنه يحتل، في تاريخ أصول الاشتراكية الفرنسية، مكانة أصيلة. فنقده لـ"الحضارة" ألقى، إذا أخذنا عصره بعين الاعتبار، الضوء على تناقضات النظام الرأسمالي. وقد أخرج فورييه، بتصوره لتنظيم العمل، العواطف من إطار الفرد ليجعلها مفيدة للجماعة. ولا شك في أن الحالة "المجتمعية" ثمرة خياله. فقد بنى، ككل الطوباويين، "مجتمعاً جديداً بعناصر مأخوذة من دماغه" (أنغلز). إلا أن فورييه يعترف بأن خلق الصناعة، في حالة "الحضارة"، قد حقق أحد شروط الانتقال إلى الحالة "المجتمعية". ومن جهة أخرى، يجب، في نظر فورييه، وضع حد للصراع بين الفرد

والمجتمع. فالفرد مخنوق في حالة "الحضارة"، والعواطف التي تسمح بتفتحه مقموعة. وعلى العكس من ذلك، فإن "الحالة المجتمعية" هي "مجتمع طبيعي متكامل". وسوف يؤمن هذا المجتمع للفرد، بتحريره عواطفه، النمو الكامل لملكاته. وهذه هي الروح التي يتصدى، ضمنها، فورييه، لمسألة مكان المرأة في الحالة "المجتمعية". فيجب أن تكون المرأة مساوية للرجل: "كأطروحة عامة، تجري ضروب التقدم الاجتماعية وتغيرات الفترة بموجب تقدم المرأة نحو الحرية، وتجري الانحطاطات بموجب تناقص حرية النساء". إلا أن البحث عن التوفيق الضروري بين مقتضيات الفرد ومقتضيات المجتمع هو هوس تسلط على الاشتراكية عبر تاريخها. وفورييه قدم، أيضاً، إسهاماً غنياً في توضيح شاغلين آخرين للاشتراكية: زوال النزاع بين المدينة والريف ونهاية التعارض بين العمل اليدوي والعمل العقلي.

٢- المنعطف الكبير (١٨٣٠-١٨٤٨)

سياق جديد

لا يمكن لأية برهة، في تاريخ الاشتراكية، أن تكون قطيعة فجائية. ومع ذلك، فإن عام ١٨٣٠ يعلن عن منعطف سوف يتحدد اتجاهه ثم يتأكد حتى عام ١٨٤٨. فالطموحات الاشتراكية التي كانت، حتى ذلك الحين، من شأن أقليات صغيرة جداً سوف تعني قطاعات من الرأي العام متزايدة السعة والاختلاف. وزمن الوساطات بدأ في الانقضاء. وسوف تنعقد صلات متزايدة القوة بين حركة عمالية تخرج مما قبل تاريخها والمذاهب الاشتراكية.

إلا أن ثورة ١٨٣٠ تبدو، قبل كل شيء، ثورة سياسية حصراً. فلم يجر سوى تغيير "الصورة على عملة نادراً ما يراها البروليتاريون" (بلانكي).

والواقع هو أنـه لا يمكن تقـويم نتـائج هـذه الثـورة في تـاريخ الاشـتراكية إلا بقدر ما تحلل مركباتهـا الاجتماعيـة. فبسـبب الأزمـة الاقتصاديـة الـتي ضربـت أجر العامل أقـوى مما ضربـت ربـح رب العمـل، كـانت السـنوات الأخـيرة لعـهد عـودة النظـام الملكـي غاصـة بإضرابـات عديـدة. وقـد جـرت هـذه الإضرابـات، معـها، أكـثر النقابـات تنوعـاً: غـزالي القطـن في هولـن قـرب روان (قتل دركـي خـلال المشـاجرات فحكـم علـى عـامل، روسـيل، بـالموت وأعـدم)، عمـال الألـواح في ريمـوني (الأرديـن)، عمـال التصفيـح وعمـال السـباكة في بـاريس، عمـال المخـابز في مرسـيليا، عمـال الـورق في تيـيرز، عمـال منـاجم كومنـتري، نحـاتي الحجـارة في تورنـوس، الغزالـين في سـانت كوانتـان، الحوذيـين الباريسـيين، معمـاريي تولـون وبـاريس، عمـال المسـامير في ضاحيـة سـان دينيـس، بلاطـي بـاريس إلخ... وقـد جـرى تحطيـم آلات وتكتـلات وفـتن. وتضـاعفت المظـاهرات العماليـة الخالصـة مـع أهـداف خاصـة: معارضـة تخفيـض الأجـور، الاحتجـاج علـى إطالـة يـوم العمـل، معارضـة مراقبـة التشـغيل مـن قبـل البلديـات والشـرطة، معـاداة إدخـال الآلات في زمـن كـانت تنمـو، فيـه، البطالـة. وفي بـاريس نفسـها، اندلعـت فتنـة حقيقيـة في ١٩ و٢٠ تشـرين الثـاني ١٨٢٧. وقـد واجـه العمـال والطـلاب الجيـش في شـوارع سـان دينيـس وسـان مارتـان. وسـقط قتلـى وجرحـى، ومـن بـين هـؤلاء الأخـيرين، طـالب حقـوق شـاب، أوغسـت بلانكي الـذي أصيـب برصاصـة في عنقـه. واندلعـت اضطرابـات في الأريـاف سـببها ارتفـاع أسـعار الحبـوب في أقتـم فـترات أزمـات الأقـوات: فقـد حجـزت إرسـاليات القمـح علـى الطرقـات وفي المرافـئ. ودمـرت حدائـق، هنا وهنـاك، طواحـين وأهـراءات. وهوجـم فلاحـون ميسـورون وتجـار قمـح. وزاد في صعوبـة أيـة تسـوية بـين البورجوازيـة الكبـيرة والأرسـتقراطية العقاريـة كـون مبـادرات الملكيـين المتطرفـين قـد بـدت تهديـداً بـالعودة إلى النظـام القـديم وكـون الأزمـة قـد لأصـابت، منـذ ١٨٢٧، البورجوازيـة

الصناعية والتجارية في مداخيلها. وأحرز البورجوازيون الليبراليون، في إطار البلد الشرعي نفسه، انتصارات انتخابية، ولم يعد شارل العاشر يستطيع الاعتماد على ولاء الحرس الوطني. وفي مناخ الأزمة هذا، تقاربت المعارضات- وقد كفى استفزاز مراسيم تموز لسقوط البوربونيين.

وخلال "الثلاث المجيدة"، كان تدخل العمال الباريسيين حاسماً. فأصحاب المطابع ألقوا، إذ أغلقوا ورشاتهم، بعمالهم إلى المعركة. واقتدى بهم أصحاب المشاغل والتجار (خاصة تجار مرفأ باريس على نهر السين). ومهما يكن من أمر، فهناك إجماع بين المعاصرين. ففي مساء ٢٩ تموز، سجل ألفريد دوفينيي في مذكراته ما يلي: "نشب القتال منذ هذا الصباح. العمال على شجاعة خليقة بالفانديين". ورداً على سؤال: من غلب؟ يرد أنفانتان، في عدد ٢٥ آب من جريدة "المنظم"، قائلاً: "إنها الطبقة العاملة، طبقة البروليتاريين". وجريدة "الناسيونال" التي كانت، مع ذلك، معتدلة جداً، سلمت بأن الشعب كان "قوياً وسامياً". "إنه هو الذي غلب. ولصالحه يجب أن تكون كل نتائج المعركة". وفي ١٠ آب، صرح الوزير شارل دوبان أمام المجلس بما يلي: "عندما يتفق، كما هو الأمر اليوم، أن تؤسس سلالة مالكة نتيجة لبطولة العمال، فعلى السلالة أن تؤسس شيئاً من أجل ازدهار هؤلاء العمال الأبطال". وكتب ألكسندر دوماس الأب يقول: "الذين صنعوا ثورة ١٨٣٠ هم هذه الشبيبة المتحمسة من البروليتاريا البطلة التي تشعل الحريق، حقاً، ولكنها تطفئه بدمها". وهكذا اكتشف بورجوازيون جمهوريون، أو مجرد ليبراليين، أن الطبقة العاملة بدأت في الوجود وأنها، فعلاً، على درجة من القوة تكفي من أجل أن يكون تدخلها حاسماً في بعض المناسبات.

تابع العمال معركتهم، ولكـــن ذلـك لأهـداف تخص وضعهم الخاص. وهـذا الوضع لم يتحسن لمجرد تغيير السـلالة. وقد تفاقم، على العكس من ذلك، بسبب تطاول الأزمة الاقتصادية. وسيطرت البورجوازية على الكيان الشرعي: "سكنت كل الأمكنة، زادت هذه الأخيرة زيادة كبيرة واعتادت على أن تعيش من الخزينة العامة بقدر ما تعيش من صناعتها الخاصة تقريباً" (توكفيل). وقد حل النزاع بين الأرستقراطية العقارية والبورجوازيين، جملة، لصالح البورجوازية، ولا سيما المالية منها.

وأمسكت البورجوازية الكبرى بزمام صور السلطة الثلاث، السلطة الاقتصادية، السلطة السياسية والسلطة الاجتماعية. إلا أنه ليس هناك من طلاق بين الثروة المنقولة والثروة العقارية على اعتبار أن الأرض قد بقيت، بما في ذلك من أجل الصناعيين ورجال المال، مصدر ثروة ومكانة أيضاً.وكان الوجهاء يؤخذون من هذه المجموعات الاجتماعية المختلفة.

ولكن الواقعة ذات الدلالة والتي كان يجب أن تقرر مصير الاشتراكية هي أن التناقض بين البورجوازية والبروليتاريا في طريقه للانتقال إلى الصف الأول. وقد كتب لامونيه يقول: "يتساءل الشعب، بعد تموز، عمن انتصر وعما إذا لم يكن هناك ما يتوقعه من انتصار دفع ثمنه بهذا السخاء وهما إذا كان ينبغي عليه أن يضوى، إلى الأبد، في البؤس نفسه، في الحطة نفسها. كلا! هذا هو جوابه. وعند ذلك يطرح السؤال الكبير، تبدأ المعركة الكبرى".

وهذا ما يفسر انتفاضة عمال حرير ليون في تشرين الثاني ١٨٣١. وكتب سان مارك جيراردان، في عدد ٨ كانون الأول ١٨٣١ من "جريدة المناقشات"، يقول: "لقد كشفت عن سر كبير، سر المعركة الداخلية التي تحدث في المجتمع بين الطبقة التي تملك وتلك التي لا

تملك... البرابرة الذين يهددون المجتمع ليسوا، أبداً، في القوقاز، ولا في سهوب ترتاريا. إنهم في ضواحي مدننا المشغلية". ومع ذلك، فما زال الحدث ينتمي إلى "عصيات" من نمط قديم. والتمرد كان من صنع عمال اتحدوا ضد التجار- الصناع، ولكن بعضهم كانوا رؤساء ورشات والآخرون صناعاً. وأصل الصراع تقليدي على اعتبار أن الأمر يدور حول التعرفة وسعر التفصيل. ولكن كون عمال قد استطاعوا، في ثلاثة أيام- "أيامهم الثلاثة المجيدة"- أن يسودوا مدينة كليون يلقي الضوء، فجأة، على تناقضات لم يكن المنظرون يتصورونها، حتى ذلك الحين، من وجهة نظر مجردة أو كانوا يعدونها ثانوية بالقياس مع المواجهة بين الذين كان سان سيمون قد دعاهم "الصناعيين" و"الكسالى"، "النحلات" و"الزنابير". وعلى وجه الدقة، كتب سان سيموني، ميشيل شوفالييه، يقول: "هذه الأحداث غيرت معنى كلمة *سياسة* ووسعتها. لقد دخلت مصالح العمل، مؤكداً، في الدائرة السياسية وسوف تتزايد امتداداً". ويرى فورييه في تمرد عمال الحرير تأكيداً لأطروحاته. وقبل وفاته بسنتين، يلاحظ ما يلي: "بعد خمسة وأربعين سنة من الإحياءات المتضاعفة، من التقدم في العقلانية والوضعية والصناعية ومن السير السريع نحو كمالية متزايدة، تصل الشعوب التي بعثت وأصلحت عشرين مرة إلى درجة من البؤس تنتفض، معها، بسبب عدم كفاية الأجر وتسجل على رايتها: "عش عاملاً أو مت مقاتلاً!". لقد أنضجت الانتفاضة الليونية اشتراكيي الجيل الجديد. فقد هتف أوغست بلانكي، أمام قضاته، في كانون الثاني ١٨٣٢، قائلاً: "أية هوة أتت أحداث ليون على كشفها أمام أعينكم!".

"تسييس" النضالات العمالية

ليس الحدث منعزلاً. والواقع هو أن الاضطراب العمالي استمر أربع

سنوات بصـــور متنوعـــة. ففـــي فـــترة أولى، كـــان هـــذا الاضطـــراب، قبـــل كـــل شـــيء، احتجاجـــاً ضـــد البـــؤس. وتعمـــم الاحتجـــاج ضـــد إدخـــــال الآلات. وطلب العمال إلى الحكومـــة اتخـــاذ تدابـــير ضـــد البطالـــة. وطلبـــوا خفـــض يـــوم العمـــل وزيـــادات في الأجـــور. وفي برهـــة ثانيـــة، لوحظـــت أولى علامـــات تســـييس للنضـــالات العماليـــة. ففـــي حزيـــران ١٨٣٢، ولـــدى جنـــازة الجـــنرال لامارك، قام أعضـــاء في نقابـــات عماليـــة، بمســـيرة تمـــت تحـــت رايـــاتهم الخاصـــة. وفي الغد، كان مـــن نصـــب المتـــاريس عمـــالاً قبـــل كـــل شـــيء. وقـــد اشـــترك العمـــال في كـــل المظـــاهرات، بـــل في كـــل الفـــتن الـــتي حـــاول الجمـــهوريون، بواســـطتها، الاعـــتراض علـــى التدابـــير الحكوميـــة الـــتي ترمـــي إلى تدمـــير جمعيـــاتهم. وعندمـــا اندلـــع، عـــام ١٨٣٤، في ليـــون نفســـها، التمـــرد الثـــاني لعمـــال الحريـــر، كـــان نفـــوذ الجمـــهوريين، هـــذه المـــرة، مؤكـــداً. وفي الوقـــت نفسه، نصـــب عمـــال بـــاريس المتـــاريس في حـــي "ماريـــه"، وفي شـــوارع بوبـــور وأوبـــري- لـــو- لوبوشـــيه وترانســـونان. وكـــان الاشـــتراكيون جنبـــاً إلى جنـــب في القضية المســـماة قضيـــة نيســـان والـــتي رفعتـــها الحكومـــة ضـــد ثـــوار ١٨٣٤. وســـوف تجـــبر قوانـــين أيلـــول ١٨٣٥ القمعيـــة الجمـــهوريين علـــى الســـرية: وســـوف يدخـــل العمـــال في الجمعيـــات الســـرية: جمعيـــة الأســـر، جمعيـــة الفصـــول...

وكان يجب علـــى تســـييس الحركـــة العماليـــة أن يعطـــي معـــنى جديـــداً للتيـــارات الاشتراكية. فقد نجمـــت عـــدة عوامـــل عـــن التـــوارد. فـــهناك، أولاً، شـــيء مـــن يقظة الوعـــي الطبقـــي. وهـــو مرتبـــط، مباشـــرة، بـــأحداث تمـــوز ١٨٣٠. وقـــد كتبـــت جريـــدة عماليـــة، "المـــزارع" (٢٠ و٢٧ تشـــرين الثـــاني ١٨٣٣) مـــا يلـــي:

"منذ أن ربحت قضيـــة الشـــعب بصـــورة لا رجـــوع عنـــها، وعـــى العمـــال قوتهـــم على اعتبار أنه لولاهم لما أمكن الحصـــول علـــى انتصـــار تمـــوز الكبـــير، بـــل ربمـــا لم تكن المحاولـــة لتقـــع. وقـــد أحســـوا، فـــوق ذلـــك، أن البورجوازيـــة ســـتفصل

رايتها عن رايتهم لأنها لم تعد في حاجة إليهم للنضال ضد الطبقات المتميزة. ومن هنا جاء شعور بالاعتزاز والتحدي ضد الطبقات الأعلى والحاجة إلى الحصول على ضمانات لسعر اليد العاملة وفتن وتكتلات في الطبقات العاملة".

وفي الوقت نفسه، انبثق رجال جدد، جمهوريون ومناضلون عماليون معاً، كعاملي الخياطة غرينيون وترونسان منظمي إضراب عمال الخياطة عام ١٨٣٣، وكأفراهيم، عامل الأحذية. وتوجهت نخبة مؤلفة، خاصة، من حرفيين أو عمال حرفيين، نحو الجمهوريين. ومضى الجمهوريون، من جانبهم، نحو العمال. وضمت جمعية "أصدقاء الشعب" شعباً مؤلفة من الخياطين وعمال البناء. وقد تحدث الجمهوريون بلغة جديدة في الدعاوى التي أقيمت عليهم. فأوليس تريلا يذكر نضال الطبقات. وختم دوبون دوبوساك، وكان، مع ذلك، نسيباً للمصرفي لافيت، مرافعة بإعلانه أن للقرن "التاسع عشر مهمة ينجزها هي التحرير الأخلاقي والاجتماعي للبروليتاريين". ويصرح راسباي قائلاً: "لا تني فرنسا تتشكل من فئتين كبيرتين، الأولى تحتكر المتع والثانية تحتكر العذاب". وسيطرت هذه الاتجاهات، أيضاً وبمزيد من الوضوح، في "جمعية حقوق الإنسان" التي حلت، في تشرين الأول ١٨٣٣، محل جمعية أصدقاء الشعب التي انحلت، عملياً، إثر دعاوى عديدة. ومن غير المضبوط أن نتحدث عن اشتراكية، ولكن من المناسب أن نركز على هذه الاتجاهات المساواتية أو "المسوية"، إذا استعملنا مفردات العصر. ففي كراس نشر عام ١٨٣٣ بعنوان "حول المساواة"، يمكن أن نقرأ ما يلي: "من المهم أن تقوم كل مؤسسة على هذا المبدأ الأساسي: كل البشر متساوون"، "ليس كل مالك...، في الحقيقة، سوى مستودع جزء من الثروة القومية عهد إليه بإدارته". والبرنامج معتدل:ضريبة تصاعدية، قوانين تحدد النفقات، منع الرسوم التي تنصب، حصراً، على الفقراء، اشتراك الجميع في الحياة السياسية. ولكن

النوايا واضحة. ويمضي بعضهم أبعد من ذلك، كجان جاك فينييت الذي يؤكد أن "هذه الطبقة الجميلة من البروليتاريين هي التي تقع، عليها، حصراً، آمال الوطن وميستقبل البشرية". وشكلت جمعية حقوق الإنسان لجنة دعاية تعمل في اتجاه العمال. وكان بين صفوفها خياطون كفكتور بروسبير وغرينيون وهنري ترونسان، وعمال طباعة مثل ليمونييه، باسكييه- لابرويير، ونجارون مثل روابيه، وعمال قفازات مثل بيرار، وعمال أقفال مثل آلار إلخ...

التحولات الاقتصادية ونتائجها

إذا كانت قتالية العمال قد أدهشت المعاصرين في مرحلة أولى، فإن ما اكتشفوه، في فترة ثانية، هو شقاء البروليتاريا الكبير. ولا شك في أن التطور الرأسمالي كان أقل تقدماً في فرنسا منه في إنكلترا. ولكنه عرف تسارعاً في إيقاعه خلال ملكية تموز، خاصة اعتباراً من عام ١٨٤٠. ولكن، كم من عقبات! فوسائل النقل بقيت تقليدية وغير كافية. ويجب انتظار ميثاق الخطوط الحديدية لعام ١٨٤٢ من أجل أن تبدأ هذه الخطوط في النمو. وكان الائتمان غير منظم بصورة كافية، والصناعة تعيش في التقتير في ظل حماية صارمة تطمئن الصناعيين الفزعين، ولكنها تؤخر الطفرات الضرورية. وكان التوقير يخشى مغامرة الاستثمارات الصناعية الكبيرة. وقد خلق مصرف فرنسا فروعاً في المحافظات، ولكنه رفض خفض معدل الحسم. ومنذ كوارث الحوالات، كانت هناك ريبة في الحوالات المصرفية، وجرى تجاهلها في معظم المحافظات.

إلا أن ضروب تقدم الصناعة كانت على درجة من الأهمية تكفي من أجل أن يكون لها نتائج في النمو وشرط الطبقات العاملة سوف تعطي الاشتراكيين الفرنسيين اتجاهاً جديداً وتسمح لهم بممارسة تأثير أعمق. وكان هناك تزايد في الإنتاج الصناعي، حتى ولو لم يحدث إلا على

دفعات، وبصورة لا متساوية حسب الفروع، فقد كان يلاحظ تقدم في الميكانيكية والمكننة. وانتشرت الأنوال الحديثة في الصناعات القطنية، وخاصة في مرحلة الغزل. ولم يقتصر الأمر على زيادة عدد المغازل، بل إن مردود كل منها قد تزايد. وانتهت المستجدات التقنية إلى الانتشار في مشروعات النسيج. وفي التعدين، أنتج المزيد من حديد الصب، وزاد عدد الأفران العالية وصنعت المطارق الآلية، واستخدمت آلات تصفيح. إلا أن هذه التحولات بقيت امتيازاً لبضعة مشروعات. وبصورة عامة، بقي معلمو المسابك روتينيين. إلا أن نهوض الخطوط الحديدية سوف يسرع صعود التعدين الحديث. وتراجع الخشب أمام الفحم الحجري. ففي عام ١٨٤٧، كان هناك ١٠٧ أفران عالية تعمل بالفحم الحجري مقابل ٤١ فرناً عام ١٨٤٠، ويمثل الحديد المصبوب بالفحم الحجري ٤٥ من الإنتاج الفرنسي. وتعمم استعمال الآلة البخارية. وبالتالي، نمت الصناعة المنجمية مع أن فرنسا كانت مرغمة، على الرغم من ضروب التقدم في الاستخراج، على استيراد حوالي ثلث الفحم الذي تستهلكه.

وهذه التقلبات أدت إلى شيء من التركز. ويلاحظ أدولف بلانكي، في كتابه عن "الطبقات العاملة عام ١٨٤٨":

"إننا نرى، كل يوم، زوال الورشات الصغيرة والعمل المبعثر والمهن المنزلية. فالصناعة تنظم في مصانع هائلة تشبه ثكنات أو أديرة، مزودة بعتاد ضخم تخدمه محركات ذات قوة لا حدود لها. ويتكدس العمال بالمئات، وأحياناً بالألوف في هذه المخابر القاسية حيث يتعرض عملهم الخاضع لأوامر الآلات مثلها للتقلبات الناجمة عن تنوعات العرض والطلب".

وبالفعل، تلاحظ بداية تركز في مغازل القطن، خاصة في منطقة مولوز. إلا أن صناعة الفحم الحجري هي التي يظهر، فيها، التركز في أوضح

صـــوره. ففـــي عـــام ١٨٤٥، تشـــكلت "شـــركة منـــاجم اللـــوار" الـــتي حظيـــت باحتكـــار حقيقـــي. وفي التعديـــن، كـــانت مجموعـــة كـــروز وتشـــــرف علـــــى مناجم فحـــم وحديـــد وعلـــى أفـــران عاليـــة وآلات تصفيـــح. وكـــانت أســـرة دو وندل تملك أربعة أفـــــران عاليـــة وعشـــر آلات تصفيـــح وســـبعة مصـــانع ومنـــاجم فحم في حـــوض الوارنـــدت.

ولا يـــدور الأمـــر حـــول نمـــو مســـتمر. فقـــد أوقفـــت الأزمـــــــات النـــــهوض الاقتصـــادي علـــى عـــدة كـــرات، عـــام ١٨٣٦ أو عـــام ١٨٤٦. ومـــن جهـــــة أخـــرى، مـــا تـــزال المشـــروعات الكبـــيرة اســـتثناء في فرنســـا منتصـــف القـــــرن هذه. وحـــــتى في صناعـــة القطـــن الـــتي كـــانت ضـــروب التقـــدم التقـــني، فيـــها، ســـريعة نســـبياً، شـــوهد تعـــايش مختلـــف أنمـــاط المشـــــروعات الصناعيـــــة. وفي منطقة رامس، ظلت صناعـــــة الصـــوف مبعـــثرة. وكـــانت الصناعـــة المترليـــة تمثـــل أربعـــة أخمـــاس صنـــع أقمشـــة الكتـــان والخيـــش. وبقيـــت الصناعـــة التعدينيـــــة الصغيرة حية في كثير مـــــن المحافظـــات. وظـــل عمـــال "مصنـــع بـــاريس" ومحـــترفو الفـــن وســـلع الـــترف وعمـــال نســـيج الورشـــــات الصغـــــيرة والخيـــــاطون والخياطات وصناع الأزيـــــاء عديديـــن جـــداً.

ففرنسا انخرطـــــت، حقـــاً، في حركـــة الثـــورة الصناعيـــة (التعبـــير اســـتعمله إميـــل بوريـــه منـــذ ١٨٤٠). ولكـــن تلـــك عمليـــة "ذات أطـــوار تســـارع وتبـــــاطؤ" (جان بوفييه). واســـــتجرت الحركـــة تغـــيرات بالنســـبة للطبقـــة العاملـــة. وكـــانت تغيرات كمية على اعتبـــار أنـــه قـــد أحصـــي، حـــوالي ١٨٤٧، مـــا يـــتراوح بـــين خمسة وســـتة ملايـــين عـــامل صنـــاعي، وإن لم تكـــن بروليتاريـــا المصنـــع لا تمثـــل ســـوى اقـــل مـــن ربعـــهم بكثـــير. وكـــانت تغـــيرات كيفيـــة أيضـــاً. فالمصـــانع الحديثـــة تســـتخدم أعـــداداً كبـــيرة مـــن النســـاء والأطفـــال والعمـــال اليدويـــين. وهذه هـــي بدايـــة أزمـــة التـــأهيل المـــهني. ويلاحـــظ إميـــل بوريـــه ذلـــك عـــام ١٨٤٠. فقـــد كتـــب يقـــول: "لا يســـتطيع العـــامل أن يســـتمتع بعملـــه. إنـــــه لا يراه يظهر تحـــت أصابعـــه. إنـــه يتعـــب دائمـــاً ولا يخلـــق شـــيئاً". وهـــو يؤكـــد،

على هذا النحو، أطروحات فورييه حول فقدان العمل لأهميته في نظام "الحضارة". فضروب تقدم المكننة تتفاقم بالقسر وتقوي الانضباط وتلغي هذا النوع من الجاهزية التي كانت محل اعتزاز الحرفي حتى حين تكون ظاهرة فقط.

وتغير طابع العلاقات بين أرباب العمل والعمال. ولا شك في أن لدى بوريه، وخاصة فيلارميه، نزوعاً إلى إسباغ المثالية على نموذج العلاقات القديم، ولكنهما ينتهيان وهذا تعبير بوريه، إلى "أن الأسرة الصناعية قد انحلت". ويضيف بوريه قائلاً: "في المشاغل الكبيرة التي ستغرق، فيها، أغلبية العمال، لا يوجد متدربون ولا صناع ولا معلمون، لا يوجد، فيها، سوى أجراء ومدير ورؤوس أموال. والعامل ليس، من وجهة نظر رأس المال، سوى عنصر إنتاج لا يميزه شيء عن العناصر الآلية: والهدف هو أغزر إنتاج وأقل كلفة... لقد أصبح العامل من قلة الاعتبار في الصناعة الميكانيكية الكبيرة، وأصبحت مهارته وذكاؤه من قلة الأهمية في حضور الآلات المدهشة التي يديرها دون أن يفهمها غالباً، بحيث أنه لا ينسب إليه، أبداً، أي نصيب من ازدهار الصناعة". وهذا ما يقوي النتيجة التي سبق أن وصل إليها منظرون اشتراكيون، أي أن المجتمع كان مؤلفاً من مجموعات متباينة المصالح، من طبقات متنازعة.

ومن جهة أخرى، فإن التجمع في مشروع واحد واطراد شروط العمل وتركز العمال في بعض الأحياء (إذا كان هذا التمييز غير موجود، بعد، في باريس، فقد كان يلاحظ في غيرها) سهلت الوعي الطبقي. واتجه التمرد الفردي إلى الذوبان في تمرد جماعي. وكان هذا مستنبتاً ستستطيع أن تنمو، فيه، بذور الاشتراكية. إلا أنه لم يكن لدى "البروليتاريين الجدد" القادمين من الأرياف أي تقليد سياسي. ولذلك، نادراً ما سوف يخرج من صفوفهم قادة عماليون. وظلت ضروب غضبهم، لمدة طويلة، تذكر بضروب غضب الفلاحين في السابق. وسوف تتخذ إضراباتهم

طابع "عاميات عمالية".

وعام ١٨٤٠، من هذه الناحية، ذو دلالة كبيرة جداً. فقد كان سنة أزمة، سنة هياج جماعي، سنة ازدهار نصوص اشتراكية وتحريات حول الشرط العمالي. وفي باريس، كان عمال المهن القديمة هم الذين يوجهون المضربين، كالعامل الخياط ترونسان الذي كان قد نظم، في السابق، إضراب عام ١٨٣٣، مثل سويرو، الخياط بدوره، وفينيي نحات الحجارة. ولكن الحركة الجديدة مست، في الأرياف أيضاً، عمال غزل القطن وعمال المناجم الذين ينتمون، على وجه الدقة، إلى هذه النماذج الصناعية التي يتضاعف، فيها، "البروليتاريون الجدد". ومن خلال هذا الهياج، نفهم تعقيد هذا العالم العمالي.

فلدينا، إذن، كخاتمة، طبقة عمالية هي أقلية في الأمة، متزايدة العدد ولكنها ما تزال متغايرة جداً، وليست العناصر المتقدمة، فيها، سياسياً وأيديولوجياً، بصورة عامة، تلك التي تنتمي إلى أحدث الفروع الصناعية. ومن هنا جاء عدم التساوي والتمايز في دخول الاشتراكية المتعددة الصور فوق ذلك.

اكتشاف "الجحيم" العمالي

ولكن، على الرغم من أن "البروليتاريين الجدد" ليسوا، بعد، ناشري الاشتراكية، فإن الكشف عن شروط حياقم سيقدم ما يشبه التبرير للمدارس الاشتراكية ويدعم، على هذا النحو، نفوذها في قسم من الرأي العام. وهذا الرأي العام قد تأثر، فعلاً، كما لمسنا ذلك، بالفتن والمظاهرات العمالية بين ١٨٣٠ و١٨٣٤. وقد هزته، من جديد، إضرابات عام ١٨٤٠. فليس، إذن، من قبيل الصدفة أن تطرح أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية للمسابقة، على وجه الدقة، السؤال التالي: "على أي شيء يقوم البؤس، ما هي العلامات التي يتجلى تحتها في مختلف

البلدان، ما هي أسبابه؟". وقد منحت الجائزة لأوجين بوريه (من أجل قسم من عمله على الأقل) الذي نشر كتابه تحت عنوان "حول بؤس الطبقات الكادحة في إنكلترا وفرنسا". وبمبادرة من الأكاديمية، أيضاً، كان فيلرميه قد أجرى تحقيقه الكبير المنشور عام ١٨٤٠: "لوحة الحالة الجسدية والمعنوية للعمال المستخدمين في مشاغل القطن والصوف والحرير. ويدور الأمر، مع مؤلفات بيغود ومورروغ، حول تحريات كان لها أكبر الصدى. ولكن فكرة "الإملاق" العمالي أثارت أدباً غزيراً في عهد ملكية تموز. وهذا الأدب، وكان مسيحي الإلهام غالباً، يرمي، أيضاً، إلى تحذير السلطات العامة والصناعيين من تهديدات سكان بؤساء للنظام الاجتماعي. فقد عرف النظام القديم متسكعي الأرياف، وهناك، الآن متسكعو المعامل، العمال الذين طردتهم من الإنتاج الأزمات أو تحسسهم لقسر المصنع الحديث. ويشير بوريه إلى "سكان المدن الكبرى العائمين، هذه الكتلة من الرجال الذين تدعوهم الصناعة إلى محيطها ولا تستطيع تشغيلهم وتبقيهم، دائماً، احتياطياً تحت رحمتها". هل الطبقات العاملة طبقات خطرة؟ لا شك في أن هناك نمواً للإجرام في الأحياء الشعبية. ولكن الحق هو أن الأمر لا يدور إلا حول جزء من الطبقات العاملة، حول ما سوف يسميه ماركس "البروليتاريا الرثة". وعلى كل حال، فإن البؤس، وخاصة البؤس العمالي، هو، إلى حد بعيد، أصل الإجرام كما هو أصل الدعارة. وهو ما تضاف إليه ظاهرة الخوف الاجتماعي. فلم يعد أفراد منظور إليهم معزولين هم من تعتبرهم البورجوازية مجرمين إمكانيين، بل أصبحت تنظر هذه النظرة إلى مجموعة اجتماعية مأخوذة في جملتها وتبدو خارج المجتمع: "بالنسبة لبورجوازيي باريس، الطبقات الكادحة تقع على هامش المدينة وتبقى هكذا، على الصورة نفسها التي كانت عليها، في العهود القديمة، هذه الفئات من السكان التي كانت تختلط مع الجماعات الإجرامية" (لويس شوفالييه).

ولا أهمية لكل التفسيرات المتنوعة التي قدمها كل المحققين، آنذاك، والأدوية التي وصفوها. فالمهم هو اللوحة العامة التي لم تفعل الدراسات اللاحقة سوى إثبات صدقها.

ولا شك في أن هناك متغيرات كبيرة جداً في الشرط العمالي بموجب المناطق والمهن. وليس للمتوسطات أهمية في هذا الظرف بديهياً. فعلى وجه الإجمال، تنخفض الأجور الإسمية أو تبلغ سقفها في حين تتجه كلفة الحياة إلى الارتفاع. ويكتب فيلرميه: "يجب أن نسلم بأن الأسر التي يكون أجر عملها قليلاً لا تعيش على مكاسبها إلا بقدر ما يكون الزوج والزوجة يتمتعان بصحة جيدة ويستخدمان طيلة السنة وليس فيهما أي عيب ولا يتحملان عبئاً آخر خلاف عبء طفلين في عمر صغير. افترضوا طفلاً ثالثاً أو بطالة أو مرضاً، فإنه في إمكان نقص التوفير والعادات أو مناسبة طارئة فقط أن تفرض عليهما، منذ ذلك الحين، أقسى شروط العمل وأدنى الأجور وأن تقودهما، أخيراً، إلى الخراب. إن الأجور المنخفضة هي التي تفسر، أيضاً، أهمية سوق الرهونات. فالإيداعات والسحوبات تحدد إيقاع نبض البؤس الشعبي".

كيف لا يتبين، منذ ذلك الحين، أن هذا الإملاق هو من طبيعة جديدة، وأن البؤس العمالي يتبع تقدم الرأسمالية كظله وأن تراكم رؤوس الأموال يسبب تراكم صنوف العذاب؟ كيف لا يعارض، بصورة أوضح، أيضاً، من الماضي، المجتمع كما هو عليه بالمجتمع الذي يجب أن يكونه، بل وبالمجتمع كما يمكن، على حد قول بعض الاشتراكيين، أن يكون؟

المنظرون البورجوازيون ومسألة التدخلية

على الرغم من هذه الكشوف، يبقى منظرو البورجوازية متفائلين. والأمر هو كذلك مع شارل دونوايه (١٧٨٦-١٨٦٢) وفريديريك باستيا (١٨٠١-١٨٥٠) الذي يحمل كتابه المنشور بعد موته عنواناً مميزاً:

"التناغمات الاقتصادية". فيرى الاثنان أن للطبقات الشعبية نصيبها في التقدم العام للرخاء. وفضلاً عن ذلك، فإن بعض البؤس "شر ضروري". "فهو يقدم مشهداً صحياً لكل القسم الذي بقي سليماً من أقل الطبقات سعادة. إنه مصنوع ليملأها فزعاً صحياً. إنه يحضها على الفضائل الصعبة التي تحتاج إليها للوصول إلى وضع أفضل". وعلى كل حال، يجب أن تمتنع الدولة عن التدخل. تلك هي الأفكار التي استعادها، دون كلل، على خطى ج.ب. ساي المتوفى عام ١٨٣٣، علماء الاقتصاد الليبراليون مثل بلانكي البكر (١٧٩٨-١٨٥٤) وبيليغرينو روسي (١٨١٠-١٨٧٦) أو السان سيموني السابق ميشيل شوفالييه. وبعضهم يعود إلى الأطروحات المالتوسية. فقد كتب دونوايه: "لا أبالغ في شيء إذا قلت أننا أقل تبصراً بصدد تضاعف البشر منا بصدد تضاعف النباتات والحيوانات وأننا نتباهى بذلك"...

وعلى الرغم من مذهب عدم تدخل الدولة الليبرالي، أقر، في ٢٢ آذار ١٨٤١، قانون ينظم عمل الأطفال. ذلك، في الحقيقة، أن عدداً من الصناعيين (خاصة صناعيي مولوز) كانوا قد وصلوا إلى هذا الاقتناع القائل أن "المجتمع مهدد بسكان هزيلين ودون مبادئ" بسبب عمل الأطفال المبكر. كان أجل الحياة المتوسط، في مولوز، ٢٨ سنة وشهرين بالنسبة لابن عامل مشغلي. ولم يعد، بالنسبة لابن عامل مطبعة، سوى ٩ سنوات و٨ أشهر، وسنة وخمسة أشهر لابن عامل غزل. وكانت نسبة الوفيات تطرح بتعابير طبقية:

فقد صرح البارون دوموروغ، في خطاب في مجلس الشيوخ (في ٤ آذار ١٨٤٠)، قائلاً. "لو أن طاغية، لو أن فاتحاً أجنبياً استولى على فرنسا وخاطبنا بهذه اللغة: إن مئات الألوف من أطفالكم سينتزعون منكم، منذ أن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم، ويدخلون إلى مؤسسات سينحط، فيها، تنظيمهم الجسدي ويضعف سنة بعد سنة، حيث سيؤهلون لأكثر

ما يرثى لـــه في الانحـــلال البشـــري بـــدلاً مـــن أن يتعرفـــوا علـــى المتعـــة والمـــرح وحريـــة عمرهـــم، حيـــث ســـيتبلدون، أخلاقيـــاً، أولاً، ثم يخبلـــون عقليـــاً ليصبحـــوا، بعـــد ذلـــك، واهـــني الأعصـــاب جســـدياً، حيـــث ستفقد بنـــاتكم براءهن حتى قبل سن البلوغ، أقـــول أنـــه لـــو تصـــرف طاغيـــة علـــى هـــذا النحـــو مع فرنسا، فلن يكون هنـــاك مـــا يكفـــي مـــن الكراهيـــة والإهانـــات ليلقـــى بهـــا فوق رأسه. حسناً! إن نير الصناعـــة هـــو هـــذا".

وما سبب أول تدخـــل للدولـــة في العلاقـــات بـــين أربـــاب العمـــل والعمـــال هـــو الشعور بخطر مـــزدوج: خطـــر علـــى الربـــح (ســـكان عـــاملون هزيلـــون) وخطـــر على النظـــام العـــام (بروليتاريـــا يمكـــن أن يدفعـــها بـــؤس متطـــرف إلى الثـــورة). ولكن تدخل الدولـــة هـــذا خجـــول إلى أقصـــى حـــد. فمـــن المناســـب، بالنســـبة لروســـي، "المضـــي ببـــطء"، "البـــدء بتجـــارب". والواقـــع هـــو أن قـــانون ١٨٤١ ينطبق، فقـــط، علـــى المشـــاغل والمصـــانع والورشـــات الميكانيكيـــة أو الـــتي فيـــها نار مستمرة أو علـــى كـــل مصنـــع آخـــر يســـتخدم أكـــثر مـــن عشـــرين عـــاملاً مجتمعين في ورشـــة. وحـــدد عمـــر القبـــول بثمـــان ســـنوات ونـــص علـــى عـــدد كبـــير مـــن الاســـتثناءات. وفـــوق ذلـــك، فقـــد عـــهد بالمراقبـــة إلى تجـــار أو صنـــاعيين انســـحبوا مـــن الأعمـــال أو إلى رجـــال تربطـــهم مصالحـــهم أو علاقاتهم بالصناعيين: أعضاء مجـــالس عامـــة، ضبـــاط متقـــاعدون أو أطبـــاء.

وقد أشار صنـــاعي مـــن الفـــوج، دانيـــال لوغـــران الـــذي اشـــتهر بالحملـــة الـــتي قادهـــا لخفـــض يـــوم عمـــل الأطفـــال، إلى ضـــرورة إصلاحـــات عـــام ١٨٤٧. وقـــد كتـــب يقـــول: "إن الأفكـــار الشـــيوعية والاشـــتراكية بـــدأت في الانتشـــار والترســـخ بســـرعة مخيفـــة وقـــد تســـتطيع التحـــول إلى وقـــائع، بـــين عشـــية وضحاهـــا، وتهديـــد كـــل المجتمـــع طالمـــا أن المجتمـــع لم يعـــالج هـــذه التجـــاوزات غـــير المقبولـــة". فيبـــدو، فعـــلاً، إذن، أن أصـــل الإصلاحـــات الاجتماعيـــة يقـــع، في قسم منه، في الخـــوف مـــن المذاهـــب الاشـــتراكية. وهـــذا هـــو البرهـــان علـــى كونها قد نمت وبدأت تجد تقبلاً خـــلال عـــهد ملكيـــة تمـــوز.

تكاثر المذاهـــب الاشـــتراكية

نلاحـــظ، فعـــلاً، تكـــاثراً للمذاهـــب الاشـــتراكية. فمنـــذ عـــام ١٨٤٣، يعلـــن برودون أن "عهد لويـــس فيليـــب، كتحضـــير لنظـــام جديـــد، هـــو أحـــد أجـــدر عهود التاريخ بالملاحظـــة". وبســـبب هـــذا التكـــاثر في النظريـــات، مـــن الصعـــب والتعسف اقـــتراح تصنيـــف.

وتأثير الأنظمة الكبـــيرة الـــتي أنضجـــت قبـــل ١٨٣٠ مـــا يـــزال حاسمـــاً، ويزيـــد في ذلـــك كـــون فورييـــه لم يرحـــل إلا عـــام ١٨٣٧. ولكـــن الورثـــة الأكـــثر منهجيـــة والأكـــثر تبســـيطاً يـــترعون إلى تبســـيط النظريـــات الـــتي يعلنـــون انتماءهم غليها بحيث تكون أكـــثر فـــهماً علـــى الجمـــهور. وهـــم ليســـوا، أيضـــاً، عديمـــي الإحســـاس بـــالطفرات الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة الـــتي تتســـارع وبالنضالات العمالية التي تتضخـــم. ومـــن جهـــة أخـــرى، غالبـــاً مـــا يصعـــب، في ميـــاه التيـــارات الاشـــتراكية المختلطـــة، تمييـــز مـــا يعـــود إلى هـــــذا أو ذاك، إلى ســـان ســـيمون أو إلى فورييـــه. فبعـــد ١٨٣٠، رفـــض كثـــير مـــن الســـان ســـيمونيين نظـــام الأب أنفانتـــان التيوقراطـــي ودعمـــوا المدرســـة الفورييريـــة دون أن يتخلـــوا، مـــن أجـــل ذلـــك، عـــن كليـــة أفكـــار ســـان ســـيمون. والتقـــى الجمـــهوريون والاشـــتراكيون، بصـــورة متواتـــرة، في ســـجن ســـانت بيلاجـــي.

وتزايـــد دخـــول الأفكـــار الاشـــتراكية، أو الميالـــة إلى الاشـــتراكية علـــى الأقـــل، إلى العمـــق. وقـــد أثـــرت في الأدب، وإذا كـــان هنـــاك عمـــال شـــعراء أو مؤلفـــو أغنيات، فـــإن عـــدداً مـــن الكتـــاب قـــد تـــأثروا، بالمقـــابل، بالاشـــتراكية وزاد في تأثرهم كون الأمر لا يـــدور حـــول مذاهـــب مغلقـــة لا يمكـــن فـــهم هـــذا أو ذاك منها. واستمد الاشـــــتراكيون مـــن مصـــادر متنوعـــة ومتعارضـــة غالبـــاً. وبعضـــهم يلقـــى، مـــن جديـــد، بتأثـــير البابوفيـــة الجديـــدة، مـــا وراء عمالقـــة الطوباويـــة، الانتمـــاء إلى الســـلالة الثوريـــة. وتعايشـــت الألوهيـــة مـــع الماديـــة. وكـــان الإنجيل، بقدر فلسفة الأنـــوار، أصـــل مشـــاريع اشـــتراكية.

وأخيراً، كان هناك، حسب المذاهب، نمو لانتشارها غير متساو ومختلف سوسيولوجياً. وتزايد الانفصال، دون شك، بين الطبقات الاجتماعية. إلا أن التطور التاريخي لم يفصل بينها كلياً بعد. فهناك ما يشبه خليطاً مبهماً من مطامح ومصالح متباينة. وإذا كانت البروليتاريا قد كبرت، فإنها لم تتميز جيداً، خاصة في المدن القديمة، عن كتلة من صغار البورجوازيين (حرفيين وأصحاب حوانيت) القلقين والذين يحنون إلى الماضي. وهذا الحنين وذاك القلق يغذيان اشتراكية معينة تنزع، في الصميم، عن طريق الترابط، إلى حماية صغار المنتجين من التركز الذي يعلن عن نفسه. وفي الوقت نفسه، اكتشفت نخبة بروليتارية، ما زالت أقلية صغيرة، في النظريات الاشتراكية احتجاجاً ضد استغلالها، تفسيراً لهذا الاستغلال ووسيلة للتحرر منه.

ولا ينتمي الاشتراكيون، عامة، بأصولهم، إلى البروليتاريا. فكوربون الذي كان أحد محرري "الورشة" يلاحظ، عام ١٨٦٣، أن قادة المدرسة "كانوا يؤخذون من زهرة الشبيبة المتعلمة. فلم يكن في الجماعة السان سيمونية ولا في الكتيبة الفوريبرية من رسل أو منتمين سوى أناس متعلمين. بل إن معظمهم كانوا يملكون طاقات تقنية من الدرجة الأولى". ويتابع كوربون قائلاً: "عرفت العالم الشيوعي بدرجة كافية من الجودة، واستطعت أن أتابع تسلسل الفكرة. ولاحظت عن كثب، عمل التأهيل والدعاية، ولن يصدقني أحد عندما سأقول أنه لا الموجهون ولا الدعاة كانوا من الطبقة العاملة"، ينبغي التحفظ على رأي كوربون، ولكنه ينطبق على من يسميهم "الموجهين".

ولمعظم هؤلاء المصلحين الاجتماعيين أصول اجتماعية مشتركة أو، على الأقل، متقاربة جداً. فهم أبناء بورجوازية الموظفين أو الحرفيين أو التجار الصغيرة ولا يتميزون، أبداً، إلا بالموارد المتواضعة، دائماً تقريباً، التي تملكها أسرهم. فيجب عليهم أن يعملوا ليكسبوا حياتهم. فقد بدأ فيليب

بوشيه مستخدماً في جمرك باريس، وكان لويس بلان، على التوالي، مربياً وناسخاً وكاتباً لدى مسجل عقود، وإيتيين كابيه كان ابن معلم حرفي صانع للبراميل كان، مع ذلك، على يسر كاف لتشغيل عدة صناع. وإذا كان فكتور كونسيديران خريج البوليتكنيك، فأبوه كان ضابطاً ثم طابعاً ثم مدرساً. وكان بيير لورو قد عمل لدى صراف. وكان برودون من أصل حرفي وفلاحي. وتيودور ديزامي، وكان ابناً لتاجر خمور، بدأ كمعلم.

وسوف يلعب الأطباء دوراً هاماً في الحركة الاشتراكية، كبوشيه وغيبان والشيوعي بيو (الذي مارس الطب على الرغم من أنه لم يكمل دراسته) وفرنسوا راسباي أو أوليس تريلا. وقد شرح لنا طبيبان، بذاهما، كيف يمكن للمهنة أو توجههما نحو الاشتراكية. فقد كتب الدكتور غيبان، السان سيموني النانتي، عام ١٨٣٥، ما يلي:

"إنهم (أي الأطباء) يعرفون أكثر من أي كان الحياة الحميمة للبروليتاري. إنهم يعرفون، كل يوم، آلامه الجسدية والمعنوية. فغالباً ما صعدوا هذه السلالم الصعبة والمظلمة للوصول إلى غرفته حيث يئن من مرضه لأنه ليس لدى زوجته وأبنائه، كل يوم، المقدار الذي يلزمهم من الخبز. لقد رأوا لديه أخف الأمراض في مبدئها تتفاقم، في كل ساعة تحت تأثير هذه الفكرة الهذيانية. إنهم يعلمون أنه ينتج كثيراً من الأطفال وأنه يربي القليل منهم. وهم لا يستطيعون ترك هذه الوقائع تحت عيونهم دون الانتباه إليها. فإليهم يعود جعلهم من أنفسهم المدافعين عن الشعب أمام الطبقات الغنية مقدمين لهذه الأخيرة لوحة أمينة لضروب بؤسها".

ويذكر بوشيه، من جانبه، أن "هناك طبقة من البشر الذين يراهم الأطباء والذين تبقى آلامهم خافية عن عيون الناس: هذه الطبقة هي الأكثر عدداً... هي طبقة الأجراء".

وعلى الرغم من كل شيء يمكن محاولة إلقاء الضوء على بعض التيارات

الأساسية- وهو ما قد يقودنا إلى تمييز ورثة متفاوتي الأمانة، ومتفاوتي الانشقاق، اشتراكية مسيحية، اشتراكية دولتية وديمقراطية، اشتراكية برودون الأول (برودون ما قبل ١٨٤٨) والشيوعية ذات الوجوه البالغة التنوع والتي نمت اعتباراً من عام ١٨٤٨.

التيارات الاشتراكية والشيوعية الرئيسية

ورثة أم منشقون؟

نادرون هم الاشتراكيون الذين لم يتأثروا، في ذلك العصر بسان سيمون أو فورييه. إلا أن هذا التراث قد نمي على أيدي ثلاثة رجال: فكتور كونسيديران، بيير لورو، وقسطنطين بيكور.

فكتور كونسيديران

انضم إلى فورييه، مبكراً جداً، فكتور كونسيديران (١٨٠٣-١٨٩٣)، وهو جوراسي مثل فورييه وبرودون (مولود في سالان) وخريج البوليتكنيك، ثم ضابط مهندس مستقيل. وأصبح قائد المدرسة بعد وفاة المعلم. وأراد نفسه مبسطاً أولاً. وأسس، كصحفي، في ١ حزيران ١٨٣٢، مع بوليتكنيكي آخر هو جول شوفالييه، جريدة "المشرك" التي غدت، في أيلول، "الإصلاح الصناعي". وخلق، عام ١٨٣٦، "الكتيبة". ولكنه كرس نفسه، خاصة، اعتباراً من ١٨٤٣ لجريدة "الديمقراطية السلمية"، وهي يومية عرفت إشعاعاً أكيداً. وبفضل هذا الجهد في النشر والدعاية، تشكلت جماعات فوريبرية في المحافظات. وأمكن، قبل ١٨٤٦، إحصاء ما لا يقل عن أربعمائة عنوان لكراس أو نشرة متنوعة فوريبرية الإلهام. إلا أن المدرسة الفوريبرية لم تمس العمال إلا قليلاً. فقد كان الأتباع يخرجون من صفوف صغار صناعيي المحافظات، وخاصة من بين المثقفين: أطباء، مهندسين، محامين ومعماريين. وكانت "الديمقراطية

السلمية" مقروءة جداً، أيضاً، من جانب الضباط وضباط الصف.
وكانت نشرات "المكتبة المشركية الصغيرة" تضع في متناول الجميع الأفكار الكبرى للمذهب: الفوضى الصناعية، تنظيم العمل، السجل، هذه هي القنانة. ونشر كونسيديران، بين ١٨٣٥ و١٨٤٤، الأجزاء الثلاثة لكتابه الكبير "المصير الاجتماعي" ثم، عام ١٨٤٧، "مبادئ الاشتراكية" و"بيان الديمقراطية في القرن العشرين" الذي يستعيد تصريح "الديمقراطية السلمية". وعرف كتابه "عرض موجز لنظام فورييه المشركي" نجاحاً كبيراً: سبع طبعات أو إعادات طبع بين ١٨٤٥ و١٨٤٨.
ويكتفي كونسيديران، بصورة أساسية، بتنهيج مذهب فورييه. فهو يصف، بحماسة، "كومونته المجتمعية"، وبعد أن يصفها يهتف قائلاً: "هذا أجمل من أن لا يكون الحقيقة نفسها، مصير الإنسان، إرادة الله على الأرض". وكونسيديران يرى، كمعلمه، أن "قوة اكتساح" المذهب المجتمعي لا يمكن إلا أن تأتيه من "تجربة على نطاق صغير جداً، على أرض مساحتها نصف فرسخ مربع". ولكن كونسيديران يلح، أكثر من فورييه، على تنازع الطبقات الذي يقوى مع تحول الطبقات المتوسطة إلى بروليتاريا.
وقد كتب يقول: "ينزع المجتمع إلى الانقسام، بصورة متزايدة التميز، إلى طبقتين كبيرتين: عدد صغير يملك كل شيء، أو كل شيء تقريباً، في مجال الملكية والتجارة والصناعة، والعدد الكبير الذي لا يملك شيئاً ويعيش في تبعية جماعية مطلقة لمن يملكون رأس المال وأدوات عمل ويرغم على بيع سواعده ومواهبه وقواه لسادة المجتمع الحديث الإقطاعيين لقاء أجر زهيد".
إلا أن كونسيديران لا يؤمن بنجع عمل البروليتاريا الطبقي سواء أدار الأمر حول تكتلات أم حول الثورة: ومن هنا، في البداية على الأقل،

شيء من اللامبالاة بطبيعة السلطة السياسية وشكلها. ألا يحتوي الجزء الأول من "المصير الاجتماعي" إهداء إلى لويس فيليب الذي هو "بوصفه رئيس حكومة وأول ملاك في فرنسا الأشد اهتماماً بالنظام والازدهار العام والخاص، بسعادة الأفراد والأمم؟ ويرتاب كونسيديران في الاقتراع العام: "لا ينبغي تزويد المواطنين بقوة الحق المشترك المتعلق بحكم المجتمع إلا بقدر ما يكتسبون كفاءة وقدرة كافيتين من أجل أن يعالجوا، دون خطر، حقاً على هذه الدرجة من الارتفاع والرهبة". ولا يمكن للديمقراطية أن تقتصر على مؤسسات سياسية تبقى شكلية بصورة خالصة: "كلمة ديمقراطية تطرح، بمعناها الاشتقاقي، ... قضية العصر، تحرير الطبقات الكادحة". وبما أن "الديمقراطية السلمية" قد لوحقت حوالي نهاية ملكية تموز، فقد تقرب كونسيديران من الجمهوريين.

ولا نقاش في أن فكتور كونسيديران كان أكثر تلاميذ فورييه نفوذاً. ولكنه اجتهد، سريعاً جداً، في تخليص الفوريرية من عدد من الآراء المتعلقة بنشوء الكون وكرس قسماً كبيراً من وقته لتنظيم حركة فوريرية. وهذا ما سيقوده، عام ١٨٤٩، إلى التمييز بين "المدرسة" و"الحزب":

للمدرسة العلم وتوجيه الحركة والتحقيق العملي للنظرية السلسلية. وللحزب تمجيد المبادئ العامة، مبادئ السلام والحرية والعدالة وتنظيم العمل والوحدة الاجتماعية، وتطبيق هذه المبادئ على أمور السياسة الداخلية والخارجية وعلى قضايا الانتقال. الحزب يستمد من العالم، والمدرسة تقع في العالم".

بيير لورو

مثال بيير لورو (١٧٩٧-١٨٧١) يثبت أننا لن نستطيع أن نجري، اعتباراً من ١٨٣٠، تمييزاً قاطعاً جداً بين بقايا السان سيمونية والفوريرية، من

جهـة، والمعارضة الجمهورية مـن جهـة أخـرى. فبيـير لـورو كـان مـن الكاربونارو. وكـان يأسـف لأنـه ولـد بعـد مـوت روبسـبيير. وقـد أغرتـه السان سـيمونية فجعـل مـن "الغلـوب" الـتي كـان مديرهـا وطابعـها، معـاً، الناطقـة بلسـان السـان سـيمونية. وانطلـق في "مهمـة" مـع بيـير دوجييـه وهيبوليـت كـارنو، إلى بلجيكـا، ثم ليـون، وإلى جنـوب فرنسـا. وقـد أصبـح عامل طباعة بعـد أن توجـب عليـه، مـن أجـل كسـب عيشـه، التخلـي عـن مسابقة البوليتكنيـك، ونظـم مـع أخيـه حـول دروسـاً للعمـال. ومنـذ عـام ١٨٣١، قـاطع، وقـد ضـاق بهذيانـات الأب أنفانتـان، المدرسـة الـتي أصبحـت طائفـة، كنيسـة، وتقـرب مـن الجمـهوريين، في حـين كـان فكـره يتغـذى مـن بعـض عنـاصر الفوريرية. وكـان تأثـيره في معاصريـه عظيمـاً. وإذا كـان أنغلـز قـد رأى، بشـيء مـن التسـرع، أن "الرجـل الطيـب" كـان "مجنوناً كلياً"، فإن هاينـه كـان بعـده، "بـلا مـراء"، "أحـد كبـار الفلاسـفة"، وكـان لامـارتين يتنبـأ بـأن "بيـير لـورو سـيقرأ يومـاً كـم يقـرأ العقـد الاجتمـاعي". إلا أن تأثـير بيـير لـورو كـان يمـارس علـى بعـض الأوسـاط الأدبيـة (أوجـين سـو، جـورج صـاند الـتي ارتبـط معـها بصداقـة وفكتـور هوغو بعد ١٨٤٨) أكـثر ممـا يمـارس علـى الحركـة العماليـة. وهـو يلـح، دون شـك، علـى التعـارض بـين البورجوازيـة والبروليتاريـا: "نضـال البروليتاريـا الحـالي ضـد البورجوازيـة هـو نضـال الذيـن لا يملكـون أدوات العمـل ضـد الذين يملكونهـا". ولكـن بيـير لـورو، كسـان سـيمون، يسـتمر، علـى الرغـم من هذا التأكيد، في معارضـة الملاكـين، مـن جهـة، بالصنـاعيين والعمـال مـن جهة أخرى. وهو يميز بـين الطبقـات بموجـب النسـبة المئويـة الـتي تملكـها مـن الـثروات القوميـة. والجـهد الـذي بذلـه بيـير لـورو، في كتابـه "حـول البلوتوقراطيـة"، لتحليـل الواقـع الاجتمـاعي جديـر بالملاحظـة. فـهو يسـتند إلى الإحصائيـات، وإلى سـجلات الضريبـة خاصـة، ويدحـض النظريـة الرسمية التي تقـول أن فرنسـا أمـة ملاكـين. والواقـع هـو أن رأس مـال فرنسـا

يخص ١٩٦ ألف رئيس أسرة هم، في الوقت نفسه، الوحيدون الذين لهم حقوق سياسية. وهو يتوصل، إذ ذاك، إلى نتائج مختلفة عن نتائج سان سيمون:

"سوف يمكن أن يحل عهد جديد، ولكنه لا يوجد، فيما يتعلق بالوقت الحاضر، من عهد جديد إلا للرأسماليين. وقد قام خطأ سان سيمون على تسميته هؤلاء الرأسماليين صناعيين وعلى تسمية رأس المال صناعة. إن كون القوة قد انتقلت من أيدي العسكريين إلى أيدي الرأسماليين أمر لا نقاش فيه، وكون الحكومة قد وقعت في أيدي مالكي الثروات أمر بالغ الوضوح. ولكن كون هؤلاء الملاكين، هؤلاء الرأسماليين، أو ما يراد إطلاقه عليهم من أسماء، قادرين على تنظيم حكومة حقيقية، هو ما نرفض، باسم الطبيعة البشرية، قدرتهم على فعله".

والواقع هو أنه لا وجود لمنافسة حقيقية على اعتبار أن "عدداً صغيراً من الرجال يمتلكون أدوات العمل وحدهم".

وتصل أطروحات لورو إلى اقتراح إصلاحات. ولكن يا له من خليط من حذر وخيال! والبرهان هو نظرية "الدورة". فيما أن السماد البشري هو أكثر ما يوجد إخصاباً، فإن كمية هذا السماد ستكفي لإخصاب "الأراضي اللازمة للتغذية بالحبوب" بالنسبة للجنس البشري على اعتبار أن كل إنسان يقدم، أيضاً، منه، ما يكفي لإعادة إنتاج كمية الأقوات الضرورية لغذائه الخاص. يا لها من طوباوية أيضاً! طوباوية ممتزجة بصوفية.

"بما أنني، على الرغم من ضعفي، أتصور عالماً تسوده المساواة، فيجب أن يكون هذا العالم هو ما أراده الله".

وقد كان أول معاون لبيير لورو أخاه جول (١٨٠٥-١٨٨٣). وكان، وهو عامل الطباعة، قد تأهل في "درجة العمال" السان سيمونية. ومنذ ١٨٣٣، كان قد نادى، في نداء إلى عمال الطباعة، بـ"رابطة هدفها

جعل العمـــال مـــالكين لأدوات عملـــهم".

قسطنطين بيكـــور

قسطنطين بيكـــور (١٨٠١-١٨٨٧) منشـــق عـــن السان ســـيمونية، مثـــل بيـــير لـــورو، تشبع بالبرودونيـــة والمســـيحية. وقـــد كـــان قليـــل التأثـــير، إلى درجـــة كافيـــة، في معاصريـــه، ومـــع ذلـــك فـــإن إســـهامه في الفكـــر الاقتصـــادي دخـــل التاريخ، ومـــاركس اعـــترف بذلـــك عـــدة مـــرات. ففـــي عـــام ١٨٣٧، أصـــدر بيكـــور "الاقتصـــاد الاجتمـــاعي لمصـــالح التجـــارة والزراعـــة والصناعـــة والحضـــارة، بشـــكل عـــام، تحـــت تأثـــير تطبيقـــات البخـــار (الآلات الثابتـــة، الخطـــوط الحديديـــة، الســـفن البخاريـــة إلخ...). وأهـــم مؤلفاتـــه "النظريـــة الجديـــدة للاقتصـــاد الاجتمـــاعي والسياســـي" نشـــر عـــام ١٨٤٢، ونشـــر "جمهوريـــة الله" عـــام ١٨٤٤. ولـــدى بيكـــور مزيـــج عجيـــب مـــن التحليـــلات الواقعيـــة، بـــل الماديـــة، والتـــأملات الأخلاقيـــة- الصوفيـــة. فـــهو، في الوقـــت نفســـه، يلاحـــظ أن الوقـــائع الاقتصاديـــة محـــددة، تؤثـــر في الإرادة والطبـــاع والفعالية، ويكتـــب أن "اقتصـــاد مجتمـــع مـــا يقـــوم علـــى المعتقـــدات الأخلاقيـــة والدينية التي يأخذ بها عمـــوم أعضائـــه". والشـــر يـــأتي، دون شـــك، مـــن "إرادة البشر السيئة"، ولكنه يـــأتي، أيضـــاً، مـــن "عـــدم كمـــال البيئـــة الاقتصاديـــة الـــتي يغوصون فيـــها". "فليـــس البشـــر، إذن، هـــم، وحدهـــم، الذيـــن يجـــب تغيـــيرهم أو، بالأحرى، ليســـت إرادتهـــم هـــي، وحدهـــا، الـــتي يجـــب تطـــهيرها، بـــل مـــا يجـــب إصلاحـــه، في الوقـــت نفســـه، هـــو العلاقـــات التجاريـــة، أي البيئـــة". وانطلاقاً مـــن سيســـموندي، يخلـــص بيكـــور إلى أن العمـــل هـــو مصـــدر الـــثروة الوحيـــد علـــى اعتبـــار أنـــه يخلـــق أدوات العمـــل أو يجعلـــها إنتاجيـــة. إلا أن للملاك ســـلطة مطلقـــة علـــى أدوات العمـــل هـــذه. فـــهو يســـتطيع، إذن، قســـر العامل "لمصلحـــة الآخريـــن". وغـــير المـــالكين لا يملكـــون حريـــة (لأنـــه لا حريـــة دون ملكية)، وفقـــدوا المســـاواة الطبيعيـــة.

ويميز بيكور تحولات قصيرة الأجل وتحولات طويلة الأجل. ففي المباشر، يجب على الحكومة إجراء تحسينات تتعلق بيوم العمل والتحديد القانوني لمقدار الأجر وحق العمل. ويجب أن تشرع في أشغال عامة كبرى وأن توفر التربية المهنية للجميع. وبعد ذلك، سوف تقدم قروضاً، وهو ما سيسمح للرأسماليين والعمال بالتحالف لتكوين نمط صناعي جديد. ولن يكون ذلك سوى الطور الأول لأنه "طالما بقي نمط العمل على حاله، فإنه لن يعجل، في شيء، من التوزيع الأكثر إنصافاً للمزايا الاجتماعية، بل ويعيقه". وينبغي أن لا يجري الاعتراض على المكننة ولا على التركز الذي تؤدي غليه. فالآلات، في جوهرها، "ربطية"، و"ذات صفة اشتراكية" و"مجمعة". و"التركز الصناعي" يخلق شروط طور ثان، هو الانتقال من الملكية الفردية إلى الملكية "المجتمعية". "إن كل شيء، في الماضي والحاضر، يبدو متجهاً إلى جمعنة أدوات العمل، أي إلى تخليص الأرض والمواد الأولية من التسلط والإقطاع الفرديين بتشكيلها، دون الشعور بذلك، في ملكية مشتركة لا تقسم". وتقدم أدوات الإنتاج ووسائل النقل ينقلب، هو نفسه، ضد تملكها الخاص. فهل يمكن أن نتصور "الأفراد مالكين للخطوط الحديدية"؟ فسوف يكون ذلك "احتكاراً فاضحاً". وحتى لو برر ذلك باعتبارات أخلاقية، في قسم كبير منها، فإن بكور يبدو من أوائل منظري الجمعنة.

ولكن، كيف يمكن التوصل إلى ذلك؟ كيف السبيل إلى تسريع الحركة على الأقل؟ إن بيكور لا يرغب في "الحلول الصاخب لديمقراطية صغرى وسابقة لأوانها". وعلى البورجوازية أن تفهم أن الإقراض المجاني لرؤوس الأموال سوف "تستحق عليه فضلاً أمام المجتمع وأمام الله". وفضلاً عن ذلك، أليس في هذا مصلحتها؟ ذلك أن "ترك الجماهير فقيرة يعني تخليد الفتنة".

مس الشقاء الجسدي والمعنوي للبروليتاريا الحساسية المسيحية. وكانت معظم التحريات الكبرى عن الإملاق من صنع كاثوليكيين. إلا أنه يجب التزام الحذر الشديد في الحديث عن اشتراكية مسيحية. وحتى لو اقتصرنا على تعبير الكاثوليكية الاجتماعية، فنحن لسنا إلا أمام أول تجلياتها. فبعضهم (الأغلبية) توقفوا عند مستوى الصدقة معتبرين الفقير، منذ ذلك الحين، البروليتاري الحديث. ومضى بعضهم ابعد من ذلك على صعيد مذهبي وصعيد الفعالية العملية معاً. وهؤلاء الأخيرون، "قناصة الحركة (دوروسيل) هم، وحدهم، الذين يستحقون لقب اشتراكيين مسيحيين.

المتصدقون

ينتمي الفيكونت ألبان دوفيلنوف-بارجومون (١٧٨٤-١٨٥٠) إلى المجموعة الأولى. فقد اكتشف، في محافظة الشمال حيث كان محافظاً، البؤس العمالي. ولكنه، خلافاً لكثير من أنصار الشرعية، لم يناد بالرجوع إلى اقتصاد زراعي وبطريركي. ففي عام ١٨٣٤، نشر "الاقتصاد السياسي المسيحي أو أبحاث في طبيعة وأسباب الإملاق في فرنسا والخارج وفي وسائل التخفيف والوقاية منه". وهو يتصور وضع المعوزين في أراض غير مزروعة إلى حينه. وعلى عكس الليبراليين، يؤيد تدخل الحكومات التي هي "وزراء العناية الإلهية المرئيون". ومنذ ذلك الحين، يبدو له مبدأ تدخلها "مطلوباً من الدين والسياسة معاً. ولكن هذا التدخل يجب أن يقتصر على تنظيم "رسمي وعام" للصدقة. وفضلاً عن ذلك، فلا خلاص خارج تنمية التربية المسيحية ولجم شهوة الحاجات الموهومة التي تفاقمت بها النظريات حول السعادة الدنيوية.

وتوجد النتائج نفسها في مؤلفات البارون جوزف-ماري دوجيراندو (١٧٧٢-١٨٤٢) مثل "زائر الفقراء" الصادر عام ١٨٢٠ (أربع طبعات

بين ١٨٢٠ و١٨٢٧)، وخاصة في "حول الإحسان العام" (١٨٣٩).
ويجري الانتقال، بصورة طبيعية تماماً، من الإحسان إلى ممارسته. فمنذ ١٨٢١، تأسست "جمعية الأخلاق المسيحية". وأوزانام (١٨١٣-١٨٥٣) الذي كان يعرف السان سيمونية ينادي، خاصة، بتنمية التوفير وتنمية الجمعيات العمالية. وهو يكرس نفسه، خاصة، لجمعية "القديس منصور" التي خلقها عام ١٨٣٣. ونديـن لأرمان دوميلون (١٨٠٧-١٨٧٧) بتشكيل "جمعية اقتصاد الصدقة".
وتعطي كلمتا "صدقة" و"إحسان" معنى لمبادرات لا تتجاوز، أبداً، حدود نوع من الشعبانية المسيحية التي تدفع شباناً كاثوليكيين، بورجوازيين وأرستقراطيين، إلى اكتشاف البؤس العمالي. ولا أثر في أبوية أعمال الخير هذه لما يمكن أن يسمى، حتى في ذلك العصر، عصر الصياغات غير الدقيقة، اشتراكية. وأرمان دوميلون الذي يعالج، فوق ذلك، نظريات اشتراكية، يلاحظ، عام ١٨٤٦، أنه لا يرى في هذه المذاهب "سوى جهد من الذكاء البشري لإعادة صنع الفردوس الأرضي ومحو آثار الخطيئة الأصلية بعمل البشرية ودمها".

أوجين بوريه

أوجين بوريه (١٨١٠-١٨٤٢) الذي سبق أن أشرنا إلى تحرياته يمضي أبعد من ذلك. فهو ضد الإبقاء على الوضع الاجتماعي القائم ونقده يصل، أحياناً، إلى نقد الاشتراكيين. إنه يسأل قائلاً: "ألا يقابل تراكم رؤوس الأموال في عدد صغير من الأيدي وظهور هذه الفرديات المركنتيلية الكبيرة التي تسمى رأسماليين، بطبيعة الحال، التكوين المنتظم لأسر الأزمنة الإقطاعية صاحبة الامتيازات هذه التي كانت تمتص، لمصلحتها، كل الاستقلال وكل الحقوق؟". وقد ألقى الضوء على ظاهرة التميز الاجتماعي. فقد كتب يقول: "العمال المعزولون عن الأمة، الذين

أخرجوا من الجماعة الاجتماعية والسياسية، وحدهم مع حاجاتهم وضروب بؤسهم، يتحركون للخروج من هذه العزلة المخيفة وربما يفكرون، كالبرابرة الذين شبهوا بهم، في عملية غزو".

وبوريه لا يؤمن بنجع الإحسان أبداً: "أمل مداواة الفقر بالصدقة يعني محاولة جنونية لسحب مياه المحيط". وقد تم الوصول إلى فصل بين راس المال والعمل. وبما أن هذا الطلاق لا يمكن أن ينسب إلى الله، فعلى البشر تصحيح مؤسساتهم.

ولكن، كم من تناقضات في الإصلاحات التي اقترحها بوريه! إنه يتوجه بالنداء إلى أصحاب المشروعات ولكنه يعترف، في الوقت نفسه، بأن لا رأفة في قوانين المنافسة الرأسمالية: "لا يمكن الاعتماد على مثل هذا التجرد: فلم تعط أية طبقة، حتى الآن، مثالاً عنه، لا في فرنسا ولا في غيرها". وهو ينادي بنظام نقابي يجعل تقسيماً تدريجياً للملكية الريفية والصناعية أمراً ممكناً. إلا أنه يبدو له أن نمو التركز الصناعي يعود إلى قدر لا يمكن رده.

"حالة" لامونيه

حالة لامونيه (١٧٨٢-١٨٥٤) تبين، حقاً، أنه يمكن أن يكون هناك، في ذلك العصر الانتقالي، تباين بين نظريات شخص ما وطبيعة التأثير الذي يمارسه. وإذا كان لامونيه قد تخلى عن الكنيسة، فذلك، قبل كل شيء، لاعتبارات اجتماعية: فالكنيسة غير الوفية لرسالتها، لم تقف إلى جانب "العبيد الحديثين" هؤلاء الذين هم البروليتاريون.

"ما هو البروليتاري، اليوم، أمام الرأسمالي؟ أداة عمل. صحيح أنه، وقد حرره الحق الحالي وأصبح حراً بشخصه قانوناً، ليس ملكية من يستخدمه القابلة للبيع والشراء. ولكن هذه الحرية ليست سوى وهم. الجسد ليس عبداً أبداً، ولكن الإرادة هي كذلك. هل سيقال أن الإرادة التي ليس لها

سوى الاختيار بين موت بشع وقبول قانون مفروض عليها هي إرادة حرة؟ إن سلاسل العبودية الحديثة وقضبانها هي الجوع".

إلا أن لامونيه يرفض نعت "الاشتراكي" أو، بتعبير أضبط، يحدد، هو نفسه، حدود اشتراكيته.

"لقد سئلنا: هل أنتم اشتراكيون أم لا؟ إذا فهم من الاشتراكية أحد الأنظمة التي فرخت، منذ سان سيمون وفورييه، من كل الجهات والذي يكون طابعه العام هو النفي الصريح أو الضمني للملكية والأسرة، فلا، نحن لسنا اشتراكيين، وهذا معروف. وإذا قصد بالاشتراكية مبدأ الترابط المقبول كأحد الأسس الرئيسية للنظام الذي يجب أن يقوم، من جهة، والإيمان الثابت بأن هذا النظام سيشكل، ضمن الشروط الراسخة للحياة الجسدية والمعنوية، مجتمعاً جديداً لن يكون هناك شيء يشبهه، في الماضي، من جهة أخرى، فنعم، نحن اشتراكيون، وأكثر من أي كان، وسوف يرى ذلك جيداً" (رسالة العمل، ١٨٤٨).

ومن باب أولى أن يرفض لامونيه الشيوعية كما يتصورها بعد ١٨٤٨. ومن هنا المساجلات، لا سيما مع الشيوعيين ديزامي وكابيه. فالشيوعية، في نظر لامونيه، هي عودة إلى الرق، "العمل الإجباري، المكافأ حسب مشيئة الدولة التي تفرضه". والملكية هي، بالنسبة للفرد، ضمانة استقلاله وهي الشرط المادي للحرية. ومن جهة أخرى، فهو لا يغفر للمدارس الشيوعية كونها، جملة، مادية وملحدة.

والحلول التي يقترحها لامونيه حذرة وقليلة الأصالة وتدخل في تيار تلك الفترة الديمقراطي. فيجب أن يشارك العمال في الحكومة. وهكذا سوف يستطيعون إلغاء القوانين التي تضعهم في حالة دنيا وإقامة حرية التجمع وتطوير "تعليم واسع مجاني".ولكن، بما أن الملكية هي "الإنسان في أحد عناصره الضرورية ككائن واقعي أو فردي"، فمن المناسب، على وجه خاص، جعل كل واحد ملاكاً بجعل الائتمان ديمقراطياً. وهو يعود إلى

ذلك، عام ١٨٤٨، بتقديمه مع أوغست باربيه "مشروع تكوين ائتمان اجتماعي" وببيان كون رؤوس أموال لن تقدم من جانب الدولة ما لم يتجمع العمال في روابط.

ومع ذلك، ينتمي لامونيه إلى تاريخ الاشتراكية الفرنسية. فكل شيء يمتزج لديه، الأبوية الإنجيلية، طوباوية حرفي محفوظة أو مبعوثة والرؤية الرسولية لمجتمع متجدد القوى. وهو لم يكن مرشداً على الرغم من أنه يبدو، في بعض البرهات، نبياً يقود البروليتاريين نحو الأرض الموعودة. ولكنه كان أكثر من شاهد. فقد كان المدافع عن الفقراء. وهو يتخذ جانب العمال كلما تمردوا. وهذا التضامن قاده إلى السجن عندما انحاز، عام ١٨٤٠، للعمال المضربين بنشره كراسه: البلد والحكومة.

"ذلك أنه يجب أن تعرف، أخيراً، أيها الشعب، أنه لا يحق للعمال أن يتفقوا من أجل تحسين وضعهم. فيمكن في حجر البورصة المشبوه الدنيء، الاتفاق على نهب أصحاب الريع السذج.. فهذا مسموح به جداً.. ولكن، أية جريمة شائنة هي أن يتفق العمال، لا من أجل السرقة، ولا من أجل النهب، بل لأجل الاهتمام بأكثر مصالحهم إلحاحاً! فلا شيء يمكن أن يكفر عنها سوى السجن".

وكانت لغة لامونيه تمس شعباً إذا كان قد ابتعد عن الكنيسة، فقد بقي حساساً للإشارات المسيحية. "كان هذا الكاهن قد احتفظ بروح رسول" (رونيه ريمون). وكان يجري تخاطف كتبه في بضعة أيام. ويروي سانت بوف أن العمال الذين كانوا ينضدون "أقوال مؤمن" "كما لو كانوا قد استثيروا واستخفهم الفرح". وقد نفذت ثمان طبعات من الكتاب في سنة واحدة. ولنيرة المساجلة دلالة اجتماعية. فقد جرى الحديث عن "بابوف يرويه النبي حزقيال" عن "إنجيل الانتفاضة"، عن "قيامة التمرد". وبالفعل، فقد برر لامونيه، عدة مرات، الحق في العصيان: "هناك حالات لا يكون، فيها، استعمال القوة للإطاحة بحكم

قمعي أو لتحقيق خير كبير يعترف به المجتمع بوصفه كذلك مشروعاً، فقط، بل واجباً أيضاً". فعندما يريد الشعب "تحسينات احتماعية" تتوقف عليها سعادته، "فإن الجمهوريين لا يؤمنون، أبداً، بأنهم مرغمون على انتظار تحقيقها بفعل الزمن"، "هناك أعمال يجب قبولها وحروب مقدسة لا ينبغي الخوف منها".

إن إسهام لامونيه في تشكيل الفكر الاشتراكي ضئيل جداً، ولكننا لا نستطيع، دون الإشارة إلى تأثيره، أن نفهم بعض وجوه الاشتراكية الفرنسية لما قبل ١٨٤٨.

بوشيه

وبالمقابل، يمكن إطلاق صفة "اشتراكي مسيحي" على فيليب- جوزف- بنجامين بوشيه (١٧٩٦-١٨٦٥). وتطوره ليس شخصياً، بل هو، كتطور بعض رفاق دربه، نتيجة سلسلة خيبات. فهو ينتمي إلى ذلك الجيل الذي كان في حوالي العشرين من العمر لدى سقوط الإمبراطورية. وهو لا يكتفي، وقد كان ليبرالياً أولاً، بنشاط ثقافي خالص وينخرط في الفحميات. وكانت خبرات لا تلبي توقعه لأنها لا تصل إلى برنامج تحويلات احتماعية. ومن هنا جاءت جاذبية السان سيمونية التي اكتشفها بوشيه مع "المسيحية الجديدة". وأصبح أحد محرري "المنتج"، ولكنه انفصل عام ١٨٢٩، عن بازار وأنفانتان. وهو يريد أن "يدعم حقيقة سان سيمون التي جرى تجاهلها ونقاءه الذي عتم عليه" ضد تلاميذ متعسفين. وعلى كل حال، فإن أخذه بأطروحات "المسيحية الجديدة" يرده، بواسطة دروب روحية، إلى المسيحية الأولى، أي إلى إيمان طفولته الكاثوليكي. وفي الوقت نفسه، يتحمس لثورة ١٧٨٩ التي لا تبدو له مبادؤها مناقضة لتعاليم الإنجيل. ونشر، بالتعاون مع ب-س.رو- لافيرن، بين ١٨٣٤ و١٨٣٨، "التاريخ البرلماني للثورة الفرنسية". وبقدر

ما كان يجب على الاشتراكية الفرنسية أن تبحث عن إلهامها في التقليد الثوري، فإن هذه المجموعة ستسهم في نمو الفكر الاشتراكي.

ووضع بوشيه، آنذاك، "شبه مذهل بالنسبة للعصر" (ج.ب.دوروسيل). فهو وضع رجل وفي لذكرى اليعاقبة التي يريد رد الاعتبار إليها، ديمقراطي، جمهوري، اشتراكي وكاثوليكي يراعي العقائد مراعاة صارمة على الرغم من أنه لم يكن، كما يبدو، ممارساً للعبادات. وفكره الأساسي هو فكر التقدم، وهو "واقعة اكثر من بشرية"، "واقعة عمومية". ولكن "من يقل تقدماً يقل هدفاً نهائياً". ففي التاريخ ثابت وتحولات. فيه ثابت على اعتبار أن البشرية تسير نحو شراكة لكل البشر تحت قانون أخلاقي واحد هو قانون الله. وهناك تحولات لأن الهدف يعبر عن نفسه، في المجتمعات المتعاقبة، بصور متنوعة وخاصة. ونجد لدى بوشيه "في وقت واحد رجل العلم المشغوف بالوضعية والنبي الذي يرسم رؤية دينية للتقدم الاجتماعي والكوني" (ف.أ.إيزامبير).

وبوشيه، مثل لامونيه، يرفض الشيوعية، وذلك على الأقل كما عرفها، في رأيه، بابوف الذي يتهمه بـ"مصادرة الحرية لمصلحة المساواة"، "بتجنيد الشعب ووضعه في ثكنات". إلا أنه يعترف بأن "المجتمع الأوروبي مقسوم، من حيث المصالح المادية، إلى طبقتين" حيث "الأولى منهما تملك كل أدوات العمل"، والأخرى "لا تملك شيئاً" و"تعمل من أجل الأولى". وصاحب المشروع "كائن طفيلي يعيش على حساب الذين يستغلهم". والأجراء "لا يملكون خياراً، فينبغي عليهم، منذ يومهم الأول تقريباً، أن يكسبوا معيشتهم... وحيث يأتون إلى العالم، يعملون ويموتون مرتبطين بالأرض كالجوفات البحرية".

وحل بوشيه هو "الشراكة العمالية" التي نادى بها منذ ١٨٣١. فهو لم يكن، في البداية، يتصور تطبيق هذا النظام إلا على العمال الذين "يحتاجون إلى القليل من الأدوات". وكان يفكر، آنذاك، أن التشارك لا

يمكن أن يعني عمـــال المصـــانع. و لم يكـــن يتصـــور لهـــؤلاء ســـوى تنظيـــم للعمـــل يتضمن توزيعـــاً لليـــد العاملـــة وتعرفـــة للأجـــور. ثم قـــدر البوشـــيزيون أن نظـــام الشراكة كان "قـــابلاً للتطبيـــق علـــى كـــل أنـــواع الأعمـــال". فيحتفـــظ بقســـم مـــن الأربـــاح لتكويـــن رأس مـــال أساســـي "غـــير قـــابل للاســـتلاب" ويخـــص الرابطـــة كاملـــة. وليـــس لواحـــد مـــن الشـــركاء الحـــق في المطالبـــة بتوزيـــع راس المال هـــذا الـــذي هـــو مخـــزون "غـــير قـــابل للاســـتلاب والحـــل". وإذا انســـحب عضـــو، أو إذا اســـتبعد، فإنـــه لا يتلقـــى أي نصيـــب مـــن هـــذا المخـــزون الـــذي أسهم عمله في تنميتـــــه. ورأس المـــال الاجتمـــاعي هـــذا صفـــة أساســـية للشـــراكة البوشيزية. فبفضلـــــه لا يمكـــن حـــل الرابطـــة. وهـــي تســـتطيع اســـتقبال شـــركاء جدد دون أن يقدموا شـــيئاً إلى رأس المـــال. وتبقـــى، علـــى وجـــه الدقـــة، مســـألة رؤوس أمـــوال الانطـــلاق. والحلـــول تتنـــــوع: صنـــــدوق عـــــام للائتمـــــان، المصارف التضامنية التي تخلقـــــها الروابـــط نفســـها، قـــرض مباشـــر مـــن الدولـــة أو مجرد ضمانة مـــن الدولـــة، إســـهام توصيـــة مـــن جـــانب الرأسمـــاليين إلخ... فكـــل الفرضيـــات قابلـــة للتصـــور. وضمـــن هـــذه الـــروح، تأسســـت، عـــــام ١٨٣٤، "رابطة عمـــال الجواهـــر المذهبـــة" الـــتي عاشـــت حـــتى ١٨٣٧. وهـــي لم تضـــم، أبداً، عدداً كبيراً مـــن الأعضـــاء.

وكـــان بوشـــيه قـــد فكـــر، أولاً، أن كـــل عمـــال المهنـــة الواحـــدة ســـيتجمعون حـــول الروابـــط الأولى. ثم وصـــل البوشـــيزيون، وقـــد أصبحـــوا أكـــثر تواضعـــاً، إلى اعتبـــار أن الرابطـــة يجـــب أن تكـــون مجـــرد "مثـــال وأصـــل لكـــل المســـتغلين وبرهـــان علـــى أن تنظيـــم العمـــل ممكـــن". ومـــهما يكـــن مـــن أمـــر، فبمـــا أن إحدى متحـــولات اشـــتراكية ذلـــك العصـــر كـــانت الترابطيـــة، فيجـــب أن نعـــد بوشيه أحـــد ملـــهمي هـــذا التيـــار. وجريـــدة "الورشـــة"، لســـان حـــال المصـــالح المعنويـــة والماديـــة للعمـــال، الـــتي بـــدأت في الصـــدور في أيلـــول ١٨٤٠ خلقـــت، قبل كل شيء، لنشـــر الأفكـــار البوشـــيزية.

وجــد منظــرون آخــرون أســـباب اشـــتراكيتهم في التقليـــد الجمـــهوري والديمقراطي. وهـــم يؤكـــدون ضـــرورة الشـــرط السياســـي المسبق لكـــل تحويـــل للمجتمع. وتلك هي حال لويـــس بـــلان مثـــلاً. أهـــو اشـــتراكي ســـلطوي؟ أهـــو ديمقراطـــي اشـــتراكي؟ ليـــس في هـــاتين التســـميتين المشـــروعتين كلتيـــهما أي تناقض. فـــهؤلاء الاشـــتراكيون ديمقراطيـــون بقـــدر مـــا يـــرون أن الشـــعب يجـــب أن يشـــارك في إدارة الدولـــة. وهـــم ســـلطويون علـــى اعتبـــار أنهـــم يـــرون كـــل شيء يتوقف علـــى مبـــادرات الدولـــة.

لويس بـــلان

ليس لويـــس بـــلان (١٨١٢-١٨٨٢) مفكـــراً أصيـــلاً ولا منظـــراً حقيقيـــاً وهـــو يدين بالأساســـي مـــن مذهبـــه للاشـــتراكيين الذيـــن ســـبقوه أو الذيـــن عـــاصروه. إلا أن ســـلطته كـــانت عظيمـــة. وهـــي تعـــود، دون شـــك، في قســـم منـــها، إلى وضوح عروضـــه وإلى كـــون المؤلـــف المذهـــبي الوحيـــد يتبـــاين، بصغـــر حجمـــه، مع المؤلفـــات الضخمـــة للاشـــتراكيين الآخريـــن: فـــهو لا يتجـــاوز أبعـــاد مقـــال في مجلة. ومن جهة أخرى، لفـــت لويـــس بـــلان الأنظـــار بتنـــوع مبادراتـــه. فـــهو صحفـــي. وقـــد شـــارك في تحريـــر "الناســـيونال" و"الحـــس الســـليم" وفي "المجلـــة الجمهوريـــة". وأســـس، عـــام ١٨٣٩، "مجلـــة التقـــدم السياســـي، الاجتمـــاعي والأدبي"، ثم "جريـــدة الشـــعب" وأصـــدر، مـــع بيـــير لـــورو وجـــورج صـــاند، "المجلـــة المســـتقلة" (١٨٤١-١٨٤٨). وفي عـــام ١٨٣٤، دخـــل في لجنـــة تحريـــر "الإصـــلاح". وهـــو مـــؤرخ في عصـــر كـــان النـــاس، فيـــه، مشـــغوفين بالتاريخ. ففي عـــام ١٨٤٤، أنجـــز نشـــر كتابـــه "تـــاريخ عشـــر ســـنوات" الـــذي انصب جهده، فيه، على إلقـــاء الضـــوء علـــى العلاقـــات الوثيقـــة الـــتي وحـــدت، خـــلال هـــذا العقـــد (١٨٣٠-١٨٤٠)، بـــين البورجوازيـــة وملكيـــة أســـرة أورليـــان. وصـــدر الجـــزءان الأولان مـــن كتابـــه "تـــاريخ الثـــورة" عـــام ١٨٤٧.

وتتقاسم ثلاثة مبادئ التاريخ: السلطة، الفردية والأخوة. ففي عام ١٧٨٩، هزم مبدأ السلطة، ولكن ذلك كان لمصلحة الفردية. فهناك ضرورة لثورة أخرى: وسوف تكون تلك ثورة الأخوة. ولنضف، أخيراً، أن لويس بلان سياسي، ديمقراطي، جمهوري. وهو يشترك، في نهاية ملكية تموز، اشتراكاً فعالاً في حملة المآدب. فلويس بلان، خلافاً لاشتراكيين آخرين من عصره، لم يكن عدم المبالاة بشكل الدولة ومضمونها الاجتماعي لأن الدولة هي التي ينتظر منها تحويل المجتمع: "لا يوجد إصلاح اجتماعي ممكن دون إصلاح سياسي، ذلك أن الأول هو الهدف والثاني هو الوسيلة".

وفي عام ١٨٣٩، نشر لويس بلان، في "مجلة التقدم"، مقالاً بعنوان "تنظيم العمل". وهذا النص الذي أعيد إصداره في نشرة عرف نجاحاً فورياً (بيعت منه ستة آلاف نسخة في بضعة أيام) ودائماً (عشر طبعات بين ١٨٤١ و١٨٤٨). وكان واحداً من أكثر ما قرأه العمال الفرنسيون من كتب اشتراكية.

وقد استلهم بلان نقده للمنافسة من فورييه مباشرة. فالمنافسة هي، بالنسبة للشعب، "نظام إبادة". وهي، أيضاً، بالنسبة للبورجوازية، "سبب إفقار وخراب فعال دون انقطاع". فهو "المضخة الماصة للصناعة المتوسطة، للتجارة المتوسطة وللملكية المتوسطة. إنها، في كلمة واحدة، إفناء البورجوازية لمصلحة بضعة أوليغارشيين صناعيين". وفي ميدان العلاقات الدولية، تضاعف المنافسة الخصومات وتتفاقم بها.

ويقوم الدواء على خلق "ورشات اجتماعية" جرى تصورها كتعاونيات إنتاجية. وسوف تقدم الدولة، بفضل قرض، رؤوس الأموال اللازمة لإقلاع هذه الورشات. وسوف تعين الحكومة الملاكات خلال السنة الأولى، ثم تسمى بالانتخاب. وسوف تكون الأجور متساوية. ولكن، وبما أن هذه المساواتية لا يمكن أن تقبل إلا بقدر ما "تكون تربية جديدة"

قد غيرت "الأفكار والطباع"، فإن لويس بلان يتخيل فترة انتقالية سوف يحدد، فيها، تسلسل الوظائف الفرق بين الأجور وسوف يقسم الربح الصافي إلى ثلاثة أقسام: "أحدها سيوزع، بحصص متساوية، بين أعضاء الرابطة". وسيستخدم الآخر في إعاشة المسنين والمرضى والمعاقين وفي "تخفيف الأزمات التي قد تصيب صناعات أخرى". والقسم الثالث "سوف يكرس لتقديم أدوات عمل للذين يودون الاشتراك في الرابطة بحيث تستطيع الاتساع بشكل غير محدود". والرأسماليون المدعوون إلى الرابطة "سيقبضون فائدة رأس المال الذي يكونون قد جاؤوا به، ولكنهم لن يشتركوا في الأرباح إلا بصفة عمال". وبالمقارنة مع نماذج المشروعات القديمة، تمتاز الورشة الاجتماعية بخلق شروط إنتاج كثيف وحث العمال على العمل بتقاسم الأرباح. ولن تزول المنافسة. ولكنها، إذ تقابل بين المشروعات الخاصة والورشة الاجتماعية، ستعمل لصالح هذه الأخيرة. فسوف تكون "المنافسة الصحية". و"سوف تجري دون فجاءات ولا هزات... بحيث تبلغ هدفها الذي هو الامتصاص المتعاقب والسلمي للورشات القديمة من جانب الورشات الاجتماعية. وهكذا، بدلاً من أن يكون كل رأسمالي ضخم، كما هو اليوم، سيد السوق وطاغيتها، فإن الحكومة ستكون الناظمة لها... في نظامنا، ستصبح الدولة سيدة الصناعة تدريجياً، وسنكون قد حصلنا، بدلاً من الاحتكار، على هزيمة المنافسة: الرابطة". وسوف يضبط الاقتصاد بفضل الورشة الاجتماعية: فسوف تخمد الأزمات باحتياطيات التضامن، وستخفض الآلة عناء البشر دون أن تؤدي إلى البطالة. وسوف يكون ذلك موت المنافسة الربوية والطفيلية "هذا الجرح البليغ في المجتمع" الذي ندد به فورييه. فسوف تملك الورشة، فعلاً، مخازنها وتصبح، على هذا النحو، تعاونية استهلاكية. ولن تعود هناك ديكتاتورية مصارف، إذ ستمول الورشة، بنفسها، نموها الخاص. ويمكن الامتداد بالنظام إلى الأرياف.

فبما أن التركات الجانبية سوف تلغى، "فإن القيم التي ستتألف منها ستعلن ملكية للكومونة. وسوف تصل كل كومونة، على هذا النحو، إلى أن تكون لنفسها ملكية تجعل غير قابلة الاستلاب". واستثمار هذه الملكية سيجري وفقاً للقوانين المطابقة للقوانين التي تنظم الصناعة".

وهكذا يقوم، لدى لويس بلان، ترابط بين الأهداف السياسية والطموحات الاجتماعية. وهذه الأخيرة لا يمكن أن تلبى إلا بتدخل الدولة. فبالنسبة للويس بلان، "الدولتي المتحمس" (م.دومانجيه)، ليس "وجود السلطة مستقلاً عن وجود المجتمع إلى حد يمكن، معه، تحويل الأخير دون المساس بالأولى". فلا يمكن للدولة، إذن، أن تبقى الدولة الأورليانية التي تسيطر عليها البورجوازية الكبيرة. فكي تصبح "مصرفي الفقير"، يجب أن تحول إلى الديمقراطية بالاقتراع العام. "ولا يمكن إخصاب الاشتراكية إلا بنفس السياسي". وهذا التحويل لا يتضمن أي عنف. ولا شك في أن "تحرير العمال سيزعج أكثر مما ينبغي من العادات"، ولكنه "تضايق أكثر مما ينبغي من المصالح" في "الظاهر" وليس في "الواقع". وهذه "الثورة الضرورية إلى هذه الحد يمكن، بل ومن السهل، إنجازها سلمياً"، "لأنه لا يوجد شخص لا مصلحة له في افتتاح نظام اجتماعي جديد مهما كان موقعه ومرتبته وثروته"، "ذلك أن واجب كل إنسان متعلق ببلده يقوم على التقريب بين كل طبقات المجتمع وإفهامها أن مصالحها متضامنة وتوحيدها في عاطفة وفاق وأخوة نبيلة".

ويمكن أن نقترب من لويس بلان، إلى حد ما، فرنسوا فيدال (١٨١٢-١٨٧٢) الذي جاء من السان سيمونية، وخاصة من الفوريرية، والذي نشر، عام ١٨٤٦، كتاب "حول توزيع الثروات أو حول العدالة التوزيعية في الاقتصاد الاجتماعي". وهو يؤيد التعاونيات التي هي تعاونيات توصية للرأسماليين أو للدولة.

إننا نتعرف، في عمل لويس بلان، على الفكرتين الكبيرتين اللتين سيستعيدهما العمال الباريسيون، عام ١٨٤٨، كمطلبين ملحين: تنظيم العمل والحق في العمل. ولكننا نكتشف، فيه، أيضاً، أصل الأوهام الكبيرة حول تواصل المصالح والوفاق والأخوة.

برودون ما قبل شباط ١٨٤٨ أو برودون الأول

"يمثل السيد لويس بلان الاشتراكية الحكومية، الثورة عن طريق السلطة، كما أمثل، أنا، الاشتراكية الديمقراطية، الثورة عن طريق الشعب". هكذا يعرف برودون، نفسه، في "اعترافات ثوري"، "الهوة التي تفصله عن لويس بلان. والصحيح هو أن هذا الكلام يعود إلى عام ١٨٤٩. فقد كان هناك فشل لويس بلان وكثير من الأوهام التي تبددت. وربما كان التعارض، قبل شباط، أقل حسماً بين الرجلين، بين الاشتراكيين.

ومن المؤكد أن برودون يسيطر بشخصيته وإشعاعه على هذا الطور من تكاثر الاشتراكية الفرنسية. إلا انه لن يؤثر في الحركة العمالية إلا بعد ١٨٤٨. وعندما ولد، عام ١٨٠٩، كان قد سبق لسان سيمون أن نشر كتابه "مدخل إلى الأعمال العلمية للقرن التاسع عشر"، وتوفي عام ١٨٦٥ بعد سنتين من صدور "رأس المال". وهو يقع على هامش المدرستين الكبيرتين، السان سيمونية والفوريرية: "إنه برودون، برودون المستقل، المنعزل، الفريد" (أ.لابروس). وهو يبدو، حقاً، من حيث أصوله وتكوينه، ومن حيث تناقضاته أيضاً، رجل هذا المجتمع الانتقالي الذي يتعايش، فيه، "البروليتاريون الجدد" والحرفيون. ويدين برودون لهذا التوافق مع زمانه بنفوذه. ففي عصر يؤطر، فيها، الحركة العمالية، على نحو خاص، حرفيون أو عمال حرفيون، يجد هؤلاء "المناضلون" أنفسهم في برودون. ويسود هذا الوسط اتجاهان متواردان، أحياناً، ومتباينان أحياناً أخرى: تقليد العراة وما سوف يسمى البرودونية.

وقد كتب، عام ١٨٣٨، يقول: "ولدت وربيت في صميم الطبقة العاملة". وهذا ليس صحيحاً تماماً، وبرودون أقرب إلى الحقيقة حين يلاحظ: "إن ابن حرفي براميلي فقير وفلاحة فخور". إنه من فرانش كونتيه، وأبوه، كلود برودون، كان صبي براميلي في معمل جعة في بيزانسون. وكانت أمه طاهية وخادمة في الأعمال الكبرى، وبما أن الخراب قد حاق بمعمل الجعة، فقد أنشأ كلود برودون عملاً خاصاً به وأخذ يبيع الجعة التي كان يصنعها هو نفسه. وعاد، فيما بعد، إلى مهنة صانع البراميل. وفي عمر الحادية عشرة، دخل بيير-جوزف برودون ثانوية بيزانسون بمنحة دراسية. ولكنه أرغم بعد ست سنوات، وقد فقد أبواه الأرض الصغيرة التي كانا يملكانها، على قطع دراسته والعمل لكسب عيشه. فبرودون ينتمي، من حيث أصوله، إذن، إلى عالم العمال هذا التي كانت فعاليته حرفية وفلاحية معاً. وأصبح عامل مطبعة. ثم ترتب عليه، وقد أفلس المشروع الذي يعمل فيه، أن "يأخذ بزة رفيق الطواف حول فرنسا وعصاه ويبحث، من مطبعة إلى أخرى، عن بضعة أسطر ينضدها، عن بضعة مسودات يقرؤها". وفي بيزانسون، التي عاد إليها، عرض عليه أحد مواطنيه، الفوريبري جوست مويرون، وظيفة محرر في جريدة "الحيادي" التي أسسها عام ١٨٢٩. ورفض برودون لأنه لا يريد رقابة المحافظة. وعاد عامل مطبعة. ولكنه كان، عام ١٨٣٨ أيضاً، ضحية إفلاس مطبعة. وكان ذلك في الوقت نفسه الذي حصل، فيه، على منحة دراسية لمدة ثلاث سنوات من أكاديمية بيزانسون التي أنشأتها أرملة الأكاديمي المحافظ جداً أ.ب.سوار. فهاهو، إذن، في باريس التي يحس، فيها، ريفي بـ"الغربة". وكان، آنذاك، في التاسعة والعشرين من عمره. وهو نصف متعلم ذاتي. ولا شك في أنه كان تلميذاً لامعاً في ثانوية بيزانسون، ولكن ذلك كان حتى الإنشاء فقط. وكان عليه أن يحصل على الشهادة الثانوية، فيما بعد، ليحصل على منحة سوار. وقد

راكم المعارف على الصورة التي اتفق أن جرت عليها لقاءاته، متعلماً العبرية أو اللاهوت لدى طباعته الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة. واطلع على القواعد المقارنة وعلم اللغة. وفي باريس، اكتشف الاقتصاد السياسي. وكتاباته تكشف لنا عن قراءاته: آدم سميث، ريكاردو، ج.ب.ساي إلخ... وبما أن أكاديمية بيزانسون طرحت، للمسابقة، موضوع "حول فائدة الاحتفال بيوم الأحد من وجهة نظر الصحة والأخلاق والعلاقات الأسرية والمدنية"، فإن برودون عرض بحثه. ولم يحصل إلا على ميدالية برونزية لأن أكاديميي بيزانسون فزعوا من جرأة "تلميذهم" الذي كان يندد بالملكية بوصفها "آخر الآلة الزائفين"، وينهي خطابه بتهديدات للأغنياء الذين لا يريدون الاعتراف بحقوق العمل: "حسناً! نحن ندعو إلى القوة. أيها الملاكون دافعوا عن أنفسكم! ستكون هناك معارك ومذابح".

وفي السنة التالية، وللإجابة، أيضاً، عن سؤال طرحته أكاديمية بيزانسون للمسابقة، أطلق برودون نشرته: "ما هي الملكية؟ أو أبحاث في مبدأ الحق والحكومة". وكان بريسو هو الذي استعار منه هذه العبارة التي كادت تعرضه للملاحقات والتي أدت، على كل حال، إلى إلغاء منحته: "الملكية سرقة!". وتابع برودون اختراقه. فنشر بحثه الثاني "رسالة إلى السيد بلانكي" (١٨٤١) ثم "تحذير للملاكين" (١٨٤٢) الذي قاده إلى محكمة جنايات دوب حيث برئ من جهة أخرى. ودخل، بصفة وكيل مفوض، في مشروع لشحن الفحم كان قد أتى على تأسيسه، في ليون، زميله السابق أنطوان غوتييه. وبقي، فيه، خمس سنوات. وتركت له مهنته الجديدة التي تعلم، بفضلها، "عمل المحاسب"، أوقات فراغ وسمحت له بإقامات متواترة في باريس. وفي عام ١٨٤٣، أصدر "خلق النظام في البشرية أو مبادئ تنظيم سياسي". وجاء، أخيراً، في تشرين الأول عام ١٨٤٦، آخر مؤلفاته لما قبل ١٨٤٨: "نظام التناقضات

الاقتصادية أو فلسفة البؤس". ويحتمل أنه تابع، في هذه الأثناء، دروس آهرنز، وهو مهاجر ألماني كان يعلم في الكوليج دو فرانس تاريخ الفلسفة الألمانية. وقد التقى بكارل ماركس وبالصحفي الألماني كارل غرون، وفيما بعد بهرزن وباكونين. وفي عام ١٨٤٧، أقام برودون، نهائياً، في باريس وأصدر، في السنة نفسها، مع شارل فوفيتي وجول فيار، جريدة: "ممثل الشعب".

إن "برودون الأول"، برودون ما قبل ١٨٤٨، هو، خاصة، ناقد وأخلاقي. ومنهجه مجرد واستنتاجي. أيدور الأمر حول التنديد بالملكية مثلاً؟ إنه لا يريد كتابة تاريخ الملكية وبيان كيف تعاقبت أشكال الملكية المختلفة. فقد كتب يقول: "لم يعد تاريخ الملكية لدى الأمم القديمة، بالنسبة إلينا، سوى قضية تبحر في المعرفة وفضول". وهو لا يعالج، كذلك، المسألة في الاقتصاد السياسي بالتساؤل عما إذا كان التملك الخاص يخدم مصالح الإنتاج أم لا يخدمها. وهو، بقوة محاكمة أكيدة (ولكنها لا تنتمي إلا إلى المنطق المجرد)، وبغنى كبير جداً في الأسلوب، وببلاغة غاضبة (لا يمكن إلا أن تجعل المرء يفكر في جان جاك روسو الذي كان يكرهه مع ذلك) يبرهن على كون الملكية غير عادلة لأنه لا يمكن تبريرها. "بقوة المنطق وحدها، يدعي جر خصومه، وراءه، مقيدي الأيدي بمبادئهم الخاصة" (بوغليه). ولا توجد أية ذريعة صامدة للملكية. أيراد إعطاؤها الشرعية بالإشغال؟ في هذه الحالة، يحق لكل فرد أن يشغل كمية ما من الأراضي. إلا أن الأرض تمثل مساحة ثابتة في حين أن عدد السكان يتغير. "وبما أن التملك لا يمكن، من حيث الحق، أن يبقى ثابتاً أبداً، فمن المستحيل، من حيث الواقع، أن يصبح ملكية". فالشاغل ليس ملاكاً. إنه منتفع لا يستطيع "استعمال" تملكه العابر إلا "تحت رقابة المجتمع". فالملكية، إذن، "مستحيلة". وهي مستحيلة، أيضاً، لسبب آخر. فالملكية لا يمكن أن تقوم، فعلاً، إلا على العمل. فيمكن للعمل أن يعطي

المشروعية للملكية نتاج العمل، ولكن ذلك بشرط أن لا يتدخل عمل الآخرين، العمل المأجور. ذلك أن بين من يعطي العمل ومن يأخذ "خطأ حساب" بالضرورة. "يقال أن الرأسمالي قد دفع اجر أيام العمال. وكي نكون مضبوطين يجب أن نقول أن الرأسمالي قد دفع أجور أيام معادلة لعدد العمال الذين يستخدمهم كل يوم، وهو ما ليس الشيء نفسه. ذلك أن هذه القوة الهائلة التي تنجم عن اتحاد العمال وتناغمهم، عن توارد جهودهم وتواقتها لم يدفع ثمنها أبداً. إن مائتين من العمال قد نصبوا، في بضع ساعات، مسلة الأقصر على قاعدتها: فهل يفترض أن رجلاً واحداً يتوصل إلى إنجاز المهمة في مائتي يوم؟ إلا أنه كان من شأن مجموع الأجور أن يكون هو نفسه بالنسبة للرأسمالي". هذا هو مدلول القوة الجماعية التي لا يمكن أن تختلط مع مجموع الأعمال الفردية والتي هي، بالنسبة لبرودون، أصل الربح الرأسمالي. فلا شيء، إذن، يمكن أن يسمح بالملكية. ويخلص برودون إلى ما يلي: "لقد أنجزت العمل الذي أخذته على عاتقي: والملكية قد هزمت، وهي لن تعود إلى الوقوف على قدميها. وفي كل مكان سيقرأ، فيه، هذا الخطاب، ستوضع بذرة موت الملكية".

والحق هو أن الملكية ليست مدانة بصورة كاملة. فهي، كلسان إيزوب، يمكن أن تكون أفضل الأشياء وأسوأها. ونفهم، هنا، وجهاً ثانياً للنقد البرودوني أو بعبارة أضبط، للديالكتيكية البرودونية. فقد فتن برودون بالديالكتيكية الهيغلية التي كشفها له ماركس وغرون.ولكن ما يسميه برودون ديالكتيكية هو، في الواقع، أخذ في الحسبان للجانب الطيب والجانب السيئ من الأمور. فالآلة، مثلاً، تخفض، من جهة، مشقة البشر وتضاعف الثروات. ولكنها، من جهة ثانية، وبتسريعها تركز المشروعات، تحول إلى بروليتاريا قسماً من السكان وتحيل إلى البطالة عدداً كبيراً من العمال. والأمر هو كذلك بالنسبة للمنافسة. فهي شهادة

على "حرية الإنسان الذكية". ولكنها، في الوقت نفسه، بمحوها الأضعف، تصل إلى عكسها: إلى وضع احتكاري. والاحتكار يمثل، أيضاً، "ثمن النضال، تمجيد العبقرية". إنه انتصار هذه الحرية التي لن تكون المنافسة تعبيراً عنها. إلا أنه يولد ضروب البؤس والفوضى لأن "المحتكر" لا يبحث عن "المردودية". والاحتكار، أخيراً، أصل المداخيل المقتطعة من العامل، حقوق وراثة طارئة؟ وهذا الحق يتلقى "أسماء عديدة حسب الأشياء التي تنتجه: المزارعة للأراضي، الإيجار بالنسبة للمساكن والأثاث، الريع بالنسبة للأملاك الموظفة، إلى الأبد، الفائدة للمال، الربح أو الكسب بالنسبة للمبادلات".

والقسم النقدي من عمل برودون هو الذي يستحق عليه بعض الحظوة منذ ما قبل ١٨٤٨، لا سيما وأن ذكره الدائم للعدالة والأخلاق يجد صدى لدى الحرفيين البسطاء المقتنعين بظلم المكننة والتركز ولا أخلاقيتهما. فموهبته كـ"مدمر" تقوي مكانته. إنه "عدو التقاليد الكبير" الذي سيتحدث عنه هرزن.

وبرودون معاد لكل المدارس الاشتراكية. فعندما طلب إليه ماركس، عام ١٨٤٦، أن يشترك في مكتب المراسلة الشيوعي الذي نظمه ماركس مع أنغلز، في بروكسيل، أجابه بأنه لا ينبغي "طرح النشاط الثوري كوسيلة للإصلاح الاجتماعي" وأنه يفضل "إحراق الملكية على نار هادئة بدلاً من أن أعطيها قوة جديدة بصنع سان برتليمي(١) للملاكين". وبرودون يقف، بوضوح، ضد التكتلات في كتابه "فلسفة البؤس" الذي رد عليه ماركس بكتاب "بؤس الفلسفة".

وحتى شباط ١٨٤٨، لم يتقدم برودون، أبداً، بحلول إيجابية. ولأنه، على وجه الدقة، يملك تأثيراً متزايداً، سوف ينبغي عليه، منذ بداية الثورة،

١-مذبحة شهيرة للبروتستانتيين في فرنسا وقعت في القرن السابع عشر. (المعرب)

الاستجابة لما ينتظـــر منـــه. فيجـــب أن يتجنـــب إعـــادة بنـــاء منظومـــة برودونيـــة بصورة اســـترجاعية. وتطـــوره، بفعـــل صدمـــة الأحـــداث، هـــو الـــذي ينبغـــي أن نفهم، منه، فكره، وهـــو فكـــر يصعـــب تمييزه، فـــوق ذلـــك. فـــهو ذو وجـــوه، مشـــحون بالتناقضـــات وطـــور انفجـــاري غالبـــاً مـــا يخفـــي اقتراحـــات معتدلـــة جـــداً. وعلـــى كـــل حـــال، فـــإن عـــام ١٨٤٨، يشـــكل، بالنســـبة، لـــبرودون، كما بالنسبة لكل الاشـــتراكيين الآخريـــن، منعطفـــاً حقـــاً.

الشـــيوعيون

كتـــب هاينـــه، الـــذي عـــاش في بـــاريس منـــذ ١٨٣١، في عـــام ١٨٤٣، يقـــول: "الشـــيوعيون هـــم الحـــزب الوحيـــد، في فرنســـا، الـــذي يســـتحق الانتبـــاه". وبـــالفعل، فقـــد أقيمـــت، في الأول مـــن تمـــوز ١٨٤٠، في بلفيـــل، أول مأدبـــة "شيوعية". وقد جمعـــت ألـــف ومـــائتي مشـــترك أغلبيتـــهم مـــن العمـــال. وعلـــى الرغم من الإبهام الذي يميز هـــذا المجمـــع، فيبـــدو أنـــه كـــان يســـوده طمـــوح هـــو الطمـــوح إلى المســـاواة، وملاحظـــة، هـــي ملاحظـــة عقـــم الإصلاحـــات الـــتي تكون سياسية فقـــط.

ويلاحـــظ أنغلـــز، في مقدمـــة ١٨٩٠ لـــــ"بيـــان الحـــزب الشـــيوعي"، أن "الاشـــتراكية كـــانت تعـــني، عـــام ١٨٤٠، حركـــة بورجوازيـــة، وكـــانت الشـــيوعية تعـــني حركـــة عماليـــة". إن المقابلـــة هـــي أكـــثر حســـماً ممـــا ينبغـــي بقليـــل. فـــلا جـــدال في أن الشـــيوعية كـــانت تؤثـــر، قبـــل كـــل شـــيء، في العمال، ولكـــن المـــدارس الاشـــتراكية الأخـــرى (ولـــو لم يكـــن ذلـــك إلا فيمـــا ندر يتعلق بالبوشيزيين) اجتذبت، أيضـــاً، عـــدداً مـــا مـــن العمـــال.

إلا أن الشـــيوعيين يتمـــيزون بفكـــرة يمكـــن اكتشـــافها في مكـــان آخـــر، ولكنـــها لم تؤكد، قط، بهـــذا الوضـــوح. فالشـــيوعيون يلحـــون أقـــوى ممـــا يلـــح آخـــرون على واقـــع النضـــال الطبقـــي. وهـــم لا يعولـــون علـــى الإرادة الحســـنة للطبقـــات المســـيطرة مـــن أجـــل الوصـــول إلى نمـــوذج آخـــر للمجتمـــع. فـــهم، لاقتناعـــهم

بأن الإنسان لن يتغير ما لم يتحول المجتمع، يولون أهمية حاسمة لشروط الحياة المادية. وعلى هذا النحو، ينتقد أحدهم، تيودور ديزامي، من آمنوا "بأنه كان يكفيهم، لصنع الإنسان على هواهم، أن يريدوا ذلك بصورة عنيفة وقوية". ولعملهم أهداف سياسية، فهو يرمي إلى الاستيلاء على الدولة، على اعتبار أن هذا الاستيلاء ضروري لتغيير النظام الاقتصادي والاجتماعي.

واندس شيوعيون في التيار البابوفي الذي وجد شباباً جديداً في كتاب بووناروتي المنشور في بروكسيل، عام ١٨٢٨: "المؤامرة من أجل المساواة المسماة مؤامرة بابوف". وعلى حد قول كابيه، لم يصبح الكتاب شعبياً، حقاً، إلا بعد ١٨٣٤. وبووناروتي الذي عاد إلى باريس بعد تموز ١٨٣٠ (مات، فيها، عام ١٨٣٧) هو البطريرك الذي يستشار باحترام، الرمز الحي للاستمرار الثوري.

وهكذا ولد ما أمكن تسميته البابوفية الجديدة. وبصورة عامة، درس شيوعيو الأربعينات، بشغف، الثورة الفرنسية. وقد نشر كابيه ولابونراي "تواريخ للثورة" ونشر لابونراي مؤلفات روبسبيير. وحملت شعب من "جمعية حقوق الإنسان" اسمي بابوف وبووناروتي. وأثر بووناروتي، مباشرة، في رجال لم يكونوا، في البداية، سوى ديمقراطيين. فقد نشر شارل تيست، عام ١٨٣٣، كتاب "مشروع دستور جمهوري" الذي يجعل من المساواة "القانون الأساسي للمجتمع". ولوحق فواييه دارجنسون (١٧٧١-١٨٤٢) الذي كان قد استقبل بووناروتي، عام ١٨٣٣، لأنه كتب "نزوة غني ذي عواطف شعبية". وكان كتاب بووناروتي، بالنسبة للشيوعي الليوني، "إنجيله". ورجعت صحف مثل "المرشد الجمهوري" و"الإنسان الحر" إلى بابوف. ويمكن أن نقرأ، في العدد الرابع من "الإنسان الحر"، ما يلي: "نريد المشاعية كما فهمها بابوف، أو تقريباً". فلا يدور الأمر حول تقليد بابوف أو استيحائه.

فلابويراي يكتب قائلاً: "لنكن، إذن، بابوفيين، ولكن بابوفيين تقدميين". وتأثير سيلفان ماريشال الذي نشر بووناروتي كتابه "بيان المتساوين" يختلط مع تأثير بابوف. وفي تموز ١٨٤١، نشرت جريدة ج.ج.ماي وغبرييل شارافاي "الإنساني" ترجمة لحياة سيلفان ماريشال وأبدت اهتماماً بـ"أفكاره المضادة للسياسة أو الفوضوية".

وقد احتفظ الشيوعيون من هذا التراث البابوفي الذي جدد على هذا النحو، جملة، بفكرتين بشكل خاص: لا مساواة دون مشاعية الخيرات، أولاً، ثم ضرورة فترة ديكتاتورية. وهذان المقتضيان صيغا، بوضوح، عام ١٨٤٠، في "إعلان إيمان العمال المساواتيين": "الهدف الذي نرمي إليه، أيها المواطنون، هو المساواة الحقيقية المحققة عن طريق مشاعية الخيرات. وإن ديكتاتورية شعبية قوية، مخلصة، تبدو لنا ضرورية لصنع طباعنا وتحطيم العقبات، ومن أجل أن نسوي الدروب التي يجب أن تقودنا إلى تطبيق هذا المبدأ".

وليس الشيوعيون منظرين، فقط، بل، أيضاً، رجال عمل. فهم فعالون في الجمعيات السرية ويشاركون في الانتفاضات وعرفوا السجن. إلا أن من الضروري التمييز بين التيارات التي تعلن انتماءها إلى الشيوعية. فكلمة "الشيوعية"، ككلمة "الاشتراكية"، تغطي اتجاهات مختلفة جداً- على الرغم من تواردها، جميعها، نحو مجتمع قائم على مشاعية الخيرات.

كابيه والكابيتية

أكثر التيارات الشيوعية نفوذاً هو الكابيتية. فقد ولد كابيه (١٧٨٨-١٨٥٦) في ديجون، في أسرة حرفيين بورغونيين. وكان، وهو المحامي في عهد عودة النظام الملكي، عضواً في جماعة الكاربونارو، وأصبح مدعياً عاماً بعد تموز. إلا أنه كان عليه، وقد أصبح جمهورياً، أن يتخلى عن منصبه في السلطة وينفي نفسه إلى إنكلترا عام ١٨٣٤. ولم يعد إلى

فرنسا إلا عام ١٨٣٩. وفي السنة التالية، نشر، في فرنسا، كتابه "رحلة في إيكاريا" الذي سبق أن نشر عام ١٨٣٩ دون اسم مؤلفه، وبعنوان "رحلات اللورد وليم كاريسدال ومغامراته في إيكاريا". وهو يجدد، على صورة "رواية تاريخية"، تقليد طوباويي عصر النهضة في وصف مجتمع شيوعي ناجز.

ويميز كابيه طوراً انتقالياً وطور بناء. وخلال الطور الانتقالي الذي قد يكون طويلاً ويدوم نصف قرن، يحتفظ بحق الملكية الفردية ويبقى العمل حراً. ولكن الهدف هو لامساواة متناقصة. وبفضل تخفيض الاعتمادات العسكرية، سوف يخصص ٤٥ من الميزانية، إجبارياً، لتطبيق مبدأ الحق في العمل، لبناء مساكن شعبية ولتربية المواطنين. وسوف يعين حد أعلى لمنتجات الضرورة الأولى لن يخضع لضريبة. وسوف تنزل ضريبة تصاعدية برأس المال والتركات. ويؤدي طور البناء إلى إلغاء الملكية الفردية: إذ تكون مواد الضرورة الأولى ووسائل الإنتاج قد أصبحت ملك المجتمع. وسوف تمثل الجماعة بموظفين قابلين للعزل. وسوف توزع المهن بمسابقة ويكافأ العمال حسب مبدأ "لكل حسب حاجاته". ولن تكون هناك تجارة على اعتبار أن المنتجات الضرورية ستودع في مخازن عامة يستطيع كل واحد أن يسحب منها بقدر حاجاته. وسوف يضمن الطابع الديمقراطي للتنظيم السياسي بتفويض مجلس شعبي بالسلطة التشريعية وبممارسة الاستفتاء. ويولي كابيه التربية أكبر الاهتمام. فحتى سن الخامسة، سيبقى الطفل في عهدة أمه. وما بين الخامسة والثامنة عشرة سيكون طور "الاستقبال المدرسي" في مدارس الجمهورية. وسوف يؤمن التأهيل المهني، بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين، خلال طور جديد هو طور "الاستقبال الصناعي". وبعد ذلك، يكون "الاستقبال المدني" في عمر الحادية والعشرين. وشيوعية كابيه بعيدة عن كل تصور زهدي. فالواضح هو أن تخيلها قد جرى في صلة مع ضروب تقدم

الصناعة. ويعود كابيه إلى هذه النقطة، مراراً، في النصوص التي تلت "رحلة في إيكاريا". فيمكن ضمان "المساواة في الوفرة بتنمية القوة الإنتاجية الحالية التي لا حدود لها بواسطة البخار والآلات". فسوف تصبح الآلات "التي كانت، إلى هذا الحد، مسيئة للعمال في النظام الحالي" أداة سعادة للجميع وتحرير للإنسان في نظام المشاعية.

ونحن، بالتأكيد، ما زلنا في مجال الطوباوية. وفكرة "رحلة في إيكاريا"، نفسها، برهان على ذلك. وكابيه معاد لأولئك، من بين الشيوعيين، الذين ينادون بالاستيلاء على السلطة السياسية بالعنف. وهو يؤكد ذلك قائلاً: "دعايتي سلمية في جوهرها". فهذه الدعاية "لا تدعو إلا للمناقشة والدراسة والتأمل ولا تريد أسلحة لتحرز انتصارها سوى الإقناع والاقتناع وقوة الرأي العام وقرار الإرادة القومية".

إلا أن كابيه ينتمي، بلا جدال، إلى تيار شيوعي ١٨٤٠ الفرنسيين ولو لم يكن ذلك إلا بسبب الطابع المساواتي والمشاعي لإيكاريا. وهو يشكل متحولة منهم كان إشعاعها عظيماً. فلا يعد أقل من خمس طبعات لكتاب "رحلة في إيكاريا" بين ١٨٤٠ و١٨٤٨. وعرفت جريدته "الشعبي" نجاحاً كبيراً، وكذلك كراساه، "كيف أكون شيوعياً" و"عقيدتي الشيوعية". وقد أعيد طبع كتابه الكبير المنشور عام ١٨٤٦، "المسيحية الحقيقية حسب يسوع المسيح"، مرتين قبل ١٨٥٠. وحتى وإن كنا لا نستطيع الوثوق بالبوليس الذي يرى يد "الإيكاريين" في كل الاضطرابات، فيبدو من المؤكد أنه كانت هناك جماعات إيكارية في أكثر المناطق تنوعاً، في تورين وتولوز والفانديه إلخ... فقد جعل كابيه فكرة الشيوعية مألوفة لدى دوائر عمالية واسعة إلى درجة كافية. وفضلاً عن ذلك، فعندما انتصرت الرجعية، بعد حزيران ١٨٤٨، اختلطت الصرختان: "فليسقط الشيوعيون! فليسقط كابيه" معاً.

ينتمي تيار شيوعي آخر، بصورة أكثر مباشرة، إلى التقليد الثوري، إلى التراث البابوفي، وأشهر ممثليه هم لابونيراي ولاهوتيير وبيلو وديزامي.

إن ألبير لابونيراي (١٨٠٨-١٨٤٩) الذي كان مراقباً في مدرسة داخلية ثم صحفياً قد انتمى إلى "جمعية أصدقاء الشعب"، ثم إلى "جمعية حقوق الإنسان". ومنذ عام ١٨٣١، نظم للعمال دروساً حول الثورة الفرنسية استعادها في كتابه المنشور عام ١٨٤٨. وهو يرى (وهو روبسبييري متحمس) أن الثورة ليست سوى مرحلة في تاريخ صراع الطبقات: فقد انتصرت البورجوازية على النبالة ونشب الصراع، الآن، بين هذه البورجوازية والشعب. وهذا التفسير ("لم يفعل الشعب أكثر من تبديل الطغاة") أدى به، فضلاً عن ذلك، إلى إقامة في سجن سانت بيلاجي.

وطور استنتاجاته الشيوعية في جريدته "الذكاء" التي كانت، أولاً، "جريدة الحق المشترك" ثم "جريدة الإصلاح الاجتماعي" وصدرت بين ١٨٣٧ و١٨٤٠. وهو يقاتل ضد الليبرالية البورجوازية بوصفها "البنت البكر لليبرالية الجيروندية". فليس للديمقراطية من معنى إلا بمقدار ما تؤدي إلى "انطفاء استغلال الإنسان للإنسان". أما في الوقت الحالي، فعلى العمال أن يتحدوا ويخلقوا تعاونيات إنتاجية، ولو كان ذلك مع رأسماليين، مع كون المنتجات موزعة بالتساوي "بين كل أعضاء الرابطة مهما كانت نسبة مشاركتهم في رأس المال وطبيعتها".

وعن طريق الكراسات والصحافة، أيضاً، طور أوغست ريشار دولاهوتيير (١٨١٣-١٨٨٢)، الشهير بريشار لاهوتيير، نظرياته الشيوعية بعد تأثره ببيير لورو. وقد شارك في تحرير جريدة لابونيراي، "الذكاء"، ثم أصدر، على التوالي، "المساواتي" و"الأخوة". وقد تولى، وهو المحامي، مراراً، الدفاع عن العمال الملاحقين. وهو، أيضاً، يعلن

انتماءه إلى بابوف. ولكن، كما تجاوز بابوف روبسبير، كان يجب أن يجري تجاوز بابوف لأن الثورة الصناعية خلقت شروطاً جديدة لنمو الشيوعية.

إن جان جاك بيلو (١٨٠٨-١٨٧٧) "الذي ربي في دير، ودخل سلك الرهبنة، خلع الجبة وبشر بالإلحاد". وقد بقيت لديه، من مروره بالكنيسة، كراهية عنيفة للدين. فقد كتب يقول: "تقوم الخرافة على نسبة كل أنواع الخير أو الشر التي تحدث لنا إلى علة غامضة تسمى قدراً أو إلهاً". وقد شارك في تحرير جريدة "منبر الشعب" التي انتهى إلى تولي إدارتها. ولكنه ضاعف، خاصة، الكراسات الشعبية: "قوانين الدين أو العبادة المسيحية" (١٨٣٧)، "المشاعية لم تعد طوباوية، نتيجة محاكمة الشيوعيين" (١٨٤١)، "تاريخ المتساوين أو وسائل إقامة المساواة المطلقة بين البشر، لا قصور ولا أكواخ، أو حالة القضية الاجتماعية عام ١٨٤٠". وكان محرك مأدبة بلفيل الشيوعية وهو، بدوره، يولي أكبر الاهتمام للثورة الفرنسية، ويعلن عن نفسه وريثاً للهيبريين والبابوفيين الذين تركوا مكانهم، بعد أن هزموا، لأصحاب امتيازات جدد. ولا يدور الأمر حول العودة إلى الماضي، بل نحو التوجه نحو المساواة. إلا أنه لا مساواة مطلقة دون مبدأ المشاعية. وهو، خلافاً لكابيه، لا يرى من الممكن وصف أشكال تنظيم مجتمع مشاعي بالتفصيل. إلا أنه يبقى طوباوياً بقدر ما يرى "كل البشر دون استثناء" يعملون، لو استطاعوا إدراك جمال نظام مساواتي، من أجل تحقيقه. وعلى الرغم من كل شيء، يخلص إلى أن الانتقال إلى المجتمع المشاعي لن يتحقق دون نضال. ومن هنا الدور الذي ينسبه إلى التاريخ بقدر ما هو قائم على نمو النضالات الشعبية. ويعود إلى "الشيوعيين" أمر التحضير للثورة.

وتيودور ديزامي (١٨٠٨-١٨٥٠) كان، بين الفرنسيين، من مضى إلى أبعد حد، في تلك الفترة، في إنضاج مذهب شيوعي. وكان معلماً سابقاً

في الفانديـه، ثم مراقبـاً في مدرسـة داخليـة في بـاريس، وأصبـح سـكرتيراً لكابيه الذي ابتعد عنه نظـراً لتديـن هـذا الأخـير. وكتابـه الرئيسـي، "مجموعـة قوانـين الجماعـة"، صـدر عـام ١٨٤٢. ويكتـب مـاركس في "الأسـرة المقدسة"، عـن ديزامـي أنـه "طـور مذهـب المادية بوصفـه مذهبـاً للإنسـانية الحقيقيـة والأسـاس المنطقـي للشـيوعية". ويطـرح ديزامـي، كأسـاس لكـل تنظيـم اجتمـاعي، المبـادئ السـتة التاليـة: السـعادة ("النمـو الحـر، المنتظـم والكامل لوجودنـا، التلبيـة التامـة والكاملـة لكـل حاجاتنـا الجسـدية والثقافيـة والأخلاقية")، الحرية (اللاجـم الوحيـد الـذي يمكـن فرضـه عليـها هـو "لاجـم العلـم والعقـل")، المسـاواة ("قـانون أولي لا يـرى، خارجـه، سـوى ارتبـاك وقسـر، شـقاقات وحـروب")، الأخـوة ("العنصـر الأساسـي الحقيقـي للمساواة والأخـوة)، الوحـدة (إنهـا تمـاهي كـل المصـالح وكـل الإرادات غـير القابلـة للحـل")، المشـاعية ("إنهـا أكـثر أنمـاط الـترابط طبيعيـة وبسـاطة وكمـالاً...")، "كـل عنـاصر السـعادة موجـودة علـى الأرض". فمـا هـي المسألة التي يجـب أن تحـل حاليـاً؟ "إيجـاد وضـع يسـتطيع أن يؤمـن للجميـع، ودون قسـر، التلبيـة الأبديـة لحاجـات الجسـد وحاجـات الـروح". والرأسماليـة لا تقدم أي حل. أليسـت، علـى العكـس مـن ذلـك، أصـل الفوضـى القاتلـة في المصـالح الفرديـة؟ ألا تسـبب اسـتغلال البروليتاريـا؟ ألا تولـد تنـازع الطبقات؟ الحـل هـو الشـيوعية. ولكـن ديزامـي يرفـض الشـيوعية الطوباويـة لدى كابيه الـذي اعتقـد أن إسـهام البورجوازيـة ممكـن ومفيـد: "هـذا خطـأ رئيسـي... فليـس الشـعب هـو الـذي يجـب أن يصبـح بورجوازيـاً، بـل إن البورجوازيـة هـي الـتي يجـب أن تصبـح شـعباً. ويمكـن للمبـادئ والنظـام أن تحل محل البشـر لأنهـا تولـد كـل الطاقـات المرغـوب فيـها: ولكـن البشـر لا يسـتطيعون شـيئاً دون المبـادئ، ودون الأنظمـة". وديزامـي يعـارض، أيضـاً، الاشتراكية المسيحية لـدى لامونيـه الـذي يسـاجله (علـى الرغـم مـن إعجابـه بالرجل) بقسـوة لأن عـداء لامونيـه للرأسماليـة يرتـد، في نظـره، إلى نـوع مـن

الرأفـة الدامعـة، المؤثـرة، ولكنـها عديمـة النجـع. فـلا نخـرج دون مشـاعية مثلثة: مشاعية الملكيات، مشـاعية العمـل، مشـاعية التربيـة.

أوغست بلانكـي

كـل هـؤلاء الشـيوعيين كـانوا قليلـي الدقـة بالنسـبة لوسـائل الانتقـال مـن المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع المشـاعي. وعلـى العكـس مـن ذلـك، كـان العمـل هو الشاغل الأساسـي لبلانكـي.

ولـد لويـس- أوغسـت بلانكـي، عـام ١٨٠٥، في بوجيـه- تينييـه حيـث كـان أبـوه، عضـو الكونفنسـيون الجـيروندي السـابق، مديـر منطقـة. وفي عهد عودة النظـام الملكـي، لحـق، في بـاريس، أخـاه أدولـف، عـالم الاقتصـاد الليـبرالي المقبـل. والمسـاران المتباينـان للشـقيقين يقدمـان، حقـاً، في أسـرة واحدة، مثالاً عـن مصـائر القـرن التاسـع عشـر المتناقضـة. فبعضـهم لا يحتفـظ مـن الصناعـة ونهوضـها بغـير نمـو القـوى الإنتاجيـة وينضمـون إلى البورجوازيـة. ويسـكن آخريـن هـاجس مـا هـو مقابلـها: البـؤس العمـالي ويقررون تكريس أنفسـهم لإقامـة مجتمـع مـن نمـوذج آخـر. وهـذا مـا كـان عليـه الأمـر بالنسـبة لأدولـف بلانكـي أسـتاذ الاقتصـاد السياسـي المقبـل في كونسرفاتوار الفنون والمـهن، وأوغسـت بلانكـي، "السـجين" المقبـل.

تابع أوغسـت الفـتى، بنجـاح، دراسـات ثانويـة كلاسـيكية في حـين "كـانت أذناه تجمعان، بنـهم، كـل أصـداء المسـاجلة". وعندمـا أصبـح طالبـاً، سـاهم في تحريـر "الـبريد الفرنسـي" واشـتغل مربيـاً. وشـارك مشـاركة فعالـة في التحرك الطـلابي. وكـان موجـوداً في كـل المظـاهرات. ولاحـظ، وهـو يعمـل موظـف اخـتزال في "الغلـوب"، بريبـة مـتزايدة، "رجـال الوسـط المضبـوط" الذين أرادوا الإفادة مـن أيـام تمـوز ١٨٣٠ الـتي أطلـق الفـتى، خلالهـا، النـار. ومنذ ذلك الحـين، كـرس نفسـه، كاملـة، لتنظيـم الجمـهوريين. وحـرك "لجنـة المدارس". وانضـم إلى "جمعيـة أصدقـاء الشـعب" وعـرف، منـذ ذلـك الحـين،

السجن عدة مرات. وقد دهش لدور العمال الباريسيين في تموز ١٨٣٠وتأثر براسباي وبوناروتي. وأصبح اشتراكياً. وتنقصه، كمنظر، الأصالة ويدين بالكثير للاشتراكيين المعاصرين. وبدا المجتمع له، أيضاً، (ولكن الفكرة بدأت تصبح مألوفة) مقسوماً إلى طبقتين: "الطبقات الميسورة أو المترفة" التي تملك السلطة السياسية، من جهة، و"الجماهير الفقيرة والجاهلة" من الجهة الأخرى. وأصل هذا الانقسام هو التملك الفردي للأرض من جانب أقلية. وقد تم الحصول على هذا التملك "بالمكر أو بالعنف" وامتد، "باستنتاج منطقي، من الأرض إلى أدوات أخرى، هي منتجات متراكمة للعمل، يطلق عليها اسم رؤوس الأموال". ولكن، بما أن رؤوس الأموال، كالأرض، لا يمكن أن تعطي ثماراً إلا من جانب اليد العاملة، "فإن الأغلبية المستبعدة عن امتلاكها تجد نفسها محكوماً عليها بالأشغال الشاقة لمصلحة الأقلية المالكة". "لا تخص أدوات العمل ولا ثماره العمال، بل الكسالى. فالأغصان الشرهة تمتص نسغ الشجرة على حساب الفروع الخصبة. والزنابير تلتهم العسل الذي صنعه النحل". المفردات ليست جديدة، فهي مستعارة من التقليد السان سيموني. وعلى كل حال، فالتعريف الذي يعطيه بلانكي، آنذاك، للبروليتاري غير ثابت. فهو، كما يقول، عام ١٨٣٢، أمام القضاة، "حالة ثلاثين مليون فرنسي يعيشون من عملهم ومحرومين من حقوقهم السياسية". فهناك، إذن، لديه، مماهاة بين "الشعب" والبروليتاري". ومن جهة أخرى، يترع بلانكي (في تصريحاته الأولى على الأقل) إلى اعتبار البروليتاري مستغلاً من الضرائب قبل كل شيء. ثم يمضي المزيد إلى الأمام فيندد بنهب أجر البروليتاري.

وفي جميع الأحوال، ما من توفيق ممكن بين الرأسمالي والعامل، بين "الطفيلي وضحيته". وهذا ما يصنع، منذ البداية، أصالة بلانكي. إنه رجل الرفض، وهو يقول: "هناك حرب حتى الموت بين الطبقات التي

تشكل الأمـــة. وبمـــا أن هـــذه حقيقـــة معـــترف بهـــا، فـــالحزب الوطـــني، الحـــزب الذي يجـــب أن ينضـــم إليـــه الوطنيـــون هـــو حـــزب الجماهـــير". والنضـــال مـــن أجل المساواة ثابتة من ثوابـــت التـــاريخ: "المســـاواة هـــي عقيدتنـــا. ونحـــن نســـير، بحماســـة وثقـــة، تحـــت رايتـــها المقدســـة". والحـــل هـــــو "الأرض المشـــــتركة"، "التشـــارك الـــذي يحـــل محـــل الملكيـــة الفرديـــة". فـــلا يمكـــن الحصـــول علـــــى المســـاواة، فعـــلاً، إلا بتوزيـــع الملكيـــة لأن "الغـــنى النـــاجم عـــن امتـــــلاك أدوات العمل، بدلاً من امتـــلاك العمـــل نفســـه، عبقريـــة الاســـتغلال الـــذي بقـــي واقفـــاً ســـيعرفان، قريبـــاً، بإعـــادة بنـــاء الـــثروات الكبـــيرة، إعـــادة اللامســـــاواة الاجتماعية". لا يمكـــــن أن تقـــوم "ســـيادة العدالـــة بالمســـاواة" إلا بالشـــراكة الـــتي تحل محل الملكيـــة الفرديـــة.

وعلـــى كـــل حـــال، فـــإن بعـــض الخصـــائص المميـــزة لمـــا ســـيدعى "البلانكيـــة" تظهر منذ ما قبل ١٨٤٨. فإذا كـــــان بلانكـــي يعلـــن، مبكـــراً جـــداً، عـــن نفســـه جمهورياً، فإن الجمهوريـــــة غـــير مقـــدرة مـــن جانبـــه، منـــذ وقـــت مبكـــر جـــداً أيضـــاً، إلا كوســـيلة وليـــس كغايـــة: "لا نرغـــــب في إصـــــلاح سياســـــي إلا كتوجه نحو إصـــــلاح اجتمـــاعي".

ومـــن جهـــة أخـــرى، تـــأثر بلانكـــي تـــأثراً كبـــيراً بممارســـــة الكاربونـــــاري والجمعيات السرية. وهـــو مـــا قـــاده إلى تصـــور عصيـــاني للســـير نحـــو الشـــيوعية. فقد كان، على التـــوالي، المحـــرك لــــ"جمعيـــة الأســـر" و"جمعيـــة الفصـــول" الـــتي جـــهزت انتفاضـــة ١٢ أيـــار ١٨٣٩. و"امتشـــاق الســـلاح" هـــذا "بلانكـــــي"، نوعيـــاً، منـــذ ذلـــك الحـــين: تنظيـــم منضبـــط مؤلـــف مـــن جماعـــات مســـلحة صغيرة، تدابير ســـرية صارمـــة، تحضـــير دقيـــق للعصيـــان (كـــل شـــيء مـــدروس: عربات الإســـعاف، مواقـــع المتـــاريس، قائمـــة صـــانعي الســـلاح الذيـــن ســـتكون حوانيتـــهم مخـــازن أســـلحة إلخ...)، إخضـــاع الضـــرورة السياســـية للضـــــرورة العسكرية. ولا شك في أنـــه مـــن المناســـب حســـبان حســـاب لبعـــض الشـــروط. ففي ربيـــع ١٨٣٩، مثـــلاً، بـــدا الوضـــع مناســـباً. فقـــد نمـــت البطالـــة بســـبب

الأزمة الاقتصادية. وكشفت الأزمة الوزارية التي افتتحتها، في ٨ آذار، استقالة موليه عن عجز البرلمان ولعبة الموالين البرلمانيين وطموح لويس فيليب إلى السلطة الشخصية معاً. وقاد التصور البلانكي لـ"حمل السلاح" أنصاره إلى المأزق. فلا يمكن للانتفاضة أن تنجح إلا إذا أيدها الشعب، ولكنه لا يمكن، بسبب السرية، إعلام الشعب ولا استشارته. وهكذا شوهد الشعب، في ١٢ أيار ١٨٣٩ هذا، يشهد محاولة الانتفاضة دون أن يعلم حول أي شيء يدور الأمر ولا يقدم للطليعة الثورية الدعم الذي كانت تتوقعه وتحتاج إليه. فقد كان القادة معزولين عن العمال الباريسيين. بل إن المشتركين، أنفسهم، لم يكونوا يعرفون الهدف الذي تم استدعاؤهم من أجله.

وبما أن مستغلي الشعب قد أبقوه، في رأي بلانكي، في حالة جهل، فمن الضروري أن يتولى بعض المثقفين قيادة الحركة. وهؤلاء الرجال أكثر ثقافة ومخلصون لقضية الانتفاضة. وغالباً ما سيكونون مثقفين قاطعوا طبقتهم الأصلية. وللأسباب نفسها، سوف تكون هناك ضرورة للديكتاتورية. واستمارة التأهيل إلى "جمعية الفصول" تحتوي على تأكيد ذي دلالة: "بما أن الحالة الاجتماعية متآكلة بالقروح، فتلزم أدوية بطولية للانتقال إلى حالة صحية.. وسوف يحتاج الشعب، خلال بعض الوقت، إلى سلطة ثورية لجعله قادراً على ممارسة حقوقه". وسوف يعهد بهذه السلطة إلى قيادة ثلاثية ستكون مهمتها إلغاء القوانين الموجودة وتنظيم الخدمات العامة وتربية الشعب على الروح المشاعية. ومن هنا جاء، لدى بلانكي، شرط مسبق مزدوج لإقامة الشيوعية: حمل السلاح المظفر وسلطة ثورية.

إن أفكار بلانكي بنات زمانه، زمن المؤامرات والجمعيات السرية، وكذلك زمن عدم نضج الحركة العمالية. وعلى كل حال، فإن نخبة، ونخبة عمالية على الأخص، قد تأثرت بصلابة الرجل الذي قضى، بين

١٨٣٠ و١٨٤٨، تسع سنوات في السجن وسنتين في الإقامة الجبرية. فقد دخل، منذ ذلك الحين، في الأسطورة. وأصبحت مكانته كمنظر، أحد العناصر المكونة لاشتراكية ما قبل ١٨٤٨.

٣- حساب ختامي: الاشتراكية ما قبل ١٨٤٨

يمكن الحديث عن اشتراكية لما قبل ١٨٤٨، في فرنسا، على الرغم من تنوع تياراتها.

إن إصلاح المجتمع على جدول الأعمال، والمناقشة حوله موجودة في كل مكان: في القاعات العمالية، ولكن في الصالات الأكاديمية. ويا له من ازدهار للنشرات والكراسات والصحف التي تندد بالرأسمالية! وكم من كتابات تلوح، في الأفق، للبروليتاريين بسراب باهر لواحة رائعة يستطيع رجال طيبو الإرادة أن يحققوا، فيها، المجتمع الشيوعي!

وليست هناك هوة لا يمكن اجتيازها بين الذين يريدون أنفسهم مجرد جمهوريين والذين يؤكدون كونهم اشتراكيين. ويشهد على ذلك رجل مثل فرنسوا راسباي (١٧٩٤-١٨٧٨). فقد خلف، وهو من مقاتلي تموز ١٨٣٠، أوليس تريلا في رئاسة "جمعية حقوق الإنسان". وكلها فعاليات أودت به، مرتين، إلى السجن. وفي عام ١٨٣٤، أسس مع غيار دوكيرسوزي جريدة "المصلح" التي عرفت نجاحاً كبيراً إلى درجة كافية. وراسباي، الديمقراطي قبل كل شيء، المناصر للاقتراع العام، مشغول، دون شك، بمصير العمال. ولكنه لم يتصور سوى إصلاحات. فسوف ينبغي على العمال الحرفيين أن يكونوا تعاونيات إنتاجية بفعل قروض تقدمها مصارف الدولة. أما بالنسبة لعمال المشروعات الكبيرة، فسوف تحدد أجورهم هيئات تحكيم مؤلفة من عمال وأرباب عمل ويرأسها مفوضون حكوميون.

وفي الجملة، يرفض الجمهوريون النظريات الاشتراكية والشيوعية. وهم يرون أن الأساسي هو الوصول إلى الاقتراع العام الذي سيمكن، بفضله، صنع إصلاحات ستحسن الوضع العمالي: نمو التعليم الابتدائي، تحويل الرسوم إلى ضريبة تصاعدية، حرية التجمع، التحكيم في موضوع التكتل، إلغاء السجل العمالي إلخ... تلك هي اقتراحات "الناسيونال" بعد أن تولى ماراست إدارتها عام ١٨٤١. ولا تمضي أغلبية محرري "الإصلاح" أبعد من ذلك بكثير.

ويتمسك الديمقراطيون، مثل ليدرو- رولان، بمبدأ الملكية بوصفها "أساس كل أخلاقية"، ويندون بالتركيزات، بالإقطاعيات الجديدة، بقدر ما تهدد الملكية الصغيرة.

ويذعن الأمير لويس- بونابرت، هو أيضاً، لجاذبية الإصلاحات الاجتماعية بنشره، عام ١٨٣٩، "الأفكار النابوليونية"، وخاصة "انطفاء الإملاق" عام ١٨٤٠. لأَلم يستقبل، فضلاً عن ذلك، لويس بلان، في سجنه، سجن هام؟ إن دواء الإملاق في نظر لويس- نابوليون، هو خلق مستعمرات زراعية تديرها روابط عمالية تتحول، من مزارعة كما تكون في البداية، إلى ملاكة تدريجياً.

وتزايدت سيطرة هموم ذات صبغة اشتراكية على الأدب. فلا مارتين، على غرار ليدرو –رولان، يحتج على تشكيل "تجمعات" قوية كشركتي اللوار وأنزان المنجميتين. وهو يعلن، منذ ١٨٣١، قائلاً: "إن قضية البروليتاريين هي التي ستحدث أرهب انفجار في المجتمع الحالي إذا رفض المجتمع، إذا رفضت الحكومات، سبرها وحلها". وشيئاً فشيئاً، يطلب فكتور هوغو، في الوقت نفسه (١٨٣٤)، "إحلال الأفكار الاجتماعية محل الأفكار السياسية". وتغري الفوريبرية الملكي السابق، أوجين سو، ويتزلق نحو الاشتراكية بنشره "أسرار باريس" (١٨٤٢) و"اليهودي التائه" (١٨٤٤). وتعلن جورج صاند التي تأثرت ببيير لورو وارتادت

أوساط العمال- الحرفيين عن كونها اشتراكية، بل شيوعية وتصدر رواياتها الاجتماعية، "رفيق الجولة حول فرنسا" (١٨٤٠)، "طحان أنجيبو" (١٨٤١) و"خطيئة المعلم أنطوان" (١٨٤٧). ونشرت روايات أوجين سو وجورج صاند اشتراكية عاطفية. وهي تسهم، على الرغم من لهجة أبوية غالباً، في إعطاء العمال كرامة وعزة. فالعامل اليدوي، بدخوله الأدب، يكتسب، نوعاً ما، صفة الشرف.

وأطلقت فلورا تريستان (١٨٠٣-١٨٤٤) التي اتصلت، خلال إقامتها في إنكلترا، بحركة عمالية حقيقية، عام ١٨٣٣، فكرة الاتحاد العمالي: "أيها العمال، يجب أن تسيروا بشجاعة وأخوة في الطريق الوحيدة التي تناسبكم: الاتحاد". وقد فشلت العملية على الرغم من أن الكتاب حاز على نجاح كبير جداً ومن أنها تستجيب لنوع من طموح مبهم للعمال.

ويشيد شعراء- عمال بآمال طبقتهم، وتتضاعف الصحف والمجلات التي يحررها العمال، من "الورشة" الكاثوليكية والبوشيزية إلى الصحف الشيوعية العديدة. وهناك، خاصة، اعتباراً من ١٨٤٠، أدب كامل من "عرائض" و"دحوض" و"تحذيرات" و"رسائل ردود" تعبر، من خلال مساجلات عنيفة أحياناً، عن اهتمام نخبة عمالية بمسائل الاشتراكية والشيوعية. وعن طريق هذه الفئة المتواضعة تصبح النظريات الكبيرة مفهومة من جمهور أوسع.

وعلى الرغم من هذه المواجهات والتباينات التي ركزنا عليها، تعرف اشتراكية ما قبل ١٨٤٨ بثلاث خصائص. ولا جدال، وهذه هي الحال مع بعض التيارات الشيوعية، في أن هناك اتجاهات ثورية. ولكنها، على وجه الإجمال، متحولات إصلاحية تنتصر عليها: فحق العمل هو المطلب الأول. وقد ولد من الأزمات الاقتصادية والبطالة التي تؤدي إليها. وهو يطيح بمبادئ الحكام والمنظرين الليبراليين اللاتدخلية. وفكرة التشارك هي، أيضاً، مطلب مسيطر لأن الحرفيين يعتقدون أنهم يستطيعون،

بفضله، الإفلات من التركز الذي يهدد.

ولكن البروليتاريا الحقيقية (على الرغم من تزايد استعمال الكلمة) لا تتميز، بسبب الطابع الانتقالي لمجتمع ذلك العهد، جيداً عن مجموع الطبقات الشعبية، عن هذا "الشعب" غير المتميز الذي هو، بالنسبة لميشليه، "صاحب الدور الرئيسي". ولا شك في أن الأمر لم يعد يدور، كما بالنسبة لسان سيمون، حول جملة المنتجين. ومع ذلك، فإن هذا الشعب الذي يجري الحديث عنه يشمل عناصر متنوعة تنوع البروليتاريا والحرفيين وأصحاب الدكاكين والفلاحين. والاستعمال الصوفي لكلمة "شعب" تخفي التنوعات، بل التنازعات. فالطوباوية باقية ولو اتخذت مظاهر جديدة. فإما أن يتخذ مكانه في طوائف، بعيداً عن الحركة العمالية، وإما أن يغذي، وهذه أكثر الحالتين شيوعاً إذ ذاك، أوهام أخوة بشرية قادرة، إذا جرى الإحساس بها بعمق، على وضع حد لتنازع الطبقات. وسيستطيع شيوعي مثل لاهوتيير أن يكتب: "كل إنسان طيب القلب يتفق مع القبول العام للهتاف: كل البشر أخوة". أليس شيوعياً آخر، ج.ج.بيلو هو من كتب، عام ١٨٤٠، في "تاريخ المتساوين": "نحن أقوياء، وأقوى من كل الذين حاولوا أو نفذوا ثورات قبلنا لأننا نعلم أن لا أحد يستطيع دحض مبادئنا، وأن كل رجل منصف يتمنى، دون تمييز، انتصارها، وأن كل إنسان يتمتع بملكاته العقلية يعترف، بعد أن يدرسها ويفهمها، أن تطبيقها سهل".

ويؤخذ علم بصراع الطبقات، ولكنه نادراً ما يعد قانوناً للنمو التاريخي. وإذا تركنا، جانباً، الجمهوريين الذين ليسوا سوى "إصلاحيين" لنحيط بفكر "الاشتراكيين" و"الشيوعيين" فإننا نلاحظ أنه من الصعب، أحياناً، التمييز بينهم. فلا تظهر الاشتراكية، غالباً، إلا كطموح إلى توزيع أكثر عدلاً للثروات. وشيوعية ذلك الزمن "النقدية- الطوباوية" التي ما زالت مفهومية جداً لا تتضمن، عبر تنوع صياغاتها وتبريراتها، سوى بضعة

مقتضيات أساسية: مشاعية الخيرات، تسوية المداخيل، تنمية الإنتاج لتلبية حاجات الجميع، التنظيم الديمقراطي (فوراً أو بعد فترة ديكتاتورية انتقالية). وإذا كان الشيوعيون يعلنون ضرورة عالم جديد مختلف جذرياً، فإنهم يترددون ويتناقضون فيما يتعلق بالدروب التي يجب أن تؤمن الانتقال من مجتمع بال إلى مجتمع مجدد. ونادرون هم الذين ميزوا، في العالم الذي كان عالمهم، بذور عالم جديد لا يجري تصوره كمطلب أخلاقي، بل كمرحلة في حركة التاريخ الحقيقية.

ويجب أن نأخذ اشتراكية ذلك النصف الأول من القرن التاسع عشر وشيوعيته كما هما وأن لا نحاول، بصورة مخالفة للتاريخ، تقويمهما بالقياس مع الاشتراكية الماركسية التي سوف تصاغ، عام ١٨٤٨، في "بيان الحزب الشيوعي" والتي لن تؤثر في الحركة العمالية إلا بعد ذلك بكثير. إن الاشتراكيين والشيوعيين يتوجهون إلى مدلولي الأخلاق والعدالة أكثر مما يتوجهون إلى معنى التاريخ. وهذه الأخلاقية ليست من شأن البوشيزيين. ولابونيراي، نفسه، يصف وجود البروليتاريا بأنه "غير عادل وغير منصف".

لقد تداخلت الاشتراكية، باستثناء ما يتعلق ببضعة شيوعيين ماديين، إلى حد واسع جداً، بالرسولية المسيحية. فالفوريرية تغوص في حلولية مصطبغة بالصوفية. و"إيكاريا" كابيه تدين كثيراً للصورة التي يكونها مؤلفها عن المسيحية البدائية. وكتب محررو "الورشة" (نيسان ١٨٤٦) أن "الإنجيل هو نقطة انطلاق عالم حديث. فهو قانون الحرية والمساواة والأخوة والوحدة الحقيقي والوحيد، أي أنه يحتوي على كل تعاليم الأمور الكبيرة التي بدأت الأمة الثورية تحقيقها وسوف تنتهي إلى ذلك". إن هذا التدين ليس من صنع الذين يرجعون إلى المسيحية صراحة فقط، بل إنه يعرف تيار فكر وحساسية كاملاً. وعندما يبحث أرنو روج عن معاونين فرنسيين من أجل "الحوليات الفرنسية- الألمانية" التي كان يريد

نشرها مع كارل ماركس، فشل لأن الاشتراكيين الفرنسيين كانوا يرفضون إلحاد الألمان. فيسوع لم يعد "يسوع الطيب" الذي كان الأب دوشيز يقول أنه لم يعرف "يعقوبياً أفضل منه". فيسوع أصبح يسوع البروليتاري. وعذابه هو عذاب البروليتاريا. وصليبه هو ذاك الذي يحمله على كتفيه البروليتاري الخاضع للقانون القاسي، قانون استغلال الإنسان للإنسان. والاشتراكية رسالة، "النبأ السعيد"، الإنجيل. ويصف بيير لورو، عام ١٨٤٨، يسوع بلقب "أكبر عالم اقتصاد". فقد كتب يقول: "الأرض موعودة بمملكة المسيح، هذا ما يعلنه الإنجيل بأكثر الصور تأكيداً". والاشتراكية، بالنسبة لإسكيروس، تلتقي بروح "الجبل" الذي كتب تاريخه والذي كان، بالنسبة إليه، "ذراع الله، الإنجيل مسلحاً". وكل شيء يتلخص في هذه العبارة الغريبة للدكتور غيبان: "الروح القدس يتحدث بعدة لغات حسب الأزمنة والأمكنة. وهو يتجسد، الآن، في الاشتراكية".

أن هناك قوة وإشعاعاً وتنوعاً في الفكر الاشتراكي والشيوعي، وفي الوقت نفسه يوجد ضعف في الحركة العمالية. هذا التباين هو الذي يمكن أن توصف به، بصورة أساسية، هذه الفترة التي تنتهي عام ١٨٤٨. إلا أن هذا التباين يترع إلى الضعف بقدر ما نقترب من شباط ١٨٤٨. فقد قويت الحركة العمالية فعلاً. وتراجع نظام النقابة القديم على الرغم من جهود شخص مثل بيريغو بيرديغييه الذي نشر، عام ١٨٣٩، كتاباً عنه. وبقيت الهيئات التضامنية المتنوعة جداً من حيث أهدافها حية ولكنها لم تكن تضم سوى أعداد ضئيلة. وبالمقابل، شوهد ظهور جمعيات مقاومة تجاوزت مبادراتها حدود التضامن التبادلي وارتبطت، مباشرة، بالنضال لتحسين الوضع العمالي. وفي الوقت نفسه، نضج الوعي الطبقي ومضت نخبة تكونت، في أغلب الأحوال، من عمال ورشات إلى لقاء النظريات الاشتراكية وخاصة الشيوعية. ولكن هؤلاء العمال لا يعرفون، أبداً،

النظام الذي يجب أن يثقوا به. فهم أكبر عدداً مما ينبغي، ويبدو أن أبطالهم يقضون معظم وقتهم في مساجلات يخفى معناها على كثير من العمال. ويروى أن جماعة من العمال اقترحت، بعد ٢٤ شباط ١٨٤٨ بقليل، أن يسجن، في مجمع مغلق، عدد من المنظرين الاشتراكيين: كابيه، لورو، برودون وممثلان عن الفوريرية وأن لا يخلى سبيلهم إلا عندما يتفقون على خطة لإعادة تنظيم المجتمع.

إن كون الأفكار الاشتراكية والشيوعية قد بدأت في التأثير على هذه النخبة "المناضلة"، وكون رؤية مجتمع أكثر أخوة تنير الأكواخ (إذا تحدثنا مثل الشيوعي ج.ج.بيلو)، وكون المشاغل الاجتماعية تنتصر على المقتضيات السياسية أمور فهمها، بوضوح، ملاحظ فطن مثل توكفيل. ففي ٢٩ كانون الثاني ١٨٤٨، حذر زملاءه في مجلس النواب قائلاً: "انظروا ماذا يجري داخل هذه الطبقات العمالية التي هي، وأنا أعترف بذلك، هادئة اليوم. صحيح أن الأهواء السياسية الحقيقية لا تزعجها بالدرجة نفسها التي ضايقتها بها سابقاً. ولكن، ألا ترون أن عواطفها تحولت من سياسية إلى اجتماعية؟ ألا ترون أن آراء وأفكار تنتشر داخلها لا تمضي، فقط، إلى الإطاحة بهذه القوانين، بتلك الوزارة، بل حتى بتلك الحكومة، بل بالمجتمع، إلى هز الأسس التي يقوم عليها اليوم؟". هل تحرك هذه المطامح المبثوثة، المبهمة، قوة قادرة على أن تجعل من الجمهورية التي تعلن عن نفسها "جمهورية اجتماعية"؟ هل دخلت، حقاً، العالم العمالي في أعماقه؟ أم أنها لم تمس سوى أقلية مدينية؟ وبعبارة أخرى، ما حقيقة اشتراكية قبل ١٨٤٨؟ ألا يجازف المؤرخون، إذ بهرهم بريقها، بالمبالغة في تأثيرها؟ هل ستحمل الجمهورية الثانية، بوصفها حقل تجربة للاشتراكية، الجواب عن هذا السؤال الذي لا يمكن طرحه في شباط ١٨٤٨؟

الفصل الثالث

الاشتراكية الألمانية قبل آذار

جاك دروز

في بداية الخمسينات، قدم فريدريك أنغلز، في "الثورة والثورة المضادة في ألمانيا"، تحليلاً رائعاً لأسباب تخلف الاشتراكية في ألمانيا بالقياس مع الدول الغربية الكبرى. وبعد أن وصف البنية الاجتماعية لألمانيا ما قبل آذار، كتب بصدد الطبقة العاملة ما يلي: "تتأخر الطبقة العاملة في ألمانيا، في نموها الاجتماعي والسياسي، عن الطبقة العاملة في إنكلترا وفرنسا بقدر تأخر البورجوازية الألمانية عن بورجوازية هذين البلدين. فكما يكون السيد يكون الخادم. فتطور شروط الحياة بالنسبة لطبقة بروليتارية كبيرة العدد، قوية، مركزة وذكية يسير، جنباً إلى جنب، مع نمو شروط حياة طبقة بورجوازية كبيرة العدد، غنية، مركزة وقوية. فليست الحركة العمالية مستقلة، أبداً، ولا تملك، أبداً، طابعاً بروليتارياً، حصراً، قبل أن تكون مختلف أقسام البورجوازية، وخاصة أكثر الأقسام تقدماً، كبار الصناعيين، قد استولى على السلطة وحول الدولة طبقاً لحاجاته. وعند ذلك، يصبح الصراع المحتوم بين أرباب العمل والعمال وشيكاً ولا يعود تأجيله ممكناً، ولا تعود الطبقة العاملة تدع نفسها تجتر آمالاً وهمية ووعوداً لن تتحقق قط، وتنتقل مسألة القرن التاسع عشر الكبرى، إلغاء البروليتاريا، إلى المقام الأول، حقاً وبشكلها الصحيح. إلا أن الأغلبية العظمى للطبقة العاملة، في ألمانيا، لم تكن مستخدمة من أمراء الصناعة الحديثين هؤلاء الذين تقدم بريطانيا، عنهم، هذه العينات الرائعة، بل من حرفيين صغار كل نظام إنتاجهم مجرد مخلفات من القرون الوسطى...

فمن أجل ذلك، لا عجب في كون قسم كبير من العمال قد طالب، بأعلى الصرخات، عندما اندلعت الثورة، بالإعادة الفورية لاتحادات ونقابات القرون الوسطى ومن المؤكد أنه قد تكونت، بفضل نفوذ المناطق الصناعية التي سادها نظام الإنتاج الحديث وبالتالي إمكانيات اتصالات متبادلة ونمو ثقافي ناجمة عن الحياة الترحالية لعدد كبير من العمال، نواة قوية من عناصر كانت أفكارها عن تحرير طبقتها أوضح وأكثر تناغماً، بكثير، مع الوقائع الموجودة والضرورات التاريخية. ولكن تلك لم تكن سوى أقلية".

وهذا يعني أن الاشتراكية الألمانية كانت من صنع عدد صغير من المثقفين الذين قادهم التأمل الفلسفي إلى التحليل العلمي للبروليتاريا ومستقبلها الثوري.

"الاشتراكية" الألمانية والثورة الفرنسية

الاشتراكية والتنوير

يرتبط ظهور أوائل أول مقتضيات الاشتراكية، في ألمانيا، مع حركة التنوير الواسعة التي ولدت، على المستوى السياسي، الليبرالية وسمحت لألمانيا بأن تتمثل، ثقافياً على الأقل، مكتسبات الثورة الفرنسية ولكنها اتخذت، أيضاً، في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، طابعاً ديمقراطياً ومساواتياً بوصفها احتجاجاً معمماً ضد النظام القائم.

لم يكن بؤس الطبقات الكادحة، الحرفية والفلاحية، الذي كان يترجم، في نهاية القرن الثامن عشر، إلى ثورات عنيفة وتشكل عصابات تخريبية مجهولاً. وتبين أمثلة عديدة أن الطبقات الحاكمة، نفسها، قد شغلت بها. إلا أن ضعف نمو البورجوازية التي ما زالت تشدها قيود النظام النقابي القديم والتي ما تزال تفكر بصورة تسلسلية وخاضعة حتى حين تدين امتيازات النبلاء يؤدي إلى كون الانتقاد الاجتماعي من شأن عدد صغير

من المثقفين الذين عانوا، هم أنفسهم، تجربة الظلم والذين يضعون مسألة الإملاق في مركز تأملهم. وبعضهم المتأثر بقراءة روسو وبأدب العاصفة والقهر لم ينتظر الثورة الفرنسية حتى يحلل ويدين قمع مجتمع لا يدع للفرد أية وسيلة لتنمية ثقافته الشخصية. إن كاتباً مثل المربي كريستوف غوتلف سالزمان، مؤلف "الرواية التربوية" الشهيرة كارل فون كارلسبرغ (١٧٨٣-١٧٨٨) يبين أنه يضاف إلى القمع الإقطاعي لطبقات المجتمع الدنيا القمع الذي يتضمنه نمو المكننة. إلا أن سالزمان يسلم، دون أن يكون ثورياً، ومع اقتناعه بأن الإصلاح سيأتي من فوق، بأن الظروف الاجتماعية هي التي تفسد الفرد الطيب بالطبيعة وأنه يجب القتال ضد "نظام معاكس للطبيعة" وإعطاء كل فلاح وحرفي إمكانية التمتع بثمرات عمله كاملة. وغالباً ما ستصبح اللهجة، بعد ١٧٨٩، أكثر جذرية: فكارل فريدريش باردت، الشاهد على هذه البروليتاريا المثقفة التي استقبلت أخبار باريس بحماسة، يطلب، من أجل مداواة الأمراض التي تعاني منها ألمانيا، تدخلاً اقتصادياً من الدولة لصالح الطبقات المحرومة وهو ما يقتضي تحويلاً ديمقراطياً جذرياً للمؤسسات. ويظهر، لدى "يعاقبة" ألمان عديدين تابعوا، عن كثب، سياسة الكونفنسيون والردة الرجعية التي تلتها، كما لدى جورج فريدريش ربمان، الاهتمام بالخروج من الهياج الثوري إلى عمل واسع النطاق لمصلحة الطبقات المضطهدة. وهناك، أيضاً، من يدخلون، مثل إينياز مارتينوفتش، في برامج الهدم السياسي، لديهم، برنامجاً كاملاً لإصلاحات اقتصادية واجتماعية مكرسة لخلق دولة مساواتية.

"الطوباويات" الألمانية الأولى

نصادف، في أصل الأدب الاشتراكي الألماني، طوباويتين ظلتا مجهولتين طويلاً، ولكنهما تشهدان على سعة الاهتمامات الاجتماعية داخل التنوير

في نهاية القرن الثامن عشر. وقد كتبت الاثنتان عام ١٧٩٢. الأولى- الإنسان وعلاقاته- هي من تأليف كارل ولهلم فروليش الذي أجرى، وهو المنتمي إلى أسرة ميسورة من براندبورغ، دراسات حقوقية جيدة في هال وانتمى في برلين حيث كان موظفاً، إلى بيئة مهتمة بالمسائل الفلسفية والتربوية ومعادية لسياسة الخلق التي نمت، في عهد فيدريك ولهلم الثاني بتأثير وزيره فولنر. والثانية-التي كانت تنصب على "العلاقات المضبوطة بين أعمال الخلق وسعادة البشرية-كتبت من جانب فرانز هنريش زيغنهاغن الذي لا نعرف عنه إلا أنه قد مارس، بعض الوقت مهنة تاجر في هامبورغ وأنه ذهب، فيما بعد، إلى ستنتال، قرب ستراسبورغ، حيث حاول خلق مستعمرة على مبدأ "الوجود الطبيعي" والتي ألف موزار، من أجل خلقها، إحدى أواخر غنائياته، وأنه انتحر عام ١٨٠٦. فلم يكن كلاهما، إذن، ينتميان إلى عالم الآداب، ولكنهما كانا يقيمان علاقات ممتازة مع بورجوازية زمانهما المثقفة.

وكانت كتابة الطوباويات رائجة في ألمانيا القرن الثامن عشر. ولكن رواية ولهلم هاينسه الشهيرة، "أردينغلو والجزر السعيدة" (١٧٨٧)، التي تمثل مجتمعاً توجد، فيه، مشاعية الخيرات لا تظهر سوى طبقات متميزة تتاجر بالعبيد دون أي هاجس أخلاقي. والجدير بالملاحظة، على عكس هاتين الطوباويتين، هو رفض المؤلفين الاكتفاء بوصف قبلي للمجتمع الكامل. ولا شك في أن فروليش يقدر أن الطبيعة البشرية يجب أن تنتظم بموجب معايير العقل. ولكنه يفكر أنه لا ينبغي على الإنسان استعمال هذا العقل حسب مبادئ ثابتة، بل حسب الظروف التي يمليها التطور الاقتصادي والاجتماعي. فلا يوجد، في رأيه، عقل مطلق يعين للإنسان سلوكاً معيناً، بل يرى أن الاتجاهات الأخلاقية يجب أن تقوم على تبعية مطلقة لـ"الأزمنة والظروف". هذه النسبية تفسر الأهمية التي يوليها هذان المؤلفان لوصف الشروط الاجتماعية التي يعيشان فيها ورغبتهما في

وضع حد للتجاوزات. وكتاب فروليش حافل بالتأملات حول الطبقة الريفية في ألمانيا زمانه. أما زيغنهاغن، فسعة البؤس في أحياء هامبورغ الشعبية هي التي تستلفت نظره. ويظهر، في كتابه، تحليل رائع لشروط حياة طبقة جديدة من العمال يتزايد إفلاقها من الأطر الحرفية وتتولى، إذ ذاك، قيادة حركات التمرد.

ويؤيد المؤلفان زوال الملكية الخاصة التي هي، بالنسبة إليهما، مصدر كل الأمراض. وهما بعيدان جداً عن تأييد التصورات اليعقوبية لملكية مساواتية كما طورت، آنذاك، بتأثير أحداث فرنسا، في "أفكار" أوغست فون آينسيدل،وينحازان إلى ملكية مشاعية تماماً. وهما يتجاهلان، بالتالي، التطور الإجباري لمجتمع يجب أن يمر بمرحلة الملكية الخاصة. فيسيطر على فكرهما الأمل بتحرير كلي للمجتمع من الشرور التي تشرها. وهذا التحرير، كانا ينتظرانه، كرجلين من القرن الثامن عشر، من ضروب التقدم في التربية والأنوار. وهما يفكران، مطبوعين بأخلاقية مابلي وموريلي، ولكن أكثر من ذلك، أيضاً، فكر التنوير السياسي كما يعبر عنه، خاصة، في "المرآة الذهبية" لفيلاند، في أن الحرية الاقتصادية على صلة وثيقة بالتحرير الثقافي والديني. فانتشار الأنوار هو، في رأي فروليش، الذي سيجعل الإنسان قادراً على مواجهة التحول الضروري للعلاقات الاجتماعية: فيجب أن يجد الإنسان، في نفسه، متحرراً من كل وصاية دينية، دوافع وجوده مفلتاً من الدوافع الغريبة عنه. والذي يكون لنفسه، عن هناءات العالم الآخر، فكرة أجمل مما ينبغي لن يكون، كما يقول، قادراً على التحكم في الحاضر. فالدين لم يخدم، قط، سوى مصالح الطبقات الحاكمة. وكتاب زيغنهاغن مليء، كذلك، بالهجمات ضد إيمان طفلي وأعمى دون أن يصل، كفروليش، إلى إلحاد منتظم. ولا يمنع ذلك كون الطوباويين يبقيان مقتنعين بأن الغلالات الاجتماعية ستنتهي منذ أن تنتشر الأنوار. ومن هنا الأهمية التي تتخذها، في عملهما،

الهجمات ضد الترف والتبديد وتمجيد بساطة الحياة الريفية والنصائح المعطاة من أجل غذاء معتدل وتعريف تعليم يفسح مجالاً راجحاً لملاحظة الطبيعة والتقنيات: توصيات نجدها في كل مؤلفات القرن الثامن عشر المتجهة نحو تعريف حضارة أكثر سعادة ومعقولية[1].

فيخته والتراث الاشتراكي للثورة الفرنسية

من بين كل الكتاب الألمان الذين تأملوا في الثورة الفرنسية، كان فيخته، دون شك، الوحيد الذي فكر في موضوعها بوصفها "واقعة تاريخية": فهي التي حددت وجهتها الثقافية. وقد أشار هو نفسه، في العهد الذي كان يفكر، فيه، في تقديم خدماته للجمهورية، إلى التوازي بين جهده الفلسفي الذي كان يجب أن يقوده، عام ١٧٩٥، إلى "نظرية العلم" وعمل التحرير السياسي الذي كان عمل الثورة: "نظامي هو أول نظام للحرية. وكما ستخلص هذه الأمة (فرنسا) البشرية من قيودها المادية، فسيحررها نظامي من نير الشيء في ذاته، من التأثيرات الخارجية، لأن مبادئه الأولى تجعل من الإنسان كائناً مستقلاً. وقد ولد ***مذهب العلم*** خلال السنوات التي كانت، فيها، الأمة الفرنسية تجعل، بقوة طاقتها، الحرية السياسية تنتصر. وأنا أدين لقيمة الأمة الفرنسية بكونه قد ارتفع إلى أعلى أيضاً، أدين لها بكونها قد حرضت فيّ الطاقة الضرورية لفهم هذه الأفكار. فبينما كنت أكتب مؤلفاً حول الثورة الفرنسية، انبثقت فيّ

---

[1] -الصلة بين هذه الكتابات واشتراكية عصر عودة النظام الملكي الطوباوية مثبتة في رواية كتبتها زوجة فرولِش، هنرييت: "فرجينيا أو مستعمرة كنتاكي (برلين ١٨٢٠). حيث توصف، بأمثلة دقيقة، مدينة مثالية في الولايات المتحدة: فقد زالت الملكية الخاصة والثروة الشخصية. وأخلاقية المواطنين محددة بالزهد والمساواة في الموارد الاقتصادية. ولن يأتي أي قسيس ليشوه محاسن الثقافة الجماعية.

العلاقـات الأولى، التوقعـات الأولى لنظـامي كمكافـأة".

إن ابـن صـانع الملابـس السكسـوني الـذي عـرف إذلالات الطـالب الفقـير وبؤس مهنـة المـربي غـير القـادر علـى أن يخلـق لنفسـه علاقـات سـوية مـع الآخرين، المقتلع من جـذوره والمتمـرد، مـع وعيـه لمـا هـو مكـرس لـه، كـان قـد عـبر، عـام ١٧٨٨ في كتابـه "أفكـار عشـوائية لليلـة أرق"، عـن مشـاعر الاشمئزاز الـتي كـان يخلقـها، لديـه، ظمـأ الطبقـات الحاكمـة إلى الاسـتمتاع، روح "الضـراوة والقمـع" الـتي كـانت تحركـها، سـلطانية الأمـراء والخرافـات التي يدع القسس الجماهـير تتعفـن فيـها، الطيـش في العلاقـات بـين الجنسـين. وفي هـذا الكتـاب، تعصـف ريـح ثـورة شـعبية. ومـن الجديـر بالملاحظـة أن أولى كتابـات فيختـه الـذي لم يكـن متعاطفـاً مـع بورجوازيـة الجمعيـة التأسيسـية الليبراليـة لا تعـود إلا إلى الفـترة الـتي جعلـت الثـورة نفسـها ديمقراطية. إلا أن ما يبدو عليـه أنـه يحتفـظ بـه، في كتابـه "إسـهامات مكرسـة لتصحيـح حكـم الجمـهور علـى الثـورة الفرنسـية" (١٧٩٣)، هـو، أيضـاً، الوجـه الفـردي والمعـادي للدولـة مـن فكـر روسـو: فقـد بـين، في دحضـه للكتابـات المحافظـة الـتي كرسـها الهـانوفري ريـبرغ للثـورة، أن المكسـب الرئيسي كان تحرير الفرد مـن القيـود الـتي كـانت الدولـة تبقـي عليـه سـجيناً فيـها. وقـد أشـار إلى طـابع "العقـد الاجتمـاعي" القـابل للإلغـاء. وكـانت الدولة، تبدو له مؤسسة انتقاليـة يجـب أن تعمـل علـى تهـديم نفسـها. وكـانت المزية الكـبرى للثـورة، في نظـره، هـي في كونهـا قـد حلـت السـلطة لصـالح الفـرد وكونهـا أنجـزت، بذلـك، "عمـل يسـوع ولوثـر، العبقريـين الوصيـين على الحريـة"، فأتـاحت للإنسـان أن يؤكـد ذاتـه وأن لا يعـترف-كمـا كـان يريد كانت-بغير سلطة قانون أخلاقـي يحـدده لنفسـه بنفسـه. وقـد غـدا هـذا التحريـر للفـرد ممكنـاً، في رأيـه، بسـبب تدمـير امتيـازات النبالـة والاعـتراف بكنيسة ذات صفة روحيـة حصـراً. ولكـن الثـورة كـانت قـد حملـت معـها، وهي تفعـل ذلـك-وهنـا تظـهر، لأول مـرة، اهتمامـات فيختـه الاشـتراكية-

تصوراً جديداً للملكية: فهذه الأخيرة نتاج عملنا. والشيء الوحيد المشروع هو عمل الملاك الذي حول المادة الخام. ولا يمكن، عند الانطلاق، حرمان أحد من كمية الخيرات اللازمة لمعيشته. وقد صرح قائلاً: "لا يحق لأي إنسان أن يترك قواه غير مستعملة، ولا ينبغي أن يعيش بفضل دعم غريب عنه. إن ما يحق لكل إنسان يعمل أن يتملكه هو غذاء مقبول لجسمه وبكمية كافية لزيادة قواه ولباس متوافق مع المناخ ومسكن متين وصحي".

ذلك ما كان يجب أن تكون نقطة انطلاق الاشتراكية الفيختية. فقد أدار ظهره للعناصر الفردانية من الفكر الروسوي، وسوف يتوجه بفكره إلى القطب المقابل من هذه الفلسفة نفسها، نحو القوة القاهرة للمجتمع. وسوف يتجاوز، في كتابه "أسس الحق الطبيعي بموجب مبادئ نظرية العلم" (١٧٩٦)، تصور كانت الذي كان يرى في الحق ما ليس ممنوعاً من الناحية الأخلاقية ليعرف علماً للحق متميزاً عن الأخلاق الفردية. فلم يعد العقلاني والاجتماعي سوى شيء واحد، والحق لا يفعل أكثر من التعبير عن التحديد المتبادل للحريات في جماعة كائنات عاقلة. إلا أن الحق يقتضي شرطاً مزدوجاً: دائرة فعل كافية لكل فرد من أجل أن يستطيع استعمال حريته، أولاً، ثم قسر، ضغط يمنع استعمال هذه الحرية من الإساءة إلى حرية الآخرين. ومن أجل أن يستطيع الضغط فرض احترام الحق، فعلاً، يجب أن يحل محل ضرورة أخلاقية، إمكانية بالضرورة، الإرادة العامة التي هي قانون وقوة معاً. إلا أن هذه الإرادة العامة ليست سوى الدولة. وباختصار، ما من حق، في نظر فيختة، دون قسر، ولا قسر دون يد حديدية، يد الدولة. ويكف فيختة عن اعتبار الدولة، كما كان قد فعل، في كتاباته الأولى، مؤسسة اختيارية وإمكانية، ويراها، الآن، كواحد من مقتضيات العقل: والإطاحة بالدولة يبدو للفيلسوف عقيماً بقدر ما هي غير شرعية. فوجودها ضروري لكائنات

عاقلة تعيش في جماعة.

وفي حين بقي فيخته، في كتاباته الأولى، على صعيد الليبرالية الاقتصادية، فإنه يقود نظريته في الملكية حتى آخر نتائجها المنطقية. فهو يكتب أن مبدأ كل دستور معقول هو أن "يعيش كل واحد من عمله الخاص لأن حق الحياة هو الملكية التي لا تستلب لكل البشر". وسوف توزع الملكية، بالتالي، من جانب الدولة بحيث يتلقى كل واحد حداً أدنى حيوياً على الأقل. وسوف تخصص لكل واحد نصيباً من الموروث القومي يستطيع استثماره حسب ميله. وسوف تحرص على أن لا يحرم أحد من هذا النصيب، على أن لا يستعمله أحد تعسفياً. والتصور الشرعي هو الذي لا يعرف الملكية، على عكس الحق الروماني، كشيء معطى، بل كدائرة فعالية تسمح بالعيش. والدولة هي التي يقع على عاتقها أن تنقل هذا التصور إلى الوقائع، أي أن تحقق العدالة الاجتماعية.

وتطبيق المبادئ الواردة في "نظرية الحق" جرى في الكتاب الصغير الذي يحمل عنوان "الدولة التجارية المغلقة" (١٨٠٠) الذي أراد، فيه، فيخته الذي لم يكف عن إبداء إعجاب عميق بالثورة الفرنسية والذي صعد، عبر بابوف-المعروف في ألمانيا بفضل عروض رايخار دارشنهولتز- حتى أفكار كبار الإصلاحيين الفرنسيين أن يعطي "التعبير الاقتصادي" عن الثورة، مع تصوره تطبيق نظامه في هذه البروسيا التي كان الوزير سترونسه الذي أهدي إليه الكتاب أن يعيد تنظيمها بتبسيط نظام الجمارك الداخلية. ونجد، في "الدولة التجارية المغلقة" التعريف نفسه للملكية التي ليست هي تملكاً للأشياء، بل دائرة فعالية. وسوف يبقى المبدآن الكبيران اللذان صاغتهما الثورة الفرنسية، الحرية والمساواة، كلمتين لا حياة فيهما إذا لم يتلقيا مادة يمكن أن يطبقا عليها، ببيئة يستطيعان أن ينموا فيها. ومن أجل أن يصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية من الثقافة المرغوب فيها، يجب أن يستطيع تلبية حاجاته المادية

وأن يكون تحت تصرفه الحد الأدنى الضروري الذي يؤمن له التمتع بثمار عمله. ويكتب فيخته قائلاً: "ليس هذا مجرد رغبة خيرية لمصلحة البشرية، بل هو المطالبة المحتومة بحقها ومصيرها في أن تعيش على الأرض بالقدر من الحرية واليسر الذي يمكن للطبيعة أن تسمح به. فلا ينبغي أن يعمل الإنسان كدابة تنام تحت حملها وتستيقظ من جديد، بعد استعادة لا تكاد أن تكون كافية لقوتها المنهكة، كي تحمل العبء نفسه. يجب أن يعمل دون حافز الخوف، بسرور وفرح، محافظاً على وقت فراغ من أجل الارتفاع بروحه ونظره إلى السماء التي تكوّن ليتأمل فيها. ولا ينبغي أن يأكل مع دابته، ويجب أن يكون غذاؤه مختلفاً عن العلف، ومسكنه مختلفاً عن الحظيرة اختلاف تشكله عن تشكل الحيوان". ولكن عمل العدالة هذا الذي يبدي فيخته حياله هذه الحماسة يقتضي من جانب الدولة تنظيماً دقيقاً. فيزعم فيخته تأسيس دولة عقلانية، ضد المركنتيلية المتسببة بالاحتكار والحروب، وضد الليبرالية الاقتصادية التي تكافئ استغلال الأقوياء للضعفاء، سيكون عمل الفرد فيها، كعضو في العضوية الاجتماعية، في تبادل أبدي مع المجتمع بكامله. وهو يريد أن تحسب أعداد كل طبقات الأمة، الواحدة منها بالقياس مع الأخرى، وأن تحد برقم معين من الأعضاء. وهو يلح، خاصة، من أجل أن لا تتراجع الدولة أمام أي ضغط مكرس لتحطيم الأنانيات وخفض الاستلابات وتدمير الاحتكارات.

إلا أنه لا يرى أنه يمكن الحصول على هذا التنظيم إلا ضمن إطار "دولة تجارية مغلقة". وبالفعل، فما فائدة تنظيم العمل والتوزيع بدقة إذا كان يمكن للاستيراد والتصدير أن يمارسا، في كل لحظة، تأثيراً مربكاً؟ وسوف يكون لإغلاق الحدود الذي يتمناه فيخته نتيجة مزدوجة: فهو يجبر الدولة على سحب كل العملة المعدنية من التداول وإحلال عملة قومية لا يجري تداولها إلا في البلد الذي أصدرها محلها، وبالتالي منع كل فرد من

الإسهام في التجارة الدولية التي ستصبح دائرة فعالية الدولة حصراً، من جهة، وتجبرها، من جهة أخرى، على أن تنتج، ضمن حدود الإمكان، داخل حدودها، كل المنتجات التي تحتاج إليها، أي على خلق بدائل حيث يكون ذلك ضرورياً. وهذه السياسة الاقتصادية تقتضي، دون شك، من جانب المواطنين، تقشفاً سبارطياً، تخليهم عن عدد كبير من مواد الترف التي كانوا قد اعتادوا عليها. ويسلم فيخته، أخيراً، بأن سياسة "الإغلاق" هذه تقتضي اكتساب الدول "حدوداً طبيعية" بحيث يمكنها تلبية مقتضيات مواطنيها وإلا سوف تخلد حالة الحرب بين الأمم. ففيخته يقيم، إذن، تصوره للسلام الأبدي على تنظيم الاكتفاءات الذاتية الاقتصادية.

وتكشف تصورات فيخته عن التأثير القوي جداً الذي مارسته عليه الثورة الفرنسية، وكذلك المناقشات التي دارت في المجالس التشريعية كما في كتابات بابوف الذي لا يشاركه، مع ذلك، المساواتية الجذرية. إلا أنها تبقى مطبوعة بالأخلاقية الكانتية التي كانت، في شبابه، مصدر تفكيره الرئيسي. وهو لا يخفي، فعلاً، أن الملكية تقتضي، من جانب المواطنين، إحساساً بمسؤوليتهم حيال الجماعة. والحرية ليست، في نظره، حقاً ملازماً للشخص البشري فقط، بل هي مصدر التزامات وتقتضي، بالتالي، تربية أخلاقية مناسبة. ولا يؤدي نظامه إلى تسوية وهمية بين الشروط، وليس في منظوره الاقتسام الآلي للخيرات، بل يدع للعمل الفردي مهمة زيادة الملكية التي أعطيت، في الأصل، لكل المواطنين. فاشتراكية فيخته، إذن، اشتراكية أخلاقية، ويبقى أعلى غاياتها تحقيق المصير الأعلى للأفراد. فسوف يحل نظامه محل نظام عام تصنع، فيه، ثروة بعضهم بؤس الآخرين قانوناً جديداً تحتفظ، فيه، الدولة لنفسها بمهمة جلب المزيد من العدالة. ولكنه لن يكون لضغط الدولة هذا من معنى إلا إذا سمح، بدوره، للمواطن بالمشاركة في كرامة الروح وبممارسة الوظائف

التي تجعل منه، حقاً، إنســـاناً. ومـــن هنـــا الأهميـــة الـــتي يوليـــها لوقـــت الفـــراغ. ففي مجمل عملـــه، يظـــهر، مـــن خـــلال الضغـــوط الـــتي يفرضـــها نظـــام جديـــد، الاهتمام الرئيسي بـــاحترام الحريـــة البشـــرية وإعلائـــها.

ويبقى تأثير فيخته صعـــب الاســـتيعاب. فكـــون فكـــره الاجتمـــاعي معروفـــاً مـــن عـــدد مـــا في الأوســـاط التقدميـــة في ألمانيـــا، وكـــون كريســـتيان ســـومر الـــذي أسهم في الحركـــة الرينانيـــة الشـــرقية قـــد اســـتوحى نظريتـــه في الحـــق في كتابـــه "أســـس دولـــة كاملـــة" (١٨٠٢) لا يمنعـــان، أبـــداً، أن يكـــون معـــاصروه قـــد صدمـــوا، خاصـــة، بالطـــابع اللاحـــالي والطوبـــاوي لكتاباتـــه. ولم تكـــن أفكـــار بابوف، دون أن تكـــون مجهولـــة مـــن الألمـــان، قـــد تجـــذرت بدورهـــا. وســـوف ينبغي انتظار عدة عقـــود مـــن أجـــل أن يولـــد، مـــن جديـــد، فكـــر اشـــتراكي في ألمانيـــا.

الاشتراكية الألمانية فـــي عصـــر مـــا قبـــل آذار

الدخول البطـــيء للاشـــتراكية إلى ألمانيـــا

ارتبط تأخر نمـــو الاشـــتراكية في ألمانيـــا، بالقيـــاس مـــع الـــدول الغربيـــة الأخـــرى، بـــالتطور العـــام للاقتصـــاد والمجتمـــع. والواقـــع هـــو أن الاندفاعـــــة الســـــكانية الاســـتثنائية لمـــا قبـــل آذار-ارتفـــع عـــدد الســـكان، بـــين ١٨١٦ و١٨٤٥ بمعـــدل ٤٠ -هي الـــتي خرجـــت منـــها هـــذه الكـــثرة الـــتي مســـها الإمـــلاق والـــتي لا تســـتطيع أن تجـــد منـــافذ كافيـــة لا في الزراعـــة، ولا في الصناعـــة ، ولا في التجـــارة. فظـــاهرة الإمـــلاق غـــير مرتبطـــة، إذن، ببدايـــات التصنيـــع، بـــل، بـــالأحرى، بعـــدم كفايـــة هـــذا التصنيـــع الـــذي لا يســـتطيع امتصـــاص اليـــد العاملة المتوفـــرة وكذلـــك، مـــن جهـــة أخـــرى، بـــالوضع الصعـــب جـــداً الـــذي كان، فيه، الصنـــاعيون الألمـــان بســـبب المنافســـة الأجنبيـــة. وعـــن هـــذا التـــأخر في الاقتصاد نجمـــت الهجـــرة القويـــة، خاصـــة إلى العـــالم الجديـــد والـــتي كـــانت، مع ذلك، بعيدة جداً عـــن حـــل المســـألة في جملتـــها. فقـــد انصـــب قســـم كبـــير

من فائض السكان الريفيين، المحسوس، بصورة خاصة، في بروسيا، على المدن المجاورة حيث أسهم، داخل مجتمع كانت صلات النقابات التقليدية، فيه، في طريقها إلى الاختفاء، في تفاقم مصير الصناع الذين لم يعودوا يفكرون في درجة معلم المهنة، ولكنهم كانوا يرفضون، مع ذلك، اعتبار أنفسهم بروليتاريين. أما بالنسبة للبروليتاريا التي تعمل في المصانع والتي ما زالت قليلة العدد و لم تكن قد اتخذت، بعد، وجهاً كثيفاً إلا في ساكس وبعض المناطق الغربية من بروسيا-كان هناك حوالي ٢٥٥ ألف عامل يعملون في المصانع والمناجم حوالي ١٨٤٨-، فإنها أكثر تنوعاً في أصولها، أكثر تعلقاً بأعرافها وأكثر بؤساً أيضاً-نشهد، بين ١٨١٦ و١٨٤٧، تراجعاً ثابتاً للأجر الحقيقي-من أن يكون لديها وعي طبقي حقيقي ومن أن تستطيع التفكير تفكيراً مفيداً في المسألة الاجتماعية.

وهكذا بقي جزء كبير من الطبقة الشعبية مسجوناً، خلال فترة ما قبل آذار، في اللاوعي الاجتماعي ومحكوماً عليها بالاستسلام أو بثورات قصيرة عارضة. وكان من المحتوم، في هذه الشروط، أن تكون الحركة الاشتراكية في ألمانيا من شأن الأوساط المثقفة سواء أكان ذلك لأن هذه الأخيرة كانت قد عرفّت بالنظريات التي كانت رائجة في الخارج أم لأنها هي، نفسها، قد استخلصت من الفلسفة السائدة في ألمانيا-الهيغلية-بعض النتائج حول تطور المجتمع وإصلاحه. إلا أنه يجب البحث عن مصدر آخر للاشتراكية في عمل وفكر الحرفيين الألمان الذين عاشوا في الخارج، في سويسرا أو باريس أو لندن. وأخيراً، وفي ألمانيا نفسها، لا شك في أن ثورة النساجين في سيليزيا، عام ١٨٤٤، كانت، بلفتها الأنظار إلى تحجر مجتمع أصبح متقادماً، عنصراً مجمعاً أسهم في إعطاء اندفاعة نشيطة للتأمل الاجتماعي. وسوف تكون ألمانيا، في نهاية المطاف، البلد الذي سيحقق، قبل ١٨٤٨، أعظم ضروب التقدم في الفكر الاشتراكي: فهنا ستنضج، خلال الأربعينات، ولادة الاشتراكية العلمية.

أمام عمل الرقابة القمعي، أخذت الأفكار الاشتراكية وقتاً طويلاً للدخول إلى ألمانيا، وهذه الأخيرة احتكت، من خلال الخارج، بهذا الشكل الجديد من الفكر. ومن هذه الناحية، كان دور منفيين، هما لودفيغ بورن وهنري هاينه، عظيماً: فقد عبر الأول الذي لم يكن، قط، اشتراكياً بل كان راديكالياً ويعقوبياً حساساً، مع ذلك، لفكرة الصراع الطبقي عن ثقته بالعفوية الثورية للجماهير، خلاقة العدالة والحرية، في مخطوطه "حول تاريخ الثورة الفرنسية". أما الثاني، وكان أقرب إلى السان سيمونية، فقد استمد منها مذهبه في التحرير من القيد المرتبط، في ذهنه، بنهاية العذاب المادي للطبقات المضطهدة. وهاينه الذي كان قد لاحظ، منذ وقت مبكر، أرجحية القضية الاجتماعية كان، في بحثه "حول التاريخ والفلسفة والدين في ألمانيا" (١٨٣٤)، قد عرّف، انطلاقاً من السان سيمونية، نوعاً من "الحلولية"، دين المستقبل الذي يجب أن يحل محل المادية الحسية كما يحل محل روحانية الرومنطيقيين الرجعية، والذي يرى أن ألمانيا، بلد لوثر وهيغل، ستكون قادرة قدرة خاصة على تمثله. وأعلم الفيلسوف الهيغلي إدوار غانز، الأستاذ في جامعة برلين والذي كان قد زار فرنسا قبل ثورة ١٨٣٠ وبعدها، المستمعين إليه، وكان بينهم الفتى ماركس، بالانطباع العميق الذي تركته لديه المدرسة السان سيمونية وركز، في "نظرة استرجاعية على أشخاص زماننا وأحداثه"، على ضرورة تحرير كلي للإنسان بتنظيم أفضل للإنتاج وبتوزيع أكثر إنصافاً للثروات. وكتب، عام ١٨٣٦، يقول: "إن اعتبار الدولة مسؤولة عن الوفاء بحاجات أفقر الطبقات وأكثرها عدداً يشكل أحد أعمق الآراء في زماننا". ولم يكن غوته نفسه، في نهاية حياته، عديم الحساسية بالفكرة السان سيمونية. ففي كتابه "سنوات رحلة ولهلم

مايستر"، يلقي نظرة تنبؤية على الأزمنة القادمة فيرتكس، بقوة، ضد هذه الفردية التي كان يعدها واحدة من أكثر ثمار ثقافة القرن الثامن عشر فساداً وألح على الاندماج الضروري للفرد بالجماعة البشرية. ولما كان واعياً جداً لتطور احتماعي يحمل صاحب المشروع الكبير إلى المقام الأول، فإنه يتبين، أيضاً، الأخطار التي يتضمنها، أي انقسام المجتمع إلى طبقتين متنازعتين، أصحاب المشروعات وسجناء العمل اليدوي الشاق. وهو يلاحظ، بشكل دقيق، التهديد الذي يشكله توسع المكننة بالنسبة لعدد كبير من العمال. إلا أنه يرى أنه سوف يمكن إبعاد الخطر إذا قبلت الطبقات القائدة الالتفات، بتفهم، إلى العمل الذي تكون مهمتها قيادته، وإذا كان لدى العمال ما يكفي من أوقات الفراغ ليصلوا إلى هذه الثقافة التي ستعطيهم حس المسؤولية الاجتماعية. وعلى هذا الأساس، تابع غوته، عن كثب، تجارب زمانه "المشاعية" وقرأ سان سيمون، دون أن يؤمن، على كل حال، بوصفاته إيماناً كاملاً، واستعلم عن محاولات أوين الجماعية في الولايات المتحدة.

وكان لفورييه، كذلك، تلاميذه: فقبل ثورة ١٨٣٠ بكثير، حاول تريفيري مبادر ومحب للبشر، لودفيغ غال الذي كان قد مضى، عام ١٨١٩، إلى الولايات المتحدة ليؤسس، فيها، مشركاً والذي سينشر أفكاره، فيما بعد، في هنغاريا، حاول تحليلاً لإفقار الجماهير ولظهور مدلول الطبقة العاملة ونادى بتشكيل ورشات قومية. وقد كتب، عام ١٨٣٥، يقول: "المتميزون بالمال والطبقات الكادحة متعارضون: فوضع الأولين يزدهر بقدر ما يصبح وضع الآخرين أشد هشاشة وبؤساً". ولم يستخلص غال، كفورييه فضلاً عن ذلك، من هذا النقد، نتائج ثورية: فقد كان يريد أن يخلق، في إطار مجتمع بورجوازي، تنظيماً جديداً للعمل يكون منصفاً للعمال. وأبرزت كتابات ج.ف.غايب وفرانز ستوماير، خلال الأربعينات، استمرار وجود مدرسة مشركية في ألمانيا.

وتفسر تأثيرات فرنسية، أيضاً، تكوين جورغ بوشنر الذي كان قد تعرف، في ستراسبورغ (١٨٣١-١٨٣٣) على مدرسة حقوق الإنسان وعلى الأيديولوجية البابوفية من خلالها. وكان ينتمي إلى تلك الأوساط، في غيسن، التي كانت تربط، مع كارل فولن، المسألة الاجتماعية بالمسألة القومية. وكان بوشنر يعلم أن النضال ضد الطغيان لا يمكن أن يجري إلا باتصال وثيق بالفلاحين والعمال: "الشعب الفقير يجر، بصبر، العربة التي يمثل عليها الأمراء الليبراليون كوميدياهم الفردية". وجمع، مع صديقه القسيس فريدريش فايديغ الذي كان قد اشترك في عيد هامباخ، في هيس في بادنبورغ، في تموز ١٨٣٤، عدداً من "وطنيي" ألمانيا الجنوبية. ولم يمكن الاتفاق بين بوشنر الذي كان يتمنى التحالف مع الطبقات الشعبية وفايديغ الذي كان يريد الاكتفاء بتوزيع النشرات الوطنية. ولكن بوشنر كتب نشرة سرية، في "الجريدة الهيسية المحلية" كان شعاره: "السلام للأكواخ والحرب للقصور" التي كان هدفها ربط المصالح المادية لشعب الفلاحين بالعمل السياسي. وكان يرى أن العلاقات بين الفقراء والأغنياء هي المحرك الأساسي للنضال الثوري، وكان يعول على المضطهدين وحدهم لقيادة هذا النضال، وليس على "الطبقة المثقفة". ذلك أن "الهوة التي تفصلها عن الناس غير المتعلمين لن يمكن ردمها أبداً" كما كتب، إذ ذاك، إلى غوتزكاو. وعمله الأدبي الذي نجد، فيه، الاهتمامات الاجتماعية لدرامات العاصفة والقهر يعبر، فضلاً عن ذلك، عن الاهتمامات نفسها: فيعبر "موت دانتون" عن عظمة الديكتاتورية اليعقوبية وحدودها، وكذلك عن أسباب الفشل النهائي للثورة الفرنسية، وتعبر "فويزياك" عن التعارض الذي لا يمكن اختزاله بين بسطاء هذه الأرض وأقويائها، و"ليونس ولينا" عن كسل الطبقات القائدة. وقد أفضى لكوتزكاو، عام ١٨٣٥، بأن "الحالة الاجتماعية الراهنة تجعل من كتلة المواطنين الكبرى دواباً قابلة لتلبية حاجات لا مبرر لها لأقلية صغيرة من

المنحلين". وفي حين كان على فايديغ أن ينتحر ليفلت من التعذيب، نجح بوشنر في الهرب إلى ستراسبورغ حيث حول صديقه أوغست بيكر إلى الاشتراكية، وحيث توفي عام ١٨٣٧، في عمر الثالثة والثلاثين، دون أن يكون قد أسهم في حركة الحرفيين الألمان الشيوعية.

ويجب أن نفسح مكاناً على حدة، في دخول الاشتراكية إلى ألمانيا، لفيلسوف صوفي هو فرانز فون بادر الذي كان، وهو مهندس مناجم شاب، قد قام بعدة رحلات إلى بريطانيا حيث تعرف على المسائل الاجتماعية. وكان عليه أن يظهر، في الثلاثينات، مع ماركس، أن تطور المجتمع كان يجري في اتجاه تراكم رؤوس الأموال في عدد صغير من الأيدي وأنه تنمو، مقابل بعض أصحاب الامتيازات، كتلة من العمال غير المبالين بمصير الأمة والذين تتفاقم بوضعهم الثورة الصناعية، من جهة، وإقامة نظام انتخابي على أساس حد ضريبي، لمصلحة البورجوازية، من جهة أخرى. ومن المؤكد أن بادر الذي كان، آنذاك، أستاذاً للفلسفة في جامعة ميونيخ لم يكن ثورياً أبداً: فهو، إذ قدر أن "الإحسان" كان عاجزاً عن حل المسألة الاجتماعية، يتمنى أن تتولى الكنيسة الكاثوليكية مصير البروليتاريين وتحصل، لأجلهم، من الدولة على عدد من الحقوق السياسية، من بينها حق التجمع. وبقيت أفكار بادر مطبوعة بالفكر الرومنطيقي كما عبر عنه، خلال العقود السابقة، ضد الليبرالية المحيطة، آدم مولر. ولكن عمله أسهم في انفتاح الكاثوليكيين الألمان، مبكراً، على بعض وجوه القضية الاجتماعية: ففي عام ١٨٣٧، قدم النائب في مقاطعة باديه، فرانز جوزف بوس، برنامج تأمينات وتشريع عمل واسعاً. وكان، مع تمسكه بالأشكال التقليدية للحياة الاقتصادية، يفهم تماماً أن نمو الصناعة الكبرى كان محتوماً.

إلا أن كتاب لورنز فون شتاين، "الاشتراكية والشيوعية في فرنسا المعاصرة" (١٨٤٢) هو الذي اكتسب الألمام، من خلاله، معرفة عميقة

بالمذاهب الأجنبية. فقد كان شتاين، على الرغم من كونه على علاقات مراسلة مع وزير الداخلية البروسي الذي كان قد كلفه بالتجسس على روابط الحرفيين الألمان في باريس، ومن أنه كان معادياً، شخصياً، للأفكار الهدامة، يدعو الحكومات، وكذلك الطبقات القائدة، إلى الاهتمام، بمزيد من العناية، بالمسألة الاجتماعية التي كانت، في نظره، المسألة الأساسية للأزمنة الحديثة والتي لا يمكن حلها بإصلاحات تفصيلية. وبين، خاصة، أن البروليتاريا تشكل طبقة جديدة تماماً، طبقة الناس المستبعدين من كل ملكية ومن كل ثقافة، المولودة من الانفصال بين رأس المال والعمل. وقد كتب يقول: "العلاقة بين هاتين الطبقتين (البورجوازية والبروليتاريا) ليست علاقة تعايش مستقل بل علاقة تبعية للأخيرة حيال الأولى. والتسيد الذي كان موجوداً، في السابق، في الميدان الزراعي موجود، الآن، في الميدان الصناعي. وهذا ما يفسر الصراع بين مالكي المصانع وعمالهم". هذا الاستبعاد الاجتماعي كان يولد، فعلاً، لدى من كان مفروضاً عليهم، دعماً لوعيهم الطبقي وإرادة إعادة المساواة الاجتماعية بالعنف: "كان الأمر كما لو كانت البروليتاريا قد أحست، منذ الثورة الأخيرة (ثورة جمعية الفصول ١٨٣٥)، بأنها تركت، منذ ذلك الحين، لذاتها وأنه يجب أن تحل مهماتها الصعبة بتفكير مشترك".

فقد كان المطلب المساواتي، إذن، أكثر من الحرية، هو الشيء المهم منذ ذلك الحين. فلم تعد الدولة هي المهددة، بل المجتمع. ولم يكن شتاين يتمنى حلول الشيوعية التي تريد تدمير المجتمع القائم، ولا الاشتراكية التي تريد ترتيبه فقط. ولم يكن، فضلاً عن ذلك، يرى أن المساواة متوافقة مع مدلول الدولة نفسه. ولكن شتاين، بعرضه الشيوعية والاشتراكية كنتيجة لتطور اقتصادي معين، يدعو رجال الدولة إلى التأثير على هذا التطور لعلاج الخطر. وكان يعول، خاصة، على الإدارة البروسية التي كان يعجب بها أعظم الإعجاب ويعدها، كهيغلي جيد، أداة عظمة بلاده.

وعلى غرار كتاب كاسبار فون بلونتشلي، "الشيوعية في سويسرا" (١٨٤٣) الذي صدر حوالي الفترة نفسها، لفت كتاب شتاين انتباه الجمهور إلى الاشتراكية الأوروبية وأسهم إسهاماً واسعاً في نشر المذهب.

جمعيات الحرفيين الألمان في الخارج

تشكلت أوائل أجنة الجماعات الاشتراكية في إطار جمعيات الحرفيين الألمان الذين كانوا يعيشون في الخارج، وسوف ينمي ولهلم فايتلنغ، ضمنها نشاطه الثوري.

ففي عام ١٨٣٢، تأسست في باريس، في علاقة وثيقة بجمعية حقوق الإنسان والمواطن، جمعية "الدويتشر فولكس فراين" التي ضمت عدداً من الحرفيين، الخياطين وصانعي الملابس والحذائين خاصة، وبعض المثقفين المنفيين، والتي كانت تراسل الوطن الأم وتطبع نشرات ثورية موجهة إلى بلاد ما وراء الرين. وفي هذه الأوساط، كانت تقرأ، بنهم، تعليقات شارل-أنطوان تيست، تلميذ بوناروتي، على إعلان حقوق الإنسان لعام ١٧٩٣، في ترجمته الألمانية. وفي عام ١٨٣٤، وانطلاقاً من العناصر نفسها، تشكلت رابطة المنفيين بتنظيم سري ومتسلسل مستوحى من الكاربوناري الإيطالية وبرنامج يحدد الالتزام "بتحرير ألمانيا من نير عبوديتها المخجلة وخلق دولة تجعل، بقدر الإمكان، العودة إلى البؤس والعبودية مستحيلة". ونشرت مجلة "المنفي" التي كان يديرها، في باريس، الصحفي الديمقراطي والجمهوري جاكوب فينيدي، بقلم تيودور شوستر، الأستاذ السابق في جامعة غوتنغن، مقالات يعرف، فيها، بتصورات سيسموندي والاشتراكيين الفرنسيين الطوباويين ويطور أطروحة ورشات قومية تأخذ الدولة على عاتقها استثمارها. وبسرعة كبيرة، اتخذت الراديكالية السياسية، داخل هذه الجماعات، طابعاً اجتماعياً. ويكتب شوستر: "كل تقدم للصناعة والفنون يعني، في

مجتمعنا، تراجعاً لسعادة البشر والثقافة الإنسانية. ومن أجل أن يستطيع الشعب الوصول إلى النور، سوف ينبغي، في ثورة قادمة، عدم الاقتصار على الإطاحة بالعاهل وحده، بل بالنظام الملكي. وهذا الأخير لا يتألف من الشعارات والتيجان، بل من امتيازات، وأكبر الامتيازات، جميعها، هو امتياز الثروة". وكان يعارض الديمقراطيين والجمهوريين البورجوازيين الصغار، على صعيد التنظيم كما على صعيد الأيديولوجية، الصناع المتجولون الذين كانوا يركزون على القضية الاجتماعية ويحللون أسباب انحسار الحرفية إلى نظام رأسمالي. وكان شوستر يشير إلى كون "الأغلبية العظمى من الحرفيين كانوا منذورين لأن يحتاجوا إلى الخبز أو لمصير عمال المصانع الحزين ما لم تأت إصلاحات واسعة لتعالج نمو اللامساواة".

وحدث تطور مماثل بين الصناع الألمان الذين كانوا يعيشون في سويسرا والذين انضم قسم منهم، بتأثير إرنست شولر، طالب غيزن الذي كان قد شارك في مغامرة ١٨٣٣ الفرنكفورتية، إلى الحركة السرية، حركة "ألمانيا الفتاة" المستوحاة من ماتزيني. وشارك بعضهم، في شباط ١٨٣٤، في حركة مسلحة ضد السافوا. إلا أن بعض الجمعيات التي قادها المنفي كارل شابر والمتجمعة خلال اجتماع في شتاينهولزلي، قرب برن (تموز ١٨٣٤) كانت قد طورت مطالب ذات طابع اجتماعي خاصة. وهذه المطامح المختلفة عن مطامح "ألمانيا الفتاة" عبرت عن نفسها في مجلة "نورديشت" الناطقة بلسان "الديمقراطية الاجتماعية" والتي كان يحررها مثقفان ألمانيان، كلاهما منفيان من غرايسفالد، الطبيب كارل كراتز واللاهوتي فريدريش غوستاف إيرهارد والتي صدرت في زوريخ، مكان إقامة مهاجرين ألمان عديدين، والتي انتشر إشعاعها حتى باريس، في محيط بورن. وكان المنفي إدوار سكريبا، يفسر، في لوزان، تفسيراً اشتراكياً إعلان حقوق الإنسان لعام ١٧٩٣. وبرهن شولر الذي كان يدير حلقة

بين، في مجلة "ألمانيا الفتاة" نفسها، على أن المعركة يجب أن تجري على صعيد الإصلاحات الاقتصادية كما على صعيد العمل السياسي. إلا أن ضغط القوى المحافظة أرغم الكانتونات عام ١٨٣٦، على التخلي عن حق اللجوء وعلى اتخاذ تدابير ضد العناصر المشكوك فيها: وأرغم كثير من الصناع، إذ ذاك، على مغادرة سويسرا إلى إنكلترا وفرنسا.

وتأثيرهم، جزئياً، هو ما جعل رابطة المنفيين، دون أن تزول نهائياً، تترك مكانها لرابطة العادلين التي أعطت نفسها تنظيماً أكثر ديمقراطية وأقل استبدادية على الرغم من كونها سرية بدورها والتي وضعت، بتأثير شابر الذي أصبح عامل مطبعة والخياط جورغ فايسنباغ، القضية الاجتماعية في المقام الأول. وكانت الرابطة تنقسم إلى كومونات تضم الواحدة منها عشرة أشخاص على الأكثر وإلى مقاطعات تتجمع حول لجنة مركزية سميت مجلس الشعب، وينتخب رؤساء هذه المجموعات المتنوعة لمدة سنة فقط، ويمكن عزلهم دائماً. وكان على ولهلم فايتنغ أن يصبح المنظر الرئيسي للرابطة. ولكن أيديولوجية الحركة تعبر عن نفسها، أيضاً، في البحث حول "مشاعية الخيرات" (١٨٣٨) التي كان شابر يرى، فيها، شرط كل ديمقراطية. وكان لرابطة العادلين، إذ ذاك، فروع في سويسرا وإنكلترا، وكذلك في ألمانيا، وخاصة في فرانكفورت والمدن الهانسية التي تكون، فيها، مناضلون كان عليهم، فيما بعد، أن يلعبوا دوراً في الحركة العمالية الألمانية، كالنجار كارل هوفمان في هامبورغ. ولكن شابر، يليه الساعاتي جوزف هول والحذاء هنريش باور، ذهب، بعد طرده من باريس لاشتراكه، شخصياً، في محاولة انقلاب جمعية الفصول، إلى لندن حيث كانت توجد، فضلاً عن ذلك، منذ عدة سنوات، جمعيات سياسية للمهاجرين نشيطة جداً وحيث أعاد تشكيل شعبة لرابطة العادلين وأعطى دفعاً قوياً لجمعية تأهيل العمال الشيوعية التي كان يجب أن تصبح أحد أنشط مراكز الاشتراكية الدولية ولكنها بقيت، في تلك البرهة،

كمنافستها، جمعية لندن الديمقراطية الفرنسية، متأثرة بإيكاريسة كابيه وتعول على العقل، وحدها، على "المناقشة السلمية" لانتصار مبادئها.

والحق هو أنه لم يكن في منظمات المعركة السياسية، قط، سوى عدد محدود من الأعضاء في إطار هجرة يجب أن لا يبالغ في أعدادها غير المستقرة والتي كانت، على كل حال، أدنى بكثير من الأرقام التي أعطاها عملاء استفزازيون-يمكن إعطاء رقم ٢٠ ألف، تقريباً، لعدد الحرفيين الألمان المقيمين في باريس: فقد كان هناك حوالي مائة عضو في رابطة المنفيين في باريس، وأقل من ذلك بقليل في رابطة العادلين حوالي ١٨٣٦، و٤٠٠ تقريباً في كل التجمعات السويسرية، وبضع مئات في مجموع الشعب الألمانية السرية. ولكن ظلاباً، في هذه التجمعات التي يمتزج، فيها، حرفيون جوالون متفاوتو التخصص، تعلموا مهنة يدوية، وهم مثقفون هبطوا إلى مرتبة "أشباه البروليتاريا"، توجد حماسة ثورية تركب حس الأخوة الدولية مع تعلق شديد بالوطن الألماني. إلا أن الاتجاهات السياسية والاجتماعية تبقى، في بداية الأربعينات، معقدة جداً ومتناقضة غالباً. ففي الكانتونات السويسرية، خاصة، حيث كان نفوذ "ألمانيا الفتاة" راجحاً لفترة طويلة، كانت الراديكالية السياسية مصحوبة بشيء من العداء حيال "الشيوعية" المعتبرة نظاماً استبدادياً: ففي جريدة "الشعب الألماني" التي كانت تصدر في كونستانس، يقدر أوغست فيرت الذي كان يحتفظ بنفوذ كبير جداً من جراء اختراعه الكبير في عيد هامباخ أن الجمهورية الديمقراطية تحمل في ذاتها حل القضية الاجتماعية التي هي، في جوهرها، من شأن التربية الشعبية. إلا أن الأفكار الاشتراكية اكتسبت، خلال الثلاثينات والأربعينات، جمهوراً أوسع، وذلك لأنها كانت تقابل شكلاً من التدين الذي كان حياً جداً في الأوساط الحرفية الألمانية ويتجلى في كتب التعاليم الدينية أو كتب الوصايا الكثيرة جداً ذات الاتجاه المسيحي والاشتراكي التي كانت تنشر

آنـذاك. وكـان "أقـوال مؤمـن" و"كتـاب الشـعب" للامونيـه أكـثر الكتـب قراء في ترجمتـهما الألمانيـة. ولم يخـل الأمـر مـن صحفيـين أو قسـس أعضـاء في "رابطة العادلين" كـي يعرفـوا، علـى صـورة راديكاليـة دينيـة، مـا يسـمونه تعليم المسـيح "الحقيقـي". ومـن هـذه الناحيـة، فـإن الصـدى، بـين الحرفيـين المهاجرين، الذي كـان لكتابـات مثـل كتابـات كـارل لودفيـغ شـيفر وكـارل جوش اللذيـن كانـا ينتميـان إلى نـوع مـن "الديمقراطيـة اللاهوتيـة" ذو دلالـة كبيرة. والأمـر هـو كذلـك بالنسـبة للحماسـة الـتي أبداهـا حيـال لامونيـه شاعر العمـل، هـارو هـاردينغ، الـذي كـان كتابـه "صـوت البشـر" أفضـل شهادة على الغنائيـة الحرفيـة هـذه الـتي تريـد أن توقـظ، في الهجـرة، الشـعور بالانتماء إلى الأمة الألمانيـة الكبـيرة. وهـذا الاسـتعداد المسـبق لـدى المـهاجرين الألمـان لإعطـاء الاشـتراكية تفسـيراً دينيـاً هـو الـذي يبـين، جزئيـاً، سـبب المكانة التي كانت، بينـهم، لفـايتلنغ الـذي سـيبقى، حـتى اليـوم الـذي سـيحل فيه محله ماركس، الوجـه الرئيسـي للاشـتراكية الدوليـة.

فايتلنغ والشـيوعية الحرفيـة

إن رابطة العادلين التي كـان ولهلـم فـايتلنغ، لوقـت طويـل، منظرهـا الرئيسـي، هي التي تعلـم، داخلـها، التفكـير في المسـائل الاجتماعيـة. والفـتى الـذي ولـد عـام ١٨٠٤، في مـاغدبورغ، مـن علاقـة غـير شـرعية بـين ضـابط فرنسـي وطاهية ألمانية والـذي أثقـل عليـه، منـذ وقـت مبكـر، بـؤس قـاتم كـان قـد اشـترك، في لايـبزيغ، في الحركـات الثوريـة لعـام ١٨٣٠. إلا أنـه كسـب معيشـته، بشـكل مشـرف، في فيينـا ووصـل إلى بـاريس بطموحـات قويـة. وكان قـد انضـم، عـام ١٨٣٧، خـلال إقامتـه الثانيـة في بـاريس، إلى رابطـة العـادلين. وكـان الحرفيـون الألمـان المقيمـون في بـاريس الذيـن أمنـوا، ماليـاً، النشـر السـري لمؤلفـه الأول: "البشـرية كمـا هـي وكمـا يجـب أن تكـون" (١٨٣٨)، وهو كتـاب سـرعان مـا أكسـبه سـلطة كبـيرة في أوسـاط الهجـرة

الألمانية، لا في فرنسا فحسب، بل في سويسرا وإنكلترا أيضاً.

وكان الكتاب يشكل تقدماً كبيراً بالقياس مع الأدب الاشتراكي السابق من حيث أن فايتلنغ، خصم الإصلاحية والواثق بثورة اجتماعية تدمر قوة المال، كان يقدم البروليتاريا على أنها الأداة المناسبة لتحرير البشرية، وكان، منذ ذلك الحين، يؤمن بالثورة كنتيجة لحركة جماهيرية. إلا أن نظام مشاعية الخيرات الذي كان يصفه بمراعاة بقي مطبوعاً بطوباوية فورييه: فقد كان يزعم حل المسائل التي كان يطرحها التناقض بين الإنتاج والاستهلاك بخلق "روابط أسرية". وكان قد تخيل، آملاً أن يستطيع تسهيل اتحاد العمل والمتعة داخل هذه المنظمات، إمكانية أن يقضي العمال، إلى جانب التزاماتهم اليومية، عدداً من "الساعات التجارية" من أجل أن يشبعوا حاجاتهم إلى الترف. وأخيراً، كانت طوباوية فايتلنغ تتجلى في اهتمامه بربط الشيوعية بتعاليم يسوع الذي كان أول من تصور مشاعية الخيرات. وكان، في طريقته في تقديم الشيوعية كمسيحية مطهرة، يستخدم حجج لامونيه الذي لم يهاجم، مع ذلك، قط، الملكية الخاصة. وباختصار، كان ضعف مؤلف فايتلنغ يقع في عجزه عن التحرر من العالم الحرفي الذي كان قد عاش، فيه، دائماً، وعن إجراء تحليل صحيح للثورة الصناعية التي كانت في طريقها إلى قلب البنى الاقتصادية والاجتماعية: فما كان يشغله هو الحفاظ على الحياة المتناغمة والبسيطة للمدينة الحرفية الصغيرة.

وأرغم فايتلنغ الذي لاحقه البوليس، بعد أن أعاد ترتيب الشعبة الباريسية لرابطة العادلين بقيادة هرمان إيفربيك وجيرمان ماورر، على الرحيل إلى سويسرا حيث أصدر، أولاً، في جنيف التي اجتذبه إليها صديقه أوغست بيكر، "نجدة الشبيبة الألمانية" ثم، في فيفي، "الجيل الجديد"، وهما مجلتان عرفتا أشد النجاح في سويسرا والخارج وأسهمتا إسهاماً واسعاً في ربط الاشتراكية بمستقبل الحركة العمالية. وهذه الفترة هي، أيضاً، التي فكر،

فيها، بكتابه الأساسي على صعيد المذهب: "ضمانات التناغم والحرية" (١٨٤٢) حيث ألح على الأطروحات المعروفة في كتابه الأول داعياً الطبقة العاملة إلى عمل ثوري كاف يريد أن يشرك، فيه، سجناء الحق العام المحررين من السجن. وأدان، بقوة، الديمقراطية السياسية والإصلاحية الاجتماعية بوصفهما مسكنين غير كافيين لن يؤديا إلا إلى إطالة البؤس العمالي. وقد كتب يقول: "ليس جيداً أن نتصور فترة انتقالية بطيئة لإقامة نظام جديد. فإذا كانت لنا السلطة، فيجب أن نسحق رأس الأفعى... لا ينبغي أن نمنح هدنة للأعداء وأن نفتح مفاوضات معهم وتصديق وعودهم. فمنذ أن يبدؤوا الأعمال العدائية يجب أن نعتبرهم حيوانات غير قادرة على فهم لغة العقل". وكان فايتلنغ يعول على نوع من "الديكتاتورية" لفرض الشيوعية مبدلاً الانتخابات المطابقة لديمقراطية تمثيلية بتلك الناجمة عن استشارة "الكفاءات" تاركاً القيادة الاقتصادية لثلاثية مؤلفة من طبيب وفيزيائي وميكانيكي، مشيراً حتى إلى مجيء مسيح لم يكن بعيداً عن الإيمان بأنه كان تجسيداً له. إلا أنه لم يكن لهذا الكتاب النجاح نفسه الذي أحرزه السابق: ذلك أن فايتلنغ الذي أثارت شيوعيته المسيحية ردوداً عنيفة في أوساط جنيف البروتستانتية التقليدية وحتى داخل رابطة التربية العمالية لهذه المدينة- دحض يوهان نيدرر، أحد مساعدي بستالوتزي، في كراس، أطروحة إعطاء الشرعية للشيوعية عن طريق الكتاب المقدس- لم يكن قد وجد من المناسب أن يستعين بالنصوص المقدسة لدعم أفكاره الاجتماعية. وأفسح الكتاب مكاناً واسعاً لمذهب "الشهيات" لدى فورييه. وأراد فايتلنغ الذي وعى مدى فشله، من أجل استعادة جمهوره الحرفي، أن يطلق العنان، في كتابه "إنجيل الخاطئ الفقير"، لرسوليته الصوفية: فقد قدم يسوع، فيه، بوصفه الثوري الأول الذي أعطى نضاله ضد الفريسيين والأغنياء الإنجيل معناه الاشتراكي. وكتب يقول: "برهن لامونيه، وقبله

كارلستاد وتوماس مونزر، على أن كل الأفكار الديمقراطية هي نتائج المسيحية". ولكن هذا الخلط بين الشيوعية والدين أدى إلى منع كتاب فايتلنغ، في سويسرا، وسجنه بضعة شهور.

ولا شك في أن فضل فايتلنغ يقع في النداء الثوري الذي عرف كيف يوجهه إلى الطبقة العاملة. وهذا هو، على كل حال، ما استحق عليه، لفترة طويلة، إعجاباً شديداً من ماركس الذي كان يراه متفوقاً جداً على برودون والذي ميز، فيه، "بنية رياضي". وسوف يكتب عام ١٨٤٤: "أنقارن جزمتي عملاق البروليتاريا في فجرها هاتين بحذائي البورجوازية السياسية الألمانية الرثين؟ إننا لا نستطيع، إذ ذاك، سوى أن نتنبأ بقامة عملاقة لسندريلا الألماني. ويجب، حقاً، أن نعترف بأن البروليتاريا الألمانية هي منظر البروليتاريا الأوروبية، كما أن البروليتاريا الإنكليزية هي عالمها الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية سياسيها". إلا أن رسولية فايتلنغ القريبة من رسولية معمدانيي القرن السادس عشر هي التي استحق عليها نجاحه. وقد ظهرت الفايتلنغية كتركيب بين المسيحية البدائية والطموحات المادية للطبقات المستغَلة. ولذلك، كان له في سويسرا مقلدون عديدون، سواء أدار الأمر حول سيباستيان سيلر-الذي كان يقدم بنجامان كونستان وكابيه وبرودون وفايتلنغ تحت سمات الإنجيليين الأربعة-أم حول الدباغ سيمون شميلوت الذي كان يصدر مجلة في لوزان، أم حول تنبؤات رودولف سوتر مايستر وأندرياس ديتش الألفية، أم حول كراس "النبي" كريستيان ألبريشت: "ما هو الشيوعي؟" المعرف بوصفه فرداً نقياً يسعى، من خلال العقل والحب الأخوي، إلى رفع الإنسان إلى المرتبة التي أعطاه الله إياها ويملكها، حقاً، بوصفه ممثلاً لهذه الألوهية. وفي فرنسا، ربط بعض تلاميذ فايتلنغ، مثل جيرمان ماور وهيرمان إيفربيك، وكلاهما عضوان في رابطة العادلين ومحرران في صحف ألمانية عديدة صدرت في باريس، شيوعية معلمهم الحرفية

بإيكارية كابيه. وإحدى هذه الصحف، "جريدة المرتقق" (١٨٤٥)، هي التي نشر، فيها، فايتلنغي آخر، هينريش أراندت الذي هاجر، من قبل، إلى الولايات المتحدة، مقالة: "الاشتراكية والمسيحية والديمقراطية" بالروح نفسها التي غنى بها الخياط أندرياس شيرزر "حب القريب". وفي ألمانيا نفسها، نشر لويس دوهسبرج، وهو ضابط هيسي سابق، عام ١٨٤٠، "نداء لتأسيس جماعة مسيحية حسب إرادة المخلص" يماهي، فيه، بين الخطيئة الأصلية واستعمال النقد، دون أن يخلو ذلك من الاستناد إلى تحليل صائب جداً لفيض السكان في الريف، ويدع أملاً، في مدينة المستقبل الشيوعية، في عودة "الفردوس المفقود". إلا أنه لن يلبث أن يظهر، بين الحرفيين الألمان الذين يعيشون في الخارج، رد فعل ضد الرسولية الفايتلنغية. ولا شك في أن أوغست بيكر، معاون فايديغ وبوشنر السابق، مؤلف كراس بارع ونافذ: "ماذا يريد الشيوعيون؟" (١٨٤٤)، مكمل عمل فايتلنغ، في سويسرا، بعد اعتقاله، يبقى متمسكاً بهذه الإنسانوية العاطفية والصوفية التي تشهد عليها المجلتان اللتان تولى إدارتهما في لوزان وزوريخ: "الرسول السعيد للحركة الدينية والاجتماعية" و"المجلة العامة للحاجة والمساعدة". ولكن وهلم مار، محرر "جريدة النقيض" ومؤلف دراسة حول "ألمانيا الفتاة في سويسرا (١٨٤٦)، يقترب من إنسانوية فيورباخ الإلحادية التي يخلط معها، دون أن يخلو ذلك من مكر، شيئاً من الفوضوية الشتيرنرية. وهو يكتب قائلاً: "الشيوعية هي التعبير عن نقص في الطاقة. فينقص الشيوعيون الثقة بأنفسهم- وهم، إذ يعانون قمعاً اجتماعياً، لا يبحثون، من أجل التحرر عن أسلحة، بل عن أسباب للتعزية. فالشيوعية لاهوت اجتماعي. إن لها كتبها المقدسة وأنبياءها ورسلها وفردوسها". وضمن الروح النقدية نفسها، يتابع مهاجر ألماني آخر، هرمان دوليكه، تلميذ روغ، عمل تهديم معاد للدين ويسعى إلى فصل التأمل عن كل عدوى رسولية. وهذه

الاتجاهات سادت في المنظمات التي أعيد تكوينها حول "ألمانيا الفتاة" والعديدة على طول ساحل بحيرة ليمان. وحل محل التعارض بين "السياسيين" و"الاشتراكيين" الذي ساد طويلاً في أوساط الهجرة التعارض بين "المؤمنين" و"الملحدين". واعتباراً من منتصف الأربعينات، شوهد انحسار عام للفايتلنغية التي أعطى منها "المشعوذ" جورغ كولمان، في كتابه "العالم الجديد أو مملكة الروح على الأرض"، المكرس لجماعة لوزان الشيوعية صورة كاريكاتورية بليغة.

نمو الحركة العمالية في ألمانيا

حوالي منتصف الأربعينات بدأت يقظة الحركة العمالية في ألمانيا على صورة قاسية أحياناً. ففي عام ١٨٤٤، أثارت انتفاضة عمال النسيج في سيليزيا، في الرأي العام الألماني، انفعالاً يشهد عليه شعر هاينه.

ويجب أن نضع في أصل التمرد ثقل الضرائب الإقطاعية التي كانت مستمرة في إرهاق الطبقة الريفية السيليزية على الرغم من إلغاء القنانة: فعمال النسيج الذين يعملون في بيوتهم والمرغمون على بيع نتاج عملهم لتجار يصرفون السلع فيما بعد، وجدوا أنفسهم خاضعين لأتاوات انتخابية ورسوم مالية دون الحديث عن ضرائب الدولة. وتفاقم وضعهم بإغلاق الأسواق الأمريكية وخلق صناعة نسيجية في بولونيا، وذلك في إطار سوق كانت تحس بالمنافسة الإنكليزية القاسية وكان إنتاجها، تقنياً، سيئ التنظيم. ومنذ بعض الوقت، وأمام تسريحات وتخفيضات في الأجور، قامت حملة إعلامية في الصحف بمبادرة من معيد شاب في بريسلو، ولهلم فولف الذي كان ينتمي إلى أسرة فلاحين بائسة ولكن دراسات ثانوية لامعة أدخلته إلى الجامعة حيث ناضل في "رابطة العادلين" وتعرف على السجون البروسية. وكانت مقالاته، في "جريدة بريسلاو"، حول "الكهوف" التي كانت البروليتاريا تتكدس فيها، قد أثارت ضجة

في صحافة المعارضة. ونمت الانتفاضات في حزيران ١٨٤٤، في بترسفالداو ولانغنبيلاو، ضد أكثر التجار إثارة لكراهيتهم وعبرت عن نفسها في تدمير بيوتهم وسندات ملكيتهم، وكذلك في تحطيم الآلات دون أن يتحول ذلك، على كل حال، إلى ضروب عنف ضد الأشخاص. و لم يمكن قمعها إلا بنشر واسع لقوات عسكرية. والحقيقة هي أن الانتفاضة لم تكن مدبرة. فقد نجمت، تلقائياً، عن زيادة في البؤس. و لم يخفف ذلك من قسوة القمع: فقد حكم على ٨٧ عاملاً نسيج بعقوبات سجن متنوعة. وفي بداية السنة التالية، كانت الأوساط الرسمية ما تزال تؤمن بوجود "مؤامرة" شيوعية، وهو ما أدى إلى سلسلة من المحاكمات التي أحدثت ضجة كبيرة في ألمانيا. وكشفت سعة الأزمة لجمهور بدأت قضايا البؤس تثير اهتمامه من قبل فولف الذي ندد، في كتابه "بؤس سيليزيا وانتفاضتها" (١٨٤٥)، بعدم كفاية حلول الصدقة وركز على إصلاح ضروري لشروط العمل. وكان عليه، فضلاً عن ذلك، إعلام جريدة المهاجرين الألمان في باريس، "فورفارتز"، بتطور الشؤون السيليزية وأن ينظم حركة تضامن واسعة، داخل الطبقة العاملة، ولا سيما بين عمال لندن الألمان، لمصلحة الضحايا. وكان فولف، المحلل الرائع للتناقضات الاجتماعية، دون أن يكون قد أجرى قطيعة كاملة مع شيء من الطوباوية، أقرب كل الاشتراكيين إلى ماركس وأنغلز آنذاك، وإليهما مضى، في بروكسيل، عندما أرغم على مغادرة سيليزيا حيث أشير إليه على أنه "محرض الإملاق".

وكان ينبغي على الصدمة التي سببتها انتفاضة عمال النسيج السيليزيين (وقد وقعت أحداث مماثلة، في الفترة نفسها، في بوهيميا) أن تحدد، داخل الأوساط المعتدلة سياسياً، اهتماماً ملحوظاً بالاستعلام عن القضية الاجتماعية. و لم يخل الأمر من بورجوازيين متنورين تشربوا المذاهب السان سيمونية وكانوا يستخلصون من فلسفة هيغل النتيجة القائلة أن

أحد الواجبات الأساسية للدولة هو إرساء العدالة الاجتماعية. وعندما دار الأمر، غداة أحداث سيليزيا، في الدوائر الرسمية، حول تشكيل رابطة مركزية لمصلحة الطبقات الكادحة، بينت بعض العناصر التقدمية أن الأجهزة المشكلة والتي كان يجب أن تسمى جمعيات للمساعدة المتبادلة والتعليم ستكرس لتنمية حس الترابط في الطبقة العاملة التي يجب أن لا تترك لمصيرها. وهذا هو رأي "الراديكالي" يوهان جاكوبي في كونيغسبرغ. وفي البلدان الرينانية التي كانت أكثر تطوراً سياسياً من بقية ألمانيا، يقدر صناعي مثل غوستاف ميفيسن الذي كان تكوينه السياسي رائعاً على نحو خاص والذي عانى، بصفته محرراً في "الجريدة الرينانية"، تأثير ماركس، يقدر أن نمو الإملاق يقتضي أدوية قوية. ومن جهة أخرى، استغل عجز الدولة المطلقة الليبراليون الذين يسعون إلى أن يجعلوا من العمال حلفاء لهم ضد تجاوزات البيروقراطية وامتيازات الأرستقراطية. وهناك الكثير الذي يمكن استخلاصه من دحض أوغست تيودور فونيغر للمالتوسية، من تحليلات ألكسندر شير حول البروليتاريا السيليزية، من اتهامات فريدريش ساس لمجتمع "لا يعرف التمييز بين الفقر والجريمة" ومن تحذير هنريش ولهلم بنسن من ثورات قادمة للطبقة العاملة. وينبغي أن نذكر بأن رجل الدولة روبرت فون مول الذي كان يتصور، في كتابه "ماضي الاقتصاد السياسي وحاضره ومستقبله" المسألة الاجتماعية من زاوية سياسية يرى، منذ ١٨٤٠، أن من الضروري خلق مناخ انسجام بين العمال وأصحاب المشروعات وأنه يجب، من هذه الناحية، فرض عقوبات ضد الذين يستغلون عمل الآخرين لأغراض أنانية. وسوف يندد أنطون فرايموند فون أرنيم،ابن بيتينا التي وجهت، عام ١٨٤٣، إلى فريدريك ولهلم الرابع كتابها الشهير: "هذا الكتاب يخص الشعب" الذي سوف تريد الأوساط الرجعية أن تنسب إليه، بعد سنة، التسبب بثورة عمال النسيج السيليزيين، سوف يندد، مستخدماً

اسم "سويديروس" المستعار، بـ"إخضاع مصالح العامل لمصالح الآلة" لدى الرأسماليين. وهذه أمثلة تدل على أن قسماً متزايد الأهمية من الذكاء الألماني يدين، في الأربعينات، الاستنكاف الاجتماعي كما تمارسه البورجوازية الفرنسية ويسعى إلى إقامة التمييز الذي يجري بين قدامى "الفقراء" و"البروليتاريا" الجديدة. ويكتب ه.ج.أوبنهايم، أستاذ الحقوق في جامعة هايدلبرغ، آنذاك، وابن أسرة المصرفيين الكولنيين القوية، عام ١٨٤٧، في كتابه "فلسفة الحق والمجتمع"، أنه لن تكون هناك حرية طالما ظلت نتيجة زيادة الربح الرأسمالي نمو بؤس البروليتاري. ومن المؤكد أن بعض الحلول، كذاك الذي يقدمه الصناعي فيدريك هاركورت الذي يأمل في تنظيم الطبقة العاملة في "طبقة رابعة"، مطبوعة بالبطريركية. ولكن هذه المؤلفات تبرهن على أن القطيعة لم تكن، خلال الأربعينات، قد وقعت، بعد، بين الليبرالية وبعض أشكال الفكر الاشتراكي. أما بالنسبة للبيروقراطية، وخاصة البيروقراطية البروسية، التي كانت ما تزال، بعد، قبل ١٨٤٨، جزءاً هاماً من نخبة الأمة الثقافية ويحركها هم المصلحة العامة، فإذا كانت لم تعد تميز، بوضوح، اتجاه السياق، فإنها معادية جداً لمبدأ "حرية العمل". والمذكرات التي كرسها كبار الموظفين للقوانين المتعلقة بحماية عمل الأطفال (١٨٣٩، ١٨٥٣) أو لتنظيم الحرفية (١٨٤٥، ١٨٤٩) تبين أن موقفاً محافظاً يمكن أن يصاحب بوعي واضح لسلامة المطالب العمالية التي يجب أن تتولى الدولة أمرها. وفي لغة العصر، يميز بين "الاشتراكية" التي هي تأمل في المجتمع وشروط تحسينه و"الشيوعية" التي هي إرادة ثورة والتي يرفضها الذكاء الألماني بوصفها متناقضة مع الحرية.

وبدأت بعض عناصر الطبقة العاملة، من جانبها، في الشعور بإلحاح شيء من الوعي الطبقي. وبروليتاريا المصنع التي لا تؤلف سوى أقلية ضعيفة (٥٥٠ ألف عامل في بروسيا، عام ١٨٤٦، أي ثلثا الحرفيين، ٢٥٠ ألفاً

في ساكس، ولكن عشرة آلاف، فقط، في باديه) ليست، بعد، أكثر العناصر ديناميكية. إلا أن تمديد الخطوط الحديدية الذي لعب دوراً أساسياً في تصنيع البلاد جمع، خاصة في ساكس، عدداً كبيراً من العمال القادرين على إطلاق إضرابات كبيرة السعة، بلغت حوالي الأربعين بين ١٨٤٤ و١٨٤٨. والقوة الثورية الحقيقية تقع عند العمال العاملين في بيوتهم، وكذلك لدى الصناع الحرفيين الذين تحولوا إلى بروليتاريا أو المهددين بذلك، الأولون يعيشون في الأرياف، والآخرون في التجمعات المدينية ولا توجد بينهم، فضلاً عن ذلك، سوى أقلية فعالة، أقلية جوالة غالباً واحتكت بمجتمع البلدان الرأسمالية الكبيرة في أوروبا الأكثر تطوراً وامتلكت ما يكفي من الخبرة وأوقات الفراغ للتفكير في المسائل الاجتماعية. والفكر الذي يعبر عن نفسه في هذه المجموعات متنوع جداً، وبقي، في كثير من الحالات، رجعياً، بصورة عميقة، بعدائه للمكننة ورغبته في العودة إلى النظام النقابي القديم الأضيق: فقد أبدت جريدة عمالية، مثل "تيبوغرافيا" التي تمثل مصالح الصناع في الطباعة، مخاوفها من نمو المبادرة الحرة وتعقيل الإنتاج. إلا أنه من غير المشكوك فيه أن وعياً طبقياً أوسع كان في طريقه إلى التكون بفضل نشاط أقلية، وهكذا ظهر في شمنيتز، بمناسبة فتن الجوع في عام ١٨٤٧، انضباط ملحوظ بين مختلف المهن يشهد على تضامن متزايد الكبر داخل الطبقة العاملة. وهذا التطور كان، في أساسه، من صنع جمعيات الغوث التضامنية المكرسة للالتفاف على القوانين المضادة للتكتلات، وخاصة من صنع حلقات دراسية تضاعفت منذ ١٨٤٤، ومن صنع تدخل أرباب العمل أحياناً، وأحياناً من صنع الحرفيين أنفسهم. وهذه هي الحال مع حلقة برلين حيث أنجز ستيفان بورن تربيته السياسية والتي مارس محركها، اللاهوتي بيرندز الذي أصبح عامل مطبعة، إشعاعاً حتى في المجتمع المثقف في هذه المدينة. وهذه هي الحال، أيضاً، مع حلقة هامبورغ الناجمة عن رابطة

العادلين والمؤلفة من ٦٠٠ عضو والتي طور، فيها، النجار مارتيتر والصحفي شيرج تعاليم فايتلنغ والتي يصف فريدريك ليسنر، عضو المستقبل في الأممية الأولى،كثافة المناقشات فيها: فالوحدة الألمانية، أخوة الشعوب، الفكر الحر، المسيحية البدائية والشيوعية موضوعات لم تكن قد توضحت، بعد، كلياً، ولكنها هيأت تعبئة العقول. وكانت أهمية هذه التجمعات هو جعلها الاتصالات المتزايدة العدد ممكنة بين النخبة العمالية وبورجوازية تقدمية وإرساؤها، على هذا النحو، أسس نوع من "الجبهة الشعبية" تجلى عام ١٨٤٨. والصلات التي انعقدت بين الحلقات والطوائف المنشقة، الكاثوليكية والبروتستانتية، المنفتحة، هي أيضاً، لدعاية الأفكار الديمقراطية والاشتراكية سهلت، أيضاً، هذه الاحتكاكات.

إلا أن البروليتاريا الألمانية كانت بعيدة جداً عن اكتساب نضج البروليتاريا الإنكليزية أو البروليتاريا الفرنسية. ولم يكن هنا، كذلك، تعليمها إذا حكمنا على ذلك من قراءاتها التي لم تتجاوز، أبداً، قصص حياة قطاع الطرق المصطبغة بالروائية والفوضوية، وفي أحسن الأحوال قصص شوكه والترجمات عن سكوت وسو ومحادثات بروكهاوس، وكتابات روتيك. ولا مكان، حتى عام ١٨٤٨، للحديث عن تربية سياسية إذا استثنينا تلك التي نشرها حولهم الحرفيون الجوالون الذين تغذوا بلامونيه وفايتلنغ. وأصل أغلبية العمال الريفي وعدم وجود عاصمة ألمانية والطابع الاصطلاحي والبورجوازي الصغير للمدن الريفية تفسر غياب كل إرادة ثورية. ويلاحظ أنغلز أنه "كما يوجد فرق عظيم بين أمير القطن الكبير والإسكافي الصغير أو معلم الخياطة، كذلك هناك فرق شاسع بين عامل المصنع الشديد اليقظة في مثيلات بابل الحديثة وصانع الخياطة أو الملابس الخجول في مدينة صغيرة ريفية اللذين لا تختلف شروط حياتيهما إلا قليلاً جداً عن شروط حياة صناع النقابات

منذ خمسمائة سنة". وسوف تعوض ألمانيا عن هذا التدني على صعيد النظرية: والفلسفة هي التي كانت، ما وراء الدين، نقطة انطلاق تأمل سوف يسمح للألمان بإرساء أسس الاشتراكية العلمية.

من الهيغلية الحديثة إلى الاشتراكية

ترتبط أصول الفكر الاشتراكي بتشظي المدرسة الهيغلية التي كون تلاميذها "التقليديون" مدرسة محافظة، ولكن بعض عناصرها كانت تفسر مذهب المعلم في اتجاه فلسفة للعمل الثوري. وكان هؤلاء "الهيغليون الشباب" يرون أن الصيغة الشهيرة: "كل ما هو واقعي عقلاني، وكل ما هو عقلاني واقعي" يجب أن تفسر في اتجاه تعديل ثابت للواقع. وقد كتب أحدهم، فون شيسكوفسكي، في كتابه "مقدمات لفلسفة التاريخ"، يقول: يجب أن تستخدم الفلسفة لتحديد السير العقلاني للعالم وتعيين فلسفة لـ"الممارسة"، أي لفكر يجري تصوره، كما أراد فيختة، على صورة إرادة فاعلة في تعارضه الثابت مع الواقع الحي. وقد وجهت الهجمات الأولى، بتأثير كتاب "حياة يسوع" الذي كتبه د.ف.شتراوس، ضد الأديان القائمة وحماتها التقليديين. ثم أصبح الهجوم سياسياً واجتماعياً. وكانت مجلة الهيغلية الجديدة الرئيسية هي "الحولية الهالية" التي أصدرها الفيلسوف أرنولد روغ مع إخترماير (١٨٣٨-١٨٤١) الذي تابع نشرها في درسدن تحت اسم "الحولية الألمانية" (١٨٤١-١٨٤٣) ثم، أخيراً، في باريس تحت اسم "الحولية الألمانية-الفرنسية" (١٨٤٤). وبعد أن أشاد روغ ببروسيا بوصفها "دولة الذكاء والخير المشترك"، انقلب ضدها بعنف، خاصة منذ "خيانة" فيدريك ولهلم الرابع لأنها لم تكن وفية لروح الإصلاح والأنوار ولأنها كانت ملطخة بالتقوية والتعصب. وكان روغ قد آمن طويلاً بأن "تحالفاً ثقافياً ألمانياً-فرنسياً" سيحرر فرنسا من الخرافة الدينية وألمانيا من القمع

السياسي على أساس كوزموبوليتية جديدة.إلا أنه لم يتم اتصال لا مع اليسار الفرنسي ولا مع مهاجري باريس الألمان. وانتهى مشروعه إلى الفشل.

كانت الراديكالية السياسية للهيغليين الشباب تتوجه إلى جمهور أوسع من جمهور الليبرالية: ومن هنا الدعوة إلى العمل الجماهيري، ومن هنا موقف ثوري، جهاراً، ضد الكنيسة والسلطة المطلقة معاً. ولكن الهيغليين الجدد، وكانوا معادين لكل إصلاحية وواثقين من قدرة الفكر على تعديل الواقع الحي، يتخيلون أن السير المظفر لأفكارهم يستطيع أن يحول العالم. وكان ينقصهم دعم طبقة مصممة، وذلك في فترة كانت، فيه، البورجوازية تتجه نحو ليبرالية أكثر بناء و لم يكن لدى العالم العمالي، فيه، بعد، مثل أعلى خاص. وسوف يتجه معظمهم نحو نوع من الفردانية الحادة والفوضوية الفردانية. وكانت تلك الحال مع ألمعهم، بروبو باور الذي مارس تأثيره داخل جماعة "المتحررين". وكان لاهوتياً نافذاً قدم الأناجيل كمجرد برهة من الوعي العمومي وبين، بتطويره هذا المذهب، أن التاريخ كان نمو الوعي العمومي المتقدم، بصورة ديالكتيكية، بالنقد والذي كان غرضه استبعاد العناصر اللاعقلانية من الواقع. وكان باور، بعد فصله من جامعة بون، قد توجه نحو إلحادية مناضلة وفلسفة ثورية بصورة مجردة، في حين كان أخوه إدغار ينشر، تحت عنوان "الاتجاهات الليبرالية في ألمانيا" (١٨٤٢)، نقداً قاسياً لـ"الوسط المضبوط". وكان "المتحررون" غير القادرين على ربط النظرية بالعمل يخلصون من عجزهم الخاص إلى تعارض لا يختزل بين الجماهير والعقل. وكانوا يؤكدون، في جريدتهم "جريدة الأدب الألماني" أن الخلاص يقع في نقد "خالص" حر وإنساني لا يمكن أن يتدنى إلى المناظرات السياسية المبتذلة. ويرى برونو باور في إلحاد الدولة أي في انفصالها التام عن الكنيسة شرط كل قابلية اجتماع بشرية. و لم يكن يرى، فضلاً عن ذلك، أن العنف هو الذي

يستطيع، به، الإنسان التحـــرر مــن قيـــوده.

ونشـــر أحـــد أعضـــاء هـــذه المجموعـــة، الفرانكـــوني يوهـــان-كاســبار شميـــدت، المعروف باســم مــاكس ســتيرنر، عــام ١٨٤٤، كتابــه "الفريــد وصفتــه" الــذي كان، في الواقع، مع اتخـــاذه الموقـــف المتـــاقض، وصيـــة الفلســـفة الهيغليـــة المتعبـــة. وهذا البيان الفوضوي هـــو تـــأكيد ثـــورة الأنـــا الداخليـــة ووعـــي لـــــ"فردانيـــة" سمح الجهل، بـــه، وحـــده، لقـــوى القمـــع باســتعباد البشـــرية، ولكـــن أي معيـــار مجـــرد لا يســـتطيع أن يزيلـــه. وســـتيرنر الـــذي ينطلـــق مـــن قـــوة القطيعـــة الـــتي يملكها كل فـــرد يشـــيد بالإلحـــاح الـــذي لا يختـــزل للأنـــا الواقعـــة خـــارج كـــل القيـــم الـــتي تعـــد عموميـــة وفوقـــها. ولا يمكـــن أن يتخلـــص الفـــرد إلا بعمـــــل "انتزاع قداسة" واسع يتفحـــص المتـــاع الـــذي أثقـــل، بـــه، آبـــاؤه ومربـــوه ظـــهره (د.غيران) وبـــالتخلص مـــن المســـتبقات الاجتماعيـــة الـــتي أشـــبع بهـــا وانفتاحـــه على نداءات الجسد. ولـــن تـــزول كـــل أشـــكال الضيـــاع، ولـــن يمكـــن حصـــول "إعـــادات التملـــك" المتعاقبـــة: اســـتعادة الدولـــة بـــــ"قـــوتي"، اســـتعادة المجتمـــع بـــ"تجارتي"، استعادة الإنســـانية بـــــ"اســـتمتاعي الشـــخصي" مـــا لم تفـــهم الأنـــا أنها الوحيدة الـــتي توجـــد. وينـــادي ســـتيرنر، في نهايـــة المطـــاف، بتكويـــن مجتمـــع أنانيين يضع نفســـه، وهـــو لا يطلـــب شـــيئاً مـــن أعضائـــه، في خدمـــة حاجـــاتهم المختزلـــة، فـــوق ذلـــك إلى الحـــد الأدنى بممارســـة التقشـــف. ولا ينكـــر ســـتيرنر، فضلاً عـــن ذلـــك، أنـــه يجـــب أن تكـــون للفـــرد صـــلات بأقرانـــه ولكـــن هـــذه الصـــلات ســـتبقى، كلـــها، طوعيـــة وحـــرة، قابلـــة للتحقـــق دائمـــاً. وبالنســـبة لتلك الفترة، على الأقل، وحـــتى اليـــوم الـــذي كُشِـــف بـــه للجمـــهور علـــى يـــد الشاعر جون ماكاي، ســـقط ســـتيرنر الـــذي ربمـــا يكـــون قـــد أســـهم في تحريـــر مـــاركس مـــن أوهامـــه "الإنســـانوية" في غيـــاهب النســـيان و لم يمـــارس أي تأثـــير في سير الأحـــداث.

وفي حين كان قسم مـــن اليســـار الهيغلـــي يضيـــع في تـــأملات غـــير حاليـــة، كـــان قسم آخـــر ســـلك درباً معاكســـة يـــرى أن نقـــد هيغـــل يمكـــن أن يوصـــل إلى

فلسفة للعمل ويحدد لهذا العمل، منذ ذلك الحين، هدفاً اجتماعياً. وهنا يجب إدخال اسم لودفيغ فيورباخ الذي كان، منذ عام ١٨٣٨، قد قلب العلاقة التي أقامها هيغل بين المفهوم والكائن مؤكداً وجود الواقع الموضوعي للعالم الخارجي المشخص والمحسوس والمستقل عن الفكر، والذي كان كتابه "جوهر المسيحية" (١٨٤١) كشفاً لكل جيله. وسوف يكتب أنغلز، فيما بعد قائلاً: "كنا كلنا، لبرهة، فيورباخيين". وبالفعل، فإن الإنسان، في رأي فيورباخ، بخلقه، على صورته، إلهاً ليس له وجود خاص، يخرج، من داخله، أعلى صفات الجنس البشري ويفسدها. وهو، بذلك، لفقر نفسه، يصبح فرداً أنانياً معزولاً عن الحياة الجماعية. ولا يمكن أن يأتي التحرير، بالنسبة للإنسان، إلا من تبديد الوهم الديني وإعادة دمج الصفات المنسوبة إلى الله في كينونته. وقد بين فيورباخ أن الإنسانوية كانت مرتبطة بمسألة الضياع: فقد كان الدين، بتحويله البشرية عن حياتها الدنيوية وبالإلقاء بآمالها إلى عالم آخر وهمي، يتحول إلى "مصاص دماء يتغذى بجوهرها، بلحمها ودمها". ولذلك يجب على الإنسان أن يعود فيتملك جوهره بنكرانه الله، بالإعلان عن إلحاده. ولا شك في أن خطأ فيورباخ كان في تقديمه الضياع، آنذاك، كواقعة ميتافيزيكية خالصة مرتبطة بالإنسان منظوراً إليه في ذاته، وبالتالي في تعيين موقع الفعالية البشرية خارج نموها التاريخي. ومع ذلك، خرجت من نقده للدين فلسفة كانت ترمي إلى تقديم الحب الجماعي للبشرية كمطلب سوسيولوجي وتلغي، بتحويل جذري للصلات الاجتماعية، التعارض القائم بين واقع الإنسان اللاإنساني وجوهره الحقيقي. وفي كتابات فيورباخ التالية، وخاصة في "مبادئ فلسفة المستقبل" (١٨٤٣)، تجعل الأخلاق الفيورباخية المطبقة على الإنسان الذي يجري تصوره في عموميته واطراده من انتصار الغيرية الهدف الأسمى لكل فعالية، ومن الحب الذي يعيد الوحدة إلى النوع أعلى تعبير عن الحياة الإنسانية. وعلى

هذه النقاط تركز تأمل المعلقين عليه وتأمل أنصار "الاشتراكية" الحقيقية أولاً.

موييز هيس و"الاشتراكية الحقيقية"

ولد موييز هيس، رائد الشيوعية، في كولن، لأب يملك مصفاة سكر ولم يستطع كسب اهتمام ابنه بمشروعه. وكان شبابه ثورة مستمرة ضد أسرته. وفي إحدى سفراته إلى باريس، تعرف على الاشتراكية. وقد أعطى كتابه "التاريخ المقدس للبشرية" (١٨٣٧)، وهو المطبوع بقراءة سبينوزا وشيلنغ، تفسيراً دينياً للتطور البشري يتصور، في ختامه، نظام أخوة أخلاقية ومشاعية للخيرات، "أورشليم جديدة". وقد كان، دون شك، الأول الذي عرض، في ألمانيا، نظرية للثورة الاجتماعية التي يسببها البؤس وتركز الثروات، وبين أن الرأسمالية، المختلطة بالأنانية لديه، تصبح، بنموها نفسه، حفارة قبرها، إذ يجب أن تعيد الثورة المحتومة المساواة البدائية ومملكة الله معها. وتمتزج، في هذا المؤلف، بشكل طريف، هموم رسولية ومخلفات من الفلسفة الهيغلية وأفكار الاشتراكيين الفرنسيين، سان سيمون وفورييه. وقد احتذب إلى مخالطة الهيغليين الجدد واهتم، بالروح نفسها لدى سيزكوفسكي، بتحويل فلسفة هيغل إلى فلسفة عمل، ففسر، في كتابه "الثلاثية الأوروبية" (١٨٤٠)، تطور التاريخ الحديث بوصفه واقعاً تحت سيادة الجنس البشري: ألمانيا بالإصلاح الديني، فرنسا بثورة ١٧٨٩، وأخيراً إنكلترا، حيث كان التقابل بين الإملاق وأرستقراطية المال أقوى ما يمكن، بإقامة المساواة الاجتماعية. وكانت تظهر لديه، فعلاً، الفكرة القائلة أن الحلول التي تقدمها الليبرالية لا تكفي وأن التحرير الكلي لا يمكن أن يتم إلا بإلغاء الملكية الخاصة. فقد كتب يقول: "طرح الحرية الفردية كمبدأ ناظم ومنظم للمجتمع تصور غير عاقل لم يعد في حاجة إلى أن يدحضه العلم

على اعتبار أن الحياة، نفسها، دحضته منذ وقت طويل". وكانت فلسفة فيورباخ تستوقف هيس بصورة متزايدة: فقد بين، بتطبيقه نظرية فيورباخ في الضياع الديني على الاقتصاد السياسي، أن هذا الضياع لم يكن سوى التعبير الفعلي عن ضياع الجوهر الإنساني الذي يحدث في النظام الرأسمالي حيث يرى العامل المستبعد من الملكية الخاصة نفسه وقد استلبت منه ثمرة عمله. فالقانون الأساسي، هنا، هو، فعلاً، قانون المنافسة الذي يعمم، بعزله الأفراد، الأنانية ويستجر استغلال الإنسان للإنسان ويرغم الأضعف على خلق هذه الثروات التي تفلت من استمتاعهم والتي يضحون، من أجلها، بجوهرهم الخاص. ومن أجل حذف هذا الضياع الذي يتخذ صورة المال، "إله المجتمع الحديث هذا"، نادى هيس بإقامة نظام "شيوعي" يعيش الإنسان، في ظله، حياة مطابقة لطبيعته "الحقيقية" على الأسس الأكمل للغيرية. وكان يكفي، جملة، في نظره، أن تطبق المبادئ التي كانت قد وجهت فيورباخ على نقد المجتمع الرأسمالي: ففكرة الشيوعية لم تكن، بالنسبة إليه، سوى "قانون الحب الحياتي منقولاً إلى الميدان الاجتماعي". وسوف يطور هيس هذه الأفكار في "المجلة الرينانية" التي كان مراسلها الباريسي، ثم في "إحدى وعشرين ورقة من سويسرا" التي نشرها الجمهوري هيرفيغ، في "الحوليات الفرنسية-الألمانية" لروغ الذي لم يستطع، من جهة أخرى، أن يتفاهم معه. وأعطى، في جريدة "فورفرتز" الباريسية لبرنامجه التعريف التالي: وضع حد لهذا الشكل من العبودية الحديثة الأقسى من العبودية القديمة الذي يجسد، في المال، العمل المستلب ويبيد الاتحاد الحميم والضروري بين الشيء والذي يخلقه. وسوف يصبح هيس، عند عودته إلى كولن في نهاية ١٨٤٤، إلى جانب الصحفي كارل غرون، مؤلف كتاب واسع حول "الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا" الفوريري الاتجاه ومترجم برودون فيما بعد، الممثل الرئيسي لما سماه ماركس وأنغلز ساخرين "الاشتراكية الحقيقية".

وسوف ينتشر هـذا الشكل من الفكر الاشتراكي، اعتباراً من ١٨٤٤، في ألمانيا، وخاصة في مقاطعاتها الغربية، شاهداً على الاهتمام المتزايد، في الأوساط الثقافية الألمانية، بالقضايا الاجتماعية. وكانت أهم الصحف "مجلة تريف" التي كان يديرها عامل المطبعة فالتر الذي أدخل في هيئة التحرير أعضاء من "المجلة الرينانية" المحتجبة، وخاصة بيتر غوبترل هذا، وهو من برنكاستل، الذي كان قد أعلم ماركس بوضع زارعي الكرمة في الموزيل. وكانت هناك جرائد أدنى أهمية "المتحدث" لفيزيل حيث كان تأثير غرون راجحاً، و"مرآة المجتمع" لإبرفلد التي يديرها هيس، و"حولية إصلاح المجتمع" و"كتاب المدن الألمانية" الذي كان يحرره، في دارستادت، مؤلف القصص المتسلسلة هيرمان بوتمان و"كتيب" الناشر اللايبزيغي أوتو كارفيلر المطبوع بالإلحاد الفيورباخي والفوضوية الستيرنرية و"الزورق البخاري الوستفالي" الذي كان ينشره، في بيليفيلد، الدكتور أوتو لونيغ، ناشر مجلة "هذا الكتاب يخص الشعب" في مركز "بؤرة شيوعية" كانت تمتد إلى عدة مدن وستفالية. أما بالنسبة لجريدة برلين، فقد كان مديرها، غوستاف جوليوس يركب بين "الاشتراكية الحقيقية" والهيغلية اليسارية.

كان كل هؤلاء الكتاب الصحفيين يرون أن كل نضال يجب أن يسبق بوعي من الإنسان لطبيعته الحقيقية: وعي كان، بالنسبة إليهم، العنصر الأساسي لتحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع شيوعي. ولم يريدوا، قط، أن تحقيق الاشتراكية كان مرتبطاً بانتصار البروليتاريا التي كان بؤسها مبرر آرائهم حول المجتمع، ولكنه لم يكن الرافعة التي يجب أن تحكم على العالم الرأسمالي بالزوال. وباسم "الإنسانية"، لا باسم البروليتاريا، زعموا خوض النضال من أجل حلول الاشتراكية. وغالباً ما كان هذا التصور الأيديولوجي الخالص يؤدي بهم إلى إدانة كل نشاط سياسي بوصفه عقيماً وإلى توجيه انتقاداتهم إلى الليبرالية التي لم يكونوا يرون فيها مرحلة

ضرورية من أجل النمو الاقتصادي، بل، فقط، وسيلة تستخدمها البورجوازية لتحقيق غاياتها الأنانية. وكانوا يكتفون بالبرهان على أن القضايا الدستورية لم تكن تهم، حقاً، الشعب الذي يحتاج إلى "عمل وخبز" والذي يجب أن يقف بعيداً عن المعارك السياسية. فنقرأ في "مجلة تريف"، عام ١٨٤٦، أن "المسألة السياسية أصبحت، منذ زمن طويل عديمة الأهمية. فالأمر لا يدور حول ميرابو، بل حول روبسبيير وبابوف". وتكتب "مرآة المجتمع": "السياسة تريد استبداد المصالح الخاصة. إنها لا تستهدف السعادة المتناغمة للبشرية، بل إرضاء طبقة مالكة وذات امتيازات":وهذا موقف رجعي أدى ببعض "الاشتراكيين الحقيقيين" إلى الانحياز للدولة المطلقة ضد المعارضة الليبرالية في بروسيا. إلا أنه إذا كان من المؤكد أن الثورة الشيوعية تأتي كتتمة لتفاقم الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا، فمن الظلم أن ننكر عليهم كل فهم للتعارضات الطبقية التي ارتسمت في ألمانيا: ففضلاً عن كون "مرآة المجتمع" تقدم كمية من المعلومات ذات قيمة لا تقدر حول وضع العالم العمالي والروح التي تحرك بعض دوائر أرباب العمل، لم تخل الساحة من بعض العقول الحصيفة من أجل تعريف القوى الاجتماعية الموجودة وتنازعاتها. وإذا كانت الهجمات ضد أنانية أرستقراطية المال قد اتخذت، لدى إرنست درونكه، نبرات طوباوية، فإن أوصاف البنية الاجتماعية للعاصمة البروسية، في كتابه "برلين" (١٨٤٦)، تكشف عن حس ملاحظة حاد. ولكن جوزف فايدماير الشاب، صهر لونيغ والذي كان، آنذاك، ضابط مدفعية شاباً هو الذي كان يجب أن يبين في مقالاته، في "مجلة تريف"، ثم في "الزورق الوستفالي"، أنه إذا كانت اعتبارات طبقية قد أملت الليبرالية البورجوازية، فقد كان لها، مع ذلك، طابع تقدمي وأن مجيء نظام دستوري وبرلماني كان مطابقاً لمصالح الطبقة العاملة. وقد أسهم فايدماير في التعريف بفكر ماركس وأنغلز في الأوساط الاشتراكية الألمانية وفي

تعليمها على التفكير في دور الاقتصاد في سيرورة المجتمع.

والمؤكد هو أن "الاشتراكية الحقيقية" استخدمت أدباً أكثر تجريداً ولاحالية من أن يكون له تأثير حقيقي في الجماهير الألمانية. ولا شك في أن أنغلز قد كتب، في خريف ١٨٤٤، خلال إقامة عابرة له في ألمانيا، رسالة حماسية إلى مجلة "العالم الأخلاقي الجديد" يعلن أن "الاشتراكية أصبحت، من الآن فصاعداً، على جدول الأعمال". وعندما حاول، هو وهيس، أن ينظما، في بداية ١٨٤٥، محاضرات شيوعية في منطقة الفوبرتال، أحرز نجاحاً قوياً حتى اليوم الذي قرر، فيه، البوليس إغلاق الأبواب. ولكنهما تبينا أنه إذا كان السكان بأسرهم قد جاؤوا إلى الاجتماعات، "من أرستقراطية المال حتى البقالة"، فإن البروليتاريا قد غابت. ويلاحظ الوزير البروسي إيشهورن أن "زهو بعض رجال الأدب المتوجهين وجهة الشيوعية يسلبهم كل إمكانية للتأثير على جمهور ما زال أجهل مما ينبغي". وإنه لأمر ذو دلالة أن يتوجه هيس إلى البورجوازية المثقفة، أكثر منه إلى البروليتاريا التي ما زالت أخشن مما ينبغي، لحل المسألة الاجتماعية. فمساءلة الملكية تخيف العامل الذي يحلم، وهو ما كاد يخرج من مزرعته أو من حانوته الصغير، بأن يعود إلى أصوله الأولى، ملاكاً هذه المرة.

وفضلاً عن ذلك، فسرعان ما كان على هيس أن يكف عن لعب دور راجح في الحركة الاشتراكية. من المؤكد أنه اقترب، في بعض النقاط، من ماركس-بل شارك في تحرير كتاب ماركس، "الأيديولوجية الألمانية"، وأنه يكتب، في تشرين الأول ١٨٤٧، في "جريدة بروكسيل الألمانية"، مقالات سيندد، فيها، بلغة ماركسية، بتناقضات النظام الرأسمالي ويدعو البروليتاريا إلى الانخراط في طريق عمل عنيف، ولكنه لم يقم، فعلاً، سوى بنوع من التركيب بين الاشتراكية العلمية والاشتراكية الحقيقية. ولم يستطع ، خاصة، قط، أن يتبنى وجهة النظر التي تقول أن ثورة

بورجوازية يجب أن تسبق، في ألمانيا، ثورة بروليتارية. واكتملت القطيعة بينه وبين ماركس في بداية ١٨٤٨.

تشكل فكر ماركس وأنغلز

ولد كارل ماركس، عام ١٨٤٨، في مدينة تريف في أسرة يهودية اعتنقت المسيحية. وقد ربي في جو عقلاني ومثقف وارتبط بأسرة وستفالن التي سوف يختار، من بينها، زوجته جيني. وقد درس ماركس الفتى الحقوق في جامعة بون، ثم في جامعة برلين حيث تابع دروس غانز. وهذه المدينة هي التي اتصل، فيها، من خلال نادي الدكاترة، بجماعة المتحررين الذين تلقى تأثيرهم، ولكنه تخلص منه سريعاً. وبحثه حول "الفرق بين فلسفة الطبيعة لدى ديمقريطس وإبيكورس" (١٨٤١) تظهر، منذ ذلك الحين، موقفاً نقدياً حيال فلسفة هيغل، حيال المنهج الذي سوف يبقى متمسكاً به مع تخلصه من نظامه. وهو يرى أن الفلسفة لا تتوافق مع الدين، ويأخذ على المتحررين احترامهم لفكر المعلم ويرفض أن يميز بين هيغل ظاهر ومحافظ وهيغل باطني محتفظ به لعدد صغير من العارفين. وتشهد على نفوذه لدى زملاء دراسته، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، هذه الرسالة التي كتبها هيس في أيلول ١٨٤١: "إنه يجمع بين أعمق فكر فلسفي وأكثر أنواع السخرية إيلاماً. تخيل روسو وفولتير وهولباخ وليسنغ وهاينه وهيغل ممتزجين في شخص واحد، ولا أقول مجتمعين، وسوف يكون لديك الدكتور ماركس".

إلا أن اهتماماته بقيت، آنذاك، فلسفية بصورة أساسية. وكان التوجه نحو الواقع من صنع مشاركته في تحرير "المجلة الرينانية"، الناطقة بلسان الجناح اليساري لليبرالية الرينانية. وإذا كان لم يستطع، كرئيس لتحرير هذه المجلة (تشرين الأول ١٨٤٢-آذار ١٨٤٣) طبعها بالاتجاه الذي كان يرغب فيه، فقد نجح، على الرغم من كل شيء، في أن يبعد عن

التحرير العناصر "العدمية" التي كانت، كالأخوين باور، تميل إلى نوع من الفوضوية الفردانية. وكتب، آنذاك، إلى روغ قائلاً: "دعوتهم إلى عدم الاكتفاء بعبارات طنانة ومحاكمات مبهمة، إلى أن لا يبالغوا في مجاملة أنفسهم، إلى التمسك بتحليل الأوضاع المشخصة بصورة مضبوطة وإلى البرهنة عن معارف دقيقة". ولكنه بين، خاصة، في المقالات التي كرسها لسرقات الأخشاب في غابات الإيفيل وبؤس زارعي الكرمة في الموزيل، وكذلك ضد الرقابة، أن الدولة ليست، كما كان يظن هيغل، التعبير عن الفكرة الإلهية، بل إنها كانت، في الحقيقة، في خدمة الطبقات الاجتماعية السائدة. وتواطؤ الدولة مع المصالح الخاصة هو ما يندد به بوصفه أحد تعسفات العالم المعاصر. وهو يتبين، بدراسته استخدام المالكين للتشريع، أن شروط الحياة المادية تحدد نشاط البشر. ويرى، خلال نضال طويل جعله على اتصال بالحياة اليومية، أن الوقائع أقوى من الأفكار وأنه من المهم، بمراجعة للمذهب الهيغلي، تكييف الفكرة مع الواقع لا تكييف الواقع مع الفكرة (أ. كورنو). وإذا كان ما زال يستبعد الشيوعية، فإن شيوعية الطوباويين الفرنسيين هي التي يدينها، ولكن ضربات أولى أنزلت، منذ ذلك الحين، بتصور مثالي للعالم.

وبما أن المجلة الرينانية قد منعت وتبين لماركس أنه يستحيل خوض المعركة السياسية في ألمانيا، فقد أقام في باريس حيث شارك في تحرير الحوليات الفرنسية-الألمانية إلى جانب روغ بقصد نقل النقد السياسي إلى صعيد النشاط العملي المستوحى من الفرنسيين. وهذه، أيضاً، هي السنوات التي أجرى، فيها، قطيعة تامة مع هيغل الذي قام، في صيف ١٨٤٣، بنقد كتابه "فلسفة الحق". ولا شك في أن ماركس وجد نفسه، آنذاك، قريباً جداً من فيورباخ الذي احتفظ منه بالقلب الفلسفي للعلاقات بين الكائن والفكر، وكذلك الاهتمامات "الإنسانوية" مستنتجاً ضرورة مصالحة الإنسان مع طبيعته العميقة بعمل ناجع في المجتمع. وتبين مراسلاته مع

روغ وفيورباخ التي نشرت في "الحوليات" إلى أي حد كان اهتمامه بالعالم الواقعي قوياً. فلم تعد الدولة السياسية، في نظره، تجسيداً للعمومي، بل أصبحت واقعاً يدور الأمر حول إخضاعه للنقد ككل الوقائع الأخرى. و لم تعد فكرة الدولة هي التي تخلق المجتمع المدني وتقوده، بل إن المجتمع المدني هو، على العكس من ذلك، الذي يحدد طبيعة الدولة. فلن تكون الدولة كما يجب أن تكون، إذن، تحقق النظرية، بل سوف تستخلص من نقد العالم كما هو، وهذا النقد سيتماهى مع النضالات السياسية (بوتيجيلي). أما بالنسبة لمقالي ماركس في "حوليات" ١٨٤٤ واللذين ينصب أولهما على المسألة اليهودية، والثاني على فلسفة الحق عند هيغل، فهما يؤكدان هذا التقدم الملحوظ في الكشف عن ضلال المفاهيم الهيغلية: المجتمع المدني لم يعد سوى دائرة المصالح الخاصة والضياع والأنانية، لا يمكن للثورة الحقيقية إلا أن تكون شاملة وعمومية بردها الإنسان إلى تأمل جوهره. ويجب أن نعارض الثورة السياسية التي تكتفي بتعديل شكل الدولة دون تحويل المجتمع بالتحرر البشري الذي يستلزم إلغاء المجتمع البورجوازي والدولة التي هي دعامته. ويبرهن ماركس على أنه لا يمكن أن تكون هناك، في البلاد، ثورة سياسية دون بورجوازية قوية. إلا أنه من حيث كون ألمانيا تراكم كل "خطايا" العالم الحديث وتلامس قعر الانحطاط والضياع، تكون قابلة لثورة "كلية". فهو يكتب ما يلي: "لا يمكن، في ألمانيا، تحطيم أي شكل من أشكال العبودية دون تحطيم كل أشكال العبودية. فألمانيا التي تمضي إلى أعماق الأشياء لا تستطيع القيام بثورة ما لم تقم بثورة تقلب الأمور رأساً على عقب". إلا أن هناك طبقة قيودها جذرية لا تمثل ظلماً خاصاً، بل تمثل الظلم في ذاته: البروليتاريا. وهناك، فعلاً، لدى ماركس، التعبير عن التحالف الضروري بين الفلسفة والبروليتاريا على اعتبار أن "رأس هذا التحرر هو الفلسفة وقلبها هو البروليتاريا".

ولقي ماركس في باريس التي هي، بالنسبة إليه، مقر الثورة الكبرى خاصة، جالية ألمانية كبيرة يتجاور، فيها، حرفيون ومغامرون أدباء ومثقفون من الدرجة الأولى، كهاينه الذي ازدادت صلاته به وثوقاً، وصحفيون، كجيرمان ماورر والدكتور إفربك اللذين حررا، في باريس صحفاً عديدة قريبة من رابطة العادلين. وأهم هذه الصحف كانت، عام ١٨٤٤، "فورفرتز" التي أسسها رجل أعمال مبادر جداً، هنري بورنشتاين، وكانت، في البداية، مجرد صحيفة أخبار كان رئيس تحريرها، أدالبرت فون بورنستدت العامل لحساب الحكومة البروسية ينشر، فيها، مقالات رجعية، ولكن س.برنايز سرعان ما أعطاها موقفاً معارضاً. وكان هنري هاينه الذي تأثر بثورة عمال النسيج السيليزيين اعترف، من قبل، بكل الأهمية التاريخية للشيوعية التي كان يحس، حيالها، بمزيج غريب من التعلق والخشية ونشر، فيها، أعنف هجماته ضد بروسيا فيدريك ولهلم الرابع. وهذه الجريدة هي التي تأكد، فيها، بأجلى الصور، الانفصال بين ديمقراطية روغ الراديكالية والبورجوازية الصغيرة والتصور الشيوعي الذي أصبح، منذ ذلك الحين، تصور ماركس. وكان ماركس قد رد بقوة على روغ الذي كان قد أنكر على البروليتاريا الألمانية، بمناسبة ثورة عمال النسيج التي كانت في نظره، مجرد انتفاضة جوع الحق في القيام بثورتها الخاصة، وقال أن البروليتاريا الألمانية قد أظهرت، في هذه المناسبة نضجاً وقوة احتمال رائعين. وكتب يقول: "يجب أن نتعرف، فيها، على منظر البروليتاريا الأوروبية كما أن البروليتاريا الإنكليزية هي مرشدها على الصعيد الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية على الصعيد السياسي". وبما أن الدولة ليست، في رأي ماركس، سوى تنظيم سياسي لمجتمع مولد للإملاق، فلم يكن يمكنها، من حيث طبيعتها نفسها، أن تلغي الإملاق. وميز ماركس بين ثورة سياسية هي احتجاج طبقة خاصة على انعزالها في الدولة وثورة اجتماعية هي احتجاج الإنسان

على إخراجه من الجماعـــــة البشـــرية.

إلا أن الفكرة التي كونهـــا مـــاركس عـــن الإنســـان تبقـــى، حـــتى هـــذا التـــاريخ، مجردة. وهنـــا يجـــب أن ندخـــل في إنضـــاج الفكـــر الماركســـي تأثـــير فريدريـــك أنغلز الذي كـــان يملـــك، آنـــذاك، معـــارف في الاقتصـــاد السياســـي أكمـــل مـــن معـــارف مـــاركس. والطريـــق الـــتي أدت بـــأنغلز إلى الاشـــتراكية كـــانت مختلفـــة اختلافاً محسوســـاً عـــن تلـــك الـــتي اتبعـــها مـــاركس: فـــأنغلز الـــذي ولـــد عـــام ١٨٢٠، لأسرة صناعيين عـــاملين في النســـيج ولكنـــه عـــرف كيـــف يفلـــت مـــن الجو الأســـري المحـــافظ ومـــن التقويـــة الصارمـــة الـــتي كـــانت ســـائدة في منطقـــة الفوبرتال كان يجمع بـــين ثقافـــة كلاســـيكية قويـــة ومعرفـــة بالأعمـــال كـــان قـــد حسنها خلال تدريـــــب في بـــريم وخـــلال إقامـــات، فيمـــا بعـــد، في إنكلـــترا، ولا سيما في مانشستر. وكـــانت عواطفـــه السياســـية قـــد قربتـــه، لفـــترة طويلـــة، مـــن ألمانيا الفتاة. وكان يديـــن لهاينـــه وبـــورن بالأساســـي مـــن أفكـــاره. وكـــان قـــد شارك، عـــام ١٨٣٩، في جريـــدة "تلغـــراف" الـــتي كـــان غوتزكـــاو يصدرهـــا في هـــامبورغ والـــذي عـــهد إليـــه، تحـــت اســـم فريدريـــك أوزفـــالد المســـتعار، بـــ"رســـائل مـــن الفوبـــر". ولكنـــه، هـــو أيضـــاً، كـــان قـــد خـــالط المتحرريـــن خـــلال خدمتـــه في برلـــين (١٨٤٢)، دون أن يشـــاطرهم مبالغـــاقم. وهـــــذا يعني أنه كان يدين بالكثـــير للفلســـفة الألمانيـــة-كـــان قـــد كتـــب كراســـين ضـــد شيلنغ الذي حضـــر دروســـه في برلـــين-ولكـــن الراديكاليـــة السياســـية هـــي الـــتي قادتـــه، علـــى عكـــس مســـار مـــاركس، إلى قـــراءة النصـــوص الفلســـفية ســـواء أدار الأمر حول هيغـــل أم حـــول فيوربـــاخ. وكـــانت معرفـــة الأمـــور في إنكلـــترا التي اكتسبها من خـــلال اتصالـــه بالميثـــاقي جوليـــان هارنـــاي هـــي الـــتي أوحـــت إليـــه، علـــى كـــل حـــال، بمشـــاركتيه، في نهايـــة ١٨٤٣، في "الحوليـــات الفرنســـية-الألمانيـــة"، وكـــانت إحداهمـــا نقـــداً لكـــارليل بوصفـــه معيـــد مـــاض متقـــادم، وكـــانت الثانيـــة تحليـــلاً لنظريـــات الاقتصـــاد الكلاســـيكي في صلتـــها بقـــوى الإنتـــاج في عصـــر معـــين. وقـــدم، فيـــها، إذلال الإنســـان بوصفـــها

المحصلة الضرورية لكل النمو الاقتصادي، النتيجة لحق الملكية الخاصة. وقد برهن على أن الإنسانوية التي كان فيورباخ يحبها لم تكن تملك أية فرصة للتحقق، ولم يكن الضياع يملك، بالتالي، أية فرصة للزوال إلا في إطار اقتصاد يستند إلى إلغاء المنافسة والتنازعات الطبقية.

فأهمية الاقتصاد السياسي كشفت، إذن، لماركس من جانب أنغلز الذي لم يحدث، لديه، عند لقائهما الأول في كولن، عام ١٨٤٨، سوى انطباع ضعيف والذي ربطته به، منذ ١٨٤٤، صداقة عميقة لن تنقطع إلا مع الموت. وتتجلى، من قبل، في "مخطوطات" ١٨٤٤ حول "الاقتصاد السياسي والفلسفة" التي لم تكن، آنذاك، موضع إنضاج نهائي، اهتمامات ماركس الجديدة: فسوف يبرهن انطلاقاً من عالمي اقتصاد كلاسيكيين، آدم سميث وريكاردو، يستعيد مفرداتهما ولكنه ينتقد منهجهما، على أنه لا يمكن قبول الملكية الخاصة كحقيقة أزلية وأنها يجب أن تخضع للتنقيب التاريخي وأنها نتيجة ضياع في نظام العمل الرأسمالي الذي يتحول من تجلٍ تلقائي لقوى الإنسان الأساسية إلى فعالية طارئة واحتمالية: فالعامل المرغم، فعلاً، على بيع عمله والذي يتلقى، على سبيل الأجر، أقل مما يستحق يفتقر وتنخفض قيمته بقدر ما يزداد إنتاجه حجماً وقيمة. فالضياع، مرئياً من هذه الزاوية، كف عن كونه لعنة ملازمة لمصير الإنسان، ووجد أصله المشخص في الجملة الاجتماعية التي يتخبط، فيها، العمل البشري. وباختصار، أصبح الضياع، بالنسبة لماركس، ظاهرة اجتماعية في جوهرها يقتضي إلغاؤها تحويلاً عميقاً للمجتمع. وبقي جلياً لماركس أن عودة الإنسان إلى طبيعته الخاصة مرتبطة بإلغاء الملكية الخاصة، أي بحلول الشيوعية. إلا أن هذه الأخيرة لم تعد تظهر، منذ ذلك الحين، كطوباوية أو كمجرد مقتضى أخلاقي، بل بوصفها النتيجة المحتومة للنظام الاقتصادي والصراع الطبقي الذي نجم عنه. فالشيوعية التي يعرفها ماركس مختلفة جداً عن هذه الشيوعية

"الفظة"، عن شيوعية "المتقاسمين" هذه التي ليست سوى عودة إلى نوع من عصر ذهبي حدد موقعه، تعسفاً، ببداية التاريخ البشري وتكون نتيجته حياة بدائية متقشفة وتظهر بوصفها المحصلة الضرورية لحركة التاريخ. فقد كان ماركس، كما أشار وهلم شولتز، في كتابه "حركة الإنتاج" (١٨٤٣) الذي فسر سير التاريخ بسير حاجات البشرية وينتهي إلى تصور مادي للتاريخ، كان ماركس يطرح أهمية الوقائع الاقتصادية، وبرزت، فعلاً، الفكرة القائلة أن الدين والأسرة والحق والدولة نفسها لم تكن سوى بنية فوقية أيديولوجية تخضع لقوانين الإنتاج المشروطة، هي نفسها، بالتاريخ.

وكان طبيعياً أن يحس ماركس وأنغلز اللذان تبينا، في باريس، تماهي اهتماماتهما الحاجة إلى أن يحددا أفكارهما بالنسبة لأفكار أصدقائهما القدامى وبيان الدرب الذي اجتازاه. وكان ذلك هو أصل كتاب "الأسرة المقدسة" (شباط ١٨٤٥) الذي وجه ضد الأخوين باور وصديقهما ستيرنر، وكذلك ضد كتاب أجانب آخرين، مثل أوجين سو وبرودون. وقد عرَّف ماركس وأنغلز، منددين، "بحرارة سجالية كبيرة ليست مغالية في لهجتها التخاصمية وتفاصحها" (ميرينغ)، بالمناهج النقدية للهيغليين الجدد بوصفها ظلاً كاريكاتورياً للمثالية، الخطوط الأولى لما سوف يصبح المادية الديالكتيكية، أي كون الكائن هو الذي يحدد الوعي وكون الأفكار مرتبطة بظروف حياة البشر الواقعية: وبقدر ما تعبر عن مصالح طبقة صاعدة، تكتسب قوتها الحقيقية وتصبح محرك التاريخ. ومنذ ذلك الحين، لم يعد فكر ماركس ينصب على تحقيق البشر لجوهرهم، بل على الشروط الطبقية التي هي سبب الضياع. وبصدد الثورة الفرنسية التي كرس لها، في باريس، دراسات واسعة-فكر في كتابة تاريخ الكونفنسيون-، يصب ماركس برهانه على العلاقات بين البورجوازية والبروليتاريا اللتين تقوم بينهما علاقات ضرورة إذ تنتج

البورجوازيـــة، في البروليتاريـــا، الطبقـــة الـــتي ســـوف تضـــع حـــداً لوجودهـــا. و لم يعد، في نظر ماركس، مثـــل أعلـــى إنســـاني مـــا هـــو الـــذي ســـيؤدي إلى حلـــول الشـــيوعية، بـــل إن مـــا ســـوف يـــؤدي إلى ذلـــك هـــو نمـــو بعـــض التناقضـــات داخـــل المجتمـــع. وإذا كـــان مدلـــول الضيـــاع غـــير مســـتبعد مـــــن "الأســـــرة المقدسة"، وإذا كـــان مـــا يـــزال يعـــرِّف مهمـــة البروليتاريـــا التاريخيـــة بالاســـتناد إلى الإنســـانية، فـــإن الثـــورة تـــترع نزوعـــاً مـــــتزايداً إلى أن تصـــاغ بتعابـــير موضوعيـــة، تعـــابير التحويـــل العملـــي للعـــالم، ونزوعـــاً متناقصـــاً إلى أن تعـــرف بتعابير فلسفية، تعابـــير تحويـــل الإنســـان.

وكـــانت هـــذه التـــأملات تعـــني لمـــاركس القطيعـــة النهائيـــة مـــع الإنســـانوية الفيورباخيـــة. وســـوف يضـــع، في بروكســـيل الـــتي لجـــأ إليـــها بعـــد أن طـــرده البوليـــس الباريســـي، علـــى دفـــتر ملاحظاتـــه، بضـــع كلمـــات ســـوف تصبـــح "أطروحات حول فيوربـــاخ" الـــتي ســـوف ينشـــرها أنغلـــز بعـــد وفـــاة مـــاركس والتي ســـوف يصفـــها علـــى أنهـــا "أول وثيقـــة أودعـــت، فيـــها، بـــذور التصـــور الجديد العبقـــري للعـــالم". ويـــأخذ مـــاركس علـــى مؤلـــف "جوهـــر المســـيحية" انصرافه عن مجـــرى التـــاريخ واعتبـــاره العـــالم المحســـوس معطـــى راســـخاً. فمـــن المؤكد أن فيوربـــاخ هـــاجم الوهـــم الديـــني، ولكنـــه لم يحذفـــه: فمـــن الضـــروري إدخـــال الممارســـة الاجتماعيـــة الـــتي يســـتطيع الإنســـان، بواســـطتها، تعديـــل العلاقات مـــع المجتمـــع المـــدني والدولـــة. فتوجـــد، فعـــلاً، لـــدى مـــاركس، بـــين الإنســـان ومحيطـــه، علاقـــة تفـــاعل: فالإنســـان يحـــول محيطـــه في نضالـــه ضـــده ويحول نفسه بتحويله إيـــاه. وطبيعـــة الإنســـان هـــي مـــا يصنعـــها، في كـــل برهـــة من التـــاريخ، أي فعاليـــة الإنســـان الإنتاجيـــة. وهـــو ينتـــهي إلى أن "الفلاســـفة لم يفعلوا شـــيئاً ســـوى تفســـير العـــالم بصـــور مختلفـــة، إلا أن الأمـــر يـــدور حـــول تحويلـــه". ومـــن أجـــل التصـــرف بوعـــي، بهـــدف تحقيـــق الاشـــتراكية، ســـوف ينبغـــي علـــى الطبقـــة العاملـــة الـــتي ســـيكف نشـــاطها عـــن أن يكـــون أعمـــى وسيتخلى عـــن ثـــورات لا غـــد لهـــا أن تملـــك الوعـــي العلمـــي بـــــ"الممارســـة

الاجتماعيـــة.

وتعريف هذه "الممارسـة الاجتماعيـة" هـو مـا اشـتغل أنغلـز بنشـره، في الفـترة نفسها تقريبــاً، كتابــه "الوضــع الحــالي للطبقــات الكادحــة في إنكلــترا" الــذي كان له صدى هــائل في كــل ألمانيــا المثقفــة. و لم يكــن الأمــر يــدور، بالنســبة إليه، حــول التعريــف بالحالــة المعنويــة والماديــة للعــامل البريطــاني ونتــائج نمــو المكننة وتطــور الرأسماليــة البريطانيــة المطبــوع بأزمــات دوريــة مــتزايدة الحــدة وبوجود "جيش احتيــاطي مــن العــاطلين عــن العمــل" وزيــادة قــوة اســتغلال العمــل مــع توســع الإنتــاج فقــط. فقــد كــان يســعى إلى البرهنــة علــى أن للبروليتاريا رسالة تقــوم بهــا وعلــى أنها قــادرة علــى أن تكشــف عــن آليــات الاقتصــاد والنمــو. إلا أن أنغلــز، الشــديد النقــد حيــال اشــتراكيي زمانــه، لا يظهر، بعــد، في هــذا الكتــاب، متحــرراً مــن كــل طوباويــة: فــهو يــرى أن الشــيوعية تقــع "فــوق التنــاقض بــين البروليتاريــا والبورجوازيــة وأنــه ســوف يمكن إقناع أفضــل قســم مــن هــذه الأخــيرة بأفكارهــا". وهــو يبقــى مقتنعــاً بــأن حقيقــة الشــيوعية مــن الظــهور بحيــث يجــب أن تفــرض نفســها علــى العقول المثقفــة.

والمؤلف الحاسم الــذي يعــبر، فيــه، تعــاون مــاركس وأنغلــز عــن نفســه هــو "الأيديولوجيــة الألمانيــة" الــذي كتــب في بروكســيل حيــث التقــى الرجــلان خــلال عــام ١٨٤٦. وســوف يكتــب مــاركس فيمــا بعــد، يقــول: "عندمــا جــاء أنغلــز، بــدوره، في ربيــع ١٨٤٥ ليقيــم في بروكســيل، قررنــا أن عمــل بصورة مشتركة لبيــان التنــازع بــين طريقتينــا في العمــل، مــن جهــة، والتصــور الأيديولوجــي للفلســفة الألمانيــة، مــن جهــة أخــرى ولتصفيــة حســاباتنا مــع وعينا الفلسفي السابق. وقــد تحقــق هــذا الغــرض علــى صــورة نقــد للفلســفة بعــد هيغــل... وزاد في طواعيــة تركنــا المخطــوط لنقــد الديــدان القــارض كوننــا قــد بلغنــا هدفنــا الرئيســي، أي الرؤيــة الواضحــة في أنفســنا". والأمــر يــدور، هنــا، حــول بحــث ذي طــابع ســجالي موجــه ضــد كــل أشــكال

الطوباوية و لم ينتشر إلا بعد ذلك بكثير. والمساهمة الأساسية لهذا الكتاب تقع في تحليل تقسيم العمل الذي يحمل، في ذاته، التناقض الأساسي الملازم للملكية الخاصة والذي هو أصل انقسام المجتمع إلى طبقات: فالبورجوازية ناجمة عن تخصص عدد من الأفراد في التجارة. وبصورة عامة، يبدو التاريخ، لماركس وأنغلز، مرتبطاً بأشكال الإنتاج والتبادل التي يدرسانها في إطار المجتمع القبلي والمجتمع المشاعي والمجتمع الإقطاعي، وأخيراً في إطار المجتمع الحديث حيث تنضج علاقات الإنتاج الرأسمالي وتنمو طبقة مستقلة من التجار. وليست الدولة، قط، سوى التعبير عن طموحات الطبقة السائدة: والشكل الحقوقي الذي تتخذه هذه الدولة ليس، في نهاية التحليل، سوى التعبير في عالم الأفكار عن نمط الإنتاج السائد. والمادية التي يعطى تعريف لها هنا ليست، فضلاً عن ذلك، تاريخية فقط، بل هي، أيضاً، ديالكتيكية بمعنى أن حركة التاريخ لا تجري، في رأي ماركس وأنغلز، بصورة خطية، على شكل تطور متصل، بل تجري بتأثير تعارض يقوم بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الناجمة عن هذه الأشكال. وهذا التحويل الديالكتيكي ليس آلياً ومحتوماً، ويبقى من العمل المستمر للطبقات المضطهدة المناضلة ضد الطبقات السائدة. والشيوعية لم تعد، في هذا المنظور، مثلاً أعلى يجب أن يضبط الفرد نفسه عليه، بل هي الحركة الواقعية للمجتمع التي تلغي الحالة الراهنة للعلاقات الاجتماعية: "ليست الشيوعية، بالنسبة إلينا، حالة يجب أن تقام ولا مثلاً أعلى يجب أن يتصرف الواقع بموجبه. إننا ندعو شيوعية الحركة الواقعية التي تلغي حالة الأشياء الراهنة". ويستطيع البشر أن يعملوا في سبيل هذا الإلغاء بقدر ما يعون القوانين التي تنظم تطور المجتمع. و"الأيديولوجية الألمانية" تتضمن نداء من أجل هذا النضال الاجتماعي يأتي صدى للعبارات الأخيرة في "أطروحات حول فيورباخ": "في الواقع، يدور الأمر، بالنسبة للمادي العملي، أي للشيوعي، حول تثوير العالم الموجود،

حول مهاجمة حالــــة الأشـياء الــتي وجدهـــا وتحويلــها". فتبــدو "الأيديولوجيــة"، إذن، نهاية تطور طويل يطبـــع القطيعــة الكاملـــة مـــع التجريـــد الفيوربـــاخي، مـــع مفـــهوم الضيـــاع، وكذلـــك مـــع كـــل إشـــكالية "مخطوطـــات" ١٨٤٤ ويقـــدم تفسيراً جديداً، كلياً، لتـــاريخ العـــالم. وضمـــن هـــذا المعـــنى، يمثـــل هـــذا الكتـــاب "انقطاعاً إبســـتيمولوجياً" في عمـــل مـــاركس: فلـــم يعـــد الإنســـان، بـــل المركـــب الاقتصـــادي-الاجتمـــاعي، هـــو الفكـــرة المركزيـــة في تفكـــيره. ومـــن المؤكـــد أن المصطلحـــات الماركســـية لم تكـــن قـــد أنضجـــت، كليـــاً بعـــد. فـــالتحليل الاقتصادي مـــا يـــزال، غالبـــاً، في حالـــة جنينيـــة، وتبقـــى آثـــار مـــن طوباويـــة، كمـــا في تـــأكيد زوال تقســـيم العمـــل في مجتمـــع جمـــاعي. إلا أنـــه يبقـــى أن "الأيديولوجية الألمانيـــة" المؤلـــف الـــذي أرســـى، فيـــه، مـــاركس وأنغلـــز أســـس الاشتراكية العلميـــة.

"لقد جـــرى نقـــاش طويـــل في التفســـير الـــذي يجـــب أن يعطـــى لفكـــر "شـــباب ماركس". فقد ادعـــي أنـــه يجـــب الاختيـــار بـــين ماركســـين، مـــاركس كتابـــات الشـــباب ومـــاركس "رأس المـــال". ويـــرى بعضـــهم أن عمـــل مـــاركس الشـــاب الذي لم يتحـــرر، بعـــد، مـــن التأثـــير الفيوربـــاخي لم يبلـــغ النضـــج ولا يمكـــن أن يكون جسماً واحـــداً مـــع كـــامل المنظومـــة. وفضـــل آخـــرون، ، علـــى العكـــس مـــن ذلـــك، المؤلفـــات الأولى، الأكـــثر إنســـانية، المشـــغوفة بالعدالـــة، الحساســـة بالحمـــاس، واســـتخدموها ضـــد الماركســـية في صورتهـــا الكلاســـيكية آخذيـــن على مـــاركس كونـــه قـــد ضحـــى، بعـــد ذلـــك، بالفلســـفة لصـــالح الاقتصـــاد، بالأخلاق لصـــالح العلـــم، بالإنســـان لصـــالح التـــاريخ. ويبـــدو أكـــثر ضبطـــاً أن نقول أنه لا يمكـــن الحديـــث عـــن قطيعـــة بـــين الماركســـين وأنـــه توجـــد مســـألة أساسية شغلته باستمرار هـــي مســـألة تحريـــر الإنســـان، وأن عملـــه، مـــهما تكـــن الفروق الـــتي يتضمنـــها في مختلـــف مراحـــل نمـــوه، يشـــكل كـــلاً عضويـــاً غـــير قـــابل للحـــل: فـــلا تصبـــح مؤلفـــات شـــبابه واضحـــة إلا في ضـــوء اشـــتراكيته العلمية التي تعـــبر عـــن نفســـها في عمـــر النضـــج. ففكـــر مـــاركس فكـــر ينمـــو،

كل حي بتناقضاته وتخلفاته ووعوده حول مستقبل (بوتيجيلي). أما بالنسبة للمؤلفات نفسها، فلا يمكن أن تفسر إلا تحت علامة التأمل النظري: فلا يكفي أن نبين أن ماركس "أعاد نصب النظام الهيغلي على قدميه" بتخليصه من محتواه الأيديولوجي، بل بالاحتفاظ بمنهجه الذي وسعه إلى تاريخ مادية فيورباخ وأن فكره يعمل بطريقة "تجاوزات متعاقبة للذات" تمضي من مرحلة النقد حيال الدين والفلسفة بحثاً عن الشروط التاريخية للصيرورة الاقتصادية وعن تعريف لممارسة ثورية. إلا أن من المهم أن ندخل العالم "المعطى" الذي حمل، فيه، ماركس وأنغلز على التفكير، وكذلك الفتوحات المشخصة التي أنجزاها في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي، أي أن نأخذ بعين الاعتبار "الطبقة الأيديولوجية" التي كان عليهما أن ينفضا عنها الغبار في ألمانيا متخلفة اجتماعياً، ولكنها فائقة النمو فلسفياً، واكتشافهما لفرنسا وإنكلترا حيث تظهر مشكلة، من قبل، شروط الصراع الطبقي، وأخيراً إسقاط هذه التجارب على الواقع الألماني" (ألتوسر).

وسائل عمل ماركس وأنغلز قبل عام ١٨٤٨

إذا كان شاغل ماركس وأنغلز الأساسي هو إعطاء أساس علمي لاشتراكيتهما، فإنهما لم يهملا كسب البروليتاريا الأوروبية، وخاصة الألمانية، لآرائهما. فقد كانا، فعلاً، مقتنعين بالطابع الأممي للحركة الشيوعية. ما هي الوسائل التي كانا يملكانها عشية ثورات ١٨٤٨؟

كانت نقطة انطلاقهما هي لجنة المراسلة التي خلقاها في بروكسيل، في بداية ١٨٤٦، مع البلجيكي فيليب جيغو، والتي أنجزت عملاً كبيراً بوصفها مركز تنظيم ونشر للأيديولوجية الشيوعية، لا سيما في أوساط رابطة العادلين. وعن طريق بلاغات مطبوعة بطريقة الحجر خاضت هذه اللجنة النضال ضد التصورات الحرفية لفايتلنغ الذي أفحمه ماركس

خلال مواجهة في بروكسيل في ٣٠ آذار ١٨٤٦، وأمكن خوض حملة ضد أنصار "الاشتراكية الحقيقية" وكل اشتراكية ذات صبغة دينية، خاصة ضد هيرمان كريغه، محرر "منبر الشعب" في نيويورك المتهم بتحويل الفكر الاجتماعي إلى "اجترار حول الحب" والخلط بين "الشيوعية" و"التواصل"، وتأكد تأثير ماركس على بعض الصحف، مثل "الزورق الوستفالي". وهكذا أمكن تنفيذ عمل توضيح وبنينة انصب على طبيعة الاشتراكية والهدف الذي يجب بلوغه خلال الثورة القادمة معاً.

ورابطة العادلين، وخاصة شعبتها اللندنية، هي التي سوف يمارس الماركسيون، بواسطتها، الأساسي من نفوذهم. فقد تحولت، وقد استعاد الإمساك بزمامها شابر ومول وارتبطت بالميثاقي هارني، وكذلك بالديمقراطيين الأخويين، بتأثير الرسام كارل بفيندر والخياط جورج إيكاريوس، عن هذه الشيوعية العاطفية التي كانت بتأثير فايتلنغ ثم كارل غرون، لوقت طويل، شيوعيتها. وكانت رابطة العادلين، لدى مؤتمرها المنعقد في حزيران ١٨٤٧ والذي سبقه مسعى من مول لدى ماركس في بروكسيل، قد اتخذت اسم "رابطة الشيوعيين" وأحلت محل شعار: "كل البشر أخوة" شعار: "يا بروليتاريي كل العالم اتحدوا!". وكانت مشاريع أنظمة وبرامج قد أرسلت إلى مختلف الجماعات ونشرت نشراً واسعاً حتى جنيف وستوكهولم ونيويورك. وفي أيلول ١٨٤٧، صدرت، في لندن، "جريدة الشيوعيين" التي كان يجب أن تعطي توجيهات في حالة ثورة: وكان على الطبقة العاملة أن تعتبر الإقطاعية عدوها الرئيسي وأن تسعى، بالتالي، إلى جانب البورجوازية، إلى ضمان حقوق الاجتماع والصحافة. وكتب شابر يقول: "نحن نعلم أننا لا نستطيع الدخول إلى عالم أفضل دون أن نكون قد كسبنا، أولاً، حقوقنا السياسية بالنضال القوي". وأضاف قائلاً: "نحن لا نرى أنه يمكن، فوراً بعد معركة مظفرة،

إدخال مشاعية الخيرات كما لـــو كـــان ذلــك عــن طريــق الســحر... وســوف تكون هنـــاك فـــترة انتقاليـــة ضروريـــة متفاوتـــة الطـــول حســـب الظـــروف". وفي كانون الأول، انعقـــد، أخـــيراً، في لنـــدن، برئاســـة شـــابر وبحضـــور عـــدد كبـــير من المناضلين، مثل هارناي عـــن إنكلـــترا وفكتـــور تيديســـكو الـــذي مثـــل حلقـــة لييج، المؤتمـــر الثـــاني الـــذي اشـــترك، فيـــه، اشـــتراكاً فعـــالاً، مـــاركس، بصفـــة مندوب جماعـــة بروكســـيل، وأنغلـــز بصفـــة منـــدوب الشـــعبة الباريســـية وحيـــث تجـــاوزا آخـــر المقاومـــات الـــتي كـــانت تعـــارض تصورهمـــا الثوريـــــة، دون أن يخلو ذلك من صعوبـــة، وأحـــلا، نهائيـــاً، نظريتـــهما في الاشـــتراكية العلميـــة محـــل المذاهـــب الطوباويـــة. وجـــرى التصويـــت علـــى أنظمـــة الرابطـــة الـــتي كـــانت تســـتند إلى مبـــدأ المركزيـــة الديمقراطيـــة وتحـــذف طابعـــها "التـــآمري". وصـــرح البرنـــامج الجديـــد بـــأن هـــدف الرابطـــة هـــو "الإطاحـــة بالبورجوازيـــة وســـيطرة البروليتاريـــا وإلغـــاء مجتمـــع الطبقـــات القـــديم وتأســـيس مجتمـــع جديـــد دون طبقات ولا ملكية خاصة". وكلـــف مـــاركس وأنغلـــز بكتابـــة بيـــان شـــيوعي.

وحوالي الفـــترة نفســـها، خلقـــت، في بروكســـيل، رابطـــة العمـــل الألمانيـــة الـــتي قادها عـــامل مـــن أصـــل مايانســـي، كـــارل فـــالاو، وكـــان ســـكرتيرها ولهلـــم فولف. وبصفة ممثـــل لهـــذا التجمـــع، مثـــل مـــاركس، بصحبـــة جـــورغ فـــيرت، أمـــام المؤتمـــر الـــدولي لعلمـــاء الاقتصـــاد الـــذي انعقـــد في بروكســـيل، في أيلـــول ١٨٤٧، وحضـــر مداخلـــة حـــول قضيـــتي الحمايـــة والتبـــادل الحـــر. وكـــان مـــاركس، كذلـــك، نشـــيطاً جـــداً بوصفـــه نـــائب رئيـــس الجمعيـــة الديمقراطيـــة التي كان يديرها محـــام بلجيكـــي وانضـــم إليـــها عـــدد مـــن المـــهاجرين البولونيـــين والفرنســـيين والألمـــان. وهـــذا التجمـــع هـــو الـــذي مثلـــه، في تشـــرين الثـــاني ١٨٤٧، في المؤتمـــر الـــدولي للديمقراطيـــين الأخويـــين الـــذي كـــان أنغلـــز قـــد عـــرّف، بمناســـبته، مدلـــول "أممية للبروليتاريـــا". وكـــانت "جريـــدة بروكســـيل الألمانية" همزة الوصـــل بـــين هـــذه الأجـــهزة المختلفـــة منـــذ بدايـــة عـــام ١٨٤٧، ولم يشارك ماركس، إلا بتحفـــظ، في هـــذه الجريـــدة الـــتي أسســـها أدالبـــير فـــون

برونستدت، وهو شرطي ذو مـاض مشبوه. إلا أنه سوف يجعل منها منبراً ممتازاً للنضال ضد الاشتراكية الطوباوية ومصدر إعلام حول الأحداث السياسية التي كانت تجري، آنذاك، في بروسيا بمناسبة انعقاد البرلمان الموحد. وكان من المهم، فعلاً، أن يبرهن على أن للعمال دوراً يلعبونه في الثورة الديمقراطية التي كانت ترتسم في الفق، وعلى أن تدخلهم، على عكس ما نصحهم به "الاشتراكيون الحقيقيون"، إلى جانب البورجوازيين ضروري طالما لم تتم تصفية النظام الإقطاعي. ولذلك عمل على إعلام الطبقة العاملة بكل المنظورات الثورية والتوجه بالنداء إلى "عقلها المطلع". وعمل التوضيح هذا هو ما كرس له مساجلاته سواء أكان يحذر، في كتابه "بؤس الفلسفة" (١٨٤٧)، من تصورات برودون حول الاقتصاد السياسي المطبوعة بالمثالية والأخلاقية والتي تقود إلى "إصلاحية بورجوازية صغيرة"، بل إلى مجرد "معركة تأخير"، أم كان يناضل ضد راديكالية كارل هايترن "الانقلابية" والمعادية للشيوعية، أم كان يندد، أيضاً، بالخطر الذي يمكن أن يتضمنه تحالف ضد البورجوازية تقترحه حكومة تتخذ لنفسها مظاهر "اشتراكية"، كما كانت الحال، بتأثير هيرمان فاغنر، معاون بسمارك المقبل، في جريدة كولن شبه الرسمية، الجريدة الرينانية. وكانت مسائل تنظيم الطبقة العاملة وتكتيكها، في صلة مع جملة القوى الديمقراطية هي التي تتخذ، بصورة متزايدة، أهمية لدى ماركس وأصدقائه البروكسيليين.

ما السند الذي كان يمكن أن يكون لدى ماركس في ألمانيا؟ لقد تكونت، في عدة مدن ألمانية، مجموعات صغيرة، مرتبطة برابطة الشيوعيين التي كانت أعداده ضئيلة-٥٠٠ عضو في أعلى التقديرات- ولكن نفوذها يتأكد كل يوم، وكان فايدماير يعتقد أنه يمكن استخدام هذه المجموعات من الشيوعيين في اليوم الذي ستسقط، فيه، الرقابة ويمكن، فيه، أن تؤسس في المقاطعة الرينانية جريدة ديمقراطية. وقد

اسـهم، بعـد إقامتـه في بروكسـيل في ربيـع عـام ١٨٤٦، في التعريـف بحالـة فكـر مـاركس وأنغلـز وفي خلـق لجـان مراسـلة شـيوعية يمكـن أن تنشـره. وكان يوجد، في عـدة مـدن ألمانيـة، بفعـل عـودة محـترفين مـهاجرين، روابـط عمل تعرف أفكـار مـاركس. ففـي سـيليزيا، مـارس ولهلـم فولـف تأثـيره في هـذا الاتجـاه، وكذلـك الطبيـب جـورغ فيـبر، محـرر "فورفرتـز" السـابق، في كييل، في حين بقـي، في هـامبورغ، هـنريش مارتيـتر وغوتليـب شـيرجز أكـثر تمسكاً بفـايتلنغ. ولكـن وسـتفاليا وريـنانيـا، في إلبـيرفلد حيـث يقيـم الرسـام ج.أ. كوتغـن، وخاصـة كولـن، هـي الـتي احتفـظ، فيـها، مـاركس وأنغلـز بـأمتن الصـلات: فبعـد احتجـاب المجلـة الرينانيـة، أصـدر أحـد محرريـها، الطبيب كارل ديسـتر، مجلـة حـددت لنفسـها هدفـاً هـو لفـت انتبـاه العـالم البورجـوازي إلى عيـوب النظـام الرأسمـالي وإقنـاع العمـال بـأن يتجنبـوا، بترابطـهم، ضغـط رأس المـال والبيروقراطيـة. واتجـهت ضمـن الاتجـاه نفسـه، فيمـا بعـد (١٨٤٥)، "جريـدة الشـعب الألمـاني" المتـأثرة بـ"الاشـتراكية الحقيقيـة"، ولكنـها كـانت قريبـة جـداً مـن مصـالح العمـال. وكـان "الشـيوعيان" الكولنيـان، الصحفـي هـنريش بورغـرز والطبيـب رونـالد دانييلـز، قـد ذهبـا، مـن جهتـهما، إلى بـاريس، في تشـرين الثـاني ١٨٤٤، للاتصال بماركس. ومـن هـذه الأوسـاط خرجـت المحاولـة لتكويـن نـوع مـن خطوط كبرى لتنظيـم الطبقـة العاملـة تحـت اسـم جمعيـة للمسـاعدة والتعليـم العام، وهو تنظيم اصطـدم بسـلطات المقاطعـة. ولكـن ديسـتر كـان قـد نجـح، إثر حملة انتخابيـة حـارة جـداً نوقشـت، خلالهـا، أسـباب الأزمـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، في أن ينتخـب في المجلـس البلـدي لمدينـة كولـن في تشـرين الثـاني ١٨٤٦. وقـد أنشـأ، فيـه، تحالفـاً مـع ممثلـي البورجوازيـة الصغـيرة حسب رغبـة مـاركس. وهكـذا نمـت، في كولـن، جماعـة لرابطـة الشـيوعيين كانت علـى علاقـة مراسـلة مـع لجنـة بروكسـيل ودخـل، فيـها، إلى جـانب موييز هيـس والدكتـور أندريـاس غوتسشـالك، عـدة ضبـاط مطروديـن مـن

الجيش البروسي، كفريتز أنيكه وأوغست فيلليش. ومن المؤكد أنه يصعب أن نقول ما إذا كان قد وجد إجماع في الآراء داخل المجموعة. فقد كان لدى بعضهم، مثل غوتسشالك، تعاطف مع فايتلنغ أو بلانكي أو أنه كان فيه من التلاحم ما يكفي من أجل أن يكون ماركس قد قرر الانتقال إلى كولن عندما اندلعت الثورة في ألمانيا.

البيان الشيوعي

خرج البيان الشيوعي من القرار الذي اتخذته رابطة الشيوعيين، لدى مؤتمرها في حزيران ١٨٤٧، بنشر "إعلان إيمان" كان أنغلز قد كتب خطوطه الكبيرة وقدم إلى مختلف المنظمات لمناقشته. ونحن نعلم أن الشعب الباريسية كلفت أنغلز، بعد رفضها مشروعاً لموييز هيس، بأن يحدد، على صورة التعليم الديني (أسئلة وأجوبة)، مبادئ الشيوعية. ولدى مؤتمر الرابطة في تشرين الثاني، اقترح ماركس وأنغلز تحرير بيان للحزب الشيوعي، مصممين على محو آثار الطوباوية التي كان يخيل إليهما تمييزها داخل الرابطة. ولكن ماركس سيكون مؤلفه الوحيد ولو صح أنه استخدم الأعمال السابقة. وسوف يعطي هذا العمل ذاك اللهيب الثوري وتلك الصورة التعبوية التي كان يفتقر إليها، كلياً، نص أنغلز الذي كان مغالياً في ضبطه. وصدر البيان في لندن في نهاية شباط ١٨٤٨.

يكتب ماركس ما يلي: "لم يكن تاريخ كل مجتمع، حتى هذا اليوم، سوى تاريخ النضال الطبقي" ملخصاً بهذه العبارة فكرة كان قد صاغها أكثر من مرة، قبله، اشتراكيون طوباويون، بل ومؤرخون بورجوازيون، ولكن كان أول من حاول إعطاءها تفسيراً علمياً. ويستند نص ماركس، فعلاً، إلى تفسير للتاريخ تنمو، بموجبه، داخل نمط إنتاج معين، أشكال إنتاجية جديدة تولد طبقة اجتماعية جديدة متنازعة مع الطبقات القديمة

السائدة، من جهة، ويفسر تطور المؤسسات والأفكار، من جهة أخرى، بوسائل الإنتاج والتبادل: فتمثل الأولى البنى الفوقية والثانية البنى التحتية لحالة اجتماعية معينة. والتاريخ، مرئياً من هذه الزاوية، يبرز انقسام المجتمع إلى طبقتين متنازعتين، هما، اليوم، طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتاريا. ومن المؤكد أن البورجوازية كانت في الماضي، طبقة ثورية: فقد هدمت كل الشروط الإقطاعية البطريركية المتجمدة، ولم تترك بين الإنسان والإنسان سوى "الدفع نقداً" القاسي. وقد خلقت، دون انقطاع، تقنيات جديدة وأعطت طابعاً كوزموبوليتياً لإنتاج كل البلدان واستهلاكها ووضعت في خدمتها قوى طبيعية عملاقة. ولكن مهمتها التاريخية انتهت اليوم. والأسلحة التي استخدمتها البورجوازية لإسقاط الإقطاعية ستتحول ضد البورجوازية نفسها. وتجاوزات النظام الرأسمالي المنخور بالتناقضات الداخلية هي، نفسها التي ستسبب سقوطها المحتوم. وسوف تسهل قانون التركز الرأسمالي، فعلاً، أزمات فيض الإنتاج الدورية التي ستؤدي إلى دمار صغار المنتجين: ومن هنا، أمام مشروعات متزايدة السعة اتساع تحويل الطبقات المتوسطة إلى بروليتاريا ودمار صغار الصناعيين والتجار والحرفيين وأصحاب الريع والفلاحين، بتأثير المنافسة، يجعل كل هذه الضحايا في صفوف البروليتاريا بحيث، كما يكتب ماركس، "تعبأ هذه الأخيرة من كل طبقات السكان. والبروليتاريا، نتاج الصناعة الكبرى الحقيقي، هي الطبقة الوحيدة "الثورية حقاً": فشرط البروليتاريا هو نفي كل الطبقات الأخرى، وسوف تتخذ الثورة البروليتارية طابعاً أكثر جذرية، دون حدود، من كل الثورات التي سبقتها. وبموجب كارثة محتومة، سيأتي يوم نزع الملكية الأوتوماتيكي للمشروعات المغفلة. وعند ذلك سيقوم النظام الجماعي، نظام دون طبقات ستزول، فيه، الدولة التي كانت، حتى ذلك الحين، أداة قمع في خدمة طبقة محددة، بأغلالها في المجتمع: "تبرز مكان المجتمع البورجوازي

بطبقاته وتناقضاتـــه الطبقيـــة، رابطـــة يكـــون، فيـــها، النمـــو الحـــر لكـــل واحـــد شرط النمو الحر للجميـــــع". وهـــذه المرحلـــة النهائيـــة الـــتي يمتنـــع مـــاركس عـــن رسم صورتها ســـتكون مســـبوقة، علـــى كـــل حـــال، بتدابـــير انتقاليـــة ذات طـــابع حقوقي واقتصـــادي وتربـــوي ســـتقابل "تكـــوّن البروليتاريـــا في طبقـــة ســـائدة[1]" سترى البورجوازيـــة، خلالهـــا، انـــتزاع وســـائلها الإنتاجيـــة المركـــزة بـــين أيـــدي الدولة الديمقراطيـــة.

وبعـــد أن يدحـــض مـــاركس، مـــرة أخـــرى، كـــل ممثلـــي مختلـــف الأشـــــكال الطوباويـــة للاشـــتراكية، اشـــتراكية "الإقطـــاعيين" الرجعيـــة، اشـــتراكية بـــــرودون المحافظـــة أو البورجوازيـــة، "الاشـــتراكية الحقيقيـــة" الـــتي نـــادى بهـــــا غـــــرون وهيس، وكذلـــك كـــل الذيـــن كـــانت اشـــتراكيتهم تتجـــه نحـــو "تقشـــف عـــام وشيوعية فظة"، يفحص مـــاركس مـــا ســـوف يكـــون عليـــه تكتيـــك الشـــيوعيين الذين هم "أكـــثر أقســـام الأحـــزاب العماليـــة تصميمـــاً"، "طليعتـــها" نوعـــاً مـــا: فحيـــث تكـــون البورجوازيـــة هـــي الطبقـــة الســـائدة ســـوف يوجـــه نضـــال البروليتاريـــا ضدهـــا، وفي البلـــدان الـــتي لا تكـــون، فيـــها، البورجوازيـــة ســـوى طبقـــة تطمـــح إلى الســـلطة السياســـية، كمـــا في ألمانيـــا، ســـوف يدعمـــها الشـــيوعيون في نضالهـــا الثـــوري ضـــد الملكيـــة والنبالـــة. ومـــع ذلـــك، ســـوف يكـــون هـــدف الشـــيوعيين الحقيقـــي هـــو الإطاحـــة بالنظـــام الاجتمـــاعي والسياســـي القـــائم. وللذيـــن لا فـــرح في العمـــل ولا أســـرة ولا وطـــن يقـــول ماركس: "يا بروليتاريي كـــل العـــالم اتحـــدوا!".

ومهما كـــان البيـــان غنيـــاً، فإنـــه لم يكـــن يمثـــل، مـــع ذلـــك، في بدايـــة ١٨٤٨، سوى اســـتباق: فالطبقـــة العاملـــة الـــتي كـــان يتوجـــه إليـــها لم تكـــن موجـــودة بعد. والمجتمع الذي كـــان يصفـــه كـــان، في ألمانيـــا، مجـــهولاً، جزئيـــاً، وفي حالـــة

١-بـــالفعل لم يذكـــر مـــاركس مدلـــول "ديكتاتوريـــة البروليتاريـــا" الغـــائب عـــن البيـــان إلا عـــام ١٨٥٢

حمل جزئياً. ولا شك في أن أنغلز وماركس قد بالغا في تقدير نضج العمال الذين لم يكن ولن يكون، لديهم، لفترة طويلة أيضاً، تصور واضح لنضال الطبقات. ولذلك سوف يبقى البيان دون تأثير حقيقي على أحداث ١٨٤٨. ولن يصبح، إلا بعد ذلك بكثير، الملك المشترك لطبقة العاملة الألمانية.

القسم الثالث

الاشتراكية والحركات العمالية من ثورات ١٨٤٨ حتى احتضار الأممية الأولى

تسود الفترة الممتدة بين ١٨٤٨ و١٨٧٥ واقعتان لهما أهمية رئيسية: كتابة كارل ماركس "رأس المال" الذي صدر الجزء الأول من عام ١٨٦٧ وتنظيمه، تحت قيادته، للأممية الأولى التي أدخلت في الطبقة العاملة الشعور بتضامنها وأعطت دفعة قوية لتشكيل تجمعات اشتراكية في مختلف البلدان الأوروبية. فالمرء يجد ما يغريه، إذن، في أن يرى في هذه الفترة مجيء اشتراكية "علمية" حلت محل "طوباويات" الفترة السابقة التي لا تحصى وحددت عقيدة للطبقة العاملة. إلا أن الأمور ليست في هذه البساطة. فمن المؤكد أن هذه السنوات الخمس والعشرين قد شهدت السيطرة المتزايدة للاشتراكية في الحركة العمالية، ولكنها شهدت، أيضاً، توجيهاً متنوعاً تبنته الحركات العمالية القومية المتنوعة. فسوف نرى أن الاتجاه الذي اتخذته الحركة العمالية في إنكلترا إصلاحي ونقابي، وأن العمال الفرنسيين والبلجيكيين يبدون، فعلاً، تفضيلاً لممارسة النقابية الثورية، وأنه تشكل، في ألمانيا، منذ وقت مبكر، حزب اشتراكي ديمقراطي متميز عن البورجوازية ومكرس لإعطاء الطبقة العاملة درباً سياسياً مستقلاً. ووجوب حصول هذا التوجه في اتجاهات مختلفة حسب البلدان أمر سلم به ماركس منذ ١٨٧١. وكان حل الأممية، في جزء كبير منه، نتيجة هذه المجموعات الجديدة التي بدت، بتأثير باكونين، متمردة على تعاليم لجنة لندن المركزية.

وبـدا ضروريـاً، لاحـترام هـذا التنـوع، أن يعـاد، أولاً، رسـم تطـور الاشـتراكية المستمر في الـدول الأوروبيـة الكـبرى: ألمانيـا، فرنسـا، بلجيكـا وإنكلترا منـذ ١٨٤٨ وحـتى زوال الأممية الأولى آخذيـن بعـين الاعتبـار هـذه الخصوصية التي هـي أن غـداة الكومونـة هـي الـتي انطفـأت، عندهـا، الحركـة العمالية في فرنسـا لعـدة سـنوات. ولـن يفحـص، إلا في نهايـة هـذه الدراسـة، لذاتهما، نـص رأس المـال وتشـكل الأممية الأولى الـتي لا يخفـي مؤرخـها، مـع ذلك، عن نفسه أنـه كـان لتلـك الأحـداث تأثـير لا شـك فيـه علـى تطـور الاشـتراكية في مختلـف بلـدان أوروبـا. وسـوف يظـهر، في الخاتمـة، تأثـير الاشتراكية في الحركة العماليـة في نهايـة هـذه الفـترة.

الفصل الأول

أصول الاشتراكية الديمقراطية الألمانية

جاك دروز

خلال السنوات ١٨٤٨-١٨٧٥، سوف تتقدم الاشتراكية الألمانية تقدماً عظيماً بالقياس مع الدول الأوروبية الأخرى. وقد يجد بعضهم، لتفسير ذلك، عبقرية لاسال الذي كان قد عرف، فعلاً، كيف يبرهن على أنه لم يكن للطبقة العاملة ما تنتظره من البورجوازية وأنها يجب أن تنتظم بصورة مستقلة. ويركز آخرون على الدور الرئيسي لماركس وأنغلز اللذين لم يغفلا، أبداً، عن تنظيم الحركة العمالية الألمانية، منذ فترة رابطة الشيوعيين التي خلقا، داخلها، قاعدة متينة من المناضلين وحتى مؤتمر غوتا الذي فضحا ضروب ضعفه. إلا أنه يبدو، بصورة متزايدة، أنه لم يكن لعمل القادة الدور المتميز الذي كان ينسب إليهم في السابق. فقوة الحركة الاشتراكية الألمانية يقع في التشكيل المبكر لروابط عمالية وفي ديناميكية هذه الروابط التي شكلت، منذ ١٨٤٨، شبكة متراصة والتي تلقت، خلال الثورة، نواة تنظيم من الأخوية التي خلقها ستيفان بورن ومن رابطة الشيوعيين. وهذه الروابط هي التي شكلت، على الرغم من رجعية الخمسينات البوليسية، الأطر التي استمدت منها الأحزاب التي تشكلت تحت تأثير لاسال، أولاً، ثم ليكنشت وبيبل. فعمل التكوين السياسي والثقافي الذي أنجز داخل الروابط العمالية هو الذي تقع، فيه، قوة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. وسوف يكون عمال هذه الروابط العمالية المتطورون هم الذين ألحوا، عام ١٨٦٢، على تشكيل حزب عمالي مستقل. وهم، أيضاً، الذين سيضعون حداً للحرب الصغيرة التي

قامت خلال السبعينات، بين قادة مختلف الفئات والذين سيفرضون توحيد الاشتراكية الديمقراطية. وكانت الاشتراكية الديمقراطية تشكل، فعلاً، في قلب السبعينات، جماعة قوية على درجة كافية من القوة والوعي لغاياتها من أجل أن تقاوم تدبير المنع الذي أطلقته الدولة، وكذلك الطبقات القائدة، ضدها ومن أجل أن تقاوم المحن الثقيلة التي سوف تفرض عليها.

ويجب أن نميز بين فترتين يفصل بينهما زمن جزر، نسبي أيضاً، شكلته رجعية الخمسينات. فثورات ١٨٤٨ سوف تكون، دون أن تتخذ، أبداً في ألمانيا، طابعاً اشتراكياً نوعياً فرصة لعمل توضيح لدى النخب العمالية وستولد الروابط العمالية الأولى التي سيخرج منها معظم مناضلي الفترة الثانية. وسوف يتشكل، بعد ١٨٦٠، حزبان عماليان، الأول "لاسالي" قام على أساس استقلال العالم العمالي عن التشكيلات السياسية البورجوازية، وسمي الآخر، عام ١٨٦٩، "إيزناخياً"، واقترب، بعد أن اتخذ طابعاً بورجوازياً صغيراً، من التصورات الماركسية: وهما حزبان سيتعارضان طويلاً، خاصة في موضوع الوحدة الألمانية، ولكن انصهارهما ببعضهما، لدى مؤتمر غوتا، عام ١٨٧٥، سيقدم للطبقة العاملة الأطر العقائدية وعناصر التنظيم التي ستجعل منه حزباً نموذجياً للبلدان الصناعية الكبيرة الأخرى.

الاشتراكية في ثورات ١٨٤٨ الألمانية

ثورات ١٨٤٨ والاشتراكية

سوف يكون خطأ كلياً أن نخلط، في ألمانيا ١٨٤٨، بين الاشتراكية والديمقراطية. فقد بقيت قيادة الحركة الديمقراطية، فعلاً، خلال الثورة، تحت سيطرة البورجوازية الصغيرة، التجارية أو الثقافية. فالذين نلقاهم على رأس الحركة هم محامون وأطباء وتجار وأساتذة. وساد، بين

الأعضاء، الحرفيون وأصحاب الدكاكين والنزل. وبقيت معظم الروابط معادية لجمهورية "حمراء"، وغالباً ما كرر، خلال المناقشات، أن القضية الاجتماعية عائق في طريق حل المسائل السياسية، وأنها يجب أن تستبعد، مؤقتاً، من المداولات. ومن الجدير بالملاحظة أن مؤتمري الديمقراطيين اللذين انعقد أحدهما في فرانكفورت، في حزيران ١٨٤٨، والآخر في برلين، في تشرين الأول لم يستطيعا إقامة أي اتصال بالعالم العمالي وسعيا إلى منع الاشتراكيين من تولي قيادة الحركة. وكانت الأغلبية ترى، مع هيرمان كريغه، مؤسس جريدة نيويورك الديمقراطية، "منبر الشعب" التي استمرت في حيازة مكانة في ألمانيا، أن الطبقات الدنيا في المجتمع "كانت ما تزال أكثر جهلاً وأقل تعليماً من أن تفهم جهودنا" وأن "زمن الثورة الاجتماعية لم يكن قد أتى بعد".

إلا أن الدراسة الجغرافية للحركة الديمقراطية تبين أن المشاغل الاجتماعية لم تغب، إلا نادراً، عن التجمعات التي تكونت عام ١٨٤٨-١٨٤٩، وأنها كانت راجحة أحياناً. ومن المؤكد أن المشاغل السياسية هي التي تفوقت في فرانكونيا حيث سيطر على الديمقراطيين حقد إقليمي حيال بافاريا القديمة، المحافظة والإكليركية، وفي مايانس حيث كانت ما تزال تعيش في ذكرى الثورة الفرنسية، وفي فورتمبرغ حيث كانت التقاليد الجمهورية للمدن الإمبراطورية حية. وكان كثيرون يفكرون، مثل المحامي المايانسي لودفيغ بامبرغر، "إنها لطريقة لا معنى لها تلك التي يقترحها قلة من الديمقراطيين والتي تقوم على تحريض قسم من الشعب ضد القسم الآخر... وإنه لخطأ لا يقل عن ذلك فداحة أن تحمل البروليتاريا على الاعتقاد بأنها قادرة، بقواها الخاصة، على هزيمة البورجوازية ومحوها"، إلا أنه ندر الديمقراطيون الذين لا يعترفون، مع بامبرغر نفسه، بأن العمال هم الذين يجب أن يعول عليهم الديمقراطيون، أولاً، وأن العناصر الخارجة من صفوف البروليتاريا تشكل أكثر العناصر قتالية، العنصر الذي دفع،

فضلاً عن ذلك، أثقل ضريبة في المعارك على المتاريس، وأنه يجب، بالتالي، إعطاء النضال طابعاً اجتماعياً. وفي ساكس التي عملت، منذ وقت طويل، فيها، دعاية "الاشتراكي الحقيقي" هيرمان سيميغ، كانت الروابط المحلية التي لا تحصى والتي ضمت، في بداية ١٨٤٩، حوالي ٧٥ ألف منتسب هي التي استخدم، داخلها، بعض الديمقراطيين، كروكيل مدير الموسيقى في درسدن والمحامين بوتشر وتشيرنر، النائبين في برلمان المقاطعة، الأحقاد العميقة الناجمة عن أزمة ١٨٤٦ الاقتصادية والوضع المأساوي الذي تعيش، فيه، بروليتاريا خاضعة لاستغلال مزدوج، رأسمالي وإقطاعي لخلق حركة واسعة جداً. ونقرأ في "صحيفة الشعب"، في شباط ١٨٤٩، ما يلي: "بدأت المعركة التي يخوضها المجتمع المعذب. ولا يمكن للثورات التي رأيناها تجري في النمسا وبروسيا وبعض أجزاء ألمانيا أن تخدعنا: فهي لم تفعل شيئاً خلاف تحضير ميدان القتال للمعركة النهائية".

وجمعيات الغناء والرياضة، وأكثر منها، أيضاً، الجماعات الحرة الناجمة عن حركات الصداقة والكاثوليكية الألمانية هي التي جرى، داخلها، التقارب بين بعض فئات البورجوازية ونخبة الحركة العمالية. فهذه الجماعات المناضلة من أجل نمو العقلانية وحرية الضمير في المجال الديني انفتحت على الفكر الاشتراكي الذي أسهمت في نشره إسهاماً واسعاً: فغالباً ما تم الوصول إلى النقد الاجتماعي بواسطة اللاهوت. وكان قادة ينتمون إلى الطوائف الدينية هم الذين قادوا الحركة السياسية في بعض المناطق. ففي بروسلاو حيث توجد جماعة كاثوليكية ألمانية على نحو خاص، كان أستاذ في الجامعة، نيز فون إيزنبك، هو الذي قاد الحركة الديمقراطية وحصل على انتخابه في مجلس برلين. وبصفة "اشتراكي" و"مفكر حر" ناضل، في هانوفر، اللاهوتي الشاب تيودور ألتهاوس الذي ارتبط به مصير مالفيدا فون ميسبورغ التي سيثير كتابها "مذكرات مثالية" حماسة نيتشه والتي ربطت، وهي، كفلورا تريستان، ثائرة على محيطها،

تحرر المرأة بتحرر العمال. وكان أجدر بالملاحظة، أيضاً، العمل العميق الذي قام به القسيس رودولف دولون، من رابطة أنصار المرأة في بريم، الذي قدم الاشتراكية بوصفها الشكل الحديث للإنجيل مؤلفاً، في ألمانيا الشمالية، شبكة متراصة من الروابط الديمقراطية، معرضاً نفسه لغضب بورجوازية الأعمال واللاهوتيين التقليديين الذين سيرغمونه على الهجرة إلى الولايات المتحدة. ونمت بين الطبقات الاجتماعية المتنوعة التي أسهمت في أعمال "الجماعات الحرة" روح "جبهة شعبية" كانت، عام ١٨٤٨، أنجع أشكال القتال ضد الدولة البطريركية المسيحية. ومن الجدير بالملاحظة أن العديد من هذه الطوائف اهتم بمطالب الطبقات الفلاحية، كما كانت الحال، خاصة، في هيس. وهكذا نجد على رأس نادي غيسن الديمقراطي أوغست بيكر، صديق بوشنر وفايتلنغ، الذي سعى، في "جريدة الشباب"، إلى إثارة الفلاحين ضد التشريع حول إعادة شراء الريوع الإقطاعية. وكيف لا نذكّر، أخيراً، بأن واحداً من أعضاء الطوائف الكاثوليكية الألمانية، أنطون فوستر، أستاذ اللاهوت والتربية في جامعة فيينا، نائب مارياهيلف في الرايخستاغ، هو الذي سيجعل من نفسه مرشد فرقة شباب فيينا الذين تشكل "مذكراته" شهادة مؤثرة عنهم.

التكوين التقدمي للعالم العمالي خلال الثورة

كان ظهور حركة عمالية منظمة، دون شك، أهم واقعة في ثورة ١٨٤٨ الألمانية. إلا أن شيئاً لن يكون أقل صحة من المبالغة في تجانسها وقوتها. فمؤتمرات الحرفيين هي التي أعطت، في البداية، الحركة العمالية لونها. إلا أن الحرفيين رجعيون، عامة، ويتصورون إعادة الصلات النقابية القديمة حلاً للمسائل الاجتماعية. وتكاثر الروابط العمالية، مراكز الثقافة العمالية، هي التي ستستمد الحركة العمالية، منها، قوتها. وسوف تتم

تربية الطبقة العاملـة، تدريجياً، حول منظمتين: منظمة الأخوة التي نشأت حول ستيفان بورن في لايبزيغ، وتلك التي تدور، في كولن، حول شخصية كارل ماركس والتي كانت جريدتها الرئيسية هي "الجريدة الرينانية الجديدة". ويمكن أن نسلم بأن هاتين المنظمتين هما اللتان سمحتا للطبقة العاملة التي دخلت الثورة دون برنامج دقيق بأن تكتسب، بين ١٨٤٨ و١٨٥٠، وعي رسالتها الخاصة داخل الديمقراطية.

مؤتمرات الحرفيين

صوحبت أيام آذار ١٨٤٨ بحركات إضراب غير منظمة وعنيفة ما يزال من الصعب تبين وعي طبقي فيها. وفضلاً عن ذلك، ترافق الكثير منها بتدمير آلات وطلبات طرد عمال أجانب، وكذلك إلغاء عمل النساء الذي كان يعتبر عنصر منافسة خطيرة. ولم تكن الحركة الاجتماعية تهم، إلا بشكل ضعيف، هذه الفئة التي ما زالت قليلة العدد وسيئة التنظيم والتي تعمل في المصانع، ولكنها تهم كتلة الحرفيين الذين كانوا أقرب إلى عرض شكاواهم. ويعلق الأدب الواسع الذي يعالج، منذ ذلك الحين، القضية الاجتماعية على البروليتاريا بوصفها إحدى نتائج ركود الحرفية. وكان يرى في ضمان شروط الحياة لهذه الحرفية، وليس في تدمير النظام الرأسمالي نفسه، حل مسائل الإملاق. ولذلك كانت المظاهرات الرئيسية التي جرت خلال ربيع ١٨٤٨ وصيفه مميزة للوضع الانتقالي الذي كانت، فيه، الصناعة الألمانية في مطلع النظام الرأسمالي فقط. ففي هامبورغ، اقترح ممثلو مهن ألمانيا الشمالية الصغيرة، في حزيران ١٨٤٨، استدعاء "برلمان اجتماعي" يجتمع إلى جانب البرلمان القومي ويدعى إلى مناقشة المسائل المهنية. وطور مؤتمر المعلمين الحرفيين الذي انعقد في فرانكفورت، بين تموز وآب ١٨٤٨، ميثاقاً للحرفية كان يجب أن يقدم إلى البرلمان: وكان الأمر يدور، بالدعوة إلى إعادة توثيق الصلات النقابية

وإلى تدخل الدولة السلطوي، حول الارتكاس ضد المبدأ "الفرنسي"، مبدأ حرية المبادرة وحول إقامة تنظيم إجباري للمهن، في كل مدينة وفي مجموع البلاد، والحد من عدده والتشغيل فيها. أما بالنسبة لمؤتمر "العمال" الذي كان يجمع، بصورة خاصة، صناعاً والذي انعقد في فرانكفورت بعد شهر، فقد ندد، دون شك، بهيمنة "المعلمين"، ولكنه ندد، أيضاً، بـ"المنافسة التي لا لاجم لها والتي هي مصدر كل الأمراض". وبين التصريح الختامي أنه "ينجم عن رغبة البشر في الوصول إلى الحرية أنهم، جميعهم، ألقوا بأنفسهم إلى العبودية... وأنهم، بالتذرع بحق كل واحد بالعمل في المهنة التي يريدها، أدوا بالطبقة الوسطى إلى الدمار وألقوا بالعامل إلى سرير المرض". هل كان من الممكن التوفيق بين الإبقاء على أنظمة النقابات القديمة وإقامة نظام "اشتراكي" كان بعضهم يتصور ضرورته؟ كان الملهم الرئيسي لهذه المظاهرات عالم الاقتصاد كارل جورغ وينكلبليش (كارل مارلو)، الأستاذ في مدرسة تجارة كاسيل والذي كان يرفض الاعتراف بأن التطور نحو الرأسمالية محتوم ويندد بقوة المال، ولكنه كان يبحث عن الحل في نوع من "الاتحادية"، أي في اتحاد العمال والطبقة الوسطى ضد "احتكار" رأس المال الكبير. وكان يعتمد على الدعاية المالتوسية لإيقاف زيادة البروليتاريا. ومهما كانت رجعية وجهة نظر الذين كانوا يرون في النظام النقابي الضمانة الوحيدة للرخاء المعنوي والمادي للعمال، فقد كانت منتشرة جداً وأثقلت كاهل الأشكال الأكثر تقدمية للحركة العمالية.

تضاعف الروابط العمالية

إلا أن إحدى أبرز الوقائع كانت، إثر حركات آذار، التضاعف، الفوضوي جداً فضلاً عن ذلك، للروابط العمالية التي كان هدفها، في البداية "نقابياً"، حصراً، ويرمي إلى تحسين الوضع المادي لأعضائها،

ولكنها ستصبح، بسرعة-ما كانت عليه، فعلاً، قبل ١٨٤٨-، مراكز تأهيل وتربية عمالية. وكان معنى أحداث ١٨٤٨، بالنسبة للعمال، فرصة لتحسين أجورهم وشروط عملهم ولتنظيم أنفسهم بصورة مستقلة عن البورجوازية، وفرصة، بالنسبة لأكثرهم تطوراً، لنفض نير رأس المال. وبسرعة كبيرة، وعى بعضهم أن القضية الاجتماعية ستثير، ضد شعب العمال-العمال والصناع-، الطبقات المالكة. وستستجر، من جانب هذه الأخيرة، مبادرات رد. وكانت هذه الحال مع رابطة فرانكفورت العمالية القوية التي تذكر، في تصريح بتاريخ ١٤ أيار، بأن "العمال يشكلون الشعب نفسه"، أو مع رابطة بريسلاو التي عرضت الجريدة الناطقة بلسانها، في الفترة نفسها، بوصفها "الصلاة الربانية لبورجوازية المال العليا التي تحمل كيساً مليئاً بالليرات بدلاً من القلب ولا تعترف بمصلحة أخرى خلاف مصلحة رأس المال". ولكن برلين التي عانت، بقوة، من جراء أيام آذار هي التي انكشفت، فيها، اليقظة الطبقية بأجلى صورها. ففي ٢٣ آذار، في حين لم يكن القتلى وراء المتاريس قد دفنوا بعد، لاحظ ج.جوليوس الحريص على الإبقاء على الصلات بين القوى التقدمية ما يلي: "لدينا، كما في فرنسا وإنكلترا، حدثت القطيعة بين الطبقة البورجوازية والطبقة العاملة. والمعركة مستمرة، ولكن ليس بين الملكية والجمهورية، بل بين البروليتاريين والمالكين... وإذا صدقت الطبقة البورجوازية، كاملة، الوهم القائل أن العمال سينامون، فإن الجوع الذي يعتصرهم لن يسمح بذلك. فلنتشجع، إذن، ولا راحة حتى نكون قد شيدنا عملاً متيناً". وتكونت، في العاصمة البروسية، أندية ينادي معظمها بمذاهب اشتراكية. ونشر الشاب أ.ج.شلوفيل، ابن نائب يساري في برلمان فرانكفورت، في "صديق الشعب"، مقالاً أرخه بالسنة الأولى للجمهورية ونادى، فيه، بلغة بابوفية، بـ"المساواة الطبيعية" وسيلة لحل القضية الاجتماعية وألح على ضرورة "الحد من الملكية العقارية

الكبيرة وتقسيم أملاك نبالة الأرض بين الفقراء وإلغاء كل الأعباء الإقطاعية دون تعويض" ويدعو البروليتاريين إلى الاتحاد من أجل نزاع سوف يقوم، في المستقبل، بين رأس المال والعمل. وكان يقول للعمال المستخدمين في الورشات القومية: "لا توجد بينهما تسوية ممكنة، سلام ممكن، تنازلات ممكنة: فيجب أن ينتصر العمل وأن يزول أرباب العمل". وأضاف قائلاً أن "تنظيم العمل هو تدمير قوة المال ورأس المال". وفي "اللوكوموتيف"، يؤيد وهلم هيلد، الشعبي جداً تحت "خيام تيرغارتن" حلاً للقضية الاجتماعية على يد الدولة التي ينتظر منها أن تصنع الثورة من فوق. وهو يقدر، وكان، كما سيكون لاسال، معادياً لكل حركة عصيان، أن المستقبل يقع في تحالف بين الطبقات الشعبية والملكية ضد البورجوازية الليبرالية. وصرح آخرون، مثل روغ الذي نشر، في برلين، كتابه "الإصلاح"، عن معاداتهم لـ"الشيوعية" المماهاة بالطغيان واكتفوا بالعمل على المساواة عن طريق ضروب تقدم التربية القومية. وفايتلنغ نفسه جاء يجرب حظه في برلين، ولكنه لم تصدر من جريدته إلا بضعة أعداد.

الأخوة العمالية

كان من شأن الاتجاهات المتنوعة التي تجلت داخل الروابط العمالية أن تؤدي إلى الفوضى لو لم تكن تربية معينة قد أدخلت على يد ستيفان بورن الذي كان يتمتع، من قبل، بشهرة كبيرة في برلين. فهذا الفتى ذو التعلم الذاتي والمنتمي إلى بوزن التي جاء منها إلى برلين، كصانع في مطبعة كان قد ناضل قبل الثورة، في باريس، داخل رابطة الشيوعيين وكتب كراساً حول الدولة عرضه ماركس، مقرظاً إياه، في "جريدة بروكسيل". وفي نيسان ١٨٤٨، أنشأ، بمساعدة عدد من الحرفيين الذين آمنوا بالشيوعية، كالحذاء هارتزل والخياط لوشاو، "لجنة مركزية للعمال"

سرعان ما فرضت نفسها على العالم البرليني. وانتصر بورن، ضد ولهلم ليتي، الذي كان يريد تشكيل رابطة "مختلطة"، بمبدأ تنظيم مستقل للطبقة العاملة. وطور بورن، في الصحف التي أصدرها في برلين، وخاصة "الشعب"، أطروحات قريبة إلى حد كاف من أطروحات ماركس، أي حول التحالف الضروري والمؤقت بين البورجوازية والعمال: "علينا في ألمانيا واجب مزدوج: دعم البورجوازية في معركتها ضد الأرستقراطية وقوى الحق الإلهي، من جهة، ولكن علينا، أيضاً، دعم العامل، الحرفي، من أجل الحصول للشعب على حق سياسي جديد يجعله قادراً على كسب الحرية الاجتماعية ووجوداً قومياً مستقلاً بالنضال القوي".

وأدان، مثل ماركس أيضاً، النظام النقابي بوصفه نظاماً بالياً وندد بالإيمان بالعودة الموهومة إلى "العصر الذهبي"، عصر الاقتصاد القروسطي. إلا أن بورن الذي كان مشغولاً، خاصة،بتنظيم أكبر عدد ممكن من العمال، كان يعلم أن البرنامج المحدد في "البيان" لم يكن قابلاً للتمثل من جانب أغلبية عمال زمانه وأنه لم يكن يشكل أساساً مرضياً لنشاط مطلبي عملي. كان يرى أنه يجب التركيز على إصلاحات فورية ويمكن الحصول عليها بالطريقة القانونية. ولذلك اكتفى بالمطالبة بأن تنضج الدولة تشريعاً يحمي العمل وبأن تطور التعليم المجاني وتتخذ تدابير من شأنها أن تعالج نتائج الإعاقة والمرض والشيخوخة وتنشئ تعاونيات إنتاجية: وهذا برنامج إصلاحي حصراً، وأقرب إلى لويس بلان منه إلى ماركس كان يبذل جهده، بواسطته، من أجل عدم إثارة مخاوف البورجوازية المتوسطة والصغيرة التي كان يريد الاحتفاظ بها في "الجبهة الثورية". وكان يفكر أنه "يريد وضع المجتمع، بكامله، تحت سيادة الطبقة العاملة".

وكان يجب أن يسمع نداؤه. ففي بداية أيلول ١٨٤٨، نظم بورن، في برلين، مؤتمراً جمع ممثلي ٣١ رابطة عمالية وخرجت منه، على أساس كونفيديرالية فضفاضة إلى حد كاف، الأخوية العمالية. وسرعان ما

جعل منها أكبر منظمة عمالية في أوروبا القارية تجمع، حول "المركز" في لايبزيغ، حوالي ١٢ ألف عامل، نشيطة، بصورة خاصة، في مدن بروسيا وساكس الكبيرة، وكذلك في فرانكونيا وفورتامبورغ، ضامة إليها منظمات معنية قوية، كعمال المطابع والسيجار، كانت تملك، هي نفسها، مطبوعتين، هما "غوتنبرغ" و"كونكورديا"، وتصل حتى إلى السكان الريفيين الذين وجدوا، في مكلمبورغ-شفيرين، في الصحفي جوليوس بولنت مدافعاً عن مصالحهم الطبقية. وخلال الثورة، عقدت الأخوية عدة مؤتمرات، في كانون الأول ١٨٤٨ في لايبزيغ حيث طولب بالاقتراع العام، في كانون الثاني ١٨٤٩ في هايدلبرغ حيث انتصر بورن، بسهولة، على خصمه فينكلبيك الذي كان من أنصار مذاهب نقابية ومالتوسية. وقد ناضلت جريدة "الأخوية" التي كان يديرها، في لايبزيغ، بورن ثم صديقه فرانز شفينيغر، بنجاح، ضد كل قوى التخلف الاقتصادي، ضد عداء الأوساط الحرفية حيال الآلة، ضد استمرار الروح النقابية. ولكن هذه الجريدة اهتمت، باستمرار، بتثبيت وحدة الحركة الثورية: ولذلك بحثت عن حلول "براغماتية" واتخذت لنفسها هدفاً هو التحسين المادي والإشباع "الاقتصادي" للطبقات الكادحة داخل دولة ديمقراطية. ورفضت فكرة نضال عنيف: "يجب أن يعرف إخواننا العمال ذلك: نحن نرفض كل انتفاضة ونحتج ضد كل فوضى. نحن لا ندبر مؤامرات ضد الحكومات، نريد، فقط، أن نعطى مكاننا في الوطن المشترك". وإذا صح أن بورن كان واعياً، تماماً، للتطور العام للاقتصاد والمجتمع، فإنه كان يرى، على الرغم من كل شيء، أن من الضروري مراعاة هذه الحالة الفكرية "النقابية" التي تسود في عدد من شعب الأخوية، خاصة في فورتامبرغ حيث تمضي جريدة "الجرس" إلى درجة إعلان تمسكها بالفكرة الرجعية، فكرة حماية التصنيع الحرفي ضد المبادرة الحرة. وكان يحسب، على كل حال، أكبر حساب لروح الكرامة المهنية

هذه الـــتي تحـــرك نخبـــة الطبقـــة العاملـــة وتميزهـــا عـــن هـــذه "البروليتاريـــا" الـــتي ترفض أن تختلط بها. وكان فضـــل ســـتيفان بـــورن الكبـــير هـــو أنـــه خلـــق حـــول كلمة "عامل" إجماع الطبقـــة الكادحـــة ونمـــى، فيـــها، مـــع التضـــامن، شـــيئاً مـــن الاعتزاز بحالتها وثبـــت داخـــل المجموعـــات روحـــاً قتاليـــة للدفـــاع عـــن الحقـــوق المكتسبة. وهذا ما يفســـر الـــدور الـــذي لعبتـــه الأخويـــة خـــلال انتفاضـــات أيـــار ١٨٤٩ للدفاع عـــن دســـتور الرايـــخ. وســـوف يكتـــب بـــورن، في بدايـــة أيـــار ١٨٤٩، قائلاً: "بدفاعنـــا عـــن مجلـــس فرانكفـــورت ندافـــع عـــن مبـــدأ الســـيادة الشـــعبية. وإذا كـــانوا يعدوننـــا بنظـــام التعتيـــم، فمـــاذا ننتظـــر لننشـــط؟". وقـــد وقـــف، هـــو نفســـه، وراء متـــاريس درســـدن. وســـوف يكتـــب شـــــفينيغر، في ٢٢ أيـــار، في جريـــدة "الأخويـــة" أيضـــاً: "إذا صـــح أن دســـتور الرايـــخ ليـــس شيئاً مطلقـــاً مـــن أجلنـــا، فلدينـــا، علـــى الأقـــل، فيـــه، ســـلاح سيســـمح لنـــا بالحصول على المزيـــد... إذا تخلينـــا عـــن حقوقنـــا، فـــإن ألمانيـــا ســـوف توضـــع تحت نير القـــوزاق. إن القـــرار يســـتند إلى الســـيف". وقـــد بقـــي تحســـين مصـــير عمـــال الأخويـــة، في نظرهـــم، مرتبطـــاً بـــالتنظيم الديمقراطـــي للدولـــة وبانتصـــار الفكـــرة الوحدويـــة علـــى صـــورة جمهوريـــة ألمانيـــة كـــبرى. ولم تنقصـــها إرادة النضال السياســـي.

كارل ماركس والجريـــدة الرينانيـــة الجديـــدة

وكان عمل توضيح، أيضـــاً، هـــو مـــا أجـــراه مـــاركس خـــلال "الســـنة المجنونـــة" ســـاعياً إلى أن يحـــدد، بدقـــة، شـــروط النمـــو الاقتصـــادي، وكذلـــك علاقـــات الطبقات فيمـــا بينـــها، وبالتـــالي إلى أن يـــهدم، داخـــل الطبقـــات الكادحـــة الـــتي رســـخ، فيـــها، مدلـــول مصالحـــها الطبقيـــة، الوهـــم حـــول العـــودة إلى العصـــر الذهـــبي لاقتصـــاد نقـــابي. إلا أن مـــاركس الـــذي مضـــى أبعـــد مـــن بـــورن يتصـــور، علـــى المـــدى الطويـــل، انخـــراط العـــالم العمـــالي في النضـــال ضـــد البورجوازيـــة، وادعـــى تحضـــير البروليتاريـــا لـــه. ولم تكـــن مســـاعدة العمـــال

للبورجوازية في صعودها السياسي إلا بصورة انتقالية. وقد أعطى التنسيق بين الفعاليتين-فعالية المنظر وفعالية التكتيكي-ماركس نفوذاً من نموج خاص جداً.

مضى ماركس، بعد أن أعاد، في باريس، إقامة قيادة رابطة الشيوعيين واتخذ موقفاً ضد خطط هيرفيغ المغامرة، إلى مايانس حيث كان قد نشر "المطالب السبعة عشر للحزب الشيوعي" في ألمانيا-وهو نص يشكل المحاولة الأولى لتكييف مبادئ "البيان" مع وضع ألمانيا المحدد في تلك الفترة من تاريخها. وإلى جانب مطالب ذات طابع ديمقراطي ونداء لمصلحة جمهورية ألمانية "واحدة وغير قابلة للقسمة"، أبرز ماركس عدداً من الطموحات الاشتراكية، كتأميم الأملاك الإقطاعية والمناجم ووسائل النقل وإحلال مصرف للدولة محل المصارف الخاصة وخلق ورشات قومية. وبين، بدقة، أن هذه المطالب كانت مطابقة لمصالح البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة والفلاحين الذين يجب أن يشتركوا في الجهد الثوري. ومن مايانس، مضى إلى كولن حيث كان عليه الإقامة حتى نهاية الثورة: فقد كان بقاء المؤسسات الفرنسية حية هناك تفسح له حرية عمل أكبر. وكان لرابطة الشيوعيين، فيها، شعبة ذات أهمية خاصة كانت قد نظمت، في ٣ آذار، مظاهرة قوية أمام البلدية عبر، فيها، إلى جانب المطالب الليبرالية، عن مطامح عالم العمل. إلا أن ماركس لم يكن يستطيع، داخل الرابطة العمالية التي كانت قد أتت على التكون في هذه المدينة، والتي ارتفع عدد أعضائها إلى سبعة آلاف، أن يتفاهم مع رئيسها، الطبيب غوتسشالك،وهو رجل كريم، قريب من الشعب، ولكن اتجاهاته بقيت قريبة من اتجاهات فايتلنغ والمعادي للاشتراك في الانتخابات الذي كان يؤمن بإمكانية الإعلان عن جمهورية عمالية في ألمانيا. وقد رأى ماركس الذي أدهشه عدم ثبات الحركة العمالية أنه من الأفضل إراحة رابطة الشيوعيين لفترة ودعم النشاط الديمقراطي بخلق

جريدة، منذ حزيران ١٨٤٨، يعبر، فيها، عن وحدة كل القوى التقدمية. وهكذا أنشئت الجريدة الرينانية الجديدة التي حرر، فيها، مع آخرين، فريدريك أنغلز وولهلم فولف، الاختصاصي بالشؤون الريفية، وإرنست دروشكه، المراسل في فرانكفورت، وجورج فيرت الذي كان يحرر المسلسل، وحتى الشاعر فردیناند فرايليغرات الذي كان نشيده " الأموات للأحياء" ذروة الشعر الغنائي في فترة ثورة ١٨٤٨. وسرعان ما حصلت الجريدة على ستة آلاف مشترك.

وهذه الجريدة، "الناطقة بلسان الديمقراطية"، هي التي كان على ماركس الذي انتسب إلى جمعية ديمقراطيي كولن التي أسسها كارل ديستران أن يعرّف بأطروحة تحالف مؤقت، ولكنه ضروري، بين الطبقة العاملة والعناصر التقدمية من البورجوازية في ألمانيا ما لم تتم تصفية الملكية المطلقة والإقطاعية. ومن المؤكد أنه يجب تنظيم العمال، ولكن ذلك من أجل إرغام البورجوازية الكبرى على التضحيات التي كانت تقتضيها ديمقراطية متقدمة أكثر منه من أجل التعبير عن مطالبهم الخاصة. وقد كتب، في حزيران ١٨٤٨، يقول: "يجب على البروليتاريا أن تسير مع الجيش الديمقراطي الكبير إلى أقصى حد من الجناح اليساري، ولكن ذلك مع محاذرتها، دائماً، من قطع اتصالها مع الكتلة الكبرى من الجيش. ويجب أن تكون الأكثر اندفاعاً في الهجوم ويجب أن تحرك روحها القتالية الجيش، أن تهاجم الباستيل. ذلك أنه لم يتم الاستيلاء على الباستيل بعد، والحكم المطلق لم يهزم بعد. وطالما بقي الباستيل منتصباً، يجب أن يبقى الديمقراطيون متحدين. ويجب على البروليتاريا، مهما بدا ذلك قاسياً، أن ترفض كل ما يمكن أن يفصلها عن حلفائها". وهذا العالم يمنعه، من جهة أخرى، من التنديد بـ"جبن" هذه البورجوازية الألمانية، وخاصة بجبن الليبرالية في برلماني فرانكفورت وبرلين، وبـ"غبائها البرلماني" وخياناتها "الثابتة" أمام قوى الرجعية ومن أن يشير، بصدد أيام حزيران في فرنسا،

إلى كون هذه البورجوازية تبقى العدو الرئيسي للطبقة العاملة. وقد كتب يقول: "كانت ثورة شباط أجمل ثورة، ثورة التعاطف العام... وثورة حزيران قبيحة، إنها الثورة المنفرة... إن أياً من الثورات العديدة للبورجوازية الفرنسية، منذ ١٧٨٩، لم تكن مؤامرة ضد النظام لأنها، كلها، كانت تبقي على السيطرة الطبقية وعبودية العمال والنظام البورجوازي... وحزيران مس بهذا النظام، فالويل لحزيران!".

وطور ماركس، من جهة أخرى، برنامجاً كاملاً للثورة الأوروبية. وكان يضع آماله في حرب ثورية ضد روسيا، مؤيداً استقلال الأمم التابعة ومبرزاً تعاطفه مع بولونيا الشهيدة ومع الانتفاضة الهنغارية مبدياً، بالمقابل، ريبة شديدة حيال سلافيي أوروبا الوسطى، التشيك والسلوفاك والكروات الذين كان اتجاههم نحو الوحدة السلافية يخدم مصالح روسيا والذين كانت تنقصهم الأسس التاريخية لوجود قومي. ولم يكن ماركس يعرف برنامجه القومي بموجب حق الشعوب في تقرير المصير (حتى حين كان يطالب بسليسفيل وهولشتاين لألمانيا، كان ذلك لأن هذه الأمة أكثر "تقدمية من الدانمارك)، بل بقدر ما كانت حركة القوميات تخدم مصالح الثورة الديمقراطية وتسهم في تحطيم النظام القيصري. وكان هو وأنغلز يريان، أيضاً، أنه لا معنى لحركة قومية ما لم تصاحب برنامج تجديد اجتماعي، وبهذه الصفة، كانا يدينان الاتجاه الذي أعطاه ماتزيني لحركة البعث الإيطالية.

وكان ماركس الذي لم تغب، أبداً عن ذهنه المسائل العمالية يريد، مع انشغاله بتثبيت وحدة الحركة الديمقراطية، أن يجعل من رابطة كولن العمالية طليعة الحركة الثورية لا سيما بعد أن أحل نفوذ صديقيه كارل شابر وجوزف مول محل نفوذ غوتسشالك الذي اعتقل لأنه دعا إلى الثورة. وكان يمارس نفوذه، أيضاً، ولو كان ذلك بصورة أقل كمالاً، داخل تحرير "الجريدة الكولنية الجديدة" التي كان يديرها ضابط المدفعية

السابق فريتز أنيكه والتي كانت تتوجه إلى الفلاحين والجنود، وفي الجريدة الناطقة بلسان اللجنة الديمقراطية، وكذلك في منشورات الرابطة العمالية: "جريدة الرابطة العمالية" و"الحرية" و"جريدة الأخوة والعمل" فيما بعد. وهكذا استطاع، بمراهنته على كراهية الرينانيين لبروسيا ومضيه إلى درجة تملق آرائهم "الانفصالية"، إحداث تحريض كبير السعة، في أيلول ١٨٤٨ أولاً، بمناسبة الأزمة التي أحدثتها في برلمان فرانكفورت هدنة مالمو-جعل المجلس المنعقد في فورنغن، قرب كولن، يهتف لـ"الجمهورية الحمراء، الاشتراكية والديمقراطية"-ثم، في تشرين الثاني، أمام تهديد الرجعية في بروسيا الذي قاد مؤتمراً ديمقراطياً انعقد في كولن إلى التصويت على رفض الضريبة. وهذه الأحداث هي التي ظهر خلالها، للمرة الأولى، المحامي فرديناند لاسال الذي كان يمثل نادي دوسلدورف الديمقراطي الذي كان يتكون، داخله، ثوريون شبان، مثل لويس كوغلمان. وعلى الرغم من تدابير القمع التي تلت هذه التظاهرات- التعطيل المؤقت للجريدة الرينانية في نهاية أيلول بسبب حالة الطوارئ، مثول ماركس أمام المحاكمة، في بداية شباط ١٨٤٩، للتحريض على رفض الضريبة-، لم تتوقف مكانته عن الارتفاع في أوساط كولن العمالية، ويشهد على ذلك عجز غوتسشالك المعادي لكل اشتراك في الانتخابات عن فرض وجهة نظره وعن تأسيس جريدة، باسم "الحرية والعمل"، قادرة على الوقوف، بنجح، في وجه جرائد الرابطة العمالية المؤيدة لأفكار ماركس.

إلا أن هذه الأخير تبين، بالتدريج، إلى أي حد كان يصعب الإبقاء على وحدة الجبهة الديمقراطية، على المدى الطويل، في وجود بورجوازية مستعدة لكل التسويات. ففي كانون الأول ١٨٤٨، نشر في "الجريدة الرينانية الجديدة" سلسلة مقالات بعنوان "البورجوازية الألمانية والثورة المضادة" برهن، فيها، على أنه لم يكن هناك، في ألمانيا، حل دستوري،

بل، فقط، انتصار الرجعية الإقطاعية أو انتصار الشعب الجمهوري. ولمح، آنذاك، إلى إمكانية ثورة "اجتماعية-جمهورية". وتزايد في نقل نشاطه إلى العالم العمالي الذي كان يأمل في تنظيمه في حزب جماهيري، فأخرج الرابطة العمالية الكولنية من اللجنة الديمقراطية الرينانية وتصور أن يجعل منها نواة الروابط العمالية الرينانية والوستفالية التي انعق مؤتمرها في كولن، في ٦ أيار، وأن يرسل وفداً إلى المؤتمر العام للروابط العمالية الألمانية المقرر عقده في حزيران، في لايبزيغ، مقر الأخوية. وضمن هذه الروح، كتب، في نيسان، في الجريدة الرينانية الجديدة، مقالاته حول "العمل المأجور ورأس المال" وركز على الطابع المحتوم لنضال الطبقات: ففي حين كانت العلاقات الاقتصادية التي هي في أساس المجتمع الحالي مجهولة في ألمانيا، فقد كان الأمر يدور حول إفهام الجميع، وخاصة العمال، المبادئ الأولية للاقتصاد السياسي. وفي الفترة نفسها، نشر ولهلم فولف مقالاته حول "مليارات سيليزيا" المكرسة لتحريض فلاحي شرق الإلب ضد مستغليهم والتي وصف، فيها، مجتمعاً ما زال إقطاعياً ورأسمالياً، مع ذلك، من قبل وفكك آلية النمو الرأسمالي حسب الطريقة البروسية. إلا أن أيام الجريدة الرينانية الجديدة كانت، في ذلك الوقت، معدودة: فلما صدر قرار بطرد ماركس لأنه "انتهك حقوق الضيافة"، أرغمت الجريدة على التوقف عن الصدور دون أن يمكن لمشاريع الوحدة العمالية أن تتجسد. ولكن المحررين ذكّروا، في نداء أخير مطبوع بحروف حمراء، بأن "الكلمة الأخيرة ستكون، في كل مكان ودائماً، تحرر الطبقة العاملة".

انتشر فكر ماركس، خلال الثورة، خارج المقاطعة الرينانية. فقد تبنت عدة روابط عمالية أيديولوجية "البيان"، كرابطة فرانكفورت التي كان يقودها إيسلن وبلز،صديق فولف والذي سرعان ما سقطت جريدته "جريدة العامل الألماني" ضحية البطريركية. وفي لايبزيغ، تكون، في

خريف ١٨٤٨، بمبادرة من أوتوكار فيلر الذي أتى، مع ذلك، من "الاشتراكية الحقيقية"، ناد ديمقراطي اشترك، فيه، أعضاء عديدون من "الأخوية" ودخلته أفكار ماركس. وكان عضو في رابطة الشيوعيين، فريدريش بوست، هو الذي ألقى التقرير حول المسائل الاجتماعية أمام المؤتمر الديمقراطي الثاني في برلين، في تشرين الأول ١٨٤٨. وإذا كان جوزف مول المكلف، في نهاية ١٨٤٨، بإعادة تنظيم رابطة الشيوعيين في لندن لم يحصل على الوسائل اللازمة لإعادة تكوين شعب فعالة، فقد كان هناك صحفيون، مثل ر.رمبيل في بيليفيلد، في جريدة "صديق الشعب" والدكتور كيلسنر، في "هورنيسه"، في فيسبادن، وج.أوبرمان، في "الجريدة الحرة"، استندوا، بدقة متفاوتة، إلى أيديولوجية الرابطة.وضمن علاقة وثيقة بماركس الذي كان، معه، جوزف فايدماير، على صلة مراسلة مستمرة، أصدر هذا الأخير، في دارمشتادت، ثم في فرانكفورت، جريدته، "جريدة ألمانيا الجديدة"، "الناطقة بلسان الديمقراطية"، ولكن ذلك لم يكن دون وجوب حسبان حساب، أكثر مما كانت تحسبه جريدة كولن الكبيرة، لمصالح البورجوازية الصغيرة ومواقف يسار برلمان فرانكفورت المتطرف، تاركاً، مع ذلك، مكاناً لتحضير الثورة "الثانية" ولنشاط اللجنة المركزية لروابط العمل. إلا أنه لا يمكن أن ينسب إلى ماركس تأثير عميق في الأيديولوجية الاشتراكية لحركة ١٨٤٨: فإذا كان إشعاع فكره غير قابل للإهمال، خاصة في المنطقة الرينانية، فإن الأوساط العمالية كانت ما تزال، في جملتها، غير قادرة على فهم رسالته لتمسكها بتصور رجعي لتطور الاقتصاد. وسوف يؤرخ الدخول الواسع للأفكار الماركسية في الستينات أو حتى السبعينات. أما بالنسبة للديمقراطيين، فقد ظلوا، في أغلب الأحيان، مقتنعين بضرورة تعاون الطبقات ويرغبون في سياسة إصلاحية. ففكر ماركس أخاف أكثر مما أقنع. فقد كتب الديمقراطي جورغ كينكل، الأستاذ في جامعة بون

والمطلع جداً على ما كان يحاك في كولن القريبة، مؤلف عدة كراسات اشتراكية هو نفسه، في جريدته، "جريدة بون"، مديناً ما يسميه "خرس البيان الشيوعي": "على هذا الحزب الذي ما ينفك يرسم، أمام عيوننا، التعارض بين البورجوازية والبروليتاريا أن يركز على إمكانيات الاتفاق، بدلاً من المبالغة في الضغوط، وهو ما سيكون أكثر فائدة".

آخر المعارك الثورية

عندما نظمت، تحت قيادة لجنة الرابطة العمالية، في ربيع ١٨٤٩، مقاومة القوى الديمقراطية لمصلحة دستور الرايخ، كان العمال أكثر العناصر قتالية، وهم الذين كانوا، ي الغالب، على رأس الحركة الثورية. وفي إلبيرفيلد، كان أنغلز، نفسه، هو الذي حاول فرض خطة حربية قبل أن يرحل، خائباً من موقف السلطات التي كانت هي التي بدأت التمرد، إلى البالاتينا حيث دارت المعارك الأخيرة. وفي أيزرلون، أيضاً، كما في مدن وستفالية صناعية أخرى، اتخذت الانتفاضة طابع نضال طبقي. ولكن درسدن هي التي عرفت، فيها، الحركة الثورية ذروتها ووصلت بحدة العواطف إلى أعلى نقطة.

اجتمعت في هذه المدينة شخصيات ستعطي للدفاع على المتاريس بريقاً خاصاً: فإلى جانب روكل الذي أسهم إسهاماً واسعاً في خلق روابط العمال السكسونية، كان هناك مهندس البلاط المعماري ج.سمبر والممثلة الشهيرة ف.ف.شرودر-دفريان، وخاصة فاغنر وباكونين. وكان ريتشارد فاغنر، آنذاك، قائداً لأوركسترا الأوبرا. زمن المؤكد أنه غالباً ما افتقرت أفكاره السياسية إلى الوضوح، إلا أنه بقي الكثير من قراءة فيورباخ وسترنر وبرودون والاشتراكيين الحقيقيين في مقطوعاته الأولى، وخاصة في "لونغرين" التي كان يجب، كما فكر، أن تخدم تجديد قوى ألمانيا. وكانت الصيغة الأولى لـ"نيبيلونغن"، كذلك، تعرض بشرية

محررة من الظمأ إلى الذهب وانهيار نظام عالم قائم على الجور: فقد كان سيغفريد يظهر كمخلص اشتراكي جاء إلى الأرض ليلغي عهد رأس المال. وصرح فاغنر، في "الثورة" التي كتبها عام ١٨٤٨، بأنه "كان يريد تهديم نظام للأشياء يفصل المتعة عن العمل ويجعل من العمل عبئاً، ومن المتعة رذيلة ويجعل البشرية بائسة بافتقار بعضهم وثراء الآخرين". وبعد انتفاضة درسدن التي أجبرته على الهرب إلى سويسرا، كتب، أيضاً، "الفن والثورة" و"عمل المستقبل الفني" و"الأوبرا والدراما" حيث ادعى، ضمن روح الإنسانوية الفيورباخية، محاربة الضياع واستعادة الطبيعة الحقيقية كاملة. أما باكونين الذي لم يقم سوى القليل من الصلات مع الأوساط السياسية السكسونية والذي لم يكن يشعر، فوق ذلك، بأي تعاطف حيال الديمقراطيين الألمان، فقد كان يسيطر عليه الطموح إلى استجرار حركة عامة لدى الشعوب السلافية التي وجه إليها نداء خلال خريف ١٨٤٨. وحاول، في "جريدة درسدن"،تبديد أنواع سوء التفاهم بين السلاف والألمان، وكان يأمل من صعوده على المتاريس في درسدن، أن يمتد بالانتفاضة إلى بوهيميا حيث دعا أصدقاء إلى تحريك الآلة الثورية. وإذا كان باكونين قد تمنى، مثل ماركس آنذاك، حرباً ضد القيصرية، فقد كان يعارضه بالثقة التي كان يضعها في ثورة كلية تخرج من بوهيميا وتوحد الشعوب السلافية باسم القومية السلافية.

ولكن شجاعة عشرة آلاف مقاتل خاضوا المعركة وراء متاريس درسدن كان يحركهم يأس البؤس وكراهية بروسيا، معاً، لم تتوصل إلى جعل الثورة المضادة تتراجع. وفي الأمكنة الأخرى، كما في بادن والبالاتينا، ظلت قيادة الحركة الثورية بين أيدي البورجوازية الصغيرة التي كانت تسيطر عليها العقلية الحرفية وتشعر بأكثر مما ينبغي من الريبة حيال البروليتاريا من أجل أن تتخذ تدابير سلامة عامة كان يقتضيها الوضع. وعندما جاءت الهزيمة والرجعية، كان الخارج هو الذي سيتابع، فيه،

أنصار الديمقراطية الكتابة والنضال.

رابطة الشيوعيين وعملها حتى ١٨٥٢

لم تكن الاتجاهات التي سادت داخل المنظمات العمالية الألمانية، في فترة ١٨٤٨-١٨٤٩، ستزول بين عشية وضحاها نتيجة لانتصار الرجعية. بل سوف تتوطد، على العكس من ذلك، في السنوات الأولى من عقد الخمسينات، بفضل إعادة تشكيل رابطة الشيوعيين، داخل الأخوية العمالية.

وفي حين نجح أنغلز الذي شارك، إلى جانب فيليش، في انتفاضة البالاتينا في الهرب إلى سويسرا، ذهب ماركس بعد إقامة قصيرة في باريس التي طرد منها مرة أخرى، إلى لندن، الملجأ الرئيسي للمهاجرين السياسيين.وقد ظن أن نفيه سيكون لمدة قصيرة: فبموجب تحليله للوضع في فرنسا، كان يعول، فعلاً، على هبة ثورية جديدة سوف تأتي، هذه المرة، من البورجوازية الصغيرة. وكتب إلى لاسال، في أيلول ١٨٤٩، يقول: "يمكن أن نأمل في أن انتفاضة جديدة ستندلع، في الربيع، في باريس". فكان الأمر يدور، إذن، في ذهنه، حول تحويل الثورة البورجوازية إلى ثورة بروليتارية من أجل انتصار مصالح هذه الأخيرة. وهذه الغاية هي التي عمل من أجلها، في لندن، بنشاط كبير، على إعادة تنظيم رابطة الشيوعيين التي كان يريد أن يجعل منها حزب ملاكات ثورية بصحبة أنغلز الذي وافاه وفيليش وشابر والخياط جورغ إيكاريوس.وقد أعيد أحد أعضاء الرابطة، هنريش باور، إلى ألمانيا حيث أنجز عملاً تأسيسياً رائعاً وأعطى الرابطة إشعاعاً لم يكن لها في السابق. وضمن الروح نفسها، تولى ماركس رئاسة الجمعية العالمية للشيوعيين الثوريين القادرين على تحديد التمرد الشعبي في البرهة المناسبة. وفي حين كان ماركس وأنغلز يؤمنان، في رسائلهما الدورية في آذار وحزيران

١٨٥٠، بأنهما يستطيعان استخلاص نتائجهما من الثورة، قد أسسا، في هامبورغ، مجلة "سياسية-اقتصادية" أعطياها، من جديد، اسم "الجريدة الرينانية الجديدة"، ونشرا، فيها، بين أشياء أخرى، سلسلة دراسات جمعت، فيما بعد، تحت عنوان "حرب الفلاحين وحملة الرايخ" (أنغلز) و"صراع الطبقات في فرنسا بين ١٨٤٨ و١٨٥٠" (ماركس[1]).

وكانت الأطروحة التي طورها ماركس، آنذاك، هي أطروحة التعارض الذي لا يحل بين البورجوازية والبروليتاريا، أطروحة ضرورة إيقاظ الوعي الطبقي، إذن، لدى هذه الأخيرة وتنظيمها، من أجل ذلك، بصورة "مستقلة" عن التشكيلات الديمقراطية البورجوازية. وخط السلوك هذا هو، وحده، الذي كان، في رأيهما، قادراً على تسهيل "الثورة الدائمة" أي الانتقال من ثورة سياسية إلى ثورة اجتماعية.

وقد دقق، في آذار ١٨٥٠، فقال: "في حين تريد البورجوازية الصغيرة الديمقراطية إنجاح الثورة بأسرع ما يمكن، فإن مصلحتنا وواجبنا هما في جعلها دائمة إلى أن تبعد كل الطبقات المتفاوتة الملكية عن السلطة، إلى أن تستولي البروليتاريا على الحكومة، إلى أن يكون ترابط البروليتاريا، في كل بلدان العالم وليس في بلد واحد فقط، قد تقدم إلى درجة كافية من أجل إيقاف تنافس بروليتاريي هذه البلدان، إلى أن تتركز القوى الإنتاجية، أو أهمها على الأقل، بين أيدي البروليتاريين". وفي هذا السبيل، كان ماركس يدلي للشيوعيين بنصائح دقيقة: تشكيل منظمات مستقلة،

١- هذان الكتابان اللذان يجب أن نضيف إليهما "١٨ برومير في فرنسا" لماركس و"الثورة والثورة المضادة في ألمانيا" لأنغلز اللذان نشرا في نيويورك عام ١٨٥٢ هما اللذان عرض، فيهما، الصديقان النتائج التي استخلصاها من أحداث ١٨٤٨ الأوروبية واللذان استخدما للتدقيق في قواعد عملهما السياسي ومناهج عملهما الثوري، بل وتصورهما للعصيان والثورة، وأخيراً طبيعة صراع الطبقات في تعقيده الكبير.

سرية أو علنية، عدم قبول هدنة في المعركة أبداً، معارضة المؤسسات الرسمية بمؤسساتهم، الحفاظ على تسلحهم بعد الانتصارات الأولى، عدم إهمال تقديم ترشيحات عمالية في حالة انتخاب بالاقتراع العام. وهذا ما لم يمنع ماركس من أن يطرح، في مكان آخر، قضية التحالفات الممكنة التي قد تستطيع البروليتاريا الإفادة منها: فقد كان من الضروري أن يبرهن للفلاحين على أن مصالحهم متعارضة مع مصالح العالم البورجوازي-هؤلاء الفلاحون الذين أشار أنغلز، بصدد حروب ١٥١٥، إلى ديناميكيتهم الثورية. وكان ماركس يرى، فضلاً عن ذلك، أن الأراضي المصادرة من كبار الملاكين يجب أن لا تعاد إلى الفلاحين. فسوف تبقى ملك الدولة وتستثمرها مستعمرات فلاحية.

إلا أن هذه الدراسات قادت ماركس، خلال عام ١٨٥٠، إلى التفكير في أن الأزمة التي كان ينتظر منها بعثاً للهياج الثوري كانت تترع إلى التراجع وأنه كان ينبغي، بالتالي، التخلي عن أمل انتصار الاشتراكية في أجل قصير. وقد كتب أن أزمة ١٨٤٧ التجارية هي التي جعلت ثورات ١٨٤٨ ممكنة. والنهوض الاقتصادي المرتبط باكتشاف مناجم ذهب كاليفورنيا سوف يشل، منذ ذلك الحين، النشاط الثوري. وكتب يقول: "لن تكون ثورة جديدة ممكنة إلا على إثر أزمة جديدة"، ولكن كلتيهما مؤكدتان". ويستخلص من ذلك أنه ينبغي تقوية التربية الخاصة بالبروليتاريا وتلقينها فكرة أوضح عن مصالحها الطبقية، وهو ما انصرف إليه في محاضرات ألقيت في لندن وأعاد تلميذه ولهلم بكنشت رسم جوها. فماركس الذي أصبح، من ذلك الحين، قاسياً جداً حيال الذين كان يسميهم "المتآمرين المحترفين" وابتعد عن "البلانكيين" استبعد مدلولي المغامرة والفتنة ليركز على الدعاية وحدها. إلا أن تنبؤات ماركس المتشائمة لم تكن ترضي أذواق بعض أعضاء الرابطة، كشابر وفيليش، اللذان انضم إليهما مويز هيس، وكانوا يرون أن الشروط تبقى مناسبة

للثورة، وأن إرادة أقلية فعالة تكفي لتأمين نجاحها. وانتصرت "انقلابية" فيليش-شابر لدى عمال الرابطة اللندنيين، وكذلك لدى نظرائهم في باريس، ولدى الجماعات السويسرية من الرابطة. وعلى أثر القطيعة التي حدثت، في ١٥ أيلول ١٨٥٠، في اللجنة المركزية، قرر ماركس نقلها إلى فرانكفورت التي كانت جماعتها مؤيدة له. وهاجم ماركس الفئة التي كانت معادية له، أولئك الذين كان يسميهم "خيميائيي" الثورة، وبالتعابير نفسها التي استعملها، سابقاً، في التنديد بفايتلنغ، فقال: "الأقلية تحل الفحص الدوغماتي محل الفحص النقدي، الفحص المثالي محل الفحص المادي. ومحرك الثورة ليس، في نظرها، الوضع الواقعي، بل مجرد الإرادة". أو، أيضاً: "كما جعل الديمقراطيون من كلمة "شعب" كياناً مقدساً، تجعلون، أنتم، من البروليتاريا كياناً مقدساً. وأنتم، كالديمقراطيين تماماً، تحلون تشدقاً لفظياً ثورياً محل التطور الثوري". وذكر العمال بأن عليهم "معاناة خمس عشرة أو عشرين أو خمسين سنة من الحرب الأهلية والمعارك الثورية، لا لتعديل وضعهم فقط، بل ليعدلوا أنفسهم ويجعلوها قادرة على أن تحكم".

وفي ألمانيا، جرت إعادة تشكيل رابطة الشيوعيين، بصعوبات عظيمة، وبفضل التوزيع السري لعدد كبير من النشرات والكراسات. ووصلت إلى أوساط جديدة، خاصة إلى عدد من المثقفين التقدميين، كرجل الدولة المقبل يوهانس ميكل: فقد أقامت في جمعيات الرماية والرياضة. وقد جرت قيادة هذا العمل الدعائي، انطلاقاً من مايانس، من جانب فريدريش ليسنر، ومن فرانكفورت من جانب جوزف فيدماير الذي سيصدر، حتى ١٨٥٠، جريدته "ألمانيا الجديدة". وهيس وناسو هما اللتان تكونت، فيهما، أكثر المجموعات عدداً. وفي لايبزيغ حيث كان نشاط الرابطة ناجحاً، أيضاً، كان المحرك هنريش ماريتوس وأوغست بيشل اللذان كانا على علاقة بأعضاء الأخوية حول غانغلوف. ولكن

كولن هي التي كانت، فيها، أنشط المجموعات: فاللجنة المركزية، بمن فيها الدكتور رولان دانيلز الذي كان، آنذاك، أفضل مفسر لفكر ماركس وهنريش بورغرز وعامل السيجار جيرهارد دروزر، وأخيراً هيرمان بيكر الذي كان يدير، منذ ١٨٥٠، دون اعتراف ماركس فضلاً عن ذلك، "جريدة غرب ألمانيا"، هذه اللجنة ترجمت، إلى الألمانية، "بؤس الفلسفة" ونشرت "كتاب تعاليم العمال" للبلجيكي فكتور تيديسكو الذي ترجمه فرايليغارت إلى الألمانية. وكان موضع بحث، في بداية ١٨٥١، وخلال محادثات بين بيكر وبورغرز وفايدماير، أن تؤسس جريدة جديدة للمناقشة النظرية كان يجب أن تتوجه إلى الديمقراطيين من كل الاتجاهات من أجل أن يقابلوا بين آرائهم. وبدت مجموعة كولن التي كونها عدد من المثقفين الذين انضم إليهم حرفيون متطورون وريثة النواة التي أصدرت "الجريدة الرينانية الجديدة"، باستثناء أنه كان يبدو لها، أكثر مما كان يظن ماركس آنذاك، أن ضمان تعاون البورجوازية الصغيرة والديمقراطيين ضرورياً.

إلا أن وجود الرابطة كان قصير الأجل: فأحد عملائها، الخياط بيتر نوتجونغ، الذي أسهم في إعادة تنظيم الرابطة في شمال ألمانيا، وخاصة في برلين، اعتقل في لايبزيغ وهو يحمل مخزوناً هاماً من الوثائق (١٨٥١). وانهالت موجة من الاعتقالات، في ألمانيا، انصبت على لجنة كولن المركزية. ونظراً لانعدام الأدلة، كلف هنكلي، مدير البوليس في برلين، بتكوين ملف مفحم واخترع أطروحة مؤامرة. وعندما حوكم المتهمون الرئيسيون، وجدوا أنفسهم أمام "محاضر" ملفقة بتدبير من مدير البوليس البروسي ستيبر الذي تخيل مؤامرة واسعة كان ماركس على رأسها. وعمل ماركس، مع إلحاحه على صلات الشعب بفئة فيليش-شابر "الانقلابية"، شهوراً لفضح أكثر التزييفات فظاظة والتي لم يمكن، إذن، استعمالها ضد المتهمين. إلا أنه إذا كان أربعة منهم قد برئوا لدى الحكم

الذي أصدره المحلفون، فإن سبعة آخرين حكموا بعقوبات سجن متنوعة (١٨٥٢). وفي الفترة نفسها، صدرت نشرة ماركس، "كشف حول محاكمة شيوعيي كولن"، التي لم يكن لها، بسبب الاحتياطات التي اتخذها البوليس، سوى صدى ضعيف في ألمانيا. وكان على هذه المحاكمة أن تدمغ نهاية رابطة الشيوعيين التي حلت بعد بضعة أيام، وكذلك نهاية للنشاط الثوري لماركس الذي سيكرس نفسه، منذ ذلك الحين، مبتعداً عن المهاجرين الألمان، لدراسات الاقتصاد السياسي التي سيخرج منها "رأس المال".

وتخلدت أفكار ١٨٤٨، كذلك، داخل الأخوية العمالية التي كانت ما تزال تضم ١٨٠٠٠ منتسب والتي التقت شعبها المختلفة، في شباط ١٨٥٠، في مؤتمر سري في لايبزيغ خرجت منه لجنة إدارية من خمسة أعضاء. وترى الأخوية التي كان أعضاؤها من النخب العمالية، من بين الحرفيين والعمال المهرة، أن عصر النقابات قد انقضى وأنه يجب حسبان حساب للشروط التي خلقتها الصناعة الكبرى: فحول هذه النقطة، كانت تعاليم بورن قد أعطت ثمارها. وكانت أغلبية أعضائها الأوفياء للقيم الأخلاقية التي قاتلوا من أجلها عام ١٨٤٨ تركز على مدلولي ترابط العمال وتضامنهم، وكذلك على تنظيم تعاونيات إنتاجية. وكانوا يعتمدون على طريق الإصلاحات، لا على طريق الثورة العنيفة ويرفضون التصور المجرد لعالم اشتراكي مبني على النضال الطبقي. وعلى عكس الرابطة التي كانت للمثقفين الأرجحية فيها، ظلت الأخوية عمالية، بصورة عميقة، وكانت فخورة بذلك. وفي فورتمبرغ، قام تحالف، خلال الثورة وبقي حتى عام ١٨٥٢، بين منظمات الأخوية و"حزب الشعب" الذي اتخذت جريدته النافذة جداً، في شتوتغارت، هدفاً لها هو الدفاع عن مصالح الطبقات الكادحة. وكتبت جريدة الأخوية، من جانبها، في نيسان ١٨٥٠، أن "الديمقراطية السياسية هي التي عليها أن تحول

الدساتير السياسية في اتجاه مصالح الطبقات المضطهدة". وإذا كان الفكر الذي يحرك الروابط قد بقي إصلاحياً، بصورة عامة، فإن سؤالاً يطرح، مع ذلك، عن مدى تأثر أعضاء الأخوية بالأفكار التي كانت سائدة في رابطة الشيوعيين. إلا أنه من غير المشكوك فيه أن عدداً من المناضلين النافذين، كالصائغ البرليني ل.بيسكي، المعاون المقرب من بورن، أو عامل السيجار البريمي كولفاي، صديق روزر، قد انضم إلى الرابطة التي كانت تمارس، أيضاً، نفوذاً على مختلف الروابط (سوف يتورط مسؤول جمعية بون الرياضية، الدكتور أبراهام جاكوبي، في محاكمة شيوعيي كولن). وفي صحافة هذه الروابط، وخاصة في "الأخوية" التي كان يديرها عامل المطبعة كارل غانغلوف، امتزجت بالتصورات الطوباوية التي كانت سائدة إلى حد بعيد، بالصياغات العقائدية المستلهمة من "البيان الشيوعي"، لا سيما بتأثير الناشر اللايبزيغي أوتوكار فيلر. ومن سويسرا، بقي بورن الذي أرغم على اللجوء إليها بعد أحداث درسدن على صلة وثيقة برابطة الشيوعيين ورأى في المنظمات غير الشرعية للأخوية وسيلة لتأهيل الجماهير للشيوعية. وبعد زوال جريدة الأخوية وخليفتها التافهة "بروميثيوس" أصدر النجار الشاب لودفيغ ستيشان، الخارج، بدوره، من صفوف رابطة الشيوعيين، بعد أن كان محرر جريدة عمال السيجار "كونكورديا" ضمن روح راديكالية، وعلى الرغم من الصعوبات البوليسية، جريدة "العامل الألماني" التي كان لها جمهور كبير بين عمال ألمانيا الشمالية. وقد صرح، في العدد الأول، قائلاً: "أيها العمال! الحكومات تسمح بأن تناضل الطبقات الكادحة، إلى حد ما، ضد الوضع الذي هي ضحيته، ولكنها تعيق هذه الجهود منذ أن تكون قوتها السياسية موضع مساءلة... السلطة السياسية يجب أن تنتقل إلى الجماعات وأن لا تعود بين أيدي أقلية". وطور ستيشان، في هذه الجريدة، أطروحة "الثورة الدائمة" بروح أقرب، في الحق، إلى فيليش منها

إلى ماركس. ومن المؤكد أن العناصر الأساسية من الفكر الماركسي قد وصلت، ولو بصورة تقريبية، إلى نخبة الحركة العمالية الألمانية عن طريق الصحافة. ولكن الأخوية كانت، شيئاً فشيئاً، ضحية الرجعية: فمنذ ١٨٥٠، كانت حكومات بروسيا وساكس وبافاريا قد نظمت ملاحقات ضد الشُعَب. وفي عام ١٨٥٢، اتخذت فورتمبرغ تدابير قمعية. وفي تموز ١٨٥٤، ألزم قرار البرلمان الحكومات بحل كل المنظمات العمالية.

إلا أن حل رابطة الشيوعيين الطوعي ومنع الروابط العمالية لم يعنيا، مع ذلك، زوال كل نشاط هدام. ففي شباط ١٨٥٦، زار غوستاف ليوي، كممثل لرابطة دوسلدورف السرية، ماركس في لندن وأعلمه بأن تجمعات عديدة، في وستفاليا كما في رينانيا، كانت ترغب في الانتقال إلى العمل. وهدأ ماركس من حماستها وبين، في مراسلات أجراها مع بعض المناضلين المقيمين في ألمانيا، أن على البروليتاريا أن تبقى مستقلة حيال البورجوازية لأنها لا تستطيع، حالياً، الاعتماد إلا على التحالف مع الطبقة الفلاحية. وكان يجب، على كل حال، انتظار أوقات أفضل. ولكن هذه الأوساط العمالية المطبوعة بدعاية رابطة الشيوعيين هي التي ستأخذ منها الأحزاب الاشتراكية، فيما بعد، مناضليها.

تشكيل الاشتراكية الديمقراطية الألمانية

رجعية الخمسينات واستئناف الحركة العمالية

لم تكن هناك قطيعة بين حركة ١٨٤٨ العمالية وحركة الستينات. والرأي الذي أبداه، فيما بعد، بيبيل والذي يقول أن جيلين مختلفين بثا الحياة في هاتين الحركتين بعيد عن الصحة: إذ أن رجالاً مثل لاسال وليبكنشت وبيكر وفريتزشه أو هيلمان سيلعبون دوراً هاماً في اشتراكية الستينات قد اكتسبوا تأهيلهم، عام ١٨٤٨، كمناضلين ديمقراطيين. ولم

ينقطع الاحتفال بالذكرى السنوية لآذار ١٨٤٨ في بعض الأوساط الشعبية. ومن المؤكد أن فترة النمو الرأسمالي والتصنيع القوي الذي طبع بطابعه الخمسينات التي لامس العمال، خلالها، أعمق البؤس والتي عرفت، فيها، الأجور الحقيقية أدنى مستوى لها لم تكن مناسبة لنشاط مطلبي. و لم يكن توافد الفلاحين على المدن الكبيرة من طبيعة تسهل صعود فكر طبقي لم يكن من شأن نظام الرجعية السياسي الذي كان يعيث فساداً، آنذاك، أن يدع له أية فرصة للتعبير عن نفسه. إلا أنه كانت هناك، قبل أزمة ١٨٥٧ وبعدها، إضرابات جزئية جرت بوسائل قوية نسبياً وشارك، فيها، عمال المصانع بأعداد أكبر من ذي قبل. وبقي أعضاء رابطة الشيوعيين القدامى على اتصال مع بعضهم وتابعوا عمل الدعاية. و لم يكن يمكن، أبداً، للبوليس أن يختزل الروابط العمالية إلى مجرد مجموعات مساعدة وغوث متبادلين. ويلاحظ الحذاء اللايبزيغي جوليوس فالتاي، القارئ الكبير للويس بلان وبرودون، الذي بدأ، عام ١٨٥٧، جولته في ألمانيا أنه وقع، في كل مكان، تقريباً، على روابط صناع رائعة التنظيم.

وكان النشاط القومي الذي سببته، في ألمانيا، الحرب النمساوية- البيمونتية (١٨٥٩) وتشكيل روابط قومية هما اللذان استيقظت في ظلهما الحركة الاشتراكية: فقد كان صحيحاً جداً أن فكرة تحرير البروليتاريا كانت ما تزال تظهر، في تلك الفترة، مرتبطة بتشكل الوحدة الألمانية. وكانت الاحتفالات بمناسبة الذكرى المئوية لولادة شيلر قد أيقظت، من قبل، ومضات أمل. وتضاعفت، من قبل، روابط الرياضة والغناء التي أسهمت، الأولى في مؤتمرها في لايبزيغ، والأخرى في مؤتمرها في نورمبرغ، في رد حس العمل المدني للعمال: "فالعمال والرياضيون والمغنون كانوا، آنذاك، أعمدة الأمة الألمانية التي كانت تتكون". وأخيراً، عندما افتتح العهد الجديد واستؤنف النشاط السياسي، واجهت الأحزاب

الموجودة، المحافظة والليبرالية، أمر خلق روابطها العمالية الخاصة لإعطاء ناخبيها قواعد أكثر اتساعاً. فمن الجهة المحافظة، بين ف.أ.هوبر الذي كان مهتماً بإعادة البروليتاريا إلى المجتمع المسيحي مزايا فكرة النقابية وحدد فاغنر، في "مجلة برلين"، برنامج تشريع اجتماعي كان يراه مطابقاً للتقليد البروسي. ومن الجهة الليبرالية حيث كانوا يؤمنون بتماهي المصالح بين البورجوازية وعالم العمل، كان عدد من العقول يرى من المرغوب فيه ربط العمال بهم وتشجيع تربيتهم المهنية والسياسية: وهكذا نظم شولتزه-ديليتز، أحد قادة حزب التقدم، في بروسيا، لمصلحة الحرفيين والعمال، على أساس الخدمة الذاتية والتوفير، ودون اللجوء إلى الدولة، تعاونيات استهلاك وشراء مواد أولية قدمت، وهي المنظمة حسب مبدأ التبادلية، قروضاً وأعطت سلفاً مالية. وكان، بوقوفه ضد التفسير الماركسي لمجتمع مقسم إلى طبقات متنازعة، يريد خلق "طبقة وسطى" سليمة ومستقلة، محمية من الإسراف والإملاق معاً. وقد لبت روابط عمالية عديدة، عاملة، أحياناً، تحت وصاية روابط قومية، نداء البورجوازية الليبرالية مهتمة، خاصة، بشؤونها المهنية والثقافية متبنية، أحياناً، على الصعيد السياسي، موقفاً مطابقاً لموقف حزب التقدم. واتفق، فضلاً عن ذلك، أن شاركت في تشكيل العالم العمالي شخصيات من الدرجة الأولى، كالفيلسوف لودفيغ بوشنر وفريدريش-ألبرت لانج، وكعالمي الطبيعة تيودور مولر وإميل أدولف روسميلر.

وفي بداية الستينات، كان الحرفيون المختصون الذين اكتسبوا درجة ما من الرخاء والتعليم والذين كان نمو الصناعة، مع ذلك، يهددهم-عمال الشرائط في بارمن وعمال المدى في سولنغن- هم، وليس عمال المصانع بعد، الذين اهتموا أنشط الاهتمام بالحركة العمالية. وأول ضروب النجاح الانتخابية أحرزت في أرياف ساكس الحرفية. وفي جماهير البروليتاريين العاملين في المصانع، كانت روح التمرد التي ما تزال ضعيفة

النمو مرتبطة بشخصيات قادة محليين، بكارل ولهلم تولكه في مقاطعة برغ ومارك في إيزرلون، وبهوغو هيلمان في إيلبرغ أو، أيضاً، بجاكوب أدولف في هامبورغ.

فيدريك لاسال وتأسيس الآداف

ضمن روح معارضة سيطرة البورجوازية على العالم العمالي، خلق أول حزب اشتراكي ألماني، الرابطة العامة الألمانية للعمال (آداف)[1]. وكانت فكرة تكوين جملة العمال على أساس مصالحهم النوعية منتشرة داخل أقلية، في عدة روابط عمالية كانت قد تلقت تأثير رابطة الشيوعيين، على الرين، في هامبورغ، وفي لايبزيغ. وفي هذه المدينة الأخيرة، انشقت عن الرابطة القوية مجموعة محدودة، الفورفيرتز، كانت تعطي الأولوية للعمل السياسي. وجرت اتصالات بمناسبة رحلة إلى لندن لجماعة من العمال عينتهم الرابطة القومية وصرحت بأنها أعجبت بتنظيم رفاقها الإنكليز. وقد جرى الحديث عن انعقاد مؤتمر عمالي في برلين، عام ١٨٦٣. بل إن رئيس لجنة التنظيم، الرسام إيشلر-الذي تبين أنه عميل لحكومة بسمارك- كان قد وعد بمساندة السلطة للحصول على الاقتراع العام وخلق تعاونيات إنتاجية. وفي نهاية عام ١٨٦٢، قرر عضوان في رابطة لايبزيغ الثقافية العمالية، الحذاء جوليوس فالتاي وعامل السيجار فريدريش ولهلم فريتشه، عضوا اللجنة المركزية لهذه المدينة المعينة للتحضير للمؤتمر، الابتعاد عن حزب التقدم وطلبا من فريدريك لاسال تحديد برنامج "حزب عمال" مستقل عن البورجوازية الليبرالية، كما حيال الإقطاعيين.

كان لاسال المولود عام ١٨٢٥، في بريسلاو، ينتمي إلى أسرة تجار ميسورين. وقد تعلم، وهو المزود بثقافة كلاسيكية قوية والموهوب

١- كلمة مكونة من الأحرف الأولى لاسم الحزب بالألمانية.

للكلام أكثر منه للتفكير المجرد، مثل ماركس، مبادئ الهيغلية الجديدة لدى إقامته في جامعة برلين، وشارك، إلى جانبه، في النشاط الثوري في رينانيا. ولكنه بقي في ألمانيا، كمحام، أولاً، في دوسلدورف حيث اكتسب شهرة في دعوى طلاق الكونتس هاتزفلد-مبدياً، في هذه القضية، روحاً فروسية، وكذلك هذا المزيج من الطموح والانتهازية الكلبية اللذين سيبقيان السمتين السائدتين في شخصيته الفاتنة-، ثم في برلين حيث تابع، مع عيشه حياة اجتماعية، دراساته الفلسفية والحقوقية والأدبية مؤلفاً كتابه "فرانز فون سيكنغن" الذي طرحت، فيه، على صورة درامية، مسألة الرايخ الديمقراطية و"نظام الحقوق المكتسبة" الذي عرفت، فيه، انطلاقاً من مدلول "العبقرية الشعبية" مختلف مفاهيم الإرث في العالم الروماني والعالم الجرماني. وكان يعد نفسه، سياسياً، تلميذاً لماركس الذي كان قد عرفه خلال ثورة ١٨٤٨ والذي كانت له، معه، علاقة مراسلة وزاره، في لندن، في صيف ١٨٦٢. إلا أنه بقي متمسكاً بنوع من المثالية المستمدة من فيختة الذي أخذ عنه تحليله للديمقراطية ومن هيغل الذي احتفظ منه بالمحاكمة ضد الليبرالية. ومثل روبرتوس[1] الذي كان، معه، على مراسلة واسعة، كان يمجد في الدولة

١-لا يمكن لجوليوس كارل روبرتوس أن يعد كاتباً اشتراكياً. ولكن مؤلفه النظري "من أجل معرفة حالة اقتصاد الدولة لدينا" (١٨٤٢) و"رسائل اجتماعية" (١٨٥٠-١٨٥١) يتضمنان سمات اشتراكية إذا صح أن محتوى فكره لم يكشف إلا عندما تحت مدرسة اشتراكيي المنبر. ولم يكن روبرتوس، الملاك العقاري الكبير، الملكي والمحافظ على الرغم من أنه كان من الوسط الاشتراكي في المجلس البروسي لعام ١٨٤٨، يحس بالتعاطف مع اشتراكيي زمانه. وتستند نظريته إلى الفكرة القائلة أن المجتمع عضوية خلقها تقسيم العمل. ومن المناسب أن يحل محل الإنتاج من أجل الطلب الإنتاج من أجل الحاجة الاجتماعية ومحل مدلول مردودية المشروع مدلول إنتاجيته كما قال سيسموندي من قبل. وهكذا سنتوصل إلى

صفتها كمعبر عن المصالح العامة للأمة وموزع للعدالة الاجتماعية. وكان معنياً جداً، فضلاً عن ذلك، بالمسائل القومية: فقد كان كتابه "حرب إيطاليا وواجب بروسيا" (١٨٥٩) يؤيد حق القوميات في أوروبا، وكذلك التحالف مع فرنسا ويعارض أية مساعدة من بروسيا للنمساويين، على عكس كتاب أنغلز "البو والرين" الذي ندد، فيه، بمطامح نابليون الثالث بالأراضي الرينانية. وتخلى، فجأة، عن التأمل النظري، وألقى بنفسه، في قلب النزاع الدستوري، في خضم النشاط الثوري الذي اكتشف لنفسه، فيه، نوعاً من الدعوة الملحة، وتوجه إلى نخبة البروليتاريا، عمال مصنع بورسيغ للآلات، طور، أمامهم، برنامجه العمالي"حيث سعى إلى تعريف المهمة التاريخية لـ"طبقة رابعة" في مجتمع يسوده صراع الطبقات. هذه التوجهات المختلفة تفسر معنى "الجواب المفتوح" الذي وجهه إلى عمال لايبزيغ والذي ألح، فيه، على "تلبية المصالح المشروعة للعمال". وكان الأمر يدور، في فكره الموجه، بتصميم، نحو ممارسة الليبرالية البرلمانية، حول تشكيل حزب عمالي مستقل، تماماً، في وقت واحد، حيال الحكومة وحيال البورجوازية-هذه البورجوازية التي كشفت، في الصراع الدستوري، عجزها عن الدفاع بنجع عن حقوق الديمقراطية-والوصول، بالنضال، إلى الاقتراع العام والمباشر الذي كان مرفوضاً، بعناد، من البرلمان البروسي المتمسك بنظام الطبقات الثلاث. وكان الأمر يدور، أخيراً، لدى ضمان الاستيلاء السياسي على الدولة وإقامة "ديكتاتورية الذكاء"حول بلوغ القدرة على خلق تعاونيات

توزيع يعطي كل عامل ثمرة عمله. ولكن روبرتوس لا يستنتج من هذه التحليلات أنه يجب إلغاء الملكية الفردية. وهو يثور، على العكس من ذلك، ضد الطغيان الذي يتضمنه النظام الشيوعي ويقلق من نقص تعليم الجماهير. وهو يجد تسوية في ممارسة اشتراكية الدولة التي ستواصل الإسهام الآلي للطبقة العاملة في تقدم الإنتاج الصناعي.

إنتاجيـة تسـمح للطبقـة العاملـة بمنافسـة مظفـرة للاقتصـاد الرأسمـالي وتـأمين نظام مطابق للعدالة بـالطرق السـلمية. وهـذا البرنـامج هـو الـذي تبنتـه، علـى الرغم من المقاومة الـتي أبدها بعـض العنـاصر الحريصـة، مثـل روسميلـر، علـى تجنب القطيعة مـع حـزب التقـدم، لجنـة لايـبزيغ المركزيـة، ثم بعـض الروابـط العماليـة، في هـامبورغ كمـا في رينانيـا، والـذي أصبـح برنـامج "الآداف" الذي تأسـس، في ٢٣ أيـار، في لايـبزيغ، برئاسـة لاسـال السـلطوية. وكـان، بين المندوبـين الحـاضرين في لايـبزيغ وأعضـاء اللجنـة الإداريـة، عـدة منـاضلين مـن ١٨٤٨ وأعضـاء مـن رابطـة الشـيوعيين، ولهلـم ليبكنشـت مـن برلـين، غوستاف ليفي مـن دوسـلدورف، هوغـو هيلمـان مـن إلـبرفيلد، مويـيز هيـس من كولـن، بيـتر نوتجونـغ مـن بريسـلاو، جـاكوب أودورف مـن هـامبورغ، وكثيرون غـيرهم.

وعلى الرغـم مـن أن لاسـال علـى صـلات دائمـة بعلمـاء اقتصـاد ورجـال سياسـة إصلاحيـين، كروبرتـوس وفرانـز زيغلـر ولوتـر بوشـر، حـاولوا ثنيـه عن طريـق الثـورة، فقـد وجـد نفسـه منخرطـاً في معركـة بـلا رحمـة ضـد البورجوازيـة الليبراليـة والمانشسـترية الـتي هاجمـها في كتابـه "السـيد باسـتيا فون دليتش": فقد سـخر، فيـه، مـن دولـة الليـبراليين بوصفـها مجـرد "حـارس ليلي" مقصـور علـى حمايـة الأشـخاص والممتلكـات. وبالمقـابل، فـإن برنامجـه يسمح له بتبني موقـف إيجـابي مـن الدولـة البروسـية الـتي كـان يـأمل منـها- وذاك كـان معـنى الرسـائل الـتي تبادلهـا، اعتبـاراً مـن أيـار ١٨٦٣، مـع بسـمارك-أن تتحـول إلى نـوع مـن القيصريـة الاجتماعيـة وأن تجعـل مـن ألمانيا الجديـدة دولـة ملكيـة شـعبية. واحتفـظ لاسـال، حـتى وفاتـه، بموقـف مـوال لبروسـيا مؤكـداً عـام ١٨٦٣، علـى الرسـالة الثقافيـة لبروسـيا في ممتلكاتهـا البولونيـة متمنيـاً، بعـد الحـرب الدانمركيـة، أن تحتفـظ بروسـيا بالدوقيات من أجل أن يـؤدي هـذا الموقـف علـى الحـرب ضـد النمسـا الـتي كان من شأنها إرغـام بسـمارك علـى إعـلان الاقـتراع العـام . وسـبب الاتجـاه

الاستبدادي المعطى للحركة والمختلف جداً عن الديمقراطية التي كانت تسود الروابط العمالية، منذ وقت مبكر جداً، بعض المعارضة وقدم فالتايخ، سكرتير الحزب، استقالته في كانون الثاني ١٨٦٤. وبعد وفاة لاسال الذي قتل في مبارزة سببتها قضية حب تافهة، كان الحزب ما يزال على ضعف شديد في نموه على الرغم من مكانة مؤسسه الشخصية والسفرات المظفرة التي نظمها في الأشهر الخيرة من حياته والتي بلغت الذروة في خطاب رونسدورف، في ١٢ أيار ١٨٦٤-إلا أنه فشل في محاولته غزو برلين: ٤٦٠٠ عضو في الحزب يتوزع معظمهم بين ريتانيا وهامبورغ ولا يملك سوى جريدتين، "صديق الشعب"، في فرانكفورت، و"الشمالية" في هامبورغ. ومات خائباً وهو الذي غالباً ما اعتبر نفسه بمثابة "لوثر الجديد" وقدم نفسه للعالم العمالي الألماني كمسيح.

ومع ذلك، كان التراث الذي تركه عميقاً. فقد عرف كيف يوقظ اهتمام عدة شخصيات كانت مهتمة بالمسألة الاجتماعية، خاصة أسقف مايانس، الأسقف كيتلر الذي كان قد استعاد، في كتابه "العامل والمسيحية" (١٨٦٥)، أفكاره حول قانون الحد الحيوي الأدنى للأجور وحول التعاونيات الإنتاجية ونقده لليبرالية على صورة "شولتزه-ديلتش". وكان على هذا الأسقف أن يحدد، عام ١٨٦٩، "عهداً كبيراً" للحركة الاجتماعية المسيحية ويخص بالذكر المطالب الخمسة الأساسية للطبقة العاملة: رفع الأجور، تحديد ساعات العمل، احترام أيام الراحة، منع عمل الأطفال، إلغاء عمل الأمهات والفتيات في المصانع. وكان عليه، هو، إقرار برنامجه من جانب اجتماع الأساقفة في فولدا. وكان، بذلك، يتباعد كثيراً عن التصورات الرومنطيقية العزيزة على قلوب الكاثوليكيين ويؤكد، صراحة، أن على العمال خوض النضال للحصول على حقوقهم. وبدا في ذلك أكثر حداثة من منظر الكاثوليكية الاجتماعية إدموند جورغ الذي كان يهاجم، في "مجلة ميونيخ التاريخية-السياسية"،

بورجوازية اعتادت أكثر مما ينبغي على اعتبار العمال سلعة وعلى تجاوز مصالحهم الطبقية.

وكان على لاسال أن يطبع، بعمق، مصائر الاشتراكية الألمانية. من المؤكد أن "الآداف" كان يسعى إلى هدف سياسي أكثر منه اجتماعي. فقد كان أقل اهتماماً بالوضع المادي للعمال منه باستعمال طاقتهم الثورية. وبموجب قانون الحد الحيوي الأدنى للأجور، بدا لاسال معادياً، بعناد، لكل نشاط ذي طابع نقابي معتبراً الإضراب دون جدوى. و لم يكن، عندما كان يتحدث عن "كتلة مفردة ثورية"، مهتماً بالمسألة التي يطرحها تحالف البروليتاريا مع الفلاحين والبورجوازية الصغيرة. ومع ذلك، فإن لاسال هو الذي عرف كيف ينتزع الطبقة العاملة من التبعية التي كانت تتعفن، فيها، ويشركها في مصير دولة كانت مكرسة، فيما بعد، لسيادتها. وفي فترة لم يكن، فيها، ماركس وأنغلز معروفين إلا من قبل نخبة مثقفة محدودة، أيقظ، في الجماهير، أملاً عظيماً لتناقضات الحزب وجعل من مؤسسه، لزمن طويل، معبود العمال الألمان. وقد كتب بيبيل، عام ١٨٧٣، إلى أنغلز قائلاً: "يجب أن لا تنسى أن كتابات لاسال تشكل، فعلاً، من حيث لغتها الشعبية، أساس التصورات الاشتراكية للجماهير".

أما بالنسبة لماركس، فعلى الرغم من أنه ارتاب في طموح لاسال الذي لم يكن لديه سوى القليل من التعاطف الشخصي حياله وغروره، وعلى الرغم من أنه أبدى أصرح التحفظات على بعض نظرياته، مثل "قانون الحد الحيوي الأدنى" للأجور و"الكتلة المطردة الرجعية"، كان يرى أن تلميذه السابق أدى خدمة لا تقدر بثمن للطبقة العاملة الألمانية بسعيه إلى الحصول لها على استقلالها. وهذا ما يفسر كونه قد قبل المشاركة في جريدة "الاشتراكي الديمقراطي" التي بدأ في إصدارها، في كانون الأول ١٨٦٤، يوهان باتيست فون شفايتزر، المحامي الفرانكفورتي الذي كان

أقل جاذبيـــة وأقـل موهبـة مـن لاسـال ولكنـه، وهـو الـذي كـان يلتهمـه طموح مفترس كمـا كـان منظمـاً رائعـاً- لم يكـن، مثـل لاسـال، يضـع نجـع التكتلات والإضرابات موضـع مسـاءلة-، لم يتـأخر عـن فـرض نفسـه خليفـة لـه علـى رأس "الآداف". ولكـن، بمـا أن شـفايتزر قـد اسـتمر في دعـم السياسـة البسـماركية في قضيـة الدوقيـات-كتـب في بدايـة ١٨٦٥، يقـول: "لا توجـد، في ألمانيـا، سـوى قوتـين، قـوة الحـراب البروسـية وقـوة قبضـات البروليتاريـا"-، فقـد عـدل مـاركس وأنغلـز عـن التأثـير في مصـائر الجريـدة ونـددا، بصراحـة، بـالعروض اللاسـالية علـى بسـمارك. وكتـب مـاركس، في شـباط ١٨٦٥، إلى شـفايتزر، يقـول: "إن شـرف الحـزب العمـالي يوجـب إبعـاد مثـل هـذه الأوهـام حـتى قبـل أن يندلـع عدمـها لـدى الاحتكـاك بالتجربة. فالطبقة العاملة ثوريـة أو لا شـيء". وهـذه الفـترة نفسـها هـي الـتي نشر أنغلـز، فيـها، كراسـه "المسـألة العسـكرية في بروسـيا والحـزب العمـالي الألماني" الذي يديـن، فيـه، مـن وجهـة نظـر التحالفـات، سياسـة لاسـال في التقارب مـع السـلطات الحاكمـة وضـروب تسـامحه مـع الرجعيـة البيروقراطيـة والإقطاعية مبينـاً، بالاسـتناد إلى "البيـان الشـيوعي"، أن علـى البروليتاريـا الـتي كـانت تحتـاج إلى مؤسسـات ديمقراطيـة أن تواصـل دعمـها للقـوى التقدميـة داخل البورجوازيـة حـتى ولـو لم يكـن بمكـن، أبـداً، الثقـة بنجعـها وكـان ينبغي الاحتفاظ، حيالهـا، بـأتم الاسـتقلال.

وهكذا ارتسـمت، غـداة وفـاة لاسـال، أزمـة داخليـة خطـيرة جـداً داخـل "الآداف". وكانت نقطة انطلاقـها جماعـة سـولنغن الهامـة حيـث كـان كـارل كلنغز، عضـو رابطـة الشـيوعيين السـابق، يفكـر، منـذ أيلـول ١٨٦٤، بـأن يعـهد إلى مـاركس بقيـادة الحركـة وانسـحب، في كـانون الأول، مـن اللجنـة الإدارية. ومـن سـولنغن، امتـدت معارضـة الطرائـق الديكتاتوريـة الـتي واصـل خلفـاء لاسـال اسـتخدامها إلى المـدن الرينانيـة الكـبرة. وأصبـح مركـز المقاومة جريـدة "الشـمالي" الـتي كـان يصدرهـا كـارل بـرون والـتي شـارك

فيها مشاركة فعالة فيليب بيكر الذي سيكون دوره رئيسياً، خلال السنوات التالية، في نمو الأممية في ألمانيا. وفي ١٨ حزيران ١٨٦٥، صوت فرع سولنغن على قرار يدعو إلى إحلال قيادة ثلاثية محل رئيس "الآداف". وفي أيلول، كان بيكر قد حصر، على شكل "بيان للحزب الاشتراكي الديمقراطي"، لاجتماع مؤتمر، في لايبزيغ، للجماعات المنشقة ندد، فيه، بقوة، بسياسة دعم الدولة العسكرية البروسية.

ولن يتأخر أكثر أعضاء المنظمات العمالية اللاسالية عن تسجيل أنفسهم في فروع الأممية.

تأسيس حزب إيزناخ وبيبل وليبكنشت

كانت عدة روابط عمالية قد رفضت، منذ البداية، السير مع لاسال. ورداً على خلق "الآداف"، خلق في فرانكفورت، في حزيران ١٨٦٣، "اتحاد للروابط العمالية الألمانية" (فداف) يحركه عدد من الديمقراطيين والليبراليين التقدميين كانوا يرفضون التسليم بطموح لاسال إلى تشكيل حزب مستقل للعمال ويعتبرون مبادرته خيانة. وهذا التجمع الذي كان، في الأصل، بين أيدي سياسيين بورجوازيين هو الذي تقرب منه ولهلم ليبكنشت الذي كان، مع ذلك، قد انضم إلى "الآداف"، ولكنه ابتعد عنه مشمئزاً من عبادة الشخصية التي أحيط بها لاسال. وكان قد لعب دوراً هاماً، في باده، في ثورة ١٨٤٨ وبقي متمسكاً بالحزب الديمقراطي ومثله العليا القومية الألمانية. وعاش بضع سنوات في المنفى، في سويسرا، ثم في لندن حيث أفاد، وهو ذو التعليم الجامعي، من تعليم ماركس الذي سيعبر، دائماً، عن ولاء لا يهتز حياله، دون أن يتمثل هذا التعليم تماماً. وكان صحفياً موهوباً شارك، بين ١٨٦٣ و١٨٦٦، في تحرير الجريدة الديمقراطية والقومية الألمانية في فريبورغ حيث قام بنقد حاد لسياسة بسمارك في فترة الأزمة الدستورية وحرب الدوقيات مشهراً بعجز

البورجوازية الليبرالية البروسية السياسي. وقد أرغمته تدابير بوليسية على مغادرة برلين، في تموز ١٨٦٥، فذهب إلى لايبزيغ حيث ارتبط بأوغست بيبل الذي كان، وهو عامل خراطة متواضع الأصل وذاتي التعليم كلياً، مهتماً بمسائل الثقافة داخل الحركة العمالية والذي كان قد اتخذ، بسبب مزاياه التنظيمية المتينة وحسه الحاد جداً بالتكتيك السياسي، مكانة كبيرة داخل روابط العمال السكسونية. واتفق الرجلان اللذان كانت صفاقما متكاملة على أن العمال الألمان لم يكونوا، بعد، ناضجين من أجل أن يشكلوا، كما كان يريد لاسال، حزباً مستقلاً. وكانا يأخذان على "الآداف" كونه قد قسم القوى الديمقراطية في ألمانيا. وكانا يفكران، بالمقابل، بالاستناد إلى الجماعات الديمقراطية والبورجوازية الصغيرة الألمانية الجنوبية التي كانا يشاطرانها عداءها لبسمارك وميلها إلى جمهورية اتحادية ألمانية كبرى-ومن هنا التعاون الذي قام بينهما وبين عدد من السياسيين، مثل ليوبولد سونمان، مدير جريدة فرانكفورت، أو البادواني لودفيغ إيكارد الذي كان يشاطرهما همومهما الإحسانية، على الأقل، دون أن يكون اشتراكياً، ومع بقائه معادياً لفكرة صراع الطبقات، أي لكل انفصال بين البروليتاريا والبورجوازية. وكان هناك، بين هذه الشخصيات، من كانت مواقفهم الاجتماعية أكثر جذرية وتتخذ، أحياناً، شكلاً معادياً للرأسمالية: ومن هذه الشخصيات المادي لودفيغ بوشنر، مؤلف كتاب "القوة والمادة" وخاصة فريدريش ألبرت لانج، المفكر ورجل العمل، أحد مجددي الفكر الكانتي في ألمانيا، سكرتير غرفة تجارة دويسبورغ، مؤلف كتاب حول "القضية العمالية" (١٨٦٥) حيث حمّل الطبقة الكادحة واجب تحرير ذاتها من القيود التي تبقيها سجينة وخصم سياسة بسمارك التي هاجم اتجاهها في مجلة جنوب الرين. وكان لانج يريد، بسعيه، في بداية ١٨٦٣، لاجتذاب ماركس وأنغلز إلى الاشتراك في تحرير هذه الجريدة، أن يوحد الديمقراطية السياسية الألمانية

توحيداً قوياً حول برنامج تجديد اجتماعي متقدم.

وهكذا خلق في دارمشتادت، في أيلول ١٨٦٥، الحزب الشعبي الألماني الذي أصبحت الجريدة الأسبوعية الألمانية الناطقة بلسانه. وقد نادى الحزب بالاقتراع العام ولكنه، من أجل عدم إقلاق الأنصار البورجوازيين، لم يتجاوز، على الصعيد الاجتماعي، فكرة التعاونيات الإنتاجية الحرة مبادئ أولية في التشريع الاجتماعي. وفي وجود التنازع المتزايد بين النمسا وبروسيا، كانت القضية القومية هي التي انتقلت إلى المقام الأول. وكان أمراً رئيسياً، بالنسبة للديمقراطيين، أن يثيروا اهتمام الطبقات الكادحة ضد الهيمنة البروسية. فقد تبين سونمان، في نهاية ١٨٦٥، أن "العمال، وليس الطلاب بعد، الذين يقفون وراء المتاريس الحديثة". وعشية الحرب "الأخوية"، اتخذ بيبل وليبكنشت اللذان ظلت القضية القومية أساسية بالنسبة إليهما موقفاً ضد البروسيانية المكروهة ونددا بتصرفات البورجوازية الليبرالية في بروسيا التي هبت لنجدة سياسة بسمارك. وفي أيار ١٨٦٦، عقد بيبل، في لايبزيغ، اجتماعاً شعبياً قال، فيه، أن إعلان الحرب على النمسا سيصطدم بالانتفاضة العامة للشعب الألماني. وصرح ليبكنشت، في حديث له، في سمنتز، في حزيران، قائلاً: "يجب على الشعب أن يتنظم: فالعمال هم الذين في يدهم مصير ألمانيا... الأمر يدور حول تحرير العمال! يدور حول خلاص ألمانيا!". وبعد بدء القتال، بقي مقتنعاً بأن الثورة يمكن أن تخرج من الحرب بين الدولتين الألمانيتين. فقد كتب، في الأسبوعية الألمانية، يقول: "أملنا يستند إلى جنوب ألمانيا. فإذا قام الحزب الشعبي، هناك، بواجبه ويجبر الحكومات على تنازلات وحوّل حرب السلالات إلى حرب شعبية، فعند ذلك يكون انتصار القضية القومية مضموناً".

وبقيت الانقسامات التي تجلت داخل الحركات العمالية الألمانية بعد معركة سادوفا وتشكل كونفيديرالية ألمانيا الشمالية. واعتبر شفايتزر

الـــذي اســـتعاد، بقـــوة، زمـــام الأمـــور في "الآداف" إثـــر الأزمـــة الـــتي احتازهـــا بســـبب ضعـــف قـــدرات خليفـــة لاســـال، برنـــارد بيكـــر، ومكـــائد الكونتـــس هـــاتزفلد، والـــذي تـــولى رئاســـته في أيـــار ١٨٦٧، اعتـــبر خلـــق كونفيديراليـــة ألمانيـــا الشـــمالية أمـــراً واقعـــاً واعتـــبر الرايخســـتاغ حلبـــة مناســـبة للدفـــاع عـــن الطبقـــة العاملـــة. ومـــن قبـــل، كـــان عضـــو نـــافذ في الحـــزب، كـــارل ولهلـــم تولكـــه، يـــرى تشـــكل إمبراطوريـــة ألمانيـــا بقيـــادة أســـرة الهوهـــترولرن أمـــــراً محتملاً. "إلى الحريـــــة عـــن طريـــق الوحـــدة": ذلـــك كـــان شـــعارهم. وبالمقـــابل، كـــان أنصـــار ببيـــل وليبكنشـــت اللذيـــن أســـهما، في آب ١٨٦٦، في تشـــــكيل حـــزب شـــعبي سكســـوني، في شمينـــتز، كـــان برنامجـــه معاديـــاً لبروســـيا، اتحاديـــاً وقوميـــاً ألمانيـــاً، بـــل وينـــادي بالخصوصيـــة، مســـتمرين، بمســـاهمتهم في تحريـــــر جريـــدة لايـــبزيغ الديمقراطيـــة الأســـبوعية، في تعليـــق آمـــــالهم علـــــى نشـــــاط الديمقراطيـــة الألمانيـــة الجنوبيـــة. وبقيـــت قضيـــة الثـــورة مرتبطـــــة، في نظرهـــــم بقضية تدمـــير القـــوة البروســـية ويعولـــون، الآن وقـــد أصبحـــت النمســـا خـــارج اللعبـــة، علـــى حـــرب مـــع فرنســـا تخـــرج منـــها، نتيجـــة للهزيمـــة، جمهوريـــــة ديمقراطيـــة ألمانيـــة. ووصـــل هـــم الأمـــر، مـــن أجـــل تعبئـــة كـــل القـــوى ضـــد بســـمارك، إلى تجميـــد برنامجـــهم الاجتمـــاعي والاكتفـــــاء بحلـــــول إصلاحيـــــة قادرة علـــى تخفيـــف الصراعـــات بـــين رأس المـــال والعمـــل. وإذا كـــانوا يســـعون إلى ثورة "من أسفل" في الدولـــة البروســـية، فلـــم يكـــن حزبـــاً طبقيـــاً هـــو الـــذي كانوا يريدون أن يبلغوا غايـــاتهم عـــن طريقـــه، بـــل حزبـــاً "شـــعبياً" يوحـــد جملـــة القـــوى التقدميـــة. إلا أن نفوذهـــم لم يتوقـــف، مـــع ذلـــك، عـــــن الزيـــــادة في الأوساط العماليـــــة، وذلـــك، إلى حـــد بعيـــد، بفضـــل جريـــدة "العمـــال الألمـــان" في ماغـــابم الـــتي كـــان ببيـــل يســـاهم في تحريرهـــا إســـهاماً نشـــيطاً. وهكـــــذا انتخـــب هـــذا الأخـــير رئيســـاً للاتحـــاد، في تشـــــرين الأول ١٨٦٧، في مؤتمـــــر جيرا، ضد مرشـــح حـــزب التقـــدم، مـــاكس هـــيرش. وفضـــلاً عـــن ذلـــك، فـــإن تعارض الحزبين علـــى المســـتوى القومـــي لم يكـــن يمنعـــهما مـــن إحـــراز ضـــروب

تقدم سريعة، فوسع اللاساليون مواقعهم في البلدان الرينانية، إلى فرانكفورت وبرلين وهامبورغ، وامتد الاتحاد، في الساكس وتورنغ وفورتمبرغ: فلدى انتخابات الرايخستاغ التأسيسي، في آب ١٨٦٧، انتخب بيبيل وليبكنشت وشرابز من قبل الناخبين السكسونيين، وانتخب شفايتزر وزميله رينكه في البلدان الرينانية. ولكن، في حين كان بيبيل يقدم، في الرايخستاغ، اتحاد ألمانيا الشمالية بوصفه "تكنة هائلة الاتساع" وينعت شفايتزر بأنه "عميل لبسمارك"، كان اللاساليون يحيون، في بروسيا، "نواة القوة الألمانية، الدولة التي يجب أن تجعل وطننا يحترم في الخارج". بل إن شفايتزر كان محمولاً على أن يصرح، أمام ناخبيه، قائلاً: "إذا هددت أخطار جدية وطننا الألماني، فإني مستعد، في البرلمان وغيره، لأن أعطي دعمي لملك بروسيا الذي تعبر، فيه، القوة الأخلاقية لألمانيا عن نفسها".

وفي نظر ماركس وأنغلز اللذين كانا، منذ ١٨٦٦، يعدان تشكل الوحدة الألمانية حسب تمنيات بسمارك معطى لا محيص عنه، كان الشرطان الأساسيان لتكوين حزب عمالي هما أن يفقد "الآداف" طابعه كـ"طائفة" من جهة، وتخلص ليبكنشت وبيبيل من ضروب قصور النظر الإقليمية للحزب الشعبي السكسوني من جهة أخرى. وإذا كانت عواطفهما تمضي، بالأحرى، في اتجاه ليبكنشت الذي كان تلميذ ماركس، فقد كان لهما من الأمور المشتركة مع بورجوازيي محيطه الصغار أقل مما كان لهما مع اللاساليين الذين كانوا، على الأقل، يمثلون الطبقة العاملة. وقد كتب أنغلز يقول: "لم نكن نستطيع منح بسمارك سروراً أكبر من أن ندع أنفسنا نخدع بالنمساويين واتحاديي ألمانيا الجنوبية وسكان ما وراء الجبال والأمراء المتروعي الأملاك". وظهرت شروط جديدة عندما دار الأمر حول تحديد موقف الحزبين من الأممية التي خلقها ماركس في لندن، في خريف ١٨٦٤ والتي أسس فيليب بيكر

عدة فروع لها في ألمانيا. فعلى الرغم من صعوبات عظيمة لا سيما خلال الحرب النمساوية-البروسية، استطاع بيكر تجنيد أعضاء عديدين، خاصة داخل الحزب اللاسالي، ولكن على الأخص في الأوساط المعارضة لشفايتزر، كما كانت الحال في سولنغن وبرلين، في حين كان ليبكنشت الراغب، مع ذلك، في بذل جهده لإدخال أفكار الأممية في الروابط العمالية معاقاً، في عمله، بتحالفاته السياسية مع الأوساط الديمقراطية. وكانت الفروع المختلفة التي كانت جريدة "فوربوته" الصادرة في جنيف لسان حالها المشترك ممثلة رسمياً في مؤتمر الأممية الذي انعقد، في جنيف، خريف ١٨٦٦. وفي ألمانيا نفسها، تطور عملها بصورة غير شرعية وسرية، ولكنها كانت، مع ذلك، خميرة أيديولوجية ووسيلة دعاية رائعة للأفكار الاشتراكية. وكان ماركس مهتماً اهتماماً خاصاً بنشر الأممية في ألمانيا، وكان يجري مراسلة سياسية مع انشط الأعضاء، وكان بينهم من عرف رابطة الشيوعيين مثل لودفيغ كوغلمان، الطبيب في هانوفر الذي عرض له علاقاته بلاسال، وبول شتومبف الذي كان قد أسس فرع ماينس، وكارل كلاين المناضل من سولنغن، وسيغفريد ماير، من برلين، الذي نشر الطبعة الألمانية الأولى من "البيان الشيوعي، وكان أعضاء من الرابطة الدولية للعمال هم الذين عرفوا بكتاب "رأس المال" الذي ستصدر طبعته الأولى في هامبورغ في أيلول ١٨٦٧. وبفضل حملة دعاية بيكر التي لا يمكن خفض قيمتها، أصبح اهتمام الأوساط العمالية الألمانية بالأممية قوياً إلى حد حمل شفايتزر وليبكنشت، على الرغم من عدائهما القديم، على عقد اتفاق خلال لقاء لهما في برلين، في ربيع ١٨٦٨، وعلى تبني موقف مشترك حيال هذه المؤسسة. وخشية من جانب بيبل وليبكنشت من التقارب الذي كان قد ارتسم في مؤتمر الحزب اللاسالي، في هامبورغ (آب ١٨٦٨) بين شفايتزر وماركس-شفايتزر الذي كان قد أسهم إسهاماً واسعاً، في مقالاته في "الاشتراكي الديمقراطي"،

وكذلك في أنشطته كرجل مسرح شعبي، في التعريف بالموضوعات الكبرى في فكر ماركس كان قد قبل أن تسجل في جدول أعمال المؤتمر بعض النقاط التي تقابل اهتمامات الرابطة الدولية للعمال-، أعلنا، وهما اللذان لم تلعب الأممية أي دور في فعاليتهما حتى ذلك الحين، لدى مؤتمر الروابط العمالية الألمانية الذي انعقد في نورمبرغ بعد شهر، أنهما قررا تأييد برنامج الأممية كما جاء على التعريف به مراسل الرابطة الدولية للعمال البرليني، ولهلم أيشهوف. ولكن ليبكنشت وأصدقاءه وافقوا، على الرغم منهم حقاً، بتبنيهم، في نورمبرغ، مثل هذا الموقف، على قطيعة، بعد أجل طويل أو قصير، بين الديمقراطية العمالية والديمقراطية البورجوازية التي كانت تجمعات عديدة، داخلها، تبدي، فضلاً عن ذلك، عداءها للاشتراكية وترى أن في إمكانها، عن طريق نقابات "هيرش-دونكر" التي كانت تستند إلى فكرة تناغم الطبقات، الإبقاء على نفوذها بين العمال. وكانت المحاولات الذكية التي قام بها بعض الديمقراطيين المتقدمين، مثل غيدو فايس ويوهان جاكوبي في الجريدة البرلينية "دي زوكونفت"، تجنب القطيعة كانت عقيمة. وبالمقابل، كان ببيل وليبكنشت يقتربان من تصور حزب عمال ثوري كما كان يعرفه ماركس آنذاك. وكانا محمولين على أن يجعلا من اتحاد الروابط العمالية الألمانية الذي كان، لوقت طويل، تحت سيطرة البورجوازية نواة حزب كبير للبروليتاريا. وغداة مؤتمر نورمبرغ، انصب جهدهما الرئيسي، متفقين مع بعض العمال المتعلمين، كعمال مناجم لوغاو هؤلاء الذين كانوا يتوجهون إلى ماركس مباشرة، على تشكيل تعاونيات نقابية دولية مستقلة عن الحزب، ولكنها موجهة ضمن روح الأممية كما عبر عنها في قرارات مؤتمري الرابطة الدولية للعمال في جنيف وبروكسيل. ووجدا، لدى أول مؤتمر لهذه الروابط في لايبزيغ (أيار ١٨٦٩)، في جوليوس موتلر، منظماً عبقرياً. وكان ضغط الإضرابات التي اندلعت خلال ربيع

١٨٦٩ وتدخل النواب الاشتراكيين في الرايخستاغ لمصلحة حماية العمل ومصلحة تشرع عمالي هما اللذان حملا الرايخستاغ على أن يقرر، في ٢٩ أيار، التصويت على قانون منح العمال حق التكتل، على الرغم من تهديدات بوليسية جدية جداً.

وفضلاً عن ذلك، سمحت دسائس شفايتزر الذي اتهم أمام حزبه الخاص في مؤتمر إلبرفلد، في أيار ١٨٦٩، له بأن يجمع حوله عدداً من الأعضاء الذين كانت الكونتس هاتزفلد قد جرتهم إلى الانشقاق ولكن هذه الدسائس بدأت تؤثر على عدد كبير من أنصاره الذين أخذوا عليه طرائقه الأوتوقراطية وعبادة الشخصية التي سبق للاسال أن أحاط نفسه بها. وإذا كانت مجموعة اللاساليين المنشقين، الصغيرة في بافاريا، الذين تجمعوا حول جريدة ج.نيف "البروليتاري" قد بقيت خارج التشكيلات السياسية الكبيرة، فقد توجه وهلم براكه، في برونشفيك، نحو الاتحاد الذي اتصل به، في ماغدبورغ، في حزيران ١٨٦٩. وهذا المناضل الذي كان معجباً متحمساً بلاسال، ولكنه كان، أيضاً، أحد أوائل قراء ماركس الذي أسهم في التعريف به في ألمانيا، وصديقاً لجاكوبي الذي أتى على إطلاق نداء من أجل تحالف بين الديمقراطيين والاشتراكيين حول برنامج إصلاحات اجتماعية ونضال ضد تهديدات الحرب، هذا المناضل الذي كان يملك، من قبل، سلطة معنوية واسعة في ألمانيا الشمالية، قرر، مع صامويل سبير من فولفنبوتل وتيوذور يورك من هامبورغ، التعريف بالأسباب التي كانت تجعلهم يتمنون تشكل حزب وحيد للعمال.

وهكذا، وعلى الرغم من محاولات الإعاقة من جانب شفايتزر، أمكن أن يتكون، لدى مؤتمر الاتحاد في إيزناخ (آب ١٨٦٩)، الحزب الاشتراكي الديمقراطي للعمال الذي ضم، منذ بداياته، حوالي عشرة آلاف عضو.

وكان البرنامج الذي حدد في إيزناخ يستند إلى مقدمة أنظمة الأممية وإلى تصورات ماركس في موضوع تزامن النضال السياسي والنضال

الاقتصادي الذي تخوضه البروليتاريا. ومن المؤكد أن أفكار مؤلف "رأس المال" الذي كان قد صدر قبل سنتين لم تكن معروفة جيداً في ألمانيا، في شكلها المذهبي، و لم تكن قد فرضت نفسها بعد: فلم تكن الماركسية واللاسالية تبدوان، للاشتراكيين الألمان، متناقضتين. فقد كان في تصريح إيزناخ، في موضوع التعاونيات الإنتاجية، مقاطع فيها ظل من لاسال. وكانت كلمة "الدولة الشعبية" المأخوذة من مفردات الديمقراطيين من طبيعة تثير أنواعاً من سوء التفاهم. ويبقى، مع ذلك، أنه قد خلق حزب جماهيري عهد بقيادته إلى لجنة إدارية من خمسة أعضاء تقيم في برونشفيك تحت رئاسة براكه والذي كانت جريدته، "جولة الشعب" الصادرة في لايبزيغ مطبوعة بأفكار ببيل وليبكنشت. وكان الحزب الجديد يتمتع باستقلال إداري واسع مع تأكيد صلاته مع مجلس لندن العام الذي كان يقوده ماركس. أما بالنسبة لفروع الأممية التي أسسها بيكر، فقد أصبحت ممثلة، منذ ذلك الحين، بأجهزة الحزب وشخصياته القيادية. وحدد توجه الحزب الجديد عندما تبنى ليبكنشت، دون أن يخلو الأمر من ترددات، أطروحات مؤتمر الأممية في بال حول تأميم الأراضي والسلع الإنتاجية-وهي القرارات التي أبرمت في مؤتمر الحزب الثاني في شتوتغارت، في حزيران ١٨٧٠، والتي سببت القطيعة النهائية مع الديمقراطية البورجوازية والحزب الشعبي الذي بقيت فضلاً عن ذلك، روابط عمالية عديدة، في ألمانيا الجنوبية متمسكة به. وبالمقابل، كان الحزب الجديد يتمتع بنفوذ متعاظم لدى عمال الصناعة، وذلك بفضل دعمه لحركات الإضراب كإضراب عمال مناجم فالدنبورغ، في سيليزيا، في نهاية نيسان ١٨٧٠، في مؤتمر زفيكا والذي تأسست، فيه، النقابة الدولية لعمال المناجم والأفران العالية والملاحات. وكان الاشتراكيون الديمقراطيون قد اكتسبوا، داخل الرابطة الدولية للعمال، مكانة جرى،

معها، في لنـــدن، التفكـــير في عقـــد المؤتمـــر التـــالي للأممية علـــى الأرض الألمانيـــة، في مايـــانس.

الأحزاب الاشـــتراكية الألمانيـــة وحـــرب ١٨٧٠ والكومونـــة

وضعـــت الحـــرب الفرنسـيـــة-البروسـيـــة المنظمـــات الاشـــتراكية أمـــام مســـألة صعبة. والجـــواب الـــذي أدلـــت بـــه كـــان معنـــاه للبروليتاريـــا الألمانيـــة، ابتعـــاداً طويل الأمد عن الدولة القومية الـــتي كـــانت، حـــتى ذلـــك الحـــين، متمســـكة بهـــا تمسكاً عميقاً، وكذلـــك تقويـــة وعيـــها لمصـــالح الطبقـــة العاملـــة المتضامنـــة علـــى الصعيد الـــدولي.

وبدت الحـــرب، في طورهـــا الأول، لمعظـــم العمـــال الألمـــان حربـــاً دفاعيـــة كـــان الإسهام فيها، بالتـــالي، عـــادلاً. وهـــذا كـــان، فعـــلاً، موقـــف لجنـــة برونشـــفيك التي اعترفت، في ١٧ تموز، مـــع إبرازهـــا الطـــابع الســـلالي للصـــراع، بـــأن ألمانيـــا كانت موضـــع "عـــدوان" ودعـــت الطبقـــة العاملـــة الألمانيـــة إلى القيـــام بواجبـــها. وكـــان موقـــف اللاســـاليين أوضـــح، أيضـــاً، علـــى اعتبـــار أن اثنـــين منـــــهم، هاســـلمان وهـــازنكليفر، كتبـــا، في "الاشـــــتراكي الديمقراطـــــي"، أن نـــــابليون الثـــالث لم يشـــن الحـــرب علـــى الأمـــة الألمانيـــة، فقـــط، بـــل ضـــد الاشـــتراكية أيضاً. إلا أن موقفاً مباينـــاً اتخـــذ مـــن جـــانب الفـــروع السكســـونية مـــن حـــزب العمال الاشـــتراكي الديمقراطـــي الـــتي دعـــت، وقـــد اجتمعـــت في شمينـــتز، العـــالم العمالي إلى الاتحاد ضـــد الحـــرب. أمـــا بالنســـبة لليبكنشـــت وبيبـــل، فقـــد قـــررا الامتنـــاع عـــن التصويـــت لـــدى الاقـــتراع علـــــى اعتمـــادات الحـــرب، في الرايخســـتاغ، في ٢١ تمـــوز: ولم يكونـــا، كمـــا قـــالا، يلعبـــان، برفـــض هـــذه الاعتمـــادات، لعبـــة البونابرتيـــة، ولكنـــهما كانـــا، وفـــاء منـــــهما لكراهيتـــــهما للعســـكرية البروســـية، يقفـــان ضـــد الحماســـة الوطنيـــة الـــتي كـــانت تعصـــف بالجماهير الألمانية آنذاك، وهـــو موقـــف أخـــذ عليـــهما، فضـــلاً عـــن ذلـــك، مـــن بعض مراجع حزب إيزنـــاخ، وخاصـــة مـــن جـــانب براكـــه الـــذي كـــان يـــرى،

كما كتب إلى صديقه، أن من المستحيل "المضي ضد تيار الرأي العام".

وأمام هذه الانقسامات في المعسكر الاشتراكي، حمل ماركس وأنغلز مجلس الأممية العام على نشر نداء عرضا، فيه، الحرب على أنها حرب دفاعية بالنسبة للألمان، مع دعوتهما العمال إلى نصرة مبدأ التضامن الأممي. وما من شك في أن ماركس وأنغلز، مع إقرارهما موقف ليبكنشت، كانا يتمنيان هزيمة البونابرتية التي كان من شأن انتصارها أن يعني السحق الكامل لكل حرية، ويريان أن انتصار بروسيا سيكون، أيضاً، انتصار الاشتراكية الألمانية على البرودونية الفرنسية. وكانا يقولان أن الحرب ستنقل مركز ثقل "الحركة الأممية" من فرنسا إلى ألمانيا. وأخيراً، كان تسريع الوحدة الألمانية يجب أن يسهل التنظيم المركزي للطبقة العاملة.

إلا أن انتصار سيدان وإعلان الجمهورية في باريس سرعان ما سيؤديان إلى إعادة اللحمة بين مختلف فروع الأسرة الاشتراكية ويرسم الخطوط الكبرى هذا التقارب بينها الذي لن يتحقق إلا بعد خمس سنوات. وكان معظم الاشتراكيين الألمان يرون أن متابعة الحرب ضد فرنسا كانت مدانة، لا سيما أنها كانت مصحوبة، من جانب الحكومة، بمقاصد إلحاقية. وفي ٥ أيلول، نشرت لجنة برونشفيك بياناً لصالح سلام فوري ويكون مقبولاً من فرنسا وأدان ضم الألزاس واللورين الذي هو مس بحقوق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها: وكان هذا موقفاً أدى إلى اعتقال حاكم شمال ألمانيا العسكري لبراكه وسكرتير لجنة برونشفيك، ليونارد فون بونورست اللذين سرعان ما وافاهما، في السجن، مناضلون آخرون. وجعل البيان الثاني للأممية المنشور في ٩ أيلول من واجب الاشتراكيين خوض النضال ضد حرب غزو رجعية مبيناً أن ضم الألزاس واللورين من شأنه أن يودي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الإلقاء بفرنسا بين ذراعي روسيا، عدوة كل الحريات. وفي ٢١ أيلول، طلبت "دولة

الشعب": "صلحاً عادلاً مع الجمهورية الفرنسية! لا ضم! معاقبة بونابرت والشركاء في المسؤولية!"، واحتجت على وضع ديمقراطيين، مثل يوهان جاكوبي وفرانز مورنغ، أيديهم على الألزاس واللورين. وفي ٢٦ أيلول، أعلن بيبيل وليبكنشت أمام الرايخستاغ، وقد تبعهما، هذه المرة، النواب اللاساليون، عن الأسباب التي صوتا، من أجلها، ضد الاعتمادات العسكرية مشيرين، في الأمة الألمانية التي كان منظور النصر يسكرها، غضباً استطاع بسمارك، معه، اعتقال القائدين، وكذلك أدولف هبنر، مدير "دولة الشعب"، وقرر محاكمتهما بتهمة الخيانة العظمى. أما بالنسبة للاساليين، فقد عرضوا، في جريدتيهم، "الاشتراكي الديمقراطي" و"المحرض"، بقلم هاسلمان وشفايتزر، خيبتهم المريرة حيال دولة كانت تكافئ ولاءهم بهذا السوء: فليست الحرب هي التي كان يمكن أن تخرج منها مؤسسات ديمقراطية.

وكان لهذه الأحداث مدى بعيد لدى أكثر أجزاء الطبقة العاملة تطوراً. فهي تعني ابتعاداً مؤكداً عن الشعور القومي الألماني الذي كان قوياً جداً عام ١٨٤٨، وفي عام ١٨٦٦ أيضاً. وليس معنى ذلك أن الفكرة القومية مرفوضة وأن قادة الحركة العمالية يحسون أنهم أقل "وطنية" من السابق: فهم يعارضون بالحل الحقيقي للقضية "القومية" وهو حل "شعبي" الحل المفروض من أعلى، بآلية الأسلحة والدبلوماسية والذي لا يعني إلا مصالح أسرة الهوهنزولرن "السلالية". إلا أنه بدا، منذ ذلك الحين، أن دروب الديمقراطية ودروب الدولة متباينة، وأن الأمل الذي سبق أن كان قوياً بتحقيق "الدولة الشعبية" أعيق إعاقة خطرة. وأدت المناقشات، في الرايخستاغ، حول تأسيس الإمبراطورية وتنظيمها إلى تفاقم هذا الانطباع: ففي ألمانيا الجديدة السلالية والتسلسلية التي تندمج، فيها، بسهولة، بورجوازية تحولت إقطاعية والتي نسيت طموحاتها الليبرالية، لم يكن، هناك، مكان للطبقة العاملة التي أحست بنفسها ملقى بها خارج

الأمة، وزاد في ذلك كون الطبقات الحاكمة والكنائس والجامعات قد ألقت الحرم ضد "قوى الثورة". وكان على موقف العالم العمالي حيال الدولة الألمانية أن يتزايد سلبية، وبالتدريج، حل الشعور بالتضامن الطبقي محل الشعور بالتضامن القومي.

وهذا ما يفسر الحماسة التي استقبلت بها كومونة باريس وحركات التضامن العفوية التي تجلت، في ألمانيا، لدى اللاساليين كما لدى الإيزناخيين. "عليكم، أيها الباريسيون، تتركز، الآن، نظرة كل البروليتاريا" كما أعلن قرار لعمال هانوفر، في ٢ نيسان ١٨٧١. وتم بلوغ الذروة بالخطاب الذي ألقاه، في ٢٥ أيار، ببيل الذي انتخب، في آذار ١٨٧١، في الرايخستاغ وخرج من السجن مؤقتاً: "إذا سقطت باريس، فإني لا أشك في أن هذه المعركة التي كانت هذه المدينة طليعتها ستخاض في أوروبا بكاملها، وفي أن نداء البروليتاريا الباريسية إلى المعركة: "الحرب للقصور، السلام للأكواخ والموت للكسالى" سوف يصبح، قبل بضعة مضي عقود، مصار البروليتاريا الأوروبية". وقد عوضت الخسائر العدمية التي عانتها الاشتراكية-الديمقراطية لدى انتخابات آذار ١٨٧١-التي جرت في جو شوفيني ولم تعط الأحزاب الاشتراكية سوى ٣,٣بالمائة من الأصوات-بالصدى الذي كان لحركة الكومونة داخل الطبقة العاملة. وكان يوم ١٨ آذار، بالنسبة لليسار، نوعاً من عيد للعمال ربط بأحداث برلين عام ١٨٤٨، وعورض به احتفال ٢ أيلول، الذكرى السنوية لمعركة سيدان. وفضلاً عن ذلك، كان التصريح الذي أدلى به ببيل في الرايخستاغ قد أحدث انطباعاً عميقاً لدى بسمارك وكان، بالنسبة إليه، نقطة انطلاق "كابوس الثورات" هذا الذي قاده إلى أن يريد أن يدمر، في أقصر مهلة، هذه الاشتراكية الديمقراطية التي أعلنها الرأي العام "دون وطن" و"عدوة للرايخ". ولكن دعوى لايبزيغ التي أقيمت على ببيل وليبكنشت تحولت، على الرغم من

الحكم عليهما بسنتي سجن، إلى فشل للحكومة وقوّت قتالية الاشتراكيين. وكون هؤلاء الأخيرين يتباهون بالاتهامات التي كانوا، الآن، موضوعاً لها أمر يبينه تصريح ليبكنشت أمام مؤتمر حزب العمال الاشتراكي في كوبورغ، في تموز ١٨٧٤: "الدولة التي نعيش، فيها، والتي ليست سوى بروسيا موسعة هي دولة طبقية بالمعنى القوي للكلمة. فنحن "أعداء الرايخ" لأننا أعداء الدولة الطبقية". وما كان الاشتراكيون يرفضونه هو "الوحدة دون الحرية"، "الوحدة في القلعة، في الثكنة"، الوحدة "دون ضمانات ديمقراطية". و لم يمض هذا الابتعاد للطبقة العاملة عن الدولة القومية دون أن يثير القلق لدى عدد من المثقفين الألمان، في الأوساط الاقتصادية كما في الأوساط الجامعية، الذين نادوا بتطبيق سياسة إصلاحات من فوق داخل النظام الرأسمالي نفسه وتحدثوا عن "الرسالة الاجتماعية للهوهنزولرن": وبتأثير من غوستاف شمولر، وبمساندة من عالمي الاقتصاد لوجو برنتانو وأدولف فاغنر، خلقت، في صيف ١٨٧٢، "حلقة السياسة الاجتماعية"، وهي أول تجمل لنشاط "اشتراكيي المنبر". ولكن تحذيرات شمولر، كما سيعبر عنها مقاله في "الكتاب السنوي البروسي" حول "البنية الاجتماعية للدولة البروسية"، لاقت، عام ١٨٧٤، سخرية تريتشكه الذي كان أقرب إلى الطبقات الحاكمة عندما كتب أن "القوة، وحدها، هي التي تستطيع الحسم" ضد الاشتراكية. والتحذير الذي شكله كتاب "جوهر الاشتراكية" لعالم الاقتصاد ألبرت شيفله لم يسمع، هو الآخر، من البورجوازية.

مؤتمر غوتا وتأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي

كان اجتياز دروب التقارب بين الحزبين الذي شقه توحيد ألمانيا بطيئاً. فعلى الرغم من رحيل شفايتزر الذي هجر النضال السياسي والذي حل محله هازنكليفر على رأس "الآداف"، استمرت الأحقاد طويلاً. إلا أن

الأيديولوجية الماركسية كانت تتوطد داخل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. فقد تعرف العمال الألمان على كتاب "الحرب الأهلية في فرنسا" الذي يبرهن، فيه، ماركس على أن الكومونة الباريسية هي الشكل الذي ستتخذه، في المستقبل، ديكتاتورية البروليتاريا حيث تتحول الدولة من قامعة إلى محررة. وفي عام ١٨٧٢-١٨٧٣، نشرت، في "الدولة الشعبية"، مقالات أنغلز حول "قضية السكن" حيث هاجم، مع الإصلاحية البورجوازية الصغيرة، أطروحة البرودوني الألماني، مولبرجر، المغلوطة تاريخياً والتي تقول أنه يمكن حل المسألة الاجتماعية بجعل كل عامل مالكاً لبيت أو حقل. وفي حين كان جوزف ديتزغن-عامل دباغ كون ثقافته في الخارج-يوضح وجوهاً جديدة من المادية التاريخية، كان بيبل، السجين آنذاك، يكتب أبحاثه حول "المسيحية والاشتراكية"، الأساس النظري للإلحادية الماركسية، وحول "حرب ألمانيا الفلاحية" ملفتاً انتباه البروليتاريا إلى التحالف مع الطبقة الفلاحية. وأخيراً، فإن معاوني براكه الذين شكلوا، في برونشفيك، فرقة ممتازة من الصحفيين، حول "صديق الشعب"، تعرضوا للفقرة العاشرة من برنامج إيزناخ، المستلهمة من لاسال، التي نادت بخلق تعاونيات إنتاجية بمساعدة الدولة. وشوهد، لأول مرة، لدى الاشتراكيين الديمقراطيين، ظهور اهتمامات بلدية، وهو ما أدى ببراكه، في برونشفيك، إلى وضع برنامج إصلاحات ثقافية ومدرسية وصحية.

وعلى الرغم من التعارضات المذهبية التي كانت، فوق ذلك، أقل أهمية من التعارضات الشخصية والتكتيكية، كانت أسباب التقارب بين الحزبين اللذين كانا يتنازعان الأنصار العماليين تتزايد إلحاحاً: فلدى مؤتمر "النقابات الأممية"، في إيرفورت (حزيران ١٨٧٢)، حيث مثل ٥١ مندوباً أكثر من أحد عشر ألف نقابي، طالبت هذه النقابات بالوحدة. وكانت إضرابات ذات سعة جديدة تماماً قد جرت في عامي ١٨٧١

و١٨٧٢ معبرة عن عدم تكيف الطبقة العاملة مع الثورة الاقتصادية للسنوات الكبيرة، وسببها بؤس المساكن وتكاليف الحياة ووزن ساعات العمل. ودون الحديث عن الفتن التي أثارها، في برلين، خلال صيف ١٨٧٢، وضع الحياة المخيف الذي احتجزت، فيه، البروليتاريا العاملة في المصانع، جرت أهم المظاهرات في شمنتز حيث اتخذ يوهان موست، في "صحيفة شمينتز الحرة"، موقفاً لصالح يوم العمل المؤلف من عشر ساعات، وفي نورمبرغ حيث أعطى كارل غريلنبرغ ديناميكية قوية للنقابية الإيزناخية بين عمال مناجم الرور الذين توجه إليهم ماركس، شخصياً، بوصفه سكرتيراً للأممية الأولى. وبسبب انقسام النقابات، قمعت هذه الإضرابات بقوة، ولكنها تركت لدى العمال إرادة نضال عنيدة. وفضلاً عن ذلك، أسهم الانهيار الذي أعقب سنوات الازدهار في تعميق تطرف الجماهير الشعبية. ولدى انتخابات كانون الثاني ١٨٧٥ التي أعطت ٣٥٢ ألف صوت للحزبين الاشتراكيين موزعة بالتساوي تقريباً، وتسعة مقاعد في الرايخستاغ، رافعة نسبة الأصوات من ٣,٥ حتى ٦,٥ -ارتفع عدد الأصوات الاشتراكية حتى ٣٦ في ساكس، و٣٥ في شليسفسغ-هولشتاين، و٤٠ في هامبورغ-، كانت المجموعتان قد امتنعتا، في دوائر عديدة، عن التعارض فيما بينهما: ففي برلين حمل المرشح الإيزناخي الناخبين على التصويت لهازنكليفر الذي كان مرشحاً ضد شولتزه-ديليتش. وفي ربيع ١٨٧٤، خاض الحزبان، جنباً إلى جنب، المظاهرات العمالية ضد القانون العسكري الذي ندد به أنغلز في "الدولة الشعبية". أما بالنسبة للملاحقات التي كانا ضحيتين لها والتي كان يديرها، من برلين، النائب العام تيسندورف الذي حصل، في حزيران ١٨٧٤، على تدابير منع موقت لـ"الآداف"، ثم للفرع البرليني من حزب إيزناخ، فقد أسهمت، أكثر من كل العوامل الأخرى، في التقريب بين الأخوين العدوين.

وضمـن هـذه الشـروط افتتحـت المفاوضـات الـتي كـان سـيبحث، خلالهـا، التوحيد. وبـدا الوضـع مناسـباً للإيزنـاخيين لأن الحـزب العمـالي الـذي نخرتـه تناقضات داخلية كان في طريقـه إلى التفسـخ علـى الرغـم مـن أنـه كـان مـا يزال أقوى عدديـاً، مـن منافسـه. ولكـن الإعـداد النظـري لهـذه المحادثـات، في الجـانب الإيزنـاخي لم يكـن كافيـاً: ففـي مؤتمـر كوربـورغ (تمـوز ١٨٧٤)، ظـهرت تباينـات في الآراء، واقتصـر علـى التعبـير عـن الرغبـة في التوحيـد وليـس في الانصـهار. إلا أن إرادة التوصـل إلى الوحـدة كـانت تتجلـى تجليـاً قويـاً بـين منـاضلي القـاعدة، وذلـك ليـس، فقـط، في مقـالات "الدولـة الشـعبية" و"الاشـتراكي الديمقراطـي الجديـد"، بـل، أيضـاً، في تظـاهرات شـعبية، كجنـازة يـورك في هـامبورغ (كـانون الثـاني ١٨٧٥) الـتي سـار، فيها، عمال ينتمـون إلى التنظيمـين. وضمـن هـذه الشـروط، وجـد ليبكنشـت وأصدقـاؤه ملزمـين بتنـازلات مذهبيـة هامـة للاسـاليين إذا كـانوا يريـدون تجنـب انقطـاع للمباحثـات. وافتتحـت هـذه الأخـيرة، في غوتـا، في شـباط، تحـت إدارة هـازنكليفر وهاسـلمان مـن جـانب اللاسـاليين، وليبكنشـت وموتلـر مـن جـانب الإيزنـاخيين، وانتـهت، لـدى الاتفـاق علـى حـل "الآداف"، إلى نـص تسـوية مـن وحـي ماركسـي في عموميتـه، ولكنـه كـان يـدع مكانـاً هامـاً للأفكـار اللاسـالية، كقـانون الحـد الحيـوي الأدنى في الأجـور والتعاونيـات الإنتاجيـة و"الكتلـة الرجعيـة". ولذلـك، سـرعان مـا تجلت تحفظـات، خاصـة مـن جـانب بيبـل وبراكـه اللذيـن فاتحـا بضـروب قلقهما ماركس وأنغلـز اللذيـن أبقيـا بعيديـن عـن المفاوضـات. ففـي رسـالة إلى بيبل، في ٢٨ آذار، صـرح أنغلـز بأنـه جـرى تصـور البرنـامج بحيـث أنـه، في حـال قبولـه، "لـن نسـتطيع، مـاركس وأنـا، أبـداً، أن ننضـم إلى الحـزب الجديد القائم على مثـل هـذا الأسـاس". أمـا بالنسـبة لمـاركس، فقـد أوصـل إلى براكـه "تعليقاتـه الهامشـية" الـتي تـبرز الطـابع الانتـهازي واللاعلمـي للتصريـح. وهـذا النـص الـذي لم يكـن معروفـاً، آنـذاك، إلا مـن جـانب

مطلعين نادرين كـــان يرفــض تعريــف البروليتاريــا علــى أنهــا معزولــة في كتلــة رجعيــة، ويحــل الأممية البروليتاريــة محــل "الأخــوة بــين الشــعوب" ويقـــدم تدقيقـــات حــول مدلــول "الديكتاتوريــة الثوريــة للبروليتاريــا" ويميــز طوريــن في قيـام الشـيوعية يتصـف الأول بتوزيـع جديـد للخـيرات الماديـــة، ويتصـــف الثـاني بتمـاوت الدولـة. ولكـن مؤتمـر غوتـا- ٧١ مندوبـاً لاســـالياً و٥٦ إيزناخياً- رأوا أنـــه لا ينبغـي عليـهم أن يضعـوا موضـع المسـاءلة النتـائج الـتي تم التوصل إليـها وتجـاوزوا الملاحظـات الـتي وجـهت إليـهم. وخـلال جلسـة ٢٧ أيـار، صـوت، بالإجمـاع، علـى البرنـامج دون تعديـلات ملحوظـة. و لم يخـف مـاركس وأنغلـز استـياءهما ولكنـهما لم يريـا مـن الواجـب مقاطعـة الحـزب الاشـتراكي الديمقراطـي الجديـد. وفي ١١ تشـرين الأول، كتـب أنغلز إلى براكه يقـول: "نحـن مـن رأيـك، تمامـاً، عندمـا تقـدر أن ليبكنشـت أفسد كـل شـيء في حماسـه لرؤيـة الوحـدة نـاجزة، في الوصـول إليـها بـأي ثمن... ولحسـن الحـظ أن البرنـامج حظـي بـأكثر ممـا يسـتحق مـن التقديـر. فالعمـال والبورجوازيـون والبورجوازيـون الصغـار يقـرؤون، فيـه، مـا كـان ينبغي، حقاً، أن يوجد فيه، لا مـا هـو موجـود فعـلاً... وقـد سمـح لنـا ذلـك بالسكوت". ومهما تكن النواقـص النظريـة، كـان برنـامج غوتـا يقـدم، علـى صعيد التنظيـم، مزايـا جديـة جـداً، وكـان يجـب علـى الانصـهار أن يقـدم للاشـتراكية الألمانيـة وسـيلة مواجهـة المحـن الثقيلـة الـتي كـان يعدهـا لهـا بسـمارك[1].

---

[1] -التوحيـد بـين مختلـف الاتجاهـات الـذي حـدث داخـل الاشـتراكية الديمقراطيـة الألمانيـة حـدث، أيضـاً، في الاشـتراكية الديمقراطيـة النمسـاوية حيـث تقـابلت مجموعتـان: اللاسـاليون أو "المعتدلـون"، مـع أوبرفـايندر، و"الماركسـيون" مـع شـوي، كـان الخـلاف بينـهما ينصـب، خاصـة، علـى التحـالف مـع الأحـزاب البورجوازيـة. وقـد نجـح مؤتمـر نـودورف (١٨٧٤) في تمويـه هـذه الصعوبـات. ولكـن الصيغـة المبهمة جـداً المتبنـاة حـول تقريـر الشـعوب مصيرهـا لا تسـتطيع أن تسـتر التعارضـات

وأصبح إقـرار برنـامج غوتـا، أخـيراً، تشـجيعاً علـى تحقيـق الوحـدة النقابيـة التي كانت القاعدة تطلبـها منـذ زمـن طويـل. فمنـذ ١٨٦٨، تنـازعت ثـلاث تشـكيلات حظـوة العمـال. والنقابـات الـتي أسسـها مـاكس هـيرش وفرانـز دونكر التي كـانت تريـد الاقتـداء بالاتحـادات البريطانيـة والـتي كـانت ترفـض نضال الطبقات لم تكـن، قـط، بعـد انطلاقـة لامعـة، سـوى صنـاديق غـوث ولم تقـاوم، أبـداً، أزمـة ١٨٦٩ الاجتماعيـة. وعرفـت النقابـات الـتي خلقـت متأخرة بسبب المعارضـة اللاسـالية المنتظمـة لكـل نشـاط نقـابي والـتي أسسـها شفايتزر قتاليـة كبـيرة وقـامت بإضرابـات مظفـرة، كإضرابـات بحـاري برلـين عـام ١٨٧١، وكـان لهـا في الأخويـن أوتـو وأوغسـت كـابيل محرضـين ممتـازين أسـهما إسـهاماً واسـعاً في جريدتهمـا، "الرائـد"، كمـا في قطعـهما المسرحية الشـعبية، في إزالـة الاعتبـار عـن نظريـة تنـاغم الطبقـات الليبراليـة. ولكن هـذه النقابـات ظلـت تابعـة للحـزب وعـانت مـن الانقسـامات الـتي كـانت تقرضـه. أمـا بالنسـبة للنقابـات الأممـية الـتي اتخـذ مؤتمـر نورمـبرغ المبادرة بشأنها والتي تلقت مـن ببيـل برنامجـاً نموذجيـاً، فقـد كـان لهـا وجـود مسـتقل عـن الحـزب المؤسـس في إيزنـاخ. ففـي عـام ١٨٧١، طـور عـامل المطبعـة، كـارل هيلمـان، في "الدولـة الشـعبية"، الأطروحـة القائلـة أن النقابات المدارة بكل حريـة هـي الـتي يجـب أن تجـري، فيـها، تدريجيـاً، تربيـة الطبقـة العاملـة وتحريـر البروليتاريـا. ووجهـة نظـر الإيزنـاخيين هـي الـتي انتصرت عندمـا اجتمـع المندوبـون العمـاليون ليتناقشـوا، غـداة مؤتمـر غوتـا، حول الوحدة الألمانيـة. وحصـل فريتزشـه علـى إقـرار النـص التـالي: "علـى الرغـم مـن أن المنظمـات النقابيـة ليسـت قـادرة علـى أن تحـول، وحدهـا، تحويلاً عميقاً، ولأمـد طويـل، وضـع العمـال، فـهي، علـى الرغـم مـن كـل

داخـل الاشـتراكية الديمقراطيـة الـتي اتخـذت، في هـذا البلـد، طابعـاً دراماتيكيـاً والـتي ستبحث في الجزء الثاني مـن هـذا الكتـاب.

شيء، مكرسة لتحسين مصيرهم في الأجل القصير وجعلهم يعون نضال الطبقات".

الخاتمة

هناك خطأ مزدوج يجب عدم اقترافه: خطأ تقليل دور ماركس في تشكيل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني وخطأ المبالغة في تقدير هذا الدور.

يجب عدم التقليل من هذا الدور أولاً. فمن الخطأ أن نعتقد أن لاسال كان مؤسس الحركة الاشتراكية الألمانية مهما كان دوره في تأكيد استقلال سياسي ضروري للعالم العمالي. فقبل ثورة ١٨٤٨، وأثناءها وبعدها، كانت رابطة الشيوعيين قد أنجزت عمل توضيح وتجميع كبيراً سمح للعمال بأن يفهموا أن العصر الذهبي لم يكن وراءهم، بل أمامهم، واطلعت نخبتهم على فكر ماركس حتى ولو كان المعجبون به لم يبينوا، دائماً، أفكاره بالدقة والضبط المرغوب فيهما. والرجال الذين كانوا قد ناضلوا عام ١٨٤٨ هم، أنفسهم، الذين نجدهم، بعد ١٨٦٠، في المنظمات اللاسالية والإيزناخية. واستطاع حزب العمال الاشتراكي أن يستند، باستمرار، إلى نصائح ماركس وأنغلز، وهما اللذان وجها خياراته السياسية. ولدى انعقاد المؤتمر الأخير لرابطة العمال الدولية (١٨٧٢)، في لاهاي، كان الاشتراكيون الألمان الذين تلقى ماركس منهم الدعم في معركته ضد الباكونينية. وكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد رد، بهذه القوة، على "الدولة العسكرية" التي ندد بطابعها الطبقي وبالطرائق البونابرتية للحكومة، وكونه أول من تحول نحو الأممية، وكونه قد عرف تعريف الوسائل السياسية والنقابية لنضال البروليتاريا، كل هذه الأمور يدين بها لماركس الذي لم يتوقف عن متابعة تطوره بعين ساهرة.

والخطأ الثاني هو أن نجعل من الاشتراكية الديمقراطية، لعام ١٨٧٥، حزباً

ماركسياً. فيجب أن نرى، حقاً، أن اللاسالية استمرت في تحريك عدد كبير من الاشتراكيين حتى ولو كانوا قد قاطعوا "الآداف" ورفضوا طرائقه السياسية. وفضلاً عن ذلك، بقيت، لدى كثير من المناضلين، ذكرى حية جداً للمعارك التي خاضوها، منذ ١٨٤٨، من أجل الديمقراطية. وكتب إدوارد برنشتاين الذي بدأ حياته السياسية في برلين والذي أسهم، في هذه المدينة، في التقريب بين المجموعتين الاشتراكيتين، بصدد ليبكنشت، يقول: "كانت اشتراكيته قائمة، في أساسها، على الحق الطبيعي العزيز على الفرنسيين، ولم يكن قد فهم، إلا بصورة سطحية جداً، جوهر المذهب الماركسي". وهذا الأخير، تلفع، حقاً، خلال السبعينات، برداء لفظي لم يسمح بتبين سماته المميزة. ولن يحدد الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي اكتسب، عام ١٨٧٥، نضجه واستقلاله برنامج عمله، في خاتمة المطاف، حسب فكر حبري لندن، بل حسب مصالحه الخاصة. فهو، في الواقع، حزب ديمقراطي واجتماعي لا يشبه، إلا من بعيد، المشاريع التي كان ماركس قد صاغها لألمانيا.

الفصل الثاني

الاشتراكية الفرنسية من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١

جان بروها

زمن المحن (١٨٤٨-١٨٥١)

نحو الجمهورية الاجتماعية

بمساعدة من الأزمة الاقتصادية، لعب العمال، في أيام شباط ١٨٤٨، دوراً حاسماً أكبر، أيضاً، من الدور الذي لعبوه عام ١٨٣٠. وكانت تلك، بالقياس مع الانتفاضات الأخرى في المدن الأوروبية الكبيرة، الأصالة الكبرى للثورة الفرنسية. ومطالب العمال، بالتأكيد، سياسية. ففي ٢٥ شباط، فرضوا إعلان الجمهورية على حكومة مترددة وحصلوا على الاقتراع العام. إلا أن طلباتهم كانت، قبل كل شيء، اجتماعية. فقد كتب بلانكي يقول: "الجمهورية أكذوبة إن لم يكن يجب أن تكون سوى إبدال حكومة بأخرى. فلا يكفي تغيير الكلمات: بل يجب تغيير الأشياء". وكون الاشتراكية، في باريس على الأقل، شاغلاً مسيطراً أمر يشهد عليه توكفيل أيضاً.

وهو يلاحظ ما يلي: "منذ ٢٥ شباط، خرج ألف نظام غريب، باندفاع، من روح الجمهورية المضطربة... وبدا أن المجتمع نفسه قد أصبح، بفعل صدمة الثورة، غباراً وأنه قد طرح، في مسابقة، الشكل الجديد الذي يجب إعطاؤه للبناء الجديد الذي سيقام مكانه. وكل واحد اقترح خطة: هذا عرضها في الصحف، وذاك في ملصقات سرعان ما غطت الجدران، وعرضها ثالث، في الريح، بالكلام. هذا يريد تدمير اللامساواة في

الثروات، والآخر تدمير اللامساواة في الأنوار، وشرع ثالث في تسوية أقدم أنواع اللامساواة بين الرجل والمرأة. وجرت الدلالة على علاجات ضد الفقر بأدوية لمرض العمل هذا الذي يعذب البشرية منذ أن وجدت". وينتهي توكفيل إلى ما يلي (كتب النص في عام ١٨٥٠-١٨٥١): "ستبقى الاشتراكية الطابع الأساسي لثورة شباط وأكثر ذكرياتها رهبة. ولن تبدو الجمهورية، فيها، من بعيد، سوى وسيلة لا هدفاً".

ولأول مرة في التاريخ، دخلت الاشتراكية (في أحد متغيراتها لما قبل ١٨٤٨ على الأقل) والطبقة العاملة حكومة مع لويس بلان والعامل الميكانيكي مارتان المسمى ألبير الذي كان محركاً لجمعيات سرية.

ورفض العلم الأحمر الذي أصبح رمزاً للاشتراكية كعلم قومي. ولكن، هل سينقل إلى الحياة المطلبان الأساسيان لما قبل الثورة: الترابط وتنظيم العمل؟ وقد أعطي هذا الأخير مضامين مختلفة، ولكنها ليست متناقضة. فبالنسبة لبعضهم، كان الأمر يدور، حقاً، حول مشروع اشتراكي لتحويل المجتمع، وكان يهم الآخرين (جمهور العمال)، قبل كل شيء، زيادة الأجور أو خفض مدة العمل.

وعلى أثر مظاهرات عمالية، تم الحصول على عدد من النتائج في أسبوع ٢٤ شباط-٢ آذار. ففي ٢٥ شباط، ألح وفد من عمال الميكانيك بقيادة أحدهم، مارش، في مطالبة الحكومة بالاعتراف بحق العمل الذي كان البابوفيون قد عدوه، سابقاً، حقاً طبيعياً. وكانت العريضة قد حررت في الجريدة الفورييرية، "الديمقراطية الشعبية". وأصدرت الحكومة المؤقتة، فوراً، مرسوماً تلتزم، فيه، بتأمين حياة العامل بالعمل... وبتأمين العمل لكل المواطنين". واعترفت بأن "العمال يجب أن يترابطوا فيما بينهم للتمتع بفائدة عملهم". وفي ٢٧ شباط، فتحت ورشات سوف تسمى "الورشات القومية". وفي ٢٧ شباط، جرت مظاهرة جديدة. وقد طالب

العمال المتجمعون على أساس المهن بإلغاء المساومة وخفض مدة العمل وخلق وزارة للعمل والتقدم كان لويس بلان يأمل، حقاً، في أن تسند إليه. و لم يحصلوا، فوراً، إلا على "لجنة حكومية للعمال" يرأسها لويس بلان وينوب عنه ألبير وتجتمع في قصر اللوكسمبورغ الذي شغر بزوال مجلس الشيوخ. ولبيت بعض المطالب التي تحسن الوضع العمالي، ولكنها لا يمكن أن تسمى اشتراكية حقاً: خفض مدة العمل إلى عشر ساعات، في باريس، وإحدى عشرة ساعة في المحافظات (قرار أدى إلى تثبيت الأجر ليوم مخفض)، إلغاء المساومة، أي "استغلال العمال من جانب مقاولي أعمال فرعيين"، إلغاء السجل، إقامة مكتب استخدام مجاني في كل بلدية باريسية إلخ...

وتظهر الاشتراكية في بعض اقتراحات لجنة اللوكسمبورغ التي سماها لويس بلان، بتفخيم، الطبقات العامة للعمل. والواقع هو أن لجنة اللوكسمبورغ، كالحكومة المؤقتة، نتيجة تسوية وتشهد، أيضاً، على أوهام البرهة. فقد كانت تضم مندوبين عماليين خلقوا "لجنة مركزية لعمال السين". وكان أرباب العمل، أيضاً، ممثلين فيها. وجرى اللجوء، أيضاً، إلى منظرين كان من بينهم اشتراكيين (كفرانسوا فيدال الذي تولى، فضلاً عن ذلك، مهمات السكرتير الأول والفوربيريان فكتور كونسيديران وألفونس توسنيل والسان سيموني جان رينو) وعلماء اقتصاد ليبراليون كفولونسكي أو أبويون كفريدريك لوبلاي. وحاولت اللجنة، بقدر متفاوت من النجاح، حل المنازعات بين أرباب العمل والعمال بالتحكيم. وجربت، أيضاً، ضمن روح اشتراكية العصر، خلق شركات إنتاجية. وهكذا تأسست ورشات اجتماعية لصنع البزات الرسمية التي كانت توزع، منذ ذلك الحين، مجاناً، على كل أفراد الحرس الوطني.

وخلقت لجان مماثلة للجنة باريس في المحافظات، وخاصة في ليون.

وكانت لجنة اللوكسمبورغ قد وضعت مشروع قانون لخص الطموحات الرئيسية لاشتراكيي ذاك الزمان، وخاصة لويس بلان: شراء الدولة للخطوط الحديدية والمناجم، تحويل مصرف فرنسا إلى مصرف دولة، مركزة التأمينات لصالح الدولة، خلق نوع من العملة الورقية المكفولة بالسلع التي يودعها المشغليون والمنتجون في مستودعات يشرف عليها موظفون، وضع "ميزانية عمال" بفضل أرباح المشروعات المدوّلة ورسوم التخزين، تمويل روابط عمالية ومستعمرات زراعية بجزء من هذه الميزانية. ونجد في خاتمة مشروع القانون هذا الأفكار الرئيسية لمؤلف "تنظيم العمل":

"سوف تصل الدولة إلى تحقيق هذه الخطة بتدابير متعاقبة. ولا يدور الأمر حول أخذ أحد بالعنف. والدولة تعطي نموذجها: وإلى جانبه ستعيش الروابط القديمة مع النظام الحالي. ولكن صورة المرونة التي نؤمن أنها لنظامنا هي بحيث سيمتد، وهذا هو إيماننا الثابت، إلى كل المجتمع، مجتذباً، إلى داخله، الأنظمة المنافسة بجاذبية قوته التي لا تقاوم. فسوف يكون الحجر الملقى في الماء والذي يرسم دوائر يولد بعضها من بعض متزايدة الكبر دائماً".

يبقى هذا الأمل في تحويل سلمي للمجتمع. فخط الفصل بين الاشتراكيين والديمقراطيين البورجوازيين غير ثابت. فالعمال يقبلون وضع "ثلاثة أشهر من البؤس في خدمة الجمهورية"، والاشتراكيون الذين هم على منهج لويس بلان يثقون بالحكومة المؤقتة وبلجنة اللوكسمبورغ. وكل هذه أوهام غذاها المناخ الخاص جداً، مناخ التآخي الاجتماعي في الأسابيع الأولى للجمهورية الثانية:

ارفعوا القبعة للعمرة!

جثواً أمام العامل!

وانتشر المذهب الاشتراكي عن طريق أندية وصحف. فقد تضاعفت

الأندية التي نجد، فيها، منظرين اشتراكيين: بلانكي، ديزامي وتوسنيل، في الجمعية الجمهورية المركزية، بباريس في نادي الثورة، كابيه في الجمعية الأخوية الفرنسية. وأسست، في المحافظات، أيضاً، أندية جمعت اشتراكيين وشيوعيين، وعلى الأخص في ليون ومرسيليا وتولون وليل وروان والهافر. وسعى كل اشتراكي إلى خلق جريدته، لامونيه مع "الشعب المؤسس"، راسباي مع "صديق شعب ١٨٤٨"، برودون مع "ممثل الشعب"، أولاً، ثم مع "الشعب". وكسبت الصحف الاشتراكية أو الشيوعية القديمة، مثل "الديمقراطية السلمية" و"الشعبي" لعام ١٨٤١، قراء جدداً. وتكاثرت المجالس النقابية. وكان بعض الروابط الإنتاجية التي زاد عددها تهاجم "استغلال الإنسان للإنسان"، في حين لم تكن الأخرى سوى تعاونيات، بل شركات مختلطة جمعت أرباب عمل وأجراء. وعلى كل حال، كانت الدولة، وكذلك البلديات، تساعدها. فقد انقضت أوقات السرية والحذر. وتضاعفت المجالس العمالية التي تناقش، فيها، في وقت واحد، أشد المطالب تشخيصاً وأشد الخطط طوباوية. وهبرت عن نفسها، في الصحف والأندية، تباينات وخصومات تفقد العمال اتجاههم وتتفاقم بإعيائهم، وهو إعياء يزيد في عمق كون المسافة كبيرة بين آمالهم والواقع.

من الهزيمة بـ"ورقة الاقتراع" إلى الهزيمة بالسلاح

ألقت انتخابات الجمعية التأسيسية الضوء على صفة الأقلية في اشتراكية فرنسا منتصف القرن التاسع عشر. فمنذ ٦ آذار، كان بلانكي قد ألح على كون "الانتخاب الفوري للجمعية الوطنية سيكون خطراً على الجمهورية". وأرجئت إلى ٢٣ نيسان الانتخابات التي كانت مقررة في التاسع منه. وجرى الانتقال من ربع مليون ناخب إلى تسعة ملايين. وتلك كانت قفزة في المجهول ستدفع الاشتراكية ثمنها. وأمكن أن تلاحظ

عودة عاميات إلى الاشتعال، ولكنها كانت ناجمة عن نتائج الأزمة، عن إرادة الفلاحين الفقراء في تثبيت حقوقهم الجماعية أو استعادتها أكثر بكثير من كونها ناجمة عن طموحات اشتراكية. وحدثت اضطرابات في ليموج، وخاصة في روان. وكان القمع قاسياً. فللمرة الأولى، منذ شباط، أطلق الحرس الوطني والجنود النار على العمال الذين كانوا يشككون بصدق النتائج الانتخابية التي جاءت لمصلحة البورجوازية. وعلى الرغم من إرسال مفوضين من الحكومة (نادراً ما كانوا اشتراكيين فوق ذلك) إلى المحافظات، فإن هذه لم تستجب. وزاد في ضعف استجابتها كون دعاية منسقة قد قدمت الاشتراكيين بوصفهم "متقاسمين"، و قدمت الإصلاحات المقررة أو التي كانت مشروعات على أنها ضروب جنون باهظة التكاليف سيدفع نفقاتها دافعو الضرائب (الفلاحون قبل كل شيء). وأمكن لبلانكي أن يقول أن ضريبة الخمسة والأربعين سنتيماً التي فرضت في ١٨ آذار ١٨٤٨ كانت "الحكم بالموت على الجمهورية". فالاشتراكيون كانوا، إذن، أكبر مهزومي الانتخابات. وكان في عداد الجمعية التأسيسية حوالي مائة اشتراكي (التمييز صعب بين الاشتراكيين والراديكاليين) مقابل ٥٠٠ جمهوري معتدل و ٢٠٠ أورلياني وحوالي مائة ملكي. وفي باريس، سحقت "قائمة اللوكسمبورغ". وسوف تضع اللجنة التنفيذية التي حلت محل الحكومة المؤقتة والتي استبعد لويس بلان وألبير منها، تدريجياً، حداً للأطياف ذات الصبغة الاشتراكية.ورفضت مشروعاً تقدم به لويس بلان لخلق وزارة للعمل والتقدم واكتفت بخلق لجنة تحقيق حول وضع العمال: " كانت الجمعية تريد أن تعرف ما إذا كان الفقراء فقراء حقاً" (لويس مينار).. وغداة ١٥ أيار، اعتقل بلانكي وراسباي وألبير. وأغلقت الأندية وألغيت لجنة اللوكسمبورغ.

إلا أن مصير النفوذ الاشتراكي لم يسر على خط مستقيم. فقد يكشف

منحنى هبوطاً في نيسان، ولكنه يكشف، أيضاً، عودة إلى الصعود في بداية حزيران. ففي باريس، شوهد تقارب بين عمال اللوكسمبورغ وعمال الورشات القومية. وقد خلق العمال المندوبون في اللوكسمبورغ" جمعية مندوبي التعاونيات المتحدة" التي أصدرت، منذ ٤ حزيران، "جريدة العامل" التي كان محركها النقّاش بيير فنسار ذو الاتجاه الجماعي الواضح. وقد طلب، فيها، "إلغاء استغلال الإنسان للإنسان بالترابط الفوري للمنتجين، بخلق ورشات عمال مشتركة". وفي انتخابات حزيران الفرعية، انتخب ديمقراطيون واشتراكيون: كوسيديير، بيير لورو وبرودون. وكان هذا النجاح نتيجة استياء العمال أكثر منه، بكثير، علامة تأييد للاشتراكية. وعلى الرغم من كل شيء، كانت الأغلبية المعادية للاشتراكية قلقة. فيجب الانتهاء منها. والورشات القومية سوف توفر الفرصة لذلك. فقد تم الانتقال، بصددها، من اشتراكية لويس بلان الوهمية إلى كاريكاتير للاشتراكية. فلم يعد الأمر يدور، أبداً، حول استئناف لورشات الصدقة كما كان النظام القديم قد عرفها. وفضلاً عن ذلك، كانت هذه الروح هي التي كان قد نظمها، ضمنها، ماري، وزير الأشغال العامة في الحكومة المؤقتة. وبسبب تفاقم البطالة الناجمة عن الأزمة الاقتصادية، أخذ عدد العمال المسجلين في الورشات القومية يتزايد. وأحصي، منهم، في ١٨ أيار، ١١٥ ألفاً ينتمون إلى ٧٥ مهنة مختلفة. وعلى الرغم من أن كلاً منهم لم يكن يتقاضى سوى أجر زهيد، فقد زاد في تكاليف المشروع كون العمال المستخدمين في قلب التراب، في شان دو مارس، لم يكونوا يقومون بأي عمل إنتاجي.

وأدت سلسلة من التدابير، عملياً، إلى حل الورشات القومية. وكانت هذه نهاية الأمل في الاشتراكية المتحققة بـ"تنظيم العمل". ورد العمال الباريسيون-وليس عمال الورشات القومية وحدهم-بتمرد عفوي، في قسم كبير منه. وأعطي الجنرال كافينياك سلطات ديكتاتورية. واستعرت

المعركة بين ٢٢ و٢٦ حزيران. وكان القمع قاسياً. فقد أحصي من بين قوات الأمن، حوالي ألف قتيل. ومن جهة العمال القتلى أو الذين أعدموا رمياً بالرصاص، تراوحت التقديرات بين أربعة آلاف وخمسة عشر ألف قتيل. واعتقل ٢٥ ألف ثائر حكم على عشرة آلاف منهم بالسجن أو النفي.

وكانت أيام حزيران ١٨٤٨ حاسمة بالنسبة للاشتراكية الفرنسية. فقد تناوبت الأبوية والرجعية في الجمعية التأسيسية. فقد صوتت على خمسة ملايين فرنك لمعوزي السن، ومنحت قرضاً بثلاثة ملايين للروابط العمالية. إلا أنه لم يعد يجري حديث عن شراء الخطوط الحديدية أو تأميم التأمينات أو إقامة ضريبة تصاعدية على التركات. وفي تموز، تقدم برودون بمشروع إصلاح مالي واجتماعي يحسم، بموجبه، ثلث ديون الدائنين على مدينيهم الذين يدفعون نصف هذا الثلث للدولة. وعلى هذا النحو، سيتوفر للدولة، بموجب حساب برودون، دخل يقدر بثلاثمائة مليون يسمح لها بإلغاء بعض الضرائب اللاشعبية، على نحو خاص، من جهة، وبتأسيس مصارف قطع من جهة أخرى. وقد عرض برودون مشروعه، أمام تيرز، في مناقشة حامية جداً في المجلس. و لم يحصل إلا على صوتين: صوته وصوت عامل الحرير الليوني غريبو. وقررت الجمعية التأسيسية العودة إلى يوم العمل المؤلف من اثنتي عشرة ساعة. وفي مقدمة الدستور، وبعد مناقشة سيطر عليها عداء للاشتراكيّة، لم يسلم بحق العمل إلا بصورة مخففة جداً: "يجب على الجمهورية أن تؤمن، بمعونة أخوية، حياة المواطنين المعوزين سواء أكان ذلك بتأمين عمل لهم ضمن حدود مواردها، أم بمنحها الغوث، في غياب الأسرة، لمن هم غير قادرين على العمل".

في انتخابـات ١٠ كـانون الأول ١٨٤٨ الرئاسـية، بـدت الاشـتراكية، إذ لم يحصل المرشح الاشـتراكي علـى ٣٧ ألـف صـوت، في حالـة اندحـار كـامل. إلا أن هبة تجلـت، مـن جديـد، في انتخابـات ١٨٤٩ التشـريعية. فقـد حصـل "الجبـل" الجديـد ذو الاتجـاه الاشـتراكي الديمقراطـي، بمـا يـتراوح بـين ٢٠٠ و٢١٠ نـواب، علـى ٣٥ مـن الأصـوات. وهكـذا يمكـن رسـم خريطـة للاشـتراكية الفرنسـية عـام ١٨٤٩: اشـتراكية لهـا أغلبيـة ضعيفـة في بـاريس، ولكنها تعـرف نجاحـاً مفاجئـاً في المحافظـات الريفيـة، شـرق خـط يمتـد مـن البيرينيـه السـفلى إلى الأرديـن. إلا أن الأمـر يـدور "حـول اشـتراكية لا تتمـيز جيداً عـن ديمقراطيـة راديكاليـة وهدفـها سياسـي خاصـة. وعلـى عكـس مـا حـدث في الانتخابـات الرئاسـية حيـث وقـف راسـباي وليـدرو-رولان ضـد بعضـهما، اتحـد الديمقراطيـون والاشـتراكيون عـام ١٨٤٩. ويتبـين لنـا أن منطقة ديمقراطية اشـتراكية ريفيـة تتطـابق مـع منـاطق ملكيـة صغـيرة بشـعب كـامل مـن صغـار الملاكـين المسـتثمرين الذيـن مسـتهم دعايـة الديمقراطيـين والاشـتراكيين متـأخرة. وكـانت فرنسـا هـي الـتي قـالت، في جملتـها، "لا للرجعية" أكثر ممـا قـالت "نعـم" لاشـتراكية لا تعرفـها جيـداً. وهـذا يكفـي، على كل حال، لإطـلاق موجـة جديـدة مـن عـداء الاشـتراكية. فقـد صـرح، في ١٥ أيـار ١٨٤٩، الـدوق دومـوريني، في مبالغـة مقصـودة، متوجـهاً إلى لويـس نـابليون بونـابرت، قـائلاً: "حققـت الاشـتراكية ضـروب تقـدم مخيفة.ولن يعود أمامنا سـوى أن نحـزم أمتعتنـا وننظـم الحـرب الأهليـة ونرجـو السادة القوزاق أن يسـاعدونا". وهكـذا تحـدد الخـط. فقـد كتـب روميـو، في "الشـبح الأحمـر"، قـائلاً: "إني أعلـن العاميـة. البروليتـاريون مسـتعدون، كامنون حتى في آخر قريـة، وفي قلوبهـم الحسـد والكراهيـة".

والواقع هو أن الاشـتراكية كـانت في تراجـع قياسـاً مـع شـباط ١٨٤٨. فقـد

قتلت مصادمـــات حزيـران ١٨٤٨، مـع قتلـها المتمترسـين، الأوهـام، وأنزلـت ضربـة بالآمـال الاشـتراكية ومزقـت، مؤقتـاً، الصـلات الـتي كـانت قـد انعقـدت بـين فكـرة الجمهوريـة وفكـرة الاشـتراكية. واتخـذ حـزب النظـام الذي اختلـط، فيـه، الجمـهوريون-البورجوازيـون مـع الملكيـين مـن مظـاهرة ١٣ حزيـران ١٨٤٩ ذريعـة لسـحق الحـزب الجبلـي الجديـد بعنـف زاد فيـه أن الديمقراطيين-الاشـتراكيين كـانوا يمارسـون، منـذ بضعـة أشـهر، شـيئاً مـن النفـوذ في المحافظـات. وحدثـت مظـاهرات في فيينـا وغرونوبـل وفـالانس وبورغـوان، وأقيمـت متـاريس في ليـون، "المدينـة الحمـراء" في المحافظـات. ومنذ ذلـك الحين، ضـاعفت السـلطات الاعتقـالات واعتـدت علـى حريـتي الصحافـة والاجتمـاع. ومـع ذلـك، أتـت انتخابـات ١٠ آذار التكميليـة إلى المجلس برجـال مثـل فرانسـوا فيـدال، سـكرتير لجنـة اللوكسـمبورغ السـابق وبول ديفلوت الـذي كـان قـد حكـم غـداة أيـام حزيـران ١٨٤٨، وانتخـب أوجـين سـو نائبـاً للسـين في ٢٨ نيسـان ١٨٤٩. فقـد كـان هنـاك، إذن، مؤقتـاً حـداً، تجـدد في نشـاط الاشـتراكية، ولكنـها كـانت اشـتراكية ذات حدود تزداد ميوعة. وحـول فـافر، نفسـه، يعلـن عـن انتمائـه إلى الاشـتراكية، اشـتراكية ليسـت سـوى "الـروح الإنسـانية في العمـل والممارسـة، العقـل البشـري في حريتـه واسـتقلاله".وحـاول بعضـهم، مثـل جوانيـو البورغـوني، إقامـة نـوع مـن الاشـتراكية الفلاحيـة. فقـد كتـب، في جريدتـه، "صحيفـة القريـة"، قـائلاً: "مـن إصـلاح إلى إصـلاح سـتصلون إلى الاشـتراكية، كمـا ستصلون مـن رابطـة صغـيرة إلى رابطـة صغـيرة، إلى التضـامن العلمـي". وقـد رمـت قوانـين ١٨٥٠ الرجعيـة، قبـل كـل شـيء، إلى وقـف انتشـار هـذه الاشتراكية التي يمكنها، حـتى ولـو كـانت مبهمـة، أن تشـكل خطـراً. وقصـد تيير، من قانون فالو، تصفيـة الحسـاب مـع المعلمـين العلمـانيين "الذيـن كـان عدد كبير منهم حديـراً بـالازدراء". وهـذا الريـبي يثـق بـالخوري "مـن أجـل نشر هـذه الفلسـفة الطيبـة الـتي تعلـم الإنسـان أنـه، في هـذه الحيـاة، كـي

يتعذب". وكان هدف قانون الانتخابات إبعاد الناخبين العمال عن صناديق الاقتراع.

إن الانتعاشة الاقتصادية التي أعلنت عن نفسها منذ ١٨٤٩ والقمع والخيبات وبراعة الدعاية البونابرتية هي التي تفسر السهولة التي نجح، بها، لويس نابليون في انقلابه، كما تفسر رغبة البورجوازية في إقامة حكم قوي قادر على منع عودة نفوذ الاشتراكية.

نهاية الأوهام وحكم ماركس

أفلست اشتراكية ما قبل ١٨٤٨. فالاشتراكيون كانوا قد خففوا من تقدير قوة البورجوازية وقدرتها على إيجاد حلفاء في الطبقات المتوسطة المدينية وفي الفلاحية التجزيئية المتمسكة بهذه الملكية التي كان يبدو على "المقسمين" أنهم يهددونها. وهذه الاشتراكية لم تكن قد تجذرت بعمق في الكثافة الاجتماعية لبلد تسوده الفلاحية والمشروع الصغير. وكانت قد بنت أكثر مما ينبغي من الأوهام على تصالح الطبقات. وكانت أوهاماً خابت بصورة فاجعة ولم يكن يمكنها أن تولد سوى اليأس والمغامرة أو اللامبالاة. وكانت الصيغة الترابطية تمضي عكس تيار أشكال التصنيع الحديث.

وقد أطلق كارل ماركس، في كتابين، حكماً على مكان ثورة ١٨٤٨ في تاريخ الاشتراكية. وكان الأول سلسلة مقالات في "الجريدة الرينانية الجديدة" جمعها أنغلز، عام ١٨٩٥، في كتاب بعنوان "الصراعات الطبقية في فرنسا". وكان عنوان الثاني "١٨ برومير، يوم لويس بونابرت". وقد نشر، في نيويورك، في مجلة ألمانية، "الثورة". وينتقد ماركس، في مقالاته في "المجلة الرينانية الجديدة"، شعاري "حق العمل" و"تنظيم العمل" وعارضهما بمطلب آخر ذي طابع ثوري: إلغاء العمل المأجور ونضال الطبقات. وكان ماركس ما يزال، عام ١٨٤٩-١٨٥٠، يؤمن بإمكانية

هبة للحركـة الثورية في فرنسا. ومنذ نهاية ١٨٥٠، قوم الأحداث بمزيد من التراجع وحلل، بدقة، سلوك الطبقات الاجتماعية مركزاً على الدور الذي لعبه "التجزيئيون" في صعود لويس نابليون بونابرت. وبدا له أمراً أساسياً كون ١٨٤٨ نهاية الطور الثوري للبورجوازية الفرنسية التي عليها، منذ ذلك الحين، أن تواجه البروليتاريا. ومن جهة أخرى، درس ماركس تاريخ السلطة التنفيذية، في فرنسا، منذ الملكية المطلقة، ودقق في نظريته حول الدولة. وهو يلاحظ "أن كل الثورات السياسية لم تفعل شيئاً خلاف تحسين هذه الآلة (آلة الدولة) بدلاً من تحطيمها". وعلى هذا النحو، سيظهر مفهوم "ديكتاتورية البروليتاريا" بصياغة أوضح. فمنذ ١٤ أيلول ١٨٤٨، يلح ماركس، في "المجلة الرينانية الجديدة"، على كون "كل وضع مؤقت للدولة، بعد الثورة، يقتضي ديكتاتورية، وحتى ديكتاتورية قوية". ويمضي أبعد من ذلك، في رسالته المؤرخة في ٥ آذار ١٨٥٢، إلى فايدماير، ويحدد أن "نضال الطبقات يؤدي، حتماً، إلى ديكتاتورية البروليتاريا"، وأن هذه الديكتاتورية "لا تشكل سوى الانتقال إلى إلغاء كل الطبقات وإلى مجتمع دون طبقات". والتأمل في ثورات ١٨٤٨، وعلى الأخص في ثورات فرنسا، تؤدي بماركس، أيضاً، إلى إيلاء انتباه أكبر لمسألة العلاقة بين الطبقة العاملة والفلاحية. فـ"الغناء المنفرد"، في الثورة البروليتارية، إذا حرم من الحلف الفلاحي، "يصبح أغنية جنائزية".

إلا أنه يجب أن لا ننسى أن هذه النصوص لم تترجم إلى الفرنسية إلا متأخرة: "صراع الطبقات في فرنسا" عام ١٩٠٠، و"١٨ برومير، يوم لويس بونابرت" عام ١٨٨٨.

فليس تأثير ماركس وأنغلز، إذن، هو الذي ندخل، بسببه، منذ ١٨٥٢، طوراً جديداً في تاريخ الاشتراكية الفرنسية.

الشروط الجديدة

الاندفاعة الاقتصادية

تطابق وصول نابليون الثالث إلى الحكم بانقلاب في السياق الاقتصادي مطبوع بطور ارتفاع للأسعار سيدوم حتى ١٨٧٣. ولا شك في أنه تلاحظ أزمات اقتصادية عام ١٨٥٧ وعام ١٨٦٣ (دون الحديث عن نتائج حرب الانفصال على الصناعة القطنية). وعلى هذا النحو، فاجأت أزمة ١٨٥٧ ماركس في البرهة التي كان يحاول، فيها، تسريع تحضير "رأس المال". وأحدثت لديه حمى حقيقية لأن هناك تساؤلاً عما إذا كانت هذه الأزمة هي الأخيرة. وقد كتب إلى أنغلز، في ٨ كانون الأول ١٨٥٧، يقول: "أعمل كالمجنون، كل الليالي، في صنع تركيب لدراساتي من أجل أن أوضح الأمور قبل الطوفان على الأقل".

الوضع العمالي

على الرغم من الأزمات، تسارع إيقاع التصنيع في فرنسا مما أدى إلى تزايد عددي للطبقة العاملة.وقد ذكر إحصاء ١٨٦٦ أربعة ملايين وسبعمائة ألف مستخدم في الصناعة والتجارة والنقليات. إلا أن هذا الإحصاء يستدعي، على الرغم من عدم دقته وخلطه (لم يميز بين أرباب العمل والأجراء) وعدم موثوقية تصنيفاته الاجتماعية-المهنية، بعض الملاحظات التي تنطبق على مجمل الفترة. فما زالت الصناعات التقليدية (النسيج، الملابس، الزينة، الصناعات الغذائية) هي التي تجمع أكبر عدد من الأشخاص. ومن جهة أخرى، بقيت أشكال التنظيم القديمة (منشآت صغيرة ومتوسطة، وورشات حرفية) راجحة على الرغم من تقدم الصناعة الحديثة. وهو ما يؤدي إلى تمييز بضعة نماذج من عمال تتمايز ارتكاساتهم وتتنوع جداً درجة تقبلهم للاشتراكية. فالحرفيون أو العمال-الحرفيون

همون إلى استقلالهم. وهم مستمرون، ومخلفات النظريات الترابطية ما زالت تجذبهم، في تجسيد تقاليد النضال السياسي في الوقت نفسه. بل إنهم قدموا، حتى نهاية هذه الفترة، الأطر الفعالة للحركة العمالية. والبروليتاريون الحديثون يستطيعون، بفضل تركزهم، أن يصلوا، بمزيد من اليسر، إلى وعي تضامن المصالح. ولكن الخبرة السياسية تنقصهم لأنهم، في معظم الأحيان، منتزعون من الريف، حديثاً، وضعيفو التعليم. ولذلك، يجب أن نميز بين بروليتاريي المدن الكبيرة، كباريس وليون، الذين يشاركون في حياة المدينة ويخالطون فئات عمالية أخرى وبروليتاريي تجمعات "الصناعة الواحدة" الذين كانت آفاقهم محدودة بالمصنع الذي يحتكر كل الأنشطة المدينية.

وحتى حوالي ١٨٦٠، لم يكن هناك سوى تغير قليل في الوضع العمالي. لقد حددت الجمعية التأسيسية، في أيلول ١٨٤٨، يوم العمل باثنتي عشرة ساعة، حقاً، ولكن هناك مخالفات عديدة للقانون، قانونية وواقعية. وجرى التأكيد على السجل في ٢٢ حزيران ١٨٥٤. وإذا كان قانون أول حزيران ١٨٥٣ قد خلق، في مجالس التحكيم، تمثيلاً للأجراء، فإن رئيس المجلس ونائبه معينان من قبل الإمبراطور. ونص قانون ٢٦ أيار ١٨٥٢ على جمعيات الإغاثة المتبادلة. ولكنها تعيش تحت رقابة مستمرة ويمنع عليها تقديم إغاثات بطالة. وفي بعض المدن، كليون أو باريس، اتجه تمييز بين الأحياء العمالية والأحياء البورجوازية إلى الحصول بفعل الأشغال العمرانية.

وبقيت المبادرات الحكومية في حدود الأبوية القيصرية. وكان الأجر الاسمي في حالة ارتفاع، ولكن صعود الأسعار امتص هذا الارتفاع حتى حوالي ١٨٦٠ على الأقل. ولا يمكن، إلا بعد ١٨٦٠ فقط، أن نلاحظ زيادة في الأجر الحقيقي -مع أخذنا في الحسبان وجود متحولات كبيرة حسب المهن، حسب المناطق، وحسب الفصول، أيضاً، بالنسبة لبعض

المهن.

مصير اشتراكيي ما قبل ١٨٤٨

"انحسار الأيديولوجيا، صعود الحركة". هذه التعابير يعرف إرنست لابروس هذه الفترة. وبالفعل، كانت اشتراكية ما قبل ١٨٤٨ في طور انحسارها، و لم تكن الماركسية التي كانت في طور الإنضاج قد دخلت فرنسا بعد. فهناك، إذن، بالنسبة لفرنسا على الأقل، وعلى الرغم من حيوية البرودونية، ما يشبه الفراغ الأيديولوجي بقدر ما لم يعد هناك التفتح السابق لمذاهب اشتراكية. فهناك نوع من نضوب الخيال الاشتراكي. وبالمقابل، عرفت الحركة العمالية الفرنسية، اعتباراً من ١٨٦٠، وأكثر من ذلك، أيضاً، اعتباراً من ١٨٦٢، صعوداً لا سابق له وبدأت في اتخاذ طابع حركة عمالية حديثة.

وقد كتب لويس رايبو، عام ١٨٥٤، يقول: "الاشتراكية ماتت، والحديث عنها هو تأبينها". فنحن نشهد، فعلاً، تشتتاً لاشتراكيي جيل ١٨٤٨ وعقماً فيهم، على وجه الإجمال. وقد كان بوشيه أول رئيس للجمعية التأسيسية. وقد دعم كافينياك، بعد أيام حزيران وسانده، أيضاً، لدى الانتخابات الرئاسية. واعتقل لمدة يومين، بعد الانقلاب، فتخلى عن كل نشاط سياسي. وتوقفت مجلة "الورشة" عن الصدور في ٣١ تموز ١٨٥٠. وكان على كونسيديران أن يمضي إلى المنفى غداة معارك حزيران لأنه أكد تضامنه مع الثوار. ورحل إلى التكساس حيث أقام حوالي خمس عشرة سنة. إلا أنه بقي اشتراكياً بصورة عميقة. فقد انضم إلى الرابطة الدولية للعمال وسوف يؤيد رجال الكومونة. ولكنه لم يكتب سوى مؤلف واحد كرسه لتجربته الأمريكية ("في التكساس" ١٨٥٤). وعندما توفي بيير لورو، في نيسان ١٨٧١، عبر مجلس الكومونة العام عن إجلاله "لرجل السياسة الذي دافع، غداة أيام

حزيران، عن المغلوبين بشجاعة، وليس للفيلسوف الذي كان من أنصار المدرسة الصوفية التي نتحمل همها اليوم". وفضلاً عن ذلك، فقد عرف بيير لورو، في عهد الإمبراطورية الثانية، صعوبات كبيرة، والكتاب الذي نشره عام ١٨٦٣، "إضراب ساماريز"، هو مجموعة ذكريات أكثر من كونه مؤلفاً نظرياً. فقد تحول إلى الماضي وكرس نفسه لدراسات توراتية. وأرغم لامونيه على الصمت، وإذا جاء العمال عديدين، إلى جنازته، فقد كان ذلك لتكريم معارض للإمبراطورية أكثر منه لتكريم الاشتراكي. وصمت قسطنطين بيكور كما صمت فرانسوا فيدال الذي استأنف مهنته كمحام. وعاش لويس بلان في المنفى منصرفاً إلى أعمال تاريخية وساعياً إلى تبرير سلوكه أثناء الثورة أمام الأجيال القادمة. وعاد إلى فرنسا بعد سقوط الأمبراطورية وانتخب نائباً عن باريس في ٨ شباط ١٨٧١. وإذا كان قد احتج ضد القمع الفرسايي، فإنه تبرأ، بصورة قاطعة، من التضامن مع الثورة الباريسية. ورحل كابيه، نهائياً، عام ١٨٥٣، إلى الولايات المتحدة حيث توفي عام ١٨٥٦. ولم يعد جان جاك بيلو إلى الظهور إلا عام ١٨٧٠. وفي عام ١٨٧١، انتخب عضواً في المجلس العام للكومونة. واحتفظ راسباي، بدوره، بشيء من الشعبية على اعتبار أنه انتخب، عام ١٨٦٩، بعد عشر سنوات من المنفى، نائباً عن ليون. وحكم عليه بالسجن لأنه امتدح رجال الكومونة. ولكنه لم يعد سوى رمز الجمهورية الديمقراطية والاجتماعية. ولم يعد يسمع شيء عن ريشار دولاهوتيير، وعاد ديزامي إلى الفانديه، مسقط رأسه، ليتوفى، فيها، عام ١٨٥٠.

وهكذا، إذن، لم يعد يسيل ذلك النسغ الذي غذى فروعاً كثيرة من الاشتراكية قبل ١٨٤٨. فجيل كامل من الاشتراكيين هو الذي صمت أو تخلى. ولم يبق من الذين بقي نفوذهم، بل وتوطد أيضاً، سوى بلانكي وبرودون. وقد استمرا في الكتابة وكان لهما، خاصة، قدر من

التأثير يمكن، معه، الحديث عن دور البلانكيين والبرودونيين في الحركة العمالية والاشتراكية الفرنسية بين ١٨٥٠ و١٨٧٠.

الاثنان الباقيان

تطور بلانكي والبلانكيين

اكتسب بلانكي بموقفه خلال الإمبراطورية الثانية، مكانة كبيرة. واحتفظ بها على الرغم من الاتهامات بالخيانة التي أطلقت ضده. فبين ١٨٤٨ و١٨٧٠، قضى سبع عشرة سنة في السجن. وهذه الشروط هي التي سيتابع، ضمنها، إنضاج مذهبه الشخصي. ويحمل بلانكي مسؤولية فشل ١٨٤٨ لـ"الرعاع المتآمرين الذين التهموا الجمهورية". ويبقى تعريفه للاشتراكية متردداً دائماً. فهو "الإيمان بالنظام الجديد". ولا يثبط التباين بين "المدارس" همته: "فحتى لو تقاتلت حول نقاط عديدة"، فإنها "تسعى إلى الهدف نفسه ولها الطموحات نفسها". ويصل به الأمر، فوق ذلك، إلى الاغتباط بهذا التنوع: "لكل لوينة، لكل مدرسة رسالة تؤديها، دور تلعبه في الدراما الثورية الكبيرة". وهناك كلمات ليس لها، في الواقع، أي معنى: "كل الناس، مثلاً، يدعون أنهم ديمقراطيون". وخط الفصل الحقيقي هو الاعتراف بوجود "معسكرين خصمين يسميان باسميهما الحقيقيين: البروليتاريا والبورجوازية". إلا أن ما يعنيه بلانكي بكلمة "بروليتاريا" يغطي، في الواقع، دائماً، طبقات شعبية ذات حدود غير معرفة جيداً. وليس لكلمة "ثورة"، في فرنسا، المعنى نفسه الذي لها في الخارج حيث ما يزال البورجوازيون يقودون الحرب ضد الملوك والنبلاء والكهنة. ويرد بلانكي على الذين يتهمون الاشتراكية بالمادية بأن "الشعوب لا تنشط، أبداً، من أجل شيء آخر خلاف مصالحها". "ما هي الثورة إذا لم تكن تحسين مصير الجماهير؟".

ويتخذ بلانكي موقعه في صف فئة "الاشتراكية العملية". وهي اشتراكية

"تأخذ ما يناسبها من كل نظـام، ليسـت لهـا تعـاليم مدرسـة وتريـد قلـب مـا هو موجـود، لا عشـوائياً ولا لمصلحـة الدسـائس أبـداً، بـل بموجـب مبـادئ مقررة جيداً ومع التصميم الثـابت علـى بنـاء المسـتقبل علـى القواعـد الجديـدة الـتي سـتوفرها الاشـتراكية المتنـورة الـتي تطورهـا وتميزهـا الأحـداث". لقـد اكتفينـا مـن التنظـير: "فالعـالم القـديم شُـرِّح إلى حـد كـاف، ولـن بنبـش المشرط، فيـه، معطـى إضافيـاً. فـالعواصف هـي الـتي عليـها، الآن، أن تحـدد الجو". "الكلمـة للوقـائع".

ومعظم الملاحظات الـتي جمعـت في مجلـدي "النقـد الاجتمـاعي" اللذيـن نشـرا عام ١٨٨٥، بعد مـوت بلانكـي، تعـود إلى هـذه الفـترة. ففـي طـور سـابق تأثر، كمـا رأينـا، بالجمعيـات السـرية. وقادتـه تأملاتـه في الأسـر إلى تعميـق عدائـه للرأسماليـة. ولكنـه كـان حساسـاً، بصـورة خاصـة، لوجـه المضاربـة والربا للرأسماليـة كمـا نمـت في عـهد الإمبراطوريـة الثانيـة. فـالعدو، بالنسـبة إليه، هو "الإمبراطور دينـار". وهـو يمـزج بـين كـل العصـور: "حـتى قبـل أن يرتفـع سـتار التـاريخ، كـان "الإمـبراطور دينـار" يحكـم، مسـتبداً، أوروبـا وآسـيا وأفريقيـا". وفي الوقـت نفسـه، يـهاجم بلانكـي الطوبـاويين، وعلـى الأخـص السـان سـيمونيين الذيـن أصبحـوا، "اليـوم، أعمـدة الإمبراطوريـة": "الشيوعية (شيوعية المسـتقبل) ليسـت طوباويـة. إنهـا النمـو السـوي لسـيرورة تاريخية كاملـة وليسـت لهـا أيـة قـربى مـع الأنظمـة الثلاثـة أو الأربعـة الـتي خرجت جـاهزة مـن أدمغـة خياليـة". ولا يؤمـن بلانكـي بـالحلول التعاونيـة. فهي "أسوأ فـخ يمكـن أن تقـع فيـه البروليتاريـا". وينبغـي أن تعـارض الحركـة التعاونية بالإضراب الـذي هـو، "علـى الرغـم مـن عواقبـه، السـلاح الوحيـد الشعبي، حقـاً، في النضـال ضـد رأس المـال". "يكـف العـامل، بقـوة الاتحـاد، عن معاناة إرادة أسـياده القدامـى. فـهو ينـاضل، بأسـلحة أكـثر مـن مسـاوية لأسـلحتهم، ضـد شـراهتهم ولا يعـود يوجـد في وضـع دودة الأرض. إنـه يستطيع وقـف انخفـاض الأجـر وإفشـال الاسـتغلال ومناقشـة شـروط العمـل

بدلاً من أن يعانيها". إلا أن البلانكيين لا يظهرون، إلا نادراً، في معارك العمال المطلبية، ويرودون أثر، جملة، أكثر من بلانكي.

ومسألة الدولة تقع في مركز المذهب البلانكي، وهو ما يقود إلى التدقيق في فكرته حول الديكتاتورية الضرورية. "بما أن الحالة الاجتماعية قد فسدت، فمن أجل الانتقال إلى حالة سليمة تلزم أدوية بطولية: فسوف يحتاج الشعب، لبعض الوقت، إلى حكم ثوري. فيجب إبادة الملكية وجميع الأرستقراطيات وإحلال الجمهورية، أي حكومة المساواة، محلها.ولكنه ينبغي، من أجل الانتقال إلى هذه الحكومة، استعمال سلطة ثورية تمكن الشعب من ممارسة حقوقه".

إن بلانكي جدير بالملاحظة من أجل اهتمامه بـ"استراتيجية للثورة" أكثر منه من أجل نظرية اشتراكية جديدة (صامويل برنشتاين).

وبالفعل، فإذا كان بلانكي قد عمق، بقراءاته، اشتراكيته، إلى حد ما، بالقياس مع السنوات السابقة، فإنه بقي-على الرغم من تجربة ١٨٤٨ التي حذرته من ممارسة المؤامرات-يعتقد أن الاستيلاء على السلطة لا يمكن أن يكون إلا من صنع أقلية مصممة. ففي عام ١٨٦٨، كتب مؤلف "تعليمات لانتفاضة مسلحة". وهو يلح، فيه، على ضرورة التنظيم: "الشيء الأساسي هو التنظيم بأي ثمن". وهو ينادي بديكتاتورية باريسية هي عكس "حكومة ١٨٤٨ البائسة". فباريس هي "دماغ" فرنسا، والمقاطعات ليست سوى "أمعائها". وسوف ينتقد أنغلز، عام ١٨٧٤، مع مراعاته بلانكي نفسه، التصور "البلانكي" للديكتاتورية. وسوف يقول: "لا يدور الأمر حول ديكتاتورية كل طبقة البروليتاريا، بل حول ديكتاتورية عدد صغير، ديكتاتورية الذين قاموا بالضربة وكانوا منظمين، مسبقاً، تحت ديكتاتورية بضعة أفراد أو تحت سيطرتهم". وفي جميع الأحوال، يجب على هذه السلطة الديكتاتورية أن تجرد البورجوازية من السلاح عسكرياً، وكذلك أيديولوجياً بإلغاء الصحافة البورجوازية.

وسوف تراعي الفلاح الصغير، وبالمقابل سوف تصادر أملاك الكنيسة وأملاك كبار الملاكين. وسوف يكون من المناسب وضع المشروعات الصناعية والتجارية الكبيرة تحت إشراف الدولة وتنظيم روابط صناعية وزراعية. وسوف تكون إحدى المهمات الثورية للسلطة الثورية تطوير تربية شعبية علمانية: "الثورة ليست في الورشة، إنما في المدرسة". ويرى بلانكي أن الشيوعية غير قابلة للفصل عن التعليم وأن تطوير التعليم يمضي، جنباً إلى جنب، مع النضال ضد "المستبقات الدينية". وهكذا سيتم الوصول (ولكنه يلزم وقت لذلك) إلى الشيوعية التي ستؤدي إلى زوال الدولة.

ولا شك في أن الأفكار التي يريد "المسجون" إطلاقها تجتاز جدران سجنه بصعوبة. إلا أننا نشهد، بصورة متزايدة، مجموعات من "الدعاة" الاشتراكيين تستحق أن تسمى بلانكية وتشكلت نواقها الأولى حوالي ١٨٦٤. وقد جند "الحزب البلانكي" وخاصة الباريسي ، أعضاء، من "معسكر أصحاب المعاطف"، أي بين الطلاب المثقفين. ثم كسب "معسكر القمصان" بنخبة عمالية مكونة، خاصة من عمال تعدين. وعلى كل حال، لم يكن الأمر يدور إلا حول مجموعات صغيرة يذكر تنظيمها بتنظيم الجمعيات السرية لسنوات ١٨٣٥-١٨٤٠. وفي ١٤ آب ١٨٧٠، حاول البلانكيون القيام بضربة للإطاحة بالإمبراطورية على الرغم من أن بلانكي العائد، حديثاً، من المشفى لم يكن يؤيد ذلك. وقد فشلت المغامرة أمام ثكنة إطفائيين في شارع لافاييت: وكانت هذه آخر انتفاضة مسلحة يمكن تسميتها "بلانكية".

وقد تحدث بلانكي، يوماً، عن البرودونيين، فوصفهم بأنهم نافخو مزامير في حين أن الشيوعيين كانوا يقرعون طبولاً. وأضاف قائلاً: "ولا تتشابه الآلتان، أبداً، ولكنهما تتزاوجان جيداً جداً ويمكن ترقيص المجتمع بصورة لطيفة جداً".

ولم تكن هذه سوى مزحة، بل إنه حتى إذا اتفق الطلاب أن يتأرجحوا بين البلانكية والبرودونية، فإنهما تياران من تيارات الفكر الاشتراكي لا يمكن التوفيق بينهما.

برودون "الثاني"

إذا كان برودون "الأول"، قبل كل شيء، برودون الناقد، فإن برودون "الثاني"، برودون بعد ١٨٤٨ يريد تقديم حلول. وليس من السهل استخلاصها، بوضوح، دائماً. فقد تكاثرت التناقضات التي لا تسمح بتعريف "اشتراكية" برودون بصورة مؤكدة. فهو يقدم الاشتراكية على أنها "التوفيق بين كل التنازعات"، أحياناً، ويؤكد، أحياناً أخرى، أن مصالح الطبقات لا تتوافق مع بعضها.

وبرودون الأكثر اهتماماً بتحويل المجتمع منه بالمؤسسات السياسية ما زال يؤكد، حتى ٢٥ شباط ١٨٤٨، مع إعلانه أنه جمهوري، "أن هذا التقدم، في فرنسا، كان يمكن، تماماً، أن يجري مع الحكومة المخلوعة كما هي"، وأن "تكون تكلفتها أقل". أما بالنسبة إلى ٢٤ شباط، "فقد جرى دون فكرة. والأمر يدور حول إعطاء الحركة قيادة، وأنا أراها، منذ الآن، تضيع في موجة الخطب".

إلا أن الأحداث هي التي سوف ترغم برودون على الانتقال من طور النقد إلى الطور البناء. ألم يرو، هو نفسه، أن "أن أربعة مواطنين مسلحين ببنادقهم جاؤوا يسألونه متى يظهر المجلد الذي كان قد أعلن عنه قبل سنة". وهو يشرح، في نشرتين: "تنظيم الائتمان والتداول" و"حل المسألة الاجتماعية دون ضريبة ولا قرض"، خطته لتنظيم الائتمان القائمة على "مصرف التبادل" الذي نشر أنظمته في ١٥ أيار ١٨٤٨. وكما رأينا، فقد رفضت الجمعية التأسيسية مشروعه لتمويل المصرف. ولم يثبط هذا الفشل عزيمته. ففي كانون الثاني ١٨٤٩، أودع لدى كاتب عدل

الأنظمة التأسيسية لـ"مصرف الشعب" الذي سيكون من الممكن، بفضله، الاستغناء عن رأس المال وتنظيم تبادل مباشر بين المنتجين والمستهلكين. وبعد بداية واعدة، جاء الفشل من جديد.

وتفسر هذه المبادرات، إلى حد بعيد، الموقف السياسي لبرودون في هذه الفترة من حياته. وهذا الموقف المختلف كل الاختلاف عن موقف الاشتراكيين يفاجئ بالتباساته وتردداته. فنجد نموذجاً من المسار يشبه، إلى حد كاف، مسار الاشتراكيين الطوباويين الباحثين عن الرجل الذي سيطلق النظام. وعلى الرغم من أنه يعتبر أن ثورة ١٨٤٨ كانت فشلاً، فإنه ما يزال يتدخل في النشاط السياسي، ولكنه يندد بالديمقراطيين-الاشتراكيين. ولوحق عدة مرات لأنه غدا، على الرغم منه، أحد رموز الاشتراكية في فترة رجعية، ووجد نفسه في السجن في برهة الانقلاب. وأفاد من يوم حرية، فرفض الاشتراك في مقاومة لا يؤمن بها، وعاد إلى سانت بيلاجي. وهو يعبر عن خيبته في "اعترافات ثوري لخدمة تاريخ ثورة شباط". لماذا لا يوجد شيء من التفهم لدى الأمير-الرئيس الذي كان برودون قد التقاه قبل الانتخابات الرئاسية، منذ ٢٦ أيلول ١٨٤٨؟ وهو يكتب، في السجن، "الفكرة العامة للثورة في القرن التاسع عشر والثورة الاجتماعية التي برهن عنها انقلاب ٢ كانون الأول". ويرى برودون، وهذه إحدى أفكار الكتاب الثاني، أن "لويس نابليون، كعمه، ديكتاتور ثوري، مع فرق هو أن القنصل الأول أتى على إنهاء الطور الأول من الثورة، في حين أن الرئيس افتتح الثاني". ويزور برودون الدوق دوموري على أمل أن يتخذه لويس نابليون مستشاراً أو أن يوافق على التوصية بمصرف الشعب، على الأقل، ولكن "الأورليانية" و"اليسوعية" ستحولان لويس نابليون عن الثورة الاجتماعية. ومع ذلك، ظل برودون، لبعض الوقت، يعول على الأمير جيروم الذي يحاول أن يبقي على الصلة بالعمال.

وفي عام ١٨٥٧، ينشر برودون، بالتعاون مع جورج دوشين، "كتاب المضارب في البورصة"، وهو مؤلف تقني دون شك، ولكنه يعارض، فيه، "الديمقراطية الصناعية" بـ"الإقطاعية الصناعية". ومؤلفات هذه الفترة الكبيرة هي "حول العدالة في الثورة والكنيسة"، عام ١٨٥٨، و"نظرية الضريبة" و"الحرب والعلم" و"أبحاث في مبدأ الحق وتكوينه"، عام ١٨٦١، و"حول المبدأ الاتحادي وضرورة إعادة تكوين حزب الثورة" عام ١٨٦٣. وبعد نشر "العدالة"، أرغم برودون على الذهاب إلى المنفى في بلجيكا التي لم يعد منها إلى فرنسا إلا عام ١٨٦٣.

وخلافاً لسان سيمون وفورييه، يهتم برودون بمسائل التبادل أكثر منه بمسائل الإنتاج. فمع مصرف الشعب، ينظم الائتمان المتبادل، وهو ما ينهي الفائدة المدفوعة لرأس المال. وسوف تطلق قسائم قابلة للتحويل إلى سلع، لا إلى عملة. وهكذا تؤمن ضمانة التبادل. أما الملكية، فإنها لن تعود سوى التملك، وهو ما يؤدي، بصورة غير مباشرة، إلى إعادة الاعتبار للملكية نفسها. ولن يعهد بتنظيم العمل إلى روابط من نموذج تلك التي كان لويس بلان ("ظل روبسبيير الهزيل") قد تصورها لأنها تبدو "وحياً من النظام الحكومي". ويوصي برودون بخلق "شركات عمالية"، وهي روابط منجين أحرار ومستقلين تستطيع، مثلاً، إدارة المناجم أو الخطوط الحديدية. والأمر يدور، دائماً، حول حلول تقابل طموحات الحرفيين المهتمين بأن لا يتحولوا إلى بروليتاريا أو بأن يتجنبوا، على الأقل، بعض نتائج التركز الصناعي.

وسوف يؤدي نمو "الشركات العمالية" إلى زوال الدولة: "الورشة ستحل محل الدولة". ومن أجل ذلك يعد برودون أحد آباء الفوضوية: "هناك تقدم مستمر في المجتمعات البشرية من التسلسلية إلى الفوضوية". ذلك أن "التسلسلية هي شرط المجتمعات البدائية" و"الفوضوية هي شرط وجود المجتمعات الراشدة". "نحن المنجين المتحدين لا نحتاج إلى الدولة...

الاستثمار بالدولة هو النظام الملكي دائماً، العمل المأجور دائماً... نحن لم نعد نريد حكم الإنسان للإنسان أكثر مما نريد استغلال الإنسان للإنسان... الاشتراكية هي عكس الحكومية... نريد أن تسلم المناجم والأقنية والخطوط الحديدية إلى روابط عمالية تعمل... على مسؤوليتها. نريد أن تكون هذه الروابط... ذلك الاتحاد الواسع للشركات المجتمعة في الموضع المشترك للجمهورية الديمقراطية والاجتماعية".

ويقيم برودون صلة وثيقة بين تبادليته واتحاديته. إنه يتصور، وهو المعادي، فعلاً، لكل تركيز، اتحاد كومونات مستقلة مكونة من روابط منتجين صغار، سادة على حقولهم وأدوات عملهم وأسرهم. وهذا التنظيم ضمانة للفرد لأن "قوة الاكتساح تتهدم في بلد ملكية مجزأة وصناعة صغيرة تتوازن، فيه، حقوق كل واحد ومطالبه".

والتصور البرودوني للأسرة، المعادي جداً لتسوية المرأة بالرجل سياسياً، يذكر بالزمن الذي كانت، فيه، الأسرة وحدة اقتصادية وهي ما تزال كذلك، إلى حد ما، في إطار الإنتاج الحرفي والزراعي الصغير.

والتنظيم الاجتماعي، كما يتصوره برودون، سيضمن إشباع الحرية والعدالة. والعدالة هي، بالنسبة لبرودون، "مبدأ الفلسفة الحقيقي". وهو مبدأ "يمس، أيضاً، الرياضيات والميكانيك والمنطق البديع". وهو يعبر عن نفسه بمصطلحات مختلفة ولكن مترادفة: "مساواة، معادلة، توازن، تناغم". والعدالة والحرية والاستقلال هي، مرة أخرى، التي تعرّف، جيداً، العقلية الحرفية. إلا أن برودون أسهم، بتمجيده للعمل، في تنمية الوعي الطبقي، مع شعور بالاعتزاز، في الطبقة العاملة. وقد كتب يقول: "ما زلت أذكر، ببهجة، هذا اليوم الكبير الذي أصبح، فيه، خاتمي، بالنسبة لي، رمز حريتي وأداتها". وهو لا يرى سوى النتائج المضرة بالعمال من الآلة. ولكنه اقترح، معتبراً أن كل شيء يتوقف على التربية، "موسوعة أو كتاب تقنيات متعددة للتعليم" من أجل ترميم ممارسة

تجزيئية للعمل. وسوف يعلم المتدرب "كل العمليات التي تشكل اختصاص المنشأة التي يعمل فيها. وهكذا يستطيع، عندما يصبح عاملاً، أن يغير مهنته ويسير في منظومة الإنتاج الجماعي كقطعة نقد في السوق".

وفي ١٧ شباط ١٨٦٤، نشر عمال باريسيون كان برودون على صلة بهم بياناً سمي "بيان الستين" ينادي بترشيحات عمالية في انتخابات ١٨٦٤ التكميلية:

"لقد فهمنا، إلى حد الإشباع، أنه لم تعد هناك طبقات: فمنذ ١٧٨٩ أصبح الفرنسيون متساوين أمام القانون. ولكننا نحن الذين لا نملك إلا سواعدنا، نحن الذين نعاني، كل يوم، شروط رأس المال المشروعة أو التعسفية، نحن الذين نعيش في ظل قوانين استثنائية، يصعب علينا كثيراً أن نصدق هذا التأكيد".

ويضعف من احتمال استلهام هذا البيان من برودون كونه مستنكفاً في موضوع الانتخابات. ولكن البيان يثير لديه تأملاً أعمق حول مكان الطبقات الاجتماعية ودورها. وكان قد ألح، سابقاً، ولزمن طويل، على تعايش ثلاث طبقات، طبقة عليا وطبقة دنيا وطبقة وسطى. وهذه الأخيرة (التي كان، من جهة أخرى، يعرّف حدودها بصورة سيئة جداً) هي التي كان يفضلها والتي خاب أمله بسلوكها. ويكتب برودون، إذ ذاك، "حول الكفاءة السياسية للطبقة العاملة"، وهو مؤلف سيصدر بعد وفاته بقليل (كتب خاتمته غوستاف شوداي). ويعلن برودون، في هذا الكتاب، أن الطبقة العاملة "دخلت الحياة السياسية". ومنذ ذلك الحين، "انقلبت الأدوار، من كل وجهات النظر، بين البورجوازية-الرأسمالية-المبادرة والحاكمة والديمقراطية العمالية: و لم تعد الأخيرة هي التي يجب أن تسمى "الجمهور"، "الكثرة"، "الكثرة الدنيئة"، بل، بالأحرى، الأولى".

إلا أننا لا نرى، أبداً، من خلال قراءتنا لبرودون، الدروب التي ستوصل

الديمقراطية العمالية، عبرها، إلى أهدافها، إن لم يكن ذلك بنقلها فكرة التبادلية إلى الوقائع. ولكن كيف؟ إن صب الطبقات العاملة "أصواتها على بورجوازيين"، كما فعلت في عامي ١٨٦٣ و١٨٦٤، يعني قبولها لدونيتها. أما بالنسبة للتكتل، "فلم يعد هناك حق في التكتل أكثر مما هناك حق في الابتزاز والنصب والسرقة، أكثر مما هناك حق في غشيان المحارم أو الدعارة".

إننا لم نحتفظ من برودون الذي كانت شخصيته أخاذة ومثيرة للحنق، في الوقت نفسه، إلا ما يمكن أن يعني تاريخ الاشتراكية. وتصعب، في نهاية المطاف، الإحاطة بـ"الاشتراكية البرودونية". فيجب أن نأخذها كما نستطيع أن نعيد تكوينها وأن نحاذر تقويمها بالقياس مع الماركسية. ففكر برودون ارتوى من ينابيع متنوعة جداً، وعانى تأثيرات يستحيل التوفيق بينها. ففي زمن بدأت، فيه، الصناعة الكبرى في النمو، يسعى برودون الذي كان يعي ذلك بوضوح، أحياناً، إلى حلول تقابل رغبات صغار المنتجين وحسراتها. وإذا كان تأثيره قد بقي، في حين كان هذا الإنتاج الصغير يتراجع، فذلك لأن العقلية الحرفية بقيت حية لفترة طويلة في حين كانت الشروط التي سهلت تكونها في طريقها إلى الزوال.

الحركة العمالية والاشتراكية في عهد الإمبراطورية الثانية

أصالة الفترة

الأصالة الكبرى في الإمبراطورية الثانية هي أن العمال يتحدثون ويعملون بأنفسهم أكثر من الماضي. وهم حساسون لتجاربهم الخاصة بقدر حساسيتهم لمخلفات المذاهب الاشتراكية أو مستجداتها. وفي معظم الحالات، لم يترك لنا "المناضلون" أي مؤلف نظري. والاستثناءات الوحيدة الجديرة بالملاحظة، ككتاب بينوا مالون، مثلاً، تعود إلى ما بعد

الكومونة. والصحافة والمراسلات والمذكرات التي حررت من أجل مؤتمرات هي التي نستطيع أن نكتشف، فيها، المشاغل الأيديولوجية للعمال. ومن جهة أخرى، فنادراً ما كان لهؤلاء الرجال، وهم رجال عمل أكثر منهم رجال نظريات، صلة مباشرة بالمؤلفات الكبرى للمنظرين الذين يعلنون انتماءهم إليهم. كم عدد الذين قرؤوا برودون مثلاً؟ ويمكن أن نتحدث، بمزيد من الضبط، عن نوع من تنافذ بين المذاهب الاشتراكية وممارسة النضالات العمالية.

وعلى كل حال، من المناسب أن نميز بضع مراحل.

فحتى عام ١٨٦٠، ظلت الحركة العمالية الفرنسية في حالة رضّية. إلا أنها تتجلى في إضرابات وفي تحول جمعيات الإغاثات المتبادلة إلى حجرات مقاومة حقيقية. وعلى الرغم من الخيبات، بقي التوق إلى الاشتراكية حياً هنا وهناك. ولاحظ مدعي عام ليون، عام ١٨٥٣، أن "الجرائد لم تعد تكتب عنها" ولكن "كل متاع الفلسفة المساواتية لكل القرون... محفوظ، بدرجات متفاوتة، في فكر الطبقة العاملة ويشكل أساس قناعاتها السياسية". وبعد بضعة أشهر، يلح المدعي العام نفسه من جديد فيقول: "العامل، اليوم، شيوعي ومساواتي كما كان البورجوازي فيلسوفاً قبل ١٧٨٩". ولنلاحظ، على كل حال، أنه سيكون من انعدام الحذر المبالغة في تعمي الملاحظات الجارية بصدد ليون. ويمكن، من جهة أخرى، التساؤل عما إذا لم يكن الأمر يدور حول ذيل اشتراكية ١٨٤٨ أكثر منه حول تصاعد جديد.

شروط اليقظة

يجب أن ننتظر الستينات لنميز منعطفاً أولاً. فقد بدأ عهد الصعوبات بالنسبة للإمبراطورية. فكانت هناك أزمة ١٨٥٧ الاقتصادية وحرب القرم التي كلفت غالياً والحرب الإيطالية التي أقلقت الكاثوليكيين

ومعاهدة التجارة مع إنكلترا الـتي أثـارت استياء بعض الصحفيين.

و لم يكن للقمع، وحده، حتى ولو تلون بالأبوية، أن يحل كل المسائل. فيجب إيجاد دعم شعبي. فلماذا لا يسعى الإمبراطور في جهة العمال بصورة الرجل السابق، ذاك الذي كتب "انطفاء الإملاق"؟ وزاد في إمكانية اللقاء ظهور جيل جديد. فرجال ١٨٤٨ كانوا منفيين لزمن طويل. وفضلاً عن ذلك، بدأ الناس ينسونهم وأصبحت الخصومات التي تفصل بينهم، غالباً، غير مفهومة. وسوف تفيد عودة المنفيين، بعد عفو ١٨٥٩، الجمهورية أكثر مما سوف تفيد الاشتراكيين. ومنذ ذلك الحين، طورت حملة كاملة لمصلحة العامل في جريدة شبه رسمية، "الرأي العام الوطني". واستخدم ابن عم الإمبراطور، الأمير نابليون جيروم، وسيطاً واستقبل في أجنحته، في الباليه روايال، مناضلين عمالاً ظلوا، مع ذلك، متحفظين. وسمحت فرصة بتوضيح حدود القيصرية الاجتماعية، وكذلك حدود "اشتراكية" هؤلاء العمال. وهذه الفرصة هي، عام ١٨٦٣، معرض لندن الصناعي. فقد شجع نابليون الثالث إرسال وفد من العمال الباريسيين الذين ينتمون، جميعهم، إلى مهن حرفية. ونتبين، من دراسة التقارير التي كتبوها، أن الحديث عن الاشتراكية كان، في الحقيقة قليلاً إلى درجة كافية.

لا شك في أن هنا وهناك ملاحظات تكشف تأثير شيء من النقد الاشتراكي. فالعامل لم يفد إلا قليلاً "من المزايا التي أعلنتها الثورة. فقد عقب احتكار الامتيازات احتكار رؤوس الأموال". "حررت ثورة ١٧٨٩ البورجوازية... وللطبقة العاملة الحق في التحرير نفسه". واستغلال العمال مدرك بشكل واضح جداً: "لو كان صاحب المصنع يستطيع أن لا يدفع لليد العاملة لحل مسألته الكبيرة، فكل شيء لرأس المال، ولا شيء للمنتج. وبما أنه لا يستطيع الاستغناء عنها، فإنه يختزلها إلى أدنى رقم ممكن. وبما أن هذا الرقم هو الأساس الضروري للعيش،

بصورة جيدة أو سيئة، فإنه يدفع القليل...". ولكن المهم، في الأساس، هو، بالمقارنة مع إنكلترا، المطالب التي تتصل بالأجر وشروط العمل ومدته. وهناك مطلب سائد: الحق في التكتل والتنظيم النقابي. وقد كتب أحد هؤلاء العمال، عامل البرونز تولان يقول: "الغرفة النقابية هي، في النظام الاقتصادي، أم كل ضروب التقدم المقبلة". وتبدو الغرفة النقابية التي يمكن أن تكون مختلطة (أي مؤلفة من أرباب عمل وعمال)، لكثيرين، كغرفة توفيق بشكل خاص. ويبقى آخرون أوفياء لفكرة غرفة الإنتاج العمالية التي ستعطي العمال ملكية أدواتهم الإنتاجية.

وعلى الرغم من كل شيء، تظهر روح جديدة تثبت، في وقت واحد، تقدماً في "التسييس" ونضجاً في الوعي الطبقي.

و لم يفد نابليون الثالث، في الواقع، من عروضه السياسية ويبدو، حقاً، أن قسماً كبيراً من العمال قد صوت، عام ١٨٦٣، للمعارضة. ولكن نخبة مناضلة أرادت التميز عن هذه المعارضة وتأكيد الصفات النوعية للطبقة العاملة كما يثبت "بيان الستين" الذي نشر في ١٧ شباط والذي لمحنا إليه بصدد برودون.

وليس المهم، بصدد هذا النص، المناسبة التي دفعت إلى كتابته (الانتخابات التكميلية في باريس: فالمرشح العمالي تولان لم يحصل إلا على ٤٢٤ صوتاً)، بل الاتجاهات التي يوضحها: اعتراف بوجود الطبقات لا يؤدي، فضلاً عن ذلك، إلى توطيد النضال الطبقي. فالعمال وأسرهم يعرفون "بؤساً غير مستحق" ومحرومون من كل تعليم. وقد حصلوا على الاعتراف بهم "راشدين سياسياً" بسبب الاقتراع العام. وما زال عليهم أن يتحرروا "اجتماعياً". فيجب أن يمثلوا في الهيئة التشريعية بوصفهم عمالاً: "في عام ١٨٤٨، كرس انتخاب عمال، بواقعة المساواة السياسية؛ وسوف يكرس هذا الانتخاب، عام ١٨٦٤، المساواة الاجتماعية". أما فيما يتعلق بالتصور الذي نتردد في وصفه بالاشتراكية، فإنه يبقى مبهماً

جداً: "ألا لا يتهمنا أحد، أبداً، بأننا نحلم بالقوانين الزراعية،بمساواة وهمية تضع كل واحد على سرير بروكوستوس[1]، بتوزيع إلى الحد الأقصى، بضريبة قسرية إلخ... كلا! لقد آن الأوان للخلاص من هذه الافتراءات التي ينشرها أعداؤنا ويتبناها الجهلة. إن حرية العمل والائتمان والتضامن هي أحلامنا. وفي اليوم الذي ستتحقق، فيه، لمجد بلد عزيز علينا وازدهاره، لن يعود هناك بورجوازيون وبروليتاريون ، ولا أرباب عمل وعمال. فكل المواطنين سيكونون متساوين في الحقوق". ونجد بين الموقعين على البيان، رجالاً سيلعبون دوراً هاماً في فترة نهوض الحركة العمالية وخلال الكومونة.

وفي الوقت نفسه، في أعوام ١٨٦٢ و١٨٦٣ و١٨٦٤، تضاعفت الإضرابات التي مست عدداً كبيراً جداً من المهن (خاصة عمال المناجم والطباعة) واندلعت في باريس والمقاطعات (الشمال، باد-دو-كاليه، ليون، مرسيليا إلخ...). ونشهد، أيضاً، تكاثر جمعيات الإنتاج والاستهلاك العمالية.

وتصل هذه الحركة العمالية إلى قوة يصبح من المستحيل، معها، أن يطبق عليها التشريع المناهض للتكتلات. وكان على الإمبراطور أن يصدر، عام ١٨٦٢، عفواً عن عمال الطباعة المضربين الذين حكمت عليهم المحكمة الجزائية بالغرامة والسجن. وهذه الشروط هي التي أقر، ضمنها، قانون ٢٦ أيار ١٨٦٤ على الرغم من معارضة عدد من النواب الصناعيين، كبوييه-كيرتييه، صانع الأقطان في روان، وسايدو، صاحب المشغل في كاتو وسيد أفران ونّدل. ومنذ ذلك الحين، لم يعد التكتل جنحة. إلا أنه

١ـ قاطع طريق في عهود اليونان القديمة لم يكن يكتفي بنهب المسافرين، بل كان يمددهم على سرير حديدي ويقطع أرجلهم إذا تجاوزت السرير ويشدها بالحبال حتى تتساوى مع طوله إن قصرت عنه. ويستعمل تعبير "سرير بروكوستوس"، في الأدبيات، في الإشارة إلى من يحاول قياس أفكار الآخرين على أفكاره. (المعرب)

يمكن إنزال عقوبة بمن يمس "الممارسة الحرة للصناعة والعمل". ومن جهة أخرى، بقيت المنظمات العمالية ممنوعة-على الرغم من أنه قبل، رسمياً، عام ١٨٦٨، كون الغرف النقابية العمالية ستتمتع بتسامح كذاك الذي يعترف به، منذ زمن طويل، لغرف أرباب العمل. وفي العام نفسه، ألغى قانون ٢ آب ١٨٦٨ المادة ١٧٨١ من قانون العقوبات التي كان "بيان الستين" قد احتج عليها والتي تحدد أن رب العمل "يصدَّق، بمجرد تأكيده، فيما يتعلق بمقدار الأجور ودفع أجور السنة والسلف على السنة التالية". وكان يجب أن تستخدم الحركة العمالية التي أصبحت المبادرة تخصها، منذ ذلك الحين، استخداماً واسعاً تحرر النظام فيما يتعلق بالصحافة والاجتماعات العامة. وسوف تسهم الاجتماعات العامة، في المدن الكبيرة، وخاصة في باريس، في التربية السياسية والاشتراكية للعمال.

الأمميون الفرنسيون

تتخذ هذه المبادرة العمالية أشكالاً لا تتعارض، بل تتكامل: خلق فرع فرنسي للرابطة الدولية للعمال، موجة جديدة من الغرف العمالية ونمو الإضرابات. ويتطابق هذا الصعود في الحركة العمالية مع أزمة عميقة للنظام الإمبراطوري وتسهم في التفاقم بها. وهذه التظاهرات العمالية هي التي نستطيع أن نحاول، من خلالها، تعريف الاشتراكية الفرنسية بين ١٨٦٤ والكومونة: اشتراكية تكتسب الصفة العمالية وتحاول، شعورياً أو لاشعورياً، نوعاً من تسوية متفاوتة النجاح بين المذاهب السائدة والممارسة العمالية.

وقد تأسس الفرع الفرنسي لرابطة العمال الدولية عام ١٨٦٥. ولم يكن لها، في البداية، سوى عدد صغير جداً من المنتمين المتفرقين إلى حد كاف، مع بعض البؤر الأكثر حرارة، كباريس وليون وفيينا وكان. ويمكن استخلاص التصورات المذهبية التي تحرك هؤلاء الرواد من

"المذكرة" الـــتي كتبـــها المندوبـــون الفرنســـيون مـــن أجـــل المؤتمـــر الأول للرابطـــة الدوليـــة للعمـــال (جنيـــف، أيلـــول ١٨٦٦). وكـــــانت الأفكـــــار الرئيســــية برودونيـــة الإلهـــام: اللاتســـيس (رفـــض الانحيـــاز بصـــــدد "إعـــــادة التكويــــن السياسي" لبولونيا)، إدانـــــة الإضـــراب، إلغـــاء الصـــراع بـــين راس المـــال والعمـــل بتنظيم "التبـــادل المتســـاوي بـــين المنتجـــين، خدمـــة بخدمـــة، عمـــلاً بعمـــل، دينـــاً بدين". فمـــــا زلنـــا في مـــا أمكـــن تســـميته "الفـــترة البرودونيـــة" (ج.روجـــري). إلا أنـــه تظـــهر فجـــوات في البنـــاء الـــبرودوني ســـتمضي متســــــعة. ويعـــــارض فـــارلان، خاصـــة، تـــولان حـــول نقطتـــين. الأولى تتصـــــل بـــــالتعليم (الهـــم الأساسي لدى النخبـــة العماليـــة، وخاصـــة لـــدى الأمميـــين): فقـــد كـــان تـــولان يرغب في أن يـــترك التعليـــم للأســـرة، في حـــين يقـــدر فـــارلان أن علـــى المجتمـــع تـــولي مســـؤوليته. والنقطـــة الثانيـــة تمـــس عمـــل النســـاء. فتـــولان وشــــــاماليه وفريبـــورغ يذكـــرون أن مكـــان المـــرأة هـــو في أســـرتها، في حـــين يـــرى فـــارلان وبوردون أنه يجب السعي إلى "تحســــين" عمـــل المـــرأة "وليـــس إلى إلغائـــه".

وسوف تجد الحركـــة العماليـــة نفســـها، بصـــورة مـــتزايدة، متناقضـــة مـــع بعـــض الأفكـــار البرودونيـــة. ويتبـــين ذلـــك منــــــذ ١٨٦٧. فــــالأمميون الفرنســـيون يســـاندون الإضرابـــات ويعقـــدون صـــلات مـــتزايدة القـــوة مـــع الجمـــهوريين. في البداية، حـــددت الســـلطات الإمبراطوريـــة الأمميـــة في محـــور الوفـــود العماليـــة إلى المعـــارض العالميـــة وتســـامحت معـــها. وعلـــى الفـــور، يخلـــق رجـــال ذوي هالـــة فكرية مختلفة مكتباً ثانياً مـــع فـــارلان وبينـــوا مـــالون. ونحـــن نقـــترب مـــن الفـــترة الثانية، "الفترة الجماعيـــة" (ج.روجـــري)، علمـــاً بأنـــه مـــن غـــير المناســـب إقامـــة خط فـــاصل شـــديد الـــبروز بـــين هذيـــن الطوريـــن، "الـــبرودوني" و"الجمـــاعي". فقـــد جـــرى تجـــاوز الـــبرودونيين "الضيقـــي الأفـــق" كتـــولان وفريبـــورغ. وافتتحت المحاكمة الثانيـــة الـــتي انتـــهت إلى حـــل تلتـــه إعـــادة تكويـــن فوريـــة في أيـــار ١٨٦٨.

ونصـــل إلى ذروة الأمميـــة في فرنســـا إلى يمكـــن تحديدهـــا بحـــوالي ربيـــع ١٨٧٠.

وكانت قد جرت، من قبل، في عامي ١٨٦٧ و١٨٦٨، اندفاعة إضرابات ذات دلالة. ففي عام ١٨٦٧، كان عمال النسيج والغزل في روبكس، بعد تدخل من جانب الدرك، قد دمروا آلات في إحدى الهيئات الأخيرة لحركة تخريب الآلات. وصرح الأمميون لعمال الشمال قائلين: "مهما كانت تظلماتكم عادلة، فلا شيء يمكن أن يبرر أعمال التخريب التي قمتم بها. فكروا في أن الآلة، أداة العمل، يجب أن تكون مقدسة لديكم".ولكنهم نظموا، في الوقت نفسه، التضامن مع المضربين. وفي عام ١٨٦٧، أيضاً، كان عمال البرونز هم الذين أوقفوا العمل. وهذا الإضراب يكشف مستوى أعلى للوعي العمالي على اعتبار أن ما وضعه أصحاب المصانع موضع المساءلة هو حق العمال في تعيين مندوبيهم وفي أن يكون لهم تنظيمهم الخاص. "إضراب عمال البرونز يطرح، من جديد، مسألة التضامن الذي يجب أن يضمن استقلالنا وكرامتنا. أيها العمال، لقد هوجمنا جميعاً، فلننهض بالإجماع!". ذلك هو معنى النداء الذي أطلقه مندوبو الهيئات العمالية. ولذلك نفهم أن يمكن لماركس الذي كان، مع ذلك، قاسياً بالنسبة للبرودونيين أن يكتب إلى أنغلز، في ١٢ أيلول ١٨٦٨، قائلاً: "إنه لتقدم كبير أن يكون هؤلاء البرودونيون البلجيكيون والفرنسيون الطيبون الذين كانوا يهتفون، دوغماتياً، في جنيف (١٨٦٦) ولوزان (١٨٦٧) ضد الاتحادات العمالية إلخ... أشد أنصارها تعصباً اليوم".

وعام ١٨٦٩ حافل بإضرابات متكررة: سوتفيل-ليه-روان، سانت إيتيين، ريف-دو-جييه، فيرميني، ليون، غرونوبل، باريس إلخ... والقمع كان قاسياً: فقد وقع قتلى في الريكامري وروان. واندلعت الإضرابات مرتين في كروزو (عمال التعدين ثم عمال المناجم). وحدثت وقفات أخرى عن العمل في الإيزير وباريس، لدى صاهري الحديد. ولدى المحاكمة الثالثة للأممية، جعل المدير العام الأممية مسؤولة عن الإضرابات.

وهو يصرح قائلاً: "الإضرابات تنبع في كل مكان وهي، على الأقل، تلقى التشجيع أو الدعم من الرابطة الدولية". إن الرابطة الدولية للعمال لا تثير الإضرابات. وحسب الصيغة التي استعملها تقرير المجلس العام في مؤتمر بال، عام ١٨٦٩، بصدد إضرابات ليون على وجه الدقة: "لم تكن الأممية هي التي ألقت العمال في الإضراب، بل إن الإضراب هو الذي ألقى بهم في الأممية". والواقعة الجديدة التي ستعطي قوة أكبر للحركة العمالية هي أن المضربين لم يعودوا متروكين لأنفسهم. ففي باريس، نظمت جمعيات "صندوق الفلس" أو صندوق إقراض العمال المضربين. وذهب الأمميون، ضمن حدود وسائلهم، إلى المناطق التي اندلعت، فيها، إضرابات وبذلوا جهدهم في ترسيخ جذور التنظيم النقابي.

هذه الإضرابات ونشاط الأمميين بصددها زادت من إشعاع الأممية في فرنسا على الرغم من أنه لا يمكن تحديد عدد المنتمين إليها بالضبط. وقد ذكر رقم يتراوح بين مائتي وثلاثمائة ألف، أحياناً، من جانب البوليس ومن جانب بعض الأمميين، معاً، وهو رقم مبالغ فيه بالتأكيد. وربما توجب أن نقف عند رقم ٢٠ أو ٤٠ ألفاً. ولكننا أمام نموذج من التوضع لا يمكن أن يقاس بالأرقام المضبوطة. وبالفعل، فقد كان للفرع الفرنسي للرابطة الدولية للعمال بنية متنوعة جداً لا تستند إلى شعب الأحياء فقط، بل، أيضاً، إلى الغرف العمالية والتعاونيات. وغالباً ما كانت الانتسابات جماعية بمناسبة إضراب مظفر. ومن هنا تأرجحات بين الارتفاع والانخفاض لا يمكن استيعاب أبعادها الحقيقية بمحاولة حساب عدد المنتمين بصفة فردية. والواقعة ذات الدلالة على أن الأمميين أثروا في كل قطاعات الحياة الصناعية، تقريباً، باستثناء منطقتي مناجم الشمال والكتلة المركزية وصناعاتهما التعدينية الأولية. وأضيفت إلى المراكز القديمة، كباريس وليون، مركز روان ومرسيليا. وكانت جريدة، مثل "المارسييز" التي أسست في ١٩ كانون الأول ١٨٦٩، تنشر، على

جمهور واسع نصوص الأمميين. ونجحت محاولات اتحادية تتصل بفروع الرابطة الدولية للعمال والغرف العمالية معاً. وهكذا خلقت، في باريس، في ١٤ تشرين الثاني ١٨٦٩، "الغرفة الاتحادية للجمعيات العمالية"، وفي ٢٨ نيسان ١٨٧٠ "اتحاد الفروع الباريسية للرابطة الدولية للعمال". وغالباً ما نجد الرجال أنفسهم في التنظيمين. واتخذت الحركة العمالية، بشكل أوضح من السابق، طابعاً مزدوجاً، سياسياً ونقابياً. هل يمكن، إذن، الحديث، بصدد الرابطة الدولية للعمال، عن حركة "اشتراكية"؟ نعم، ولكن إلى حد ما، فقط، وبكثير من الحذر. فقد كانت نخبة العمال تحس بضرورة تنظيم خاص بهم بين اللاتسييس ذي التقليد البرودوني المرفوض وجماعات العمل البلانكية و"حزب" جمهوري يسيطر عليه بورجوازيون ديمقراطيون وبورجوازيون ليبراليون. وشقت فكرة "حزب اشتراكي" دربها. أليس شهر نيسان ١٨٧٠ هو الذي أصدر، فيه، فرموريل كتاباً بعنوان "الحزب الاشتراكي"؟ ويمثل الأمميون، في بداية عام ١٨٧٠، القوة الأساسية للحركة العمالية الفرنسية سواء أكان ذلك جماعياً عن طريق المنظمات المنتسبة، أم فردياً بعملهم الشخصي.

الممارسة العمالية والأيديولوجيات الاشتراكية

ومع ذلك، فما من وحدة أيديولوجية في صفوف الأمميين. فعلى الرغم من أنه يجب تجنب أي تصنيف مغال في ضبطه، يمكن أن نميز، أولاً، بقاء تيارات فكرية قديمة على قيد الحياة. فالبرودونية "الكلاسيكية" تؤثر، بصورتها التضامنية، على باريسيين مثل تولان الذي هبط دوره كثيراً فضلاً عن ذلك، وكاميلينا، أو رجال من المحافظات، مثل أوبري روح فرع روان. ولكنه يصعب، حتى فيما يتعلق بهؤلاء البرودونيين المتفاوتي "الضيق"، أن نعدهم برودونيين مضبوطي الانتماء على اعتبار أنه يتفق لأوبري، مثلاً، أنه لا يرى أي تناقض بين التضامنية وملكية الأرض

الجماعية. أما البلانكيون الذين كانوا، في البداية، معادين للدوليين الباريسيين بسبب برودونيتهم على وجه الدقة، وكذلك لأنه كان يبدو، في الأصل، أن الإمبراطورية قد راعتهم، فقد تقربوا من الأممية التي بدؤوا ينتسبون إليها. فلا ينبغي، إذن، الخفض من تأثير الأيديولوجيات القديمة على الحركة العمالية لذلك الزمان.

إلا أن "الجديد"-وهو "جديد" يدين للممارسة بقدر ما يدين لوزن المذاهب-تفوق كثيراً. ومن هنا صعوبة الإحاطة به. والتأثير "الماركسي" ضعيف. ونجد بعض الصدى له في المناقشات التي تجري في مؤتمرات الرابطة الدولية للعمال أو بصددها. ولكن مؤلفات ماركس غير معروفة جيداً، و لم تكن هناك من علاقات مع ماركس إلا بالنسبة لبضعة مناضلين، كفرنكل وسيرايه ودوبون لأنه كانت قد سنحت لهم فرصة الإقامة في لندن. وبالمقابل، تحركت الباكونينية، مع ريشار وباستيليكا، فرعي ليون وباريس.

وأكثر التيارات نفوذاً هو ذاك الذي يقدم نفسه بوصفه "شيوعياً مناهضاً للاستبداد" والذي جسده، قبل كل شيء، أوجين فارلان. وهناك، دون شك، بقايا من البرودونية، خاصة فيما يتعلق بتنظيم المجتمع الاشتراكي.

وإذا كان فارلان ينادي بتطوير الجمعيات العمالية، فذلك لأنه استطاع تبين نجعها في مقاومة "الاستغلال الرأسمالي". ولكنه يعهد إليها بهدف مختلف. فهي تشكل "العناصر الطبيعية في البناء الاجتماعي للمستقبل"، و"سوف تستطيع، بسهولة، التحول إلى روابط إنتاجية" وتشغيل "الأدوات الاجتماعية وتنظيم الإنتاج". ولكن تأييد فارلان للجماعية أمر لا شك فيه. فقد كتب، في ١٩ أيلول ١٨٤٩، يقول: "ما زال الفردانيون يرفضون الجماعية كتصور قبلي يراد فرضه دون أن يكون قد جرب من قبل. والجماعيون يردون عليهم بأن هذا السبب سيكون معيقاً لكل تقدم. فلا يمكن رفض تجديد لأنه لم يجرب". وفضلاً عن ذلك، فإننا

نعرف "الملكية الفردية". لقد جربت منذ خمسة آلاف سنة ونعلم، جميعاً، أية نتيجة بائسة قدمتها للشعب في كل الأزمنة".

ويرفض فارلان كل سلطة للدولة. وقد تأثر، في هذه النقطة بباكونين الذي صوت معه، في مؤتمر بال، عام ١٨٦٩، على إلغاء الإرث. وهو يرفض "أية دولة مركزية ومستبدة تسمي مديري المصانع والمشاغل وأسواق التوزيع الذين يسمون، بدورهم، معاوني المدراء ومراقبي الورشات إلخ...". وبالمقابل، يندد بالبرودونيين "المتخلفين"الذين يضعون موضع المساءلة الصلة التي من الضروري إقامتها بين النضال السياسي والنضال الاجتماعي. وهذا واحد من ضروب هوس فارلان: "الثورة السياسية والثورة الاجتماعية مترابطتان ولا يمكن لإحداهما أن تمضي دون الأخرى" (٦ تموز ١٨٦٩). "اتفق (بصدد "الخط السياسي والاجتماعي" لجريدة المارسييز) على أن القسم السياسي الذي لا ينبغي أن يكون إلا ثانوياً سيكون ثورياً بصورة جذرية ضد كل المؤسسات الحكومية الحالية، وليس ضد الإمبراطورية فقط... ويقترح مؤسس "المارسييز"، فضلاً عن ذلك، إقامة علاقات دائمة بين مجموعات أوروبا الاشتراكية الثورية من أجل تنظيم الحزب والتحضير للثورة الاجتماعية العالمية" (٢٩ آب ١٨٦٩). ويزيد في دلالة حالة فارلان كون الأمر يدور حول أقوى شخصية في الحركة العالمية والاشتراكية الفرنسية في نهاية الإمبراطورية.

وفي ربيع ١٨٧٠، اجتازت الرابطة الدولية للعمال، في فرنسا، أزمة خطيرة جداً غداة تقدمها بالذات. فقد أقيمت عليها دعوى ثالثة في ٢٢ حزيران ١٨٧٠. ونجح فارلان الذي كان في جولة دعائية في العبور إلى بلجيكا. وكتب ماركس إلى ج.ب.بيكر، في ٢ آب ١٨٧١، يقول: "لقد دمرت فروعنا الفرنسية. فأكثر الرجال تمرساً هاربون أو في السجن". ومنذ ٢٥ تموز، توقفت المارسييز عن الصدور. فلم يكن الأمميون يستطيعون، إذن، أن يعارضوا، بشكل ناجع، الموجة الشوفينية.

إلا أنهم كانوا قد دعوا "إخوانهم في ألمانيا" إلى "عدم الاستماع إلى استفزازات مجنونة لأن الحرب ستكون بين أخوة". وهكذا كانوا قد دللوا على شيء من وعي التضامن العمالي من فوق الحدود. وهذه، أيضاً، إحدى مركبات الاشتراكية الفرنسية في عام ١٨٧٠. وكما كانت ثورة ١٨٤٨ حقل تجارب لاشتراكيات تلك المرحلة، فقد كان يجب أن يفتتح يوم ١٨ آذار ١٨٧١ فترة اختبار للاشتراكيات السابقة للكومونة على الرغم من أن الحركة العمالية الفرنسية بلغت، عام ١٨٧٠، قوة كانت بعيدة عن امتلاكها عام ١٨٤٨.

مكانة الكومونة

الحدث

كل هذه التيارات الاشتراكية التي أتينا على تحليلها، تتلاقى في كومونة باريس التي تحتل مكانة استثنائية في تاريخ الحركة العمالية وتاريخ الاشتراكية اللذين أصبحا لا يقبلان الفصل بينهما في فرنسا. وتعود هذه المكانة الاستثنائية إلى الحدث، إلى دويه، ولكنها تعود، أيضاً، إلى مختلف التفسيرات التي أعطيت لها والتي لعبت دوراً حاسماً في نمو الاشتراكية في فرنسا.

والحدث على درجة قصوى من التعقيد بسبب تنوع الأسباب التي استجرته والتي لا يرجع جميعها إلى الاشتراكية. فقد مس شعب باريس في وطنيته: فقد حذف على شعب كان قد عانى وأحس أنه حكم عليه، طوعاً، بالجمود الإمبراطورية وحكومة الدفاع الوطني مسؤولية الهزيمة والاستسلام النهائي. وجرح نزع صفة العاصمة عن باريس لصالح فرساي الباريسيين جرحاً عميقاً. وسيطر على الجمعية الوطنية التي انتخبت في ٨ شباط ١٨٧١ الملكيون، في حين اقترعت باريس للجمهوريين. وفي الوقت الذي لم تستأنف، فيه، الحياة الاقتصادية بعد،

أقر هذا "المجلس" الذي لا يمكن العثور عليه تدبيرين يهددان شروط حياة الشعب البسيط: إلغاء وقف دفع الإيجارات والسندات، إلغاء رواتب أفراد الحرس الوطني غير المعوزين. وهذا ما قد يكفي لتفسير الرد الشعبي في ١٨ آذار على محاولة تيير استعادة المدافع التي كان الحرس الوطني يعدها ملكاً له.

انتفاضة عمالية؟

إلا أنه جرى الانتقال، منذ غداة ١٨ آذار، من تمرد عفوي إلى انتفاضة عمالية أو، بتعبير أضبط، إلى انتفاضة يسيطر عليها العمال. فمن بين ٦٥ عضواً يجتمعون، فعلاً، في المجلس العام للكومونة، كان ٢٥ (أي حوالي ٤٠) من العمال. ونجد بينهم "مغموري" الجمعيات العمالية أو فروع الأممية و"مجهوليها": سباكين مثل تيز وكاميلينا، وميكانيكيين مثل لانغفان وآسي، وصاغة مثل العامل المجري فرنكل، ومجلدين مثل فارلان. وعلى مستوى آخر الذي هو مستوى "القاعدة"، يتدخل العمال في فروع الأممية والفرق العمالية والأندية. وكان العمال الذين يحتلون مراكز قيادية أو يمارسون أكبر نفوذ، بصورة عامة، حرفيين أو عمالاً حرفيين على الرغم من أنه قد أعطيت أهمية أكبر، بالقياس مع ١٨٤٨، لعمال ينتمون إلى فروع صناعية في طريقها إلى النمو، كصناعات التعدين. وباختصار، لم نكن أمام متاريس حزيران ١٨٤٨ بالضبط. ولسنا، كذلك، أمام البروليتاريا الحديثة كما ستتكون في المنطقة الباريسية اعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر. ومن جهة أخرى، تدخل، إلى جانب العمال، رجال جاؤوا من بورجوازية ذلك الزمن الصغيرة: بورجوازية الإنتاج الصغيرة (حرفيون مستقلون نسبياً)، بورجوازية التجارة (أصحاب الدكاكين) أو الحياة الثقافية (معلمون، صحفيون إلخ...). وكانت الكومونة، بالنسبة لفرنكل الذي كان يرأس لجنة العمل والتبادل،

ثورة "قامت بها الطبقة العاملة" حقـــاً. ويزيـد هـذه الصفـة عمقـاً كـون القمـع الذي ضرب العمال، قبـل كـل شـيء، يؤكـد، بصـورة فاجعـة، أن الكومونـة كانت حلقة بارزة من صـراع الطبقـات في القـرن التاسـع عشـر.

ثورة اشـتراكية؟

هل يمكن الحديث عن ثـورة اشـتراكية؟ لقـد سـبق أن تبـين لنـا أنـه لم يكـن يمكـن، حـوالي نهايـة الإمبراطوريـة، التوصـل إلى تصنيـف شـديد الحسـم للاشـتراكيين. فلـم تعـد هنـاك، "مـدارس"، وأحـرى بهـذا الأمـر أن ينطبـق على الكومونـة. فقـد كـان علـى الذيـن أسـهموا فيـها أن يواجـهوا مسـائل جديـدة لا يسـتطيعون إيجـاد حلـها في المذاهـب الـتي أمكـن أن تؤثـر فيـهم. واختلفت تقاليد سياسـية تعـود إلى الثـورة الفرنسـية بشـواغل أكـثر اشـتراكية بشكل واضح. فكل تسـمية موضـع تحفـظ. ولا شـك في أنـه قـد أمكـن تمييـز أقلية وأغلبيـة. والأقليـة مكونـة مـن أعضـاء المجلـس العـام للكومونـة الذيـن عـارضوا خلـق لجنـة أمـن عـام. وقـد ضمـت، خاصـة، دوليـين وتركيبـها عمـالي بشـكل أشـد خصوصيـة. والأغلبيـة أكـثر تباينـاً. فيصنـف في فئـة "البلانكيـين" الـتي غـدت، آنـذاك، مبهمـة جـداً، اثنـا عشـر عضـواً في الكومونـة. وبعضـهم، كريغـو وشـاردون وأود، يعـترفون بسـلطة رئيسـهم. ولكـن بلانكـي كـان في السـجن. وكـان آخـرون، كرانفييـه أو بروتـو أو تريـدون، منشـقين بدرجـات متفاوتـة. وإلى جـانب البلانكيـين، وجـد مـن اتفـق علـى تسـميتهم "اليعاقبـة" و"الثوريـين المسـتقلين" أو، ببسـاطة، "الراديكـاليين". وسـواء أكـانوا أشـباح ١٨٤٨، مثـل ديليكلـوز، أم انتمـوا إلى هـذا الجيـل الـذي دخـل الحيـاة السياسـية حـوالي ١٨٦٠، فقـد كـانوا يشتركون في نـوع مـن الهـوس بثـورة ١٧٨٩ الـتي كـانوا يريـدون اسـتئنافها. وينبغـي، في الحقيقـة، عـدم إعطـاء معـنى مغاليـاً في الضيـق لكلمـتي "أقليـة" و"أكثرية". أما بالنسـبة لــ"الماركسـيين"، فـإن نفوذهـم كـان محـدوداً جـداً–

لا سيما وأن صفة "ماركسيين" لا يمكن أن تنطبق عليهم إلا بتحفظ كبير جداً. ونستطيع أن نذكر منهم، بين المنتخبين في الكومونة، سيراييه وفرنكل، وفي خارج المجلس أوجين دوبون (الذي لم يتدخل إلا قليلاً)، وخاصة إليزابيت ديمتربيف التي لعبت دوراً فعالاً جداً في المنظمات النسائية.

كل هذه الطموحات تعايشت، على الرغم من كونها متناقضة غالباً، في عالم رجال الكومونة، في القاعدة كما في القمة. وفوق ذلك، يتفق تكراراً أن تتواجه في ذهن كل رجل من الكومونة مأخوذاً بصفة فردية.

فيجب، إذن، حين نفحص عمل الكومونة أن نحسب حساباً لهذا الاختلاط، لكونه لم يتوفر للكومونة سوى اثني وسبعين يوماً ولكونها قد انشغلت، في وقت مبكر جداً، بمسائل الحرب كلياً.

وهذا العمل يمزج بين الشواغل الأقرب إلى الديمقراطية (فصل الكنيسة عن الدولة، إقامة تعليم علماني إلزامي ومجاني) بمقاصد اشتراكية حقيقية.

وينطلق فرنكل من كون الطبقة العاملة قد صنعت، في رأيه، الكومونة، ويخلص إلى ما يلي: "إذا لم نفعل شيئاً لهذه الطبقة، فلا أرى مبرراً لوجود الكومونة". وكان ذلك، أيضاً، رأي الأندية كما عبرت عنه جريدة "البروليتاري" في ١٠ أيار: "لا تكتفوا بأن تعدوا الشعب بقدوم الاشتراكية بالأسلوب نفسه الذي يعد، به، الكهنة أتباعهم بأفراح الفردوس التي لا يغفلون عن إرجائها إلى ما بعد الموت. إن بعض الإصلاحات تقتضي إسهام الوقت، ويمكن لأخرى، على العكس من ذلك، أن تنفذ فوراً".

وقد لبت بعض المطالب الشعبية، والعمالية على الأخص: منع عمل الليل في المخابز، إعفاء المستأجرين من قسطين من الإيجار، إيقاف تسديد الديون، افتتاح مكتب تشغيل في كل بلدية، إلغاء الغرامات والحسومات من الأجور، إصلاح سوق الرهونات. ولتدابير أخرى دلالة أعمق.

فالمرسوم حول عقود الكومونة ينص على أن الأفضلية يجب أن تمنح، "دائماً"، للتعاونيات الإنتاجية العمالية التي كان عددها ما يزال كبيراً إلى درجة كافية. ومن جهة أخرى، فسوف تشرك الغرفة النقابية في صياغة السوق، وسوف تحمل دفاتر الأعباء تحديد "السعر الأدنى للعمل مياومة أو الأجر الذي يجب أن يعطى للعاملات والعمال" المعنيين بالسوق. واستدعى مرسوم ١٦ نيسان الغرف النقابية العمالية من أجل "وضع إحصائية بالورشات التي هجرها" الذين كانوا يديرونها والذين أرادوا، على هذا النحو، التملص من "التزاماتهم المدنية". ويجب أن تستثمر هذه الورشات، بسرعة، من جانب "الروابط التعاونية للعمال الذين كانوا يعملون فيها". ونتيجة لذلك، وبمبادرة من الغرفة النقابية لعمال الميكانيك، سوف تشكل "لجنة تحقيق وتنظيم للعمل": "إذا كنا لم نمض أبعد من ذلك، فذلك لنقص الوقت" (ج.روجري). وبالفعل، اقترح فيزنبيه على الكومونة، في ٤ أيار، "مصادرة كل ورشات المحتكرين الكبيرة وأدواتها وآلاتها وموادها الأولية ومعداتها وأبنيتها بعد جرد وتعويض لاحق يحدده خبراء". فمبدأ نزع ملكية المشروعات الكبيرة (مشروعات "المحتكرين") طرح على الأقل. وبصورة عامة، سهلت الكومونة نهوض بعض فئات الجمعيات العمالية بالدعم الذي قدمته لها. وفارلان هو الذي عقد الصلات، في معظم الأحيان، بين الجمعيات العمالية ولجنة العمل والتبادل.

وقد كان لدى رجال الكومونة، حقاً، "مشروع" اشتراكي أو، بتعبير أصح، "مشاريع اشتراكية". فقد صوت، في ١٩ نيسان، على "الإعلان إلى الشعب الفرنسي"، بالإجماع باستثناء صوت واحد. وهو يحدد تصوراً لاستقلال الكومونات يتوافق، تماماً، مع "الوحدة السياسية". ولكن الكومونة أعلنت، خاصة، بلغة زمانها، "نهاية العالم القديم الحكومي والكهنوتي، نهاية العسكرية والوظيفية والاستغلال والمضاربة

والاحتكارات والامتيازات التي تدين لها البروليتاريا بقنانتها والوطن ببؤسه وكوارثه". ولا شك في أننا نجد، من جهة الأمميين، تأكيدات أوضح: فيمكن أن نقرأ، مثلاً، في "الثورة السياسية والاجتماعية"، جريدة الأممية، ما يلي: "يجب أن لا ننسى أن النظام الاجتماعي يأخذ على نفسه أن يعطي "كل واحد حسب حاجاته"، ومن الذي يستطيع أن ينكر أن الطبقة الأكثر عدداً، طبقة الأجراء هي التي تحتاج، اليوم، أكبر الحاجة إلى أن تساعَد لتتوصل إلى تحررها السياسي والاجتماعي؟". ويلي ذلك تخطيط لبيان الطبيعة الحقيقية لرأس المال: "مهما تكن الأفكار المتلقاة حول رأس المال، فالجميع متفقون على أنه يمثل مجموعاً معيناً من العمل الموفر، المتراكم والمكرس لعمل إنتاجي لاحق. ولكننا نسأل: من الذي قدم العمل الذي يمثله رأس المال؟ هل هم الذين يملكونه؟ هل يدين صاحب المشغل والتاجر الكبير والملاك الضخم برأس المال هذا لمقتصداتهم وفعالياتهم وفعاليات أجدادهم؟ بالطبع لا..." (١٦ نيسان).

التفسيرات

وهكذا، إذن، فإن الكومونة انتفاضة لم يردها الذين صنعوها. وفضلاً عن ذلك، فإن كارل ماركس قد نصح العمال الفرنسيين، في البيان الثاني للرابطة الدولية للعمال، في ٩ أيلول ١٨٧٠، بتجنب أية محاولة لانتفاضة موصياً إياهم بأن "يفيدوا من الحرية الجمهورية ليجروا، منهجياً، تنظيمهم الطبقي الخاص". ولكن مبادرات تيير أرغمت سكان باريس على رد خرجت منه الكومونة.

والكومونة المغلوبة تطرح على منظري الاشتراكية مسألة تفسيرها. ومنذ ذلك الحين، تتعمق وتتبين، في الوقت نفسه، التباينات التي كانت، من قبل، مرئية جداً في نهاية الإمبراطورية الثانية. وعلى وجه الإجمال، يتقابل تفسيران يركزان على بعض سمات الكومونة مع ترجيح بعضها لاستبعاد

أخـــرى.

فمنـــذ حزيـــران ١٨٧١، يعتـــبر بـــاكونين أن الكومونـــة كـــانت "نفيـــاً جريئـــاً، بـــارزاً جـــداً، للدولـــة". فقـــد كـــانت تمجيـــد "العمـــل التلقـــائي والمســـتمر للجماهـــير ومجموعـــات الروابـــط الشـــعبية" لأن الجماهـــير "امتلكـــت، بغايـــة الكمال، اليـــوم، الغريـــزة الاشـــتراكية". وهـــذا تصـــور ســـيمضي، منطلقـــاً مـــن الكومونة، متطوراً ويغـــذي التيـــارات الفوضويـــة أو نظائرهـــا.

وسوف يعطي تفســـير آخـــر انطلاقـــة جديـــدة لنظريـــة الاشـــتراكية العلميـــة، أي الماركسية وممارســـتها. فليـــس مـــن قبيـــل الصدفـــة إذا كـــانت مؤلفـــات مـــاركس قد عرفت، غداة الكومونـــة علـــى وجـــه الدقـــة، جمـــهوراً لم تحصـــل عليـــه حـــتى ذلك الحين. وهذا التفســـير اقترحـــه مـــاركس "علـــى الحـــامي" في البيـــان الثـــالث للأممية الذي غـــدا شـــعبياً تحـــت عنـــوان "الحـــرب الأهليـــة في فرنســـا" والمـــؤرخ في ٣٠ أيـــار ١٨٧١. فقـــد تـــأمل مـــاركس في ثـــورة ١٨٤٨ ووصـــل إلى نتيجة هي أن الدولـــة البورجوازيـــة يجـــب أن تدمـــر. ولكـــن، مـــا هـــو بديلـــها؟ بدا له أن تجربة رجـــال الكومونـــة أعطـــت إجابـــة عـــن هـــذا الســـؤال. فبعـــد أن ذكر الشـــروط الـــتي اندلعـــت، ضمنـــها، الانتفاضـــة الباريســـية، يتســـاءل كـــارل مـــاركس: "مـــا هـــي الكومونـــة، أبـــو الهـــول هـــذا الـــذي يقلـــق الفـــهم البورجـــوازي بهـــذه القـــوة؟". وهـــو يـــرى في الكومونـــة "طبـــاق الإمبراطوريـــة". و"سرها الحقيقـــي هـــو مـــا يلـــي: لقـــد كـــانت، في جوهرهـــا، حكومـــة الطبقـــة العاملـــة، نتيجـــة النضـــال الطبقـــي للمنجـــين ضـــد طبقـــة المتملكـــين، الصـــورة السياســـية الـــتي وجـــدت، أخـــيراً، والـــتي كـــانت تســـمح بتحقيـــق التحريـــر الاقتصـــادي للعمـــل". "كـــانت أول ثـــورة اعـــترف صراحـــة، فيـــها، بالطبقـــة العاملة بوصفها الوحيـــدة القـــادرة علـــى مبـــادرة اجتماعيـــة، حـــتى مـــن جـــانب الكتلـــة الكـــبرى مـــن طبقـــة بـــاريس الوســـطى-أصحـــاب الحوانيـــت، التجـــار، الباعة-باستثناء الرأسمـــاليين الأغنيـــاء وحدهـــم".

وقد خلقت الكومونة صـــورة مؤسســـية لم يعـــد، فيـــها، فصـــل بـــين الســـلطات،

"على اعتبـــار أنـــه لا ينبغـــي للكومونـــة أن تكـــون جـــهازاً برلمانيـــاً، بـــل هيئـــة فعالة، تنفيذيـــة وتشـــريعية معـــاً". وتوقـــف الديـــن عـــن أن يكـــون ذيـــلاً للدولـــة بســـبب الفصـــل بـــين الكنيســـة والدولـــة. وألغـــي الجيـــش الدائـــم وحـــل محلـــه "حرس وطني تشكلت كتلته مـــن عمـــال". أمـــا بالنســـبة للبوليـــس، "فبـــدلاً مـــن أن يكون عميـــل الحكومـــة المركزيـــة، جـــرد، فـــوراً، مـــن صلاحياتـــه السياســـية وتحول إلى عميـــل للكومونـــة، مســـؤول وقـــابل للعـــزل في كـــل لحظـــة"، "يجـــب أن يكـــون الموظفـــون والقضـــاة، كســـائر القـــائمين بالخدمـــة العامـــة، منتخبـــين، مسؤولين وقـــابلين للعـــزل".

ويذكر مـــاركس، معالجـــاً اشـــتراكية الكومونـــة، بـــأن "الطبقـــة العاملـــة لم تعـــد تأمل بالمعجزات" وأنـــه "ليـــس لديـــها طوباويـــات جـــاهزة تدخلـــها بمرســـوم مـــن الشعب" وأنه "ليس عليها أن تحقـــق مثـــلاً أعلـــى، بـــل أن تحـــرر، فقـــط، عنـــاصر المجتمع الجديـــد الـــذي يحملـــه المجتمـــع البورجـــوازي القـــديم الـــذي ينـــهار بـــين أضلاعـــه". فـــالظرف قصـــرت، في الواقـــع، التجربـــة علـــى بـــاريس. ولكـــن "كومونة باريس كان يجـــب أن تشـــكل، بـــالطبع، نموذجـــاً لكـــل مراكـــز فرنســـا الصناعيـــة الكبـــيرة الأخـــرى". وعلـــى الرغـــم مـــن الكلمـــات، فـــإن كومونـــة ١٨٧١ هـــذه لا تذكـــر، في شـــيء، بكومونـــات القـــرون الوســـطى. "إنـــه، بصـــورة عامـــة، قـــدر التشـــكيلات التاريخيـــة الجديـــدة أن تعـــد، خطـــأ، نســـخة عن أشكال أقـــدم، بـــل وعـــن أشـــكال انطفـــأت، للحيـــاة الاجتماعيـــة يمكـــن أن تكـــون لهـــا بعـــض وجـــوه الشـــبه معـــها". "لم يكـــن ينبغـــي أن تحطـــم وحـــدة الأمة"، بـــل أن يوجـــد مضمـــون جديـــد وأشـــكال جديـــدة "في هـــذه الخطـــوط الكبـــيرة للتنظيـــم القومـــي الـــذي لم يتوفـــر للكومونـــة الوقـــت لتوســـيعها". "ووحـــدة الأمـــم الكبـــيرة أصبحـــت، الآن، علـــى الرغـــم مـــن أن العنـــف هـــو الـــذي ولدهـــا في الأصـــل، عـــاملاً قويـــاً في الإنتـــاج الاجتمـــاعي" لا ينبغـــي أن تدمـــر، بـــل يجـــب أن توجـــد، إذ يكـــون المنتجـــون في الســـلطة، نمـــاذج أخـــرى خلاف المركزيـــة البورجوازيـــة القصـــوى.

ولا يتحدث ماركس، في "الحرب الأهلية"، بصدد كومونة باريس، عن "ديكتاتورية البروليتاريا". ففي عام ١٨٩١، فقط، سيكتب أنغلز، في سجاله مع "الاشتراكي الديمقراطي"، قائلاً: "أتريدون، أيها السادة، أم تعرفوا ما الذي تشبهه هذه الديكتاتورية؟ انظروا إلى كومونة باريس!".

وبعبارة أخرى، يريد ماركس، ما وراء الحدث، الوصول إلى ما يعرّفها، بصورة أساسية وتاريخية، ويجعل منها ممارسة احتماعية يصبح من الممكن، فيها، استخلاص نتائج نظرية -تتصل بالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية. ذلك هو، في نهاية التحليل، المعنى الذي ينبغي إعطاؤه هذه العبارة لماركس القائلة "إن القياس الاجتماعي الكبير للكومونة كان وجودها الخاص".

فمنذ ١٨٧١، إذن، وبعد أسابيع قليلة انقضت على الهزيمة، وفي حين كان القمع ما يزال يضرب رجال الكومونة، افتتح النقاش حول دلالة الحدث. وسوف يستمر. أكانت الكومونة حقل تجربة؟ نعم. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، خطاً فاصلاً بين اشتراكية الأمس الفرنسية، تلك التي رسمنا مسارها منذ سان سيمون (كي لا نعود إلى بابوف وإلى أصول أبعد) والاشتراكية التي ستتطور منذ ذلك الحين، لأن الكومونة لا يمكن أن تفهم، من حيث خياراتها، دون اشتراكية الأمس هذه، ولكنها، بسبب "وجودها"، وحده، طرحت المسائل التي ستبحث الاشتراكية والحركة العمالية عن حلولها بتحولهما، هما بالذات، في سياق اقتصادي واجتماعي سيكون، هو الآخر، مضطرباً. فكل المسائل طرحت فعلاً: طبيعة الدولة، المركزية أو الاتحادية، دور الروابط العمالية، "نزع ملكية منتزعي الملكية"، أشكال إدارة الاقتصاد في عالم "جماعي"، العلاقات بين الديمقراطية والاشتراكية، الوطنية والأممية، العفوية والتنظيم، الثقة بالردود "الغريزية" أو تمثل مذهب علمي، ضرورة حزب سياسي وتعريف هذا الحزب إلخ... وحتى ولو لم يتبين جيداً، عام ١٨٧١، ما الذي كان على

أهبة الولادة، فإنه يلاحظ، بدرجة كافية من الوضوح، ما الذي كان يموت مع مقاتلي الأب-لاشيز.

هذا ما تؤلف كومونة باريس، من أجله، منعطفاً حاسماً. فلم يعد يمكن للحركة العمالية والاشتراكية أن تكونا ما كانتا عليه صبيحة ١٨ آذار. وإنه لمن قبيل المبالغة أن يقال أن هذه الأيام الاثنين والسبعين قد "هزت العالم". ولكن ما يبدو غير مشكوك فيه هو أنها "هزت" تاريخ الاشتراكية.

الفصل الثالث

بدايات الاشتراكية البلجيكية

جاك دروز

تاريخ الاشتراكية في بلجيكا حتى زوال الأممية الأولى يعكس، في كثير من النقاط تاريخ الاشتراكية الفرنسية: تكاثر المذاهب "الطوباوية" الأكثر تأخراً، دون شك، من فرنسا، ولكنه يمتد إلى الخمسينات بعمل الجماعي "العقلاني" البارون دو كولان، نفوذ برودون السائد خلال الستينات، تأثير عظيم لأممية في تكوين الروابط العمالية الأولى التي توجه مناضلوها نحو نزعة عمالية مصطبغة بالفوضوية باستثناء المناطق الفلمنكية، على كل حال، حيث يتسرب تأثير الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. إلا أن العرض سيظهر، داخل الاشتراكية البلجيكية، عدداً من السمات الأصيلة التي سوف تتضخم خلال الفترة التالية.

الاشتراكية الطوباوية البلجيكية. فكر دو كولان

بدت الاشتراكية الطوباوية البلجيكية، خلال عدة عقود، مرتبطة بالتأثيرات التي كانت تستطيع تلقيها من فرنسا. وبروكسيل هي التي كان فيليب بوناروتي قد كتب، فيها، دراسته الشهيرة حول "مؤامرة العادلين" التي صنفت ونشرت بجهود الجمهوري لويس دو بوتر. وغداة ثورة ١٨٣٠، سمحت حرية الدعاية بدخول الكتابات السان سيمونية التي نشرها "المنظم البلجيكي" وكتابات فورييه التي كان لها بعض الصدى في "الراديكالي" (١٨٣٨) وفي "المناقشة الاجتماعية" التي كان يسهم في تحريرها أدولف بارتل وألكسندر ديلاس ولوسيان جوتران. وكان أول مفكر منهجي الفلمنكي جاكوب كاتز، ابن ضابط هولندي

لجأ إلى بروكسيل بعد ١٨٣٠، الذي يدافع عمله، خاصة، عن التحرير الديني والثقافي للعمال معتبراً، كلويس بلان، أن إرساء أسس الرخاء العام يعود إلى الدولة بتشجيعها التعليم والاقتراع العام ونظاماً تصاعدياً للضرائب. وبفضل دعم الديمقراطي جوتران، أصدر جريدة "صديق الشعب". ونظم، وهو المخرج والممثل في فرقة مسرحية صغيرة، الاجتماعات العمالية الأولى. لكن الحياة السياسية التي تسودها الصراعات الدينية ومسائل عداء الكهنوت لا تدع، في الواقع، للطبقات المستغلة سوى القليل من أوقات الفراغ للتفكير في المسائل الاجتماعية. واقتصرت الحلقات الاشتراكية على عدد صغير من المثقفين. وسوف يكون جمهور مؤلف من رجال سياسة وقضاة وضباط وموظفين كبار هو الذي سيأتي فكتور كونسيديران، عام ١٨٤٥، ليعرض أمامه مذهبه. وكذلك، فلم تمس الرابطة الديمقراطية التي شغل ماركس نيابة رئاستها خلال منفاه البروكسيلي (١٨٤٥-١٨٤٧) والتي كان لها إشعاع واسع في أوساط المهاجرين العامل البلجيكي إلا مساً ضعيفاً. فلم تكن لغة ماركس وأصدقائه في "جريدة بروكسيل الألمانية" مفهومة منهم أبداً.

وإلى الاشتراكية الطوباوية ينتمي مؤلف البارون دو كولان العويص الذي نميز، فيه، أول تجل للجماعية في بلجيكا. وكان جان هيبوليت دو كولان المولود في أسرة كانت تدعي أنها من سلالة شارل الجسور قد وفد على باريس بقصد الدخول في مدرسة البوليتكنيك، ولكنه أصبح عسكرياً محترفاً في عهدي الجمهورية والإمبراطورية وبقي حتى التنازل الثاني عن العرش وفياً لنابليون وفاء لا يهتز. ثم غدا مزارعاً وطبيباً في كوبا، في عهد دولة النظام الملكي، ومتآمرا بونابرتياً في فيينا، ثم طالباً في باريس. ونشر، عام ١٨٣٤، كتابه "الميثاق الاجتماعي" حيث يظهر، فعلاً، على الرغم من ليبرالية أصيلة، عدداً من الآراء القريبة من الاشتراكية الإصلاحية: فقد كان يجعل من العدالة الاجتماعية الشرط

الأساسي لكل حرية سياسية، وهو ما ألهم به برودون. ومع ذلك، فلم ينشر كتبه الرئيسية، وخاصة "الاقتصاد السياسي، مصدر الثورات والطوباويات الاشتراكية المزعومة"، عام ١٨٥٦، إلا بعد ثورة ١٨٤٨ التي سجن خلالها بسبب اشتراكه في أيام حزيران. ونشر، بعد وفاته (١٨٥٩)، كتابه "حول العدالة في العلم، خارج الكنيسة والثورة".

كان كولان فيلسوفاً يدعي التوفيق بين نفي وجود الله وخلود الروح الفردي. وكان، وهو معاد للمادية عداء عميقاً، يشرح أن الروح التي لا تدين بوجودها لأية قوة فوق الطبيعة تعيش حياة أزلية وغير قابلة للتدمير، معيدة التقمص في أجساد متعاقبة: وهو امتياز خلود محتفظ به للإنسان، في حين تنتمي جملة الحيوانات إلى عالم المادية. وأضاف كولان إلى هذه الميتافيزيساء فلسفة تاريخ قريبة إلى درجة كافية من فلسفة سان سيمون وأوغست كونت، كانت تميز ثلاث مراحل هي مراحل الإيمان والريبة والعلم: فقد عاش الإنسان، في الأزمنة الأولى، حياة مادية خالصة كان يجهل، فيها، حقوقه ويسودها قانون الأقوى ونظرية الطاعة الدينية (عهد الإقطاعية اللاهوتية)، ثم تحرر، بفضل تقدم التقنية، من القيود البطريركية وأخرى، متذرعاً بـ"عدم قابلية الفحص للضغط"، نقداً عاماً للمؤسسات الراسخة (عهد الفلسفية الديمقراطية)، وأخيراً، وخلال فترة ثالثة، كان عليه أن يرجح العقل على الآراء والمعتقدات (عهد سيادة العقل). أما بالنسبة للاقتصاد السياسي الذي كان يعلمه كولان والذي يرجع، طواعية، إلى ج.ب.ساي، فقد كان يستند إلى ثنائية رأس المال-العمل التي لم تكن، في نظره، سوى ثنائية المادة والروح اللامادية: "عندما يكون حجر الزاوية في البناء الاجتماعي هو الإيمان (الديني أو اللاديني، الذي يجسد الله على صورة البشر أو المادي)، فإن حجر الزاوية في البناء الاقتصادي هو سيطرة رأس المال. وعندما يكون حجر الزاوية للبناء هو العلم، فإن حجر الزاوية للبناء الاقتصادي هو سيطرة العمل".

ومن أجل تحريض حلول العلم، عرف كولان ما سماه، هو نفسه "الاشتراكية العقلانية"، أي الاشتراكية المستندة إلى سيادة العقل. والريبية الناجمة عن خفض قيمة العقل هي، وحدها، القادرة على تفسير الشغف العالمي بالديمقراطية وسيادة الشعب وأرجحية الآراء الفردية. وبالمقابل، فإن البرهان على خلود النفس، بإقامة العقل على المطلق والكشف عن البعد الأزلي للإنسان وحقيقة نفسه وحريته ومسؤوليته ووجود النظام الأخلاقي، قادر على تجديد حيوية البشرية وجعلها تقبل تنظيماً اجتماعياً عقلانياً بصورة مطلقة، أي لا اعتراض عليه (إيفو رانز). ومن المهم بناء المجتمع الجديد على أولوية الحرية الحقيقية للجميع. والاشتراكية العقلانية ترمي إلى إحلال تطور إرادي وقائم على العقل محل التطور العشوائي للمجتمعات. والميتافيزياء العقلانية، ببرهانها على خلود الأرواح وحقيقة الحرية ووجود مكافآت وعقوبات أخلاقية، تؤدي، بالضرورة، إلى بناء مجتمع مؤسس على الإنسان. إلا أنه ما من حرية اجتماعية حقيقية ما لم يتوفر لكل الأفراد وصول متساو إلى الثروات الثقافية وما لم يحافظ التنظيم الاجتماعي على سيطرته على الثروات المادية بواسطة منافسة متحررة من النير الرأسمالي. وسوف تبدو الاشتراكية العقلانية، في نهاية المطاف، ليبرالية مطلقة متحررة من الإقطاعيات المالية.

فنظام كولان، إذن، ضد التدخلية وضد التوجيهية بمعنى أنه لم يكن يعترف بسلطة أخرى خلاف سلطة العقل. ويكتب كولان الذي يتذكر فورييه قائلاً: كل ما هو قائم على القسر هش ويعبر عن غياب للعبقرية". وكان يرمي، بصورة أساسية، إلى أن يؤمن لكل البشر، دون استثناء، مبادئ حرية، ولكن هذا المطلب يفترض:

١- أن ترسخ الحقيقة في عقول الناشئة عن طريق التربية والتعليم من أجل أن تقوم، بين الأفراد، إمكانية منافسة حرة.

٢- أن يباد الإملاق بجمعنة الأرض ورؤوس الأموال التي راكمتها

الأجيال السابقة: جمعنة يجب أن تكون، لتصبح ناجحة، من صنع مجتمع أصبح، فعلياً، شراكة بين الجميع وليس بين الأقوى وحدهم.

٣- أن يعطي المجتمع كل فرد "بائنة اجتماعية" لدى دخوله الحياة الفعالة.

فكولان حُمل، إذن، على الاحتفاظ بدور للدولة هو خلق أسس عمل صحيح للاقتصاد الليبرالي. وما دام العامل في حاجة إلى حماية، فذلك يعني أن العمل لا يسطر على رأس المال وأن المنافسة تجري بمعيار القوة أي، بإيجاز، إن البشرية مستعبدة. ولا يدعي كولان، أبداً، استبعاد المصلحة الفردية، بل هو يعيد الاعتبار، على العكس من ذلك، إلى مدلولات الربح والملكية الخاصة، وحتى الوراثة. ولكنه لا يمكن، أيضاً، في نظره، أن تترك الأمور لمصلحة المصالح المادية أو الشخصية كما يدعي علماء الاقتصاد البورجوازيون. فلا يمكن للنظام الاجتماعي أن يكون نظام أكثرية أو أقلية، بل نظام الجميع، أي منشأ عقلانياً. وكذلك تبدو حلول الماضي السياسية-الإقطاعية التيوقراطية أو البورجوازية الديمقراطية-، على الصعيد السياسي، عندما يحدَّد بصورة غير قابلة للمناقشة، عقيمة كلياً لأنها مشوبة، جميعها، بالوهم القائل أن في مقدور البشر أن يمارسوا السيادة. ويرى كولان، فضلاً عن ذلك، أن حلول الاشتراكية العقلانية يقتضي "تحولاً" حقيقياً في الأذهان. ولذلك، فهو محمول على تصور "طور وسيط" من الديكتاتورية يحقق، فيه، "أوتوقراطي"، "من أعلى"، الثورة الضرورية في العقول وهي الشرط الذي لا بد من توفره لإبادة الإملاق الأخلاقي، سبب الإملاق المادي. ولذلك يرى من الضروري أن يتولى المجتمع نفسه إعالة الأطفال حتى سن الرشد. وهو يكتب ما يلي: "ضرورة فصل تلاميذ المجتمع المقبل عن عادات المجتمع الحالي مطلقة".

وعلى الرغم من أن رؤى تنبؤية حول مستقبل البشرية يتخلل عمل

كولان، فقد كان له تأثير حقيقي، ولكنه مقتصر على أوساط ضيقة. وقد أقام كولان علاقات مع السياسي لويس دو بوتر الذي كانت أفكاره الاجتماعية مطبوعة بقراءة لامونيه. وسوف ينشر ابنه، أغاتون دو بوتر، عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧١، كتابين بروح كولانية، "المنطق" و"الاقتصاد الاجتماعي"، وسوف يعرّف بأفكار المعلم من خلال "فلسفة المستقبل، مجلة الاشتراكية العقلانية" التي ستعيش حتى عام ١٩٠٦. ولن يكون سيزار دو باب غير حساس لهذه الأفكار. وكان لهذه الأخيرة، أيضاً، إشعاع في إسبانيا بفضل رامون دولا ساغرا، وفي سويسرا بفضل هوغنبلوتر. ويجب أن نلاحظ، أخيراً، أن الفلمنكي نابليون دو كايزر، مؤلف كتاب حول "الحق الطبيعي" (١٨٥٤)، قد طوّر آراء مماثلة لآراء كولان حول الإقطاعيتين-إقطاعية ملاكي الأراضي وإقطاعية الصناعات-اللتين يجب أن يعارضهما العمال بصورة متساوية وحول جمعنة الأرض، بفارق واحد هو أن جمعنته كومونية، في جوهرها، كما كانت الحال، غالباً، في بلجيكا.

الاشتراكية البلجيكية في فترة الكومونة الأولى، سيزار دو باب

لم تلعب الاشتراكية سوى دور ثانوي جداً في أحداث ١٨٤٨، ومصادمات "فلنجازف بكل شيء"، على الحدود، كانت غريبة غرابة مطلقة عن الحركة الاجتماعية البلجيكية. ومن المؤكد أن بعض المطالب ذات الطابع الاشتراكي قد ظهرت في الصحافة الديمقراطية، خاصة في جريدة "العامل"، في مدينة ليبج، و"الأمة" في بروكسيل. وصدرت نشرات متنوعة تجاورت، فيها، الشكاوى حول مصير الطبقة الكادحة مع مطالب حول تنظيم العمل، من بينها "كتاب تعاليم البروليتاريين" لفكتور تيديسكو-معاون ماركس وأنغلز في صياغة "البيان الشيوعي"- الذي يتميز بلهجته الموضوعية وبيانه أن التحسين المادي لمصير العمال يمر

عبر الاستيلاء على السلطة السياسية، وبالتالي، بالاقتراع العام. إلا أنه لا يظهر، في أي مكان، اهتمام بتنظيم الجماهير: فعلى الرغم من عدة انتفاضات معزولة، كان العمال البلجيكيون أشد بؤساً من أن يملكوا النابض المعنوي الذي يجعل منهم ثائرين. وهذا التسليم الذي تسهله الممارسة الدينية سوف يتجلى زمناً طويلاً أيضاً.

وبعد ثورة ١٨٤٨ التي كان لها، لدى الشباب، بعض الصدى والتي تلتها فترة رجعية طويلة، كانت الأفكار الاشتراكية من شأن مهاجرين سياسيين. وفي الخمسينات، لم تكن الصحافة الاشتراكية ممثلة إلا بجريدة "البروليتاري"، وهي أسبوعية فوضوية كان يديرها نيكولا كولون الذي كان يهاجم النظام القائم بقوة ولكنه حكم بعقوبة السجن لإبدائه الاحترام لمرتكبي محاولة قتل ضد نابليون الثالث. وفي عام ١٨٥٤، تأسست "جمعية التحرير" التي كان هدفها تأمين الدفن المدني لأعضائها، ولكنها سرعان ما أصبحت نواة عقلانية يصادف، فيها، بورجوازيون تقدميون وحرفيون ميالون إلى الاشتراكية. وفي عام ١٨٥٧، انفصل عنها من يسمون "المتضامنين" الذين ستخرج من بين صفوفهم حركة "الشعب" والذين أخذوا على أنفسهم مهمة نشر الكتابات الاشتراكية وتنظيم العمال على الصعيد القومي مستخدمين، لهذا الغرض، أكثر التجمعات العمالية قتالية. وجريدتهم، "منبر الشعب" هي التي ستتولى، اعتباراً من عام ١٨٦٥، دعاية الأممية الأولى التي ستصبح الناطقة الرسمية بلسانها في بلجيكا.

وفي هذه الفترة وصلت البرودونية في بلجيكا إلى أوج نفوذها، وذلك في أكثر الأوساط تنوعاً. ويبرز مؤتمران جامعيان، في ليبج، ١٨٦٥، وفي بروكسيل ١٨٦٧، سعة تأثيرها لدى الطلاب. فاعتباراً من ١٨٦١، بدأ هكتور دنيس الشاب الذي كان، في السابق، "فوريرياً متحمساً" في عرض المذهب البرودوني في الحلقة الأدبية لجامعة بروكسيل. وبين

١٨٦٦ و١٨٦٨، صـدرت "جريـدة الطـلاب" الـتي كـانت تبشـر بالإلحـاد. وانسـحبت "الضفـة اليسـرى" مـن بـاريس إلى العاصمـة البلجيكيـة لتسـتطيع تخليـد عبـادة بـرودون الـذي تـوفي عـام ١٨٦٥، وجمعـت "الحريـة" مثقفـين تقدميـين معنيـين بالبرودونيـة سـيخدمون، عـام ١٨٧١، قضيـة الكومونـة. وتجـاوزت الأيديولوجيـة البرودونيـة الأوسـاط المثقفـة تجـاوزاً واسـعاً. وتشـهد المكتبـات الشـعبية علـى إشـعاعها في الورشـات وحـتى في أعمـاق الريـف حيث استعملت ضـد نفـوذ الكـهنوت.

وكـان نشـاط الأممية في أصـل الحركـة العماليـة البلجيكيـة، خاصـة بفعـل المساعدات الـتي قدمتـها للإضرابـات، كمـا كـانت الحـال في البوريناج عـام ١٨٦٨. وفي كـانون الأول مـن السـنة نفسـها سيتأسـس المؤتمـر العـام للفـروع البلجيكيـة المكـون، بصـورة أساسـية، مـن عمـال والـذي يجـب أن يعد أول منظمـة اشـتراكية بلجيكيـة والـذي حلـت جريدتـه، "الأمميـة" محـل "منـبر الشـعب"، وظـهرت، آنـذاك، صحـف اشـتراكية، مثـل "مـيرابو"، في فيرفييـه، و"العـامل"، في أنفـرس، الـتي كـان يديرهـا الحـذاء فيليـب كونـن. وبتأثير الأمميـة خلقـت، في فـايت، أول تعاونيـة اسـتهلاكية. وبسـرعة كبـيرة، أصبحـت فـروع الرابطـة الدوليـة للعمـال بـؤر تحريـض. ومسـت الدعايـة البروليتاريـا الصناعيـة، خاصـة في النسـيج والفحميـات، أكـثر منـها في أي مكان آخر، على الرغـم مـن أن ذلـك كـان بصـورة متناوبـة ومؤقتـة. وعلـى كل حـال، فـإن الفكـر الحـر شـق، في كـل مكـان، الـدرب أمـام الحركـة العمالية المنظمـة وكـون أطـر الأمميـة. واسـتأنفت فـروع الأمميـة الحيـاة عـام ١٨٧١ بعـد أن وضعـت موضـع مسـاءلة بسـبب الحـرب الفرنسـية-الألمانيـة وقمـع الكومونـة، وخلقـت نقابـات مهنيـة. وكـان الانشـقاق الـذي حـدث بعد مؤتمر الأمميـة في لاهـاي (١٨٧٢) هـو أصـل الانحسـار الـذي تسـارع بـه انعدام الأطر المتينة علـى المسـتوى المحلـي.

ولم تخـل الاشـتراكية البلجيكيـة، في عـهد الأمميـة مـن خلافـات أيديولوجيـة:

فأوجين هان، سكرتير الفروع البلجيكية، تضامني، والصحفي ليون فونتين برودوني ثابت، و"المتحررون"، حول جان بيلرينغ، فوضويون وباكونيون. والوجه المركزي هو وجه سيزار دو باب الذي سيمارس تأثيراً حاسماً على الاشتراكية البلجيكية. ودو باب الذي كان عاملاً في مطبعة ديزيريه بريميه الذي سيصبح حماه، في بروكسيل، تابع دروس جامعة غاند في الحقوق والطب وأسهم في تأسيس الصحف الاشتراكية الرئيسية خلال الستينات، وخاصة "منبر الشعب"، وشارك في تحرير جريدة "الضفة اليسرى" الباريسية التي كتب، فيها، إلى جانب لونغيه ولافارغ. وكان مواظباً، أيضاً، على اجتماعات الجمعيات العقلانية وجمعيات الفكر الحر التي شكلت، بالنسبة إليه أيضاً، الطريق إلى الاشتراكية. وكان، آنذاك، تحت تأثير برودون الذي عرف مذهبه في خطابه في باتيني (١٨٦٣).ولكنه كلف بأن يقدم إلى مؤتمر الأممية في بروكسيل برنامجاً ذا روح شيوعية دقق فيه، أيضاً، في مؤتمر بال، في السنة التالية، ودافع عنه، بسلطة، ضد جريدة "الحرية" البروكسيلية. ولا شك في أنه عانى، خلال هذا الوقت، تأثير كولان وماركس. إلا أنه ابتعد عن آراء مجلس لندن العام عندما انبثق، داخل الأممية، الصراع بين الماركسيين والباكونيين. فقد أحس، مثل معظم أصدقائه البلجيكيين، بشيء من الريبة حيال الدولة المركزية التي اعتبرها هدامة لكل ثقافة. ولكنه، بسبب مرونته وميله للتسامح، تبنى موقفاً متوسطاً، مؤيداً لاتحادية معتدلة ضد "الدولة الشعبية" المركزية والتصورات الفوضوية لكومونة تحكم ذاتها. والواقع هو أنه كان مشغولاً، خاصة، بمسائل الإدارة. وضمن هذه الروح نشر، عام ١٨٧٤، بمناسبة مؤتمر الأممية المضادة للاستبدادية الذي انعقد في بروكسيل، كتابه حول "تنظيم العلاقات العامة في المجتمع المقبل" الذي يؤيد، فيه، اللامركزية السياسية والمركزية الاقتصادية. فقد كتب يقول: "يجب أن تصبح الكومونة بصورة أساسية، جهاز الوظائف العامة...

وتصبح الدولــــة، بشـــكل أساســـي، جـــهاز الوحـــدة العلميـــة والأشـــغال العامـــة الكبيرة اللازمـــة للمجتمـــع".

وفي منتصف السبعينات، وغـــداة تفـــرق فـــروع الأممية، مـــا نـــزال بعيديـــن جـــداً عـــن تشـــكيل حـــزب اشـــتراكي في بلجيكـــا. إلا أن القواعـــد التعاونيـــة كـــانت متينة فعـــلاً: ففـــي بروكسـيل، قـــام بعـــض العمـــال الشـــباب الواقعيـــين، عـــام ١٨٧٤، بتأســيس غرفـــة عمـــل نظمـــت محـــاضرات ودروســـاً عرضـــت، فيـــها، الأنظمة الاشـــــتراكية. وأمـــن برودونيـــون، مثـــل بـــول جـــانون وهكتـــور دنيـــس ولويـــس برتـــران الشـــاب، مـــؤرخ الاشـــتراكية البلجيكيـــة المقبـــــل، أعمـــــال الســـكرتارية، وألقـــى، فيـــها ســـيزار دو بـــاب دروســـه الشـــهيرة في "الاقتصـــــاد الاجتماعي". وفي غـــاند، كـــان مركـــز النشـــاط تعاونيـــة عمـــال النســـيج القويـــة التي كـــرس لهـــا إميـــل مويســـون الأساســـي مـــن نشـــاطه المثمـــر وخلفـــه، بعـــد وفاتـــه، إدمـــون فـــان بافـــيرن الـــذي أدخـــل الأفكـــار الماركســـية إلى بلجيكـــا. وكـــانت جريدتهـــم "العـــامل" الـــتي هـــاجرت مـــن أنفـــرس إلى غـــاند. ولكـــن الوحدة كـــانت صعبـــة التحقيـــق بـــين هـــذه التجمعـــات المختلفـــة: ففـــي نهايـــة ١٨٧٦، عقـــد اجتمـــاع بغـــرض خلـــق "اتحـــاد عمـــالي بلجيكـــــي". ولكـــن الخلافـــات ظـــهرت بـــين الاشـــتراكيين الفـــالونيين الذيـــن مـــا زالـــوا مطبوعـــين، خاصـــة مـــن فيرفييـــه، بـــالتحريض الفوضـــوي والمعـــادين لكـــل نشـــاط سياســـي والفلمنكيين الذيـــــن كـــانوا يرغبـــون في تقليـــد الحـــزب الاشـــتراكي-الديمقراطـــي الذي تأســـــس في غوتـــا. فيبـــدو، إذن، أن التوجـــه كـــان، في ذلـــك التـــاريخ، إلى تشكيل حزبين، أحدهمـــا فلمنكـــي والآخـــر فـــالوني.

يمكـــن الاحتفـــاظ، مـــن هـــذه الدراســـة للاشـــــتراكية البلجيكيـــــة، بســـــمتين كبيرتين تشكلان الطـــابع المميـــز للاشـــتراكية البلجيكيـــة.

- فهناك، أولاً، الصلة بـــين الاشـــتراكية، مـــن جهـــة، وتجليـــات الفكـــر الحـــر، بل والإلحادية المناضلـــة مـــن جهـــة أخـــرى. وكـــانت هنـــاك قناعـــة في الأوســـاط الاشتراكية بأن الفكـــــر المتقـــدم يجـــب أن يمـــر، بـــالضرورة، بالماســـونية. وكـــانت

تلك نتيجة التأثير المبثوث لعقلانية كولان وأوغست كونت، أيضاً، على مثقفين عديدين كانوا قد انتموا، أولاً، إلى الجناح اليساري لليبرالية ولكنهم اتجهوا، في جريدة "الحرية"، نحو الاشتراكية البرودونية. وسمح عداء مناضل للإكليركية بالخلط بين النضال ضد الكنيسة والنضال ضد النظام الرأسمالي.

- ثم هناك المكانة الكبيرة التي أعطاها الاشتراكيون البلجيكيون لمبدأ اللامركزية الإدارية والوظيفية دون الوصول، على كل حال، إلى النفي الفوضوي للدولة. والحزب نفسه يجب، في نظرهم، أن يكون منظمة اتحادية قائمة على جماعات عمال اقتصادية، على تعاونيات وتضامنيات، بحيث يستطيع أن يصبح، فعلاً، التعبير عن طموحات كل العمال في مختلف وجوه فعالياتهم المهنية. ويبدو التضامن العمالي، هنا، المحرك الأساسي للفكر الاشتراكي. وضمن هذا المعنى كانت تجربة فوورويت غاند، لعام ١٨٨٠، التي سيخرج منها الحزب العمالي البلجيكي ماثلة، من قبل، في روح رواد الاشتراكية البلجيكية.

الفصل الرابع

الاشتراكية الإنكليزية من ١٨٤٨ إلى ١٨٧٥

فرانسوا بيداريدا

خيل إلى تقليد تـــاريخي كـــامل أنـــه يمـــيز، في نمـــو الاشـــتراكية الإنكليزيـــة، زوالاً شبه كلـــي، لحـــوالي ثلاثـــين ســـنة، بعـــد ١٨٥٠. فبعـــد فشـــل مظـــاهرة ١٨٤٨ الميثاقيـــة، ضعـــف الشـــلال الهـــادر ثم ضـــاع في الرمـــال كـــي لا ينبثـــق، مـــــن جديد، إلا بعـــــد ١٨٨٠ بفضـــل تيـــارات الماركســـية والفابيانيـــة الجديـــدة:وهـــذا عبـــور طويـــل للصحـــراء كـــان مـــن شـــأنه أن يســـمح للاشـــتراكية أن توضـــح أفكارهـــا وللعماليـــة بالرســـوخ في أرض صلبـــة. وذكـــرت، لتفســـير مثـــل حـــل الاستمرار هـــذا، عـــدة أســـباب: إحبـــاط العمـــال الذيـــن خـــابت آمـــالهم بجـــزر الميثاقيـــة، فشـــل حركـــات ١٨٤٨ الأوروبيـــة والرجعيـــة الـــتي انتصـــرت علـــى الصعيد الـــدولي، موجـــة الازدهـــار الصنـــاعي والتجـــاري الـــذي رفـــع، اعتبـــاراً مـــن ١٨٥١، الأجـــور وشـــجع التوفـــير والارتقـــاء الفـــردي، رفـــض الطريـــق السياسية التي يرتـــاب فيـــها العمـــال لمصلحـــة الطريـــق الاقتصاديـــة علـــى صـــورة الرابطـــة أو النقابـــات أو التضامنيـــات أو التعاونيـــات، موقـــف البورجوازيـــة التي بذلـــت جـــهدها لتجنـــب الصراعـــات الاجتماعيـــة ووضعـــت بـــين العمـــال والثـــورة أيديولوجيـــة وأخلاقيـــة لتعـــاون الطبقـــات، وأخـــيراً تأثـــير السياســـيين الراديكـــاليين البـــارعين في حجـــز الطاقـــات العماليـــة في الاتجـــاه الإصلاحـــي والفرداني لصالح الحـــزب الليـــبرالي.

ومع ذلك، فإذا لم يكن أي مـــن هـــذه المعطيـــات عرضـــة للمناقشـــة، فـــلا يمكـــن اعتبار الربـــع الثـــالث مـــن القـــرن التاســـع عشـــر قطيعـــة كليـــة بـــين طوريـــن لازدهـــار الاشـــتراكية. فقـــد حـــدث، دون شـــك، تبـــاطؤ، ولكنـــه لم يحـــدث

توقف. والبارز هو العقم المذهبي في هذه الفترة، ولكن الممارسة العمالية للترابط لم تكف عن التقدم في البرهة نفسها. وعودة الميثاقية إلى الظهور وقوة الحركة التعاونية وولادة الأممية ومحاولات التمثيل العمالي في البرلمان شواهد على الجهود في اتجاه ديمقراطية اجتماعية. وعلى وجه الضبط، ردت عدة دراسات على التفسير الخطي للفترة.

إلا أن ما تغير هو المناخ الذي يدور، فيه، النشاط العمالي، أشكال المعركة. فهناك مقدار أقل من المطلق ومزيد من الحس العملي: فهناك استعداد لاتفاقات، لتسويات مع المجتمع الرأسمالي. وحلت محل الصوفية الكومونية براغماتية مصطبغة بالفردانية. وعوورضت كلمة "الجماعة" أو "الجماعية" الأوينية الرئيسية بالفضيلة الفكتورية. "ساعد نفسك بنفسك". وكردة فعل ضد الطوباويات، ضد خطط تحويل العالم وتجديد الطبيعة البشرية الواسعة، اتجه التفضيل إلى منجزات متواضعة ومحدودة. فتحسين ما هو موجود أفضل، على ما يبدو، من إرادة تغير كل المجتمع. ومن هنا الجهد المبذول لترتيب قطاعات محمية من شرور الرأسمالية، بفضل الترابط والتعليم.

كانت الاشتراكية ذات النموذج الأويني أو الريكاردي تستند إلى مسلمتين سرعان ما تحولتا إلى أمرين مؤكدين. وأولهما هي الفكرة القائلة أن النظم الرأسمالي سينهار قريباً. إلا أن ضروب نجاح حرية العمل، بعد ١٨٥١، أتت لتنسف هذه القناعة. فالرأسمالية الصناعية تتسع وتزدهر بدلاً من أن تحس بأن أيامها معدودة. أفلا يجب على العمال، إذ ذاك، من أجل الدفاع عن أنفسهم، أن يراجعوا تكتيكهم بواقعية؟ لقد حددوا مواقعهم في اقتصاد السوق سالكين عكس طريق الرسوليات التي تعلن أن الأزمنة قريبة.وإذا لم تكن السوق قد اعتبرت حالة دائمة، فقد اعتبرت، على الأقل، إطار وجود طويل الأمد. ومن جهة أخرى، لم يعدم منظرو النصف الأول من القرن الاشتراكيون، شهود الأزمات والبطالة والبؤس،

الذرائع للإدعاء بأن الرأسمالية لم تكن تحمل للعدد الأكبر سوى الإفقار بدلاً من أن تخلق الثروة. فقد كانت نظاماً مرادفاً للمنافسة القاسية، للخراب والرذيلة. إلا أن الوقائع ناقضت، اعتباراً من منتصف القرن، تشاؤمية هذه الرؤية الكارثية. فالتقدم لا ينكر في موضوع حركة الأجر الحقيقي وشروط العمل والمسكن المدني. والنظام الرأسمالي، في ذهن العمال باستثناء أدناهم حظوة، يحمل أملاً في التقدم الشخصي ما زال محدوداً وغير كاف، ولكنه مؤكد.

وربما أفاد الازدهار الفكتوري الرأسماليين أكثر مما أفاد العمال، ولكن فضائل العمل والتوفير التي كانت التقلبات الجائرة لاقتصاد فوضوي تعاكسها، حتى ذلك الحين، بدأت في أن تجد مكافأتها لدى أكثر الأجراء موهبة وصلابة. وترك اليأس الكئيب مكانه للآمال بالتحسين بالعمل والترابط. وأعطى تحسن مستوى الحياة كل واحد مزيداً من الاستقلال ومزيداً من فرص التعليم. ومضى التفاؤل، جنباً إلى جنب، مع بعض التبرجز. وقد صرح أحد قادة التعاونية، عام ١٨٦٣، قائلاً: "تاريخ العامل الإنكليزي يلخص في كلمة واحدة: التقدم". فأمام رأسمالية صناعية متينة، لم يعد الشعار الثورة، بل العمل التدريجي: الارتفاع مع الليبرالية الاقتصادية وبفضلها بدلاً من الإطاحة بها، واستخدامها كمنصة قفز لإدخال المزيد من العدالة والمزيد من الديمقراطية بمساعدة الليبرالية السياسية.

الاشتراكية المسيحية ١٨٤٨-١٨٥٤

مساجلات حول الديمقراطية المسيحية

ولدت الاشتراكية المسيحية، وهي تيار جديد وأصيل، فجأة، عام ١٨٤٨ وازدهرت خلال بضع سنوات قصيرة ثم تناثرت إلى مؤسسات تربوية وتعاونية وزالت. وهي لن تعود إلى الظهور إلا في نهاية القرن. وقد

كانت هذه الحركة المعاصرة لآمال ١٨٤٨ الإنسانوية والتي تحركها الروح المثالية نفسها، ولكنها مطعمة بمسيحية حقيقية، كانت هذه الحركة موضع أكثر التفسيرات تبايناً. وقد بدأت المساجلة مع مهاجمة ماركس، في "البيان الشيوعي"، للتحالف بين الاشتراكية "الإكليركية" والاشتراكية "الإقطاعية" (اشتراكية إنكلترا الفتاة)، وهو، كما قال، طبعة جديدة للتواطؤ القديم بين النبيل والكاهن: "ليست الاشتراكية المسيحية سوى الماء المقدس الذي يكرس، به، الكاهن أحقاد الأرستقراطية". وفي الطرف المقابل، ألح أتلي، في نص شهير، لعام ١٩٣٧، حول معنى العمالية، على الأسس الدينية للاشتراكية الإنكليزية. وهو يرى انه لا ينبغي النظر إلى حلقة سنوات ١٨٤٨-١٨٥٤ كهمزة وصل بين أوينية ١٨٢٠-١٨٤٠ والبعث الاشتراكي في سنوات ١٨٩٠-١٩٠٠ فقط، بل هي مركبة نوعية للتقليد الاشتراكي البريطاني الذي لم تنقطع الخميرة المسيحية عن التخمر داخله.

نوابض الحركة: لودلو، موريس وكنغسلي

تنجم الحركة التي ولدت بدفع من مجموعة صغيرة من الكهنة والعلمانيين، جميعهم من الطبقة الوسطى، عن التحريض الميثاقي مباشرة. وبالفعل، فلدى تجمع شعبي كبير في كومونة كننغتون، في ١٠ نيسان ١٨٤٨، التقى المؤسسون الثلاثة، لودلو وكنغسلي وموريس في الجو المتوتر لذلك اليوم المأساوي من أجل أن يتشاوروا حول الطريق التي يجب اتباعها لوضع حد لاضطراب النفوس. وقرروا العمل، وبعد يومين، كتبوا نداء إلى عمال لندن. وفي ٦ أيار، صدر العدد الأول من الأسبوعية "سياسة للشعب" المكرسة لعرض أطروحاتهم. ولم يكن هؤلاء البورجوازيون الحسنو النية وأصحاب القلوب الكريمة أقل انصداماً بفضائح الشرط العمالي منهم بضروب العنف الميثاقية. وبحثوا عن الدواء في إصلاح

مزدوج: روحي واجتماعي. وتوطد طموحهم الأساسي على جعل الاشتراكيين مسيحيين والمسيحيين اشتراكيين. وكان لكل واحد من هؤلاء المؤسسين، على الرغم من صلاتهم المشتركة، شخصيته الخاصة. فقد أعيد، مؤخراً، لجون مالكولم لودلو (١٨٢١-١٩١١) الذي أهمل طويلاً دوره الهام كرائد. وقد أمضى هذا المحامي المخلص، الفاضل ، شبه المتقشف كل شبابه في باريس التي حمل منها معرفة مباشرة بالتيارات الاشتراكية الفرنسية وتعاطفاً فعالاً مع المصلحين الاجتماعيين ذوي الأصول الكاثوليكية أو البروتستانتية. وعاد، من جديد، إلى باريس ليشهد ثورة ١٨٤٨. ولودلو الذي كان روح الاشتراكية المسيحية أدخل فيها، في الوقت نفسه، نفسه الديني وروحه العملية.

وكان فيدريك دينيسون موريس (١٨٠٥-١٨٧٢)، دماغ الحركة، مختلفاً جداً عنه. فقد أصبح، وهو سليل أسرة ملاكين عقاريين، قسيساً في الكنيسة الأنغليكانية وأستاذاً للتاريخ في جامعة لندن. وقد انفصل عن فلسفة الراديكاليين الذين كان قريباً منهم بإرادته الإصلاحية. وقد تأثر، هو نفسه، تأثراً قوياً بكولريدج وكارليل. وكان ودود الطبع ومتسامحاً. وفرض نفسه في دور المرشد العقلي للمجموعة بسبب سمو نفسه وتحمسه للمثل الأعلى. وكان مدفوعاً، مثل لودلو، بقناعات روحية عميقة وتقوى كبيرة وأراد أن يجعل من الكتاب المقدس شيئاً غير كونه أداة قداسة فردية: فيجب أن يصبح كتاب رجال الدولة. واشتراكيته تأتي، في خط مباشر، من مسيحيته: فهي، حسب تعبيره هو نفسه، "تجلٍ لأمر إلهي".

وجعلت مواهب أدبية لامعة وحس الدعاية وبلاغة حارة ومقنعة من تشارلز كنغسلي (١٨١٥-١٨٧٥) القسيس في خورنية ريفية في الهامبشاير ثم الأستاذ الجامعي الناطق الأكثر حظوة بالاستماع بلسان الحركة. وكان كائناً متحمساً، نشيطاً، كثير الحركة، شاعراً وداعية معاً،

سريع التحمس بقدر ما كان سريع الإحباط. ولم يكن يتمتع بأصالة فكر، وغالباً ما كان مشوشاً، إلا أنه كانت لديه موهبة الاتصال، سواء أكان ذلك في روايتيه الهادفتين، "الخميرة" (١٨٤٨) و"آلتون لوك" (١٨٥٠) حيث يصور بؤس العمال الريفيين والمدينيين، أم في كراساته، ولا سيما "الملابس الرخيصة والقذرة" الموجهة ضد نظام الاستتراف، أم في مقالاته وعظاته التي لا تحصى.

أسس الاشتراكية المسيحية

مصادر إلهام الاشتراكيين المسيحيين من مستوى اجتماعي وأخلاقي ولاهوتي معاً. فهم يقفون، على الصعيد الاجتماعي، في ارتكاس رفض متساو، ضد الميثاقية وضد الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. وهم يأخذون على الميثاقيين كونهم يشوهون قضية الشعب المستغل بلجوئهم إلى الديماغوجية والعنف. فالقادة الميثاقيون أنبياء زائفون يضللون العمال بسعيهم إلى أهداف سياسية، في حين أن الإصلاح الحقيقي يجب أن يكون اجتماعياً. فليس الميثاق هو الذي سيحسن الإنسان. ويخشى الاشتراكيون المسيحيون، وهم غير ديمقراطيين إلى حد بعيد، قوة الجماهير غير الملجومة: فيجب أن توجه وترشد (يتجند موريس، نفسه، كشرطي خاص متطوع، لاحتواء مظاهرة ١٠ نيسان ١٨٤٨ الكبيرة).

وتهاجم الاشتراكية المسيحية بما لا يقل عن ذلك قوة النظام الرأسمالي. فهي تدين، بشدة، المنافسة التي لا حدود لها ونظام السلعة واختزال الكائنات البشرية إلى أشياء. ولا يدور الأمر حول رد فعل عاطفي فقط، على الرغم من أن الغضب ينفجر أمام شروط الحياة البائسة المفروضة على العمال. بل هو موقف مبدئي ضد نظام الاستغلال، ضد سيطرة الروح المادية. فلا شيء يبدو أكثر معاداة للمجتمع ولا أكثر معاداة للمسيحية من حياة موجهة، بكاملها، نحو الاغتناء الفردي. فغاية الحياة

البشرية، في نظر مدرسة مانشستر، هي الاقتناء: وهذا منظور خداع لأن الأنانية تسود، إذ ذاك، ويحكم على المجتمع بالتعاسة واليأس. فمزاحمة حرية العمل تمضي، إذن، ضد خطة الله الذي يريد الحب المتبادل بين البشر: أن يكون هؤلاء "رفاق عمل لا خصوماً".

وبالتالي، فإن القضية الاجتماعية تختزل إلى قضية أخلاقية. فما يجب تغييره ليس المؤسسات، بل القلوب أولاً. وشرط التجديد الاجتماعي هو الاقتناع الداخلي. وضمن هذا المعنى، ليست المسيحية والاشتراكية من طبيعتين متنازعتين، بل هما متقاربتان في الجوهر. ويكتب لودلو قائلاً: "فالاشتراكية دون المسيحية تكون دون روح، كريش دون طائر، من جهة، والمسيحية دون اشتراكية جليدية وعاجزة". ونجد، هنا، تأثير الاشتراكيين المسيحيين الفرنسيين وتأثير بوشيه ولامونيه وثوريي ١٨٤٨ واضحاً.

وعلى الرغم من أن الأسس اللاهوتية ليست واضحة دائماً، فإنها تمثل مركبة لا تقل جوهرية من مركبات الحركة. فالاشتراكية المسيحية ترتبط، أولاً، بتقليد مسيحي طويل وحي يعود إلى الكنيسة الأولى التي تبشر بالاشتراك في الخيرات وتقتضي العدالة الاجتماعية وتنحاز إلى الفقراء والمحرومين. ومن جهة أخرى، فإن الاشتراكيين المسيحيين، بتأثير كولريدج وإنكلترا الفتاة، وعلى غرار بعض الاشتراكيين القاريين، يأخذون على أنفسهم إجراء المصالحة بين الكنيسة والشعب. ويجيب كنغسلي العمال الذين يشككون بحسن نوايا الكهنوت بأن الخلاص يقوم على اتباع "القائد السياسي الحقيقي" يسوع. ويأسف آلتون لوك، في كل صفحة، على انعدام الاتحاد بين الكهنوت والشعب. ويتلخص برنامج كنغسلي السياسي في عبارة: "الكنيسة والسادة والعمال ضد أصحاب الدكاكين ومدرسة مانشستر". وأخيراً، فإن الاشتراكيين المسيحيين يريدون كنيسة وطنية، متجددة الحيوية، شعبية ومعيدة حالة

مسيحية.

نمو الاشتراكية المسيحية

يمكن أن نميز في تاريخ الاشتراكية المسيحية، على الرغم من قصره، ثلاثة أطوار متعاقبة. و لم يدم الأول سوى بضعة أشهر، عام ١٨٤٨، عندما أخذت الحركة على نفسها مهمة معارضة أخطاء الميثاقية وحرية العمل باستراتيجية مسيحية للإصلاح الاجتماعي القائم على العدالة والمحبة. وكان هذا عهد المجلة الأسبوعية "سياسة الشعب" (أيار-آب ١٨٤٨) التي لم يتجاوز توزيعها ألفي نسخة وزالت بعد أربعة أشهر، ولكنها جمعت ألمع المشاركات. واعتباراً من عام ١٨٤٩ وحتى ١٨٥٤ تزايد الإلحاح على التجارب العملية، وخاصة على التعاونيات. وفي عام ١٨٥٠، أطلق موريس وكنغسلي "النشرات حول الاشتراكية المسيحية" (١٨٥٠-١٨٥١) "من أجل نشر مبادئ التعاون بتطبيق عملي للمسيحية على أهداف التجارة والصناعة". و لم تحرز هذه الدعاية سوى نجاح محدود لدى الجماهير العمالية مع تلقيها الإهانات من الأوساط التقليدية. واقتصرت المطبوعة التالية، "جريدة الترابط"، على نشر التعاونية. فقد تجمع حول لودلو، بعض رسل التعاونية المتحمسين: إدوارد نيل (١٨١٠-١٨٩٢)، توماس هيوز (١٨٢٢-١٨٩٦)، مؤلف "أيام توم براون المدرسية" ولويد جونز (١٨١١-١٨٨٦)، وهو عامل أويني. وقد قاموا بنشاط كثيف لإقامة روابط عمالية وإجراء تجارب تعاونيات إنتاجية وتشجيع نمو الاتحادات العمالية. وأصبح "تنظيم العمل" على طريقة لويس بلان شعار تجمعهم. وبعد عام ١٨٥٤، انطفأت الحركة بصورتها المنظمة، ولكن بعض أفكارها ظلت في العقول. والتفت موريس، إذ ذاك، نحو التربية العمالية (أسس وأدار "كلية الرجال العاملين") وشغف كنغسلي بالإصلاحات الصحية والنضال ضد المسكن

غير الصحية واستغرقت الحركة التعاونية لودلو كلياً.

معنى الاشتراكية المسيحية وتأثيرها

أراد الاشتراكيون المسيحيون الأوفياء لشعارهم: "الأخوة الروحية والتعاون العملي" فصل الفكرة التعاونية عن الإلحاد الأويني. وعملوا، كذلك، على قطع صلات الاشتراكية باللادينية أو باللاأخلاقية. وتجد التعاونية المطهرة، على هذا النحو، مكانها في منظور محبة ودعم متبادل مسيحي. والغرض المقصود من وراء شعار "التعاون ضد التنافس" المصالحة بين الطبقات، السلام الاجتماعي، إقامة نظام وفاق وتناغم، الوحدة العضوية للمجتمع.

وللوصول إلى هذا المثل الأعلى، بقيت مقترحات الاشتراكيين المسيحيين من أكثر المقترحات خفراً. فالملكية الخاصة تحتفظ، أولاً، بكل قيمتها منذ البرهة التي تستند، فيها، إلى غاية عادلة: "يجب أن تكون الملكية مصنوعة للإنسان، لا الإنسان للملكية" (كنغسلي). ومن جهة أخرى، يميل الاشتراكيون المسيحيون إلى مجتمع متسلسل وأبوي بدلاً من قبول الديمقراطية (يرفض لودلو وموريس الاقتراع العام). ولا شك في أنهم يتميزون عن أحرار إنكلترا الفتاة ذوي الصبغة الريفية بتوجههم، عمداً، بأنظارهم نحو المستقبل، نحو عالم الصناعة الجديد الذي يجب جعله مسيحياً، ولكنهم يشاطرونهم المثل الأعلى الرومنطيقي، مثل التحالف بين الأرستقراطية والشعب. فقد بدا لهم أن العمال عاجزون، إن تركوا لوسائلهم الخاصة، عن إيجاد طريق الخلاص-الروحي أو المادي. وكان كنغسلي يحب أن يكرر: "الشعب يحتاج إلى أن يقوده نبيل وكاهن".

ما الذي كان عليه، على وجه الإجمال، التأثير الحقيقي للاشتراكية المسيحية؟ أراد بعضهم أن لا يرى فيها سوى تحريض محدود ببعض الكنائس وبضعة منشورات دون قراء. والواقع هو أننا لا نستطيع، إذ

ذاك، تفسير الهجمات العنيفة التي تعرض لها الاشتراكيون المسيحيون من جانب الثوريين كما من جانب المحافظين. فقد اتهموا في أوساط الكهنوت العالي و"الطبقات العليا" بأنهم متآمرون يعاقبة خطرون وأنهم يريدون تخريب المجتمع. وفي جانب العمال، أسهموا، دون شك، في إضعاف الميثاقية: فقد كان سهلاً عليهم، أمام دعاية متقهقرة، أن يبرهنوا على أخطاء القادة ونواقص الميثاق. وفضلاً عن ذلك، كانوا، بفضل مواردهم الهامة، قادرين على نشر أفكارهم بين الطبقات الوسطى والعمال المتعلمين وعلى تمويل عدد من التجارب التعاونية. وأخيراً، وجدت طموحاتهم الإنسانية، في مناخ ١٨٤٨، بسهولة، صدى مهما بدا برنامجهم الاجتماعي مبهماً. وبقي مذهبهم ثقافي النزعة ومجرداً. وأرادت اشتراكيتهم لنفسها أن تكون اشتراكية للشعب لا بواسطة الشعب. وقد كانوا بروتستانتيين اجتماعيين أكثر مما كانوا اشتراكيين مسيحيين.

الحركة التعاونية

من التعاونيات القديمة إلى التعاونيات الحديثة

على الرغم من أن أوين هو الذي أعطى النظام التعاوني سمعته الطيبة، فإن الفكرة التعاونية أقدم بكثير. فالبدايات تعود، في بريطانيا، إلى منتصف القرن الثامن عشر. فحوالي ١٧٦٠، قرر عمال يشتغلون في ترسانات شاتان ووليتش تأسيس مطاحن تعاونية ليحددوا، هم أنفسهم، سعر الدقيق ويفلتوا من احتكار أصحاب المطاحن. وامتدت المبادرة التي انطلقت من المطاحن والمخابز إلى مهن أخرى. فظهرت مخازن تعاونية، دائماً تقريباً، بدفع من روابط عمالية وأجنحة نقابية. ولم تكن، بعد، سوى تجارب معزولة، فلا يمكن الحديث عن حركة. ومع ذلك، تأسست، من قبل، إلى جانب التعاونيات الاستهلاكية، بضع تعاونيات إنتاجية.

وحوالي ١٨٢٠، أعطت حظوة الأفكار الأوينية دفعاً جديداً لهذه العمليات. ونشرت الدعاية النشيطة لمودي وجمعية لندن التعاونية والاقتصادية فكرة محاسن التعاون. وفي أوربستون، في اسكتلندا، بدأت أول تجربة لمستعمرة أوينية على الأرض البريطانية. وفي الجنوب، كسبت حماسة الدكتور كينغ، في برايتون، أتباعاً جدداً للقضية. وجرى توسع سريع اعتباراً من ١٨٢٦-١٨٢٧. فقد نشرت صحف ونشرات بالمئات. وجرت تجارب في كل الاتجاهات. وتشكلت، بين ١٨٢٦ و١٨٣٠، ٢٥٠ رابطة احتفظ بأسمائها. وبقيت روابط أخرى كثيرة مجهولة. وكانت الحركة قوية في لندن، وفي اليوركشاير واللانكشاير ومنطقة برمنغهام، وانتقلت إلى اسكتلندا وأيرلندا. وأفلتت منها مقاطعة ويلز كلها تقريباً. وبدأت مؤتمرات تعاونيين في الانعقاد، بانتظام، اعتباراً من ١٨٣١.

وكان لدى هؤلاء التعاونيين الأوائل المطبوعين، جميعاً تقريباً، بالأوينية طموحات عالية. ألم يكن أوين، نفسه، يسمي المخزن التعاوني "المدخل إلى المجتمع الجديد"؟ فقد كان افتتاح مخزن من هذا النوع يعد علامة أولى نحو نظام تعاون كامل يشمل حياة جماعية وعملاً جماعياً. وهو ليس، فقط، وسيلة الإفلات من فظائع المنافسة الرأسمالية، بل هو بداية مجتمع تسوده المعونة المتبادلة والمساواة والأخوة. والنشيد الأويني الذي كان ينشده "أصدقاء نظام المجتمع العقلاني" يعلن أمل أتباع أوين:

مجتمعنا لم يعد يعرف خاصتك ولا خاصتي
في كل مكان ينتصر، فقط، ما هو خاصتنا:
هدفنا، غرضنا-خير الجميع.
ليس لدينا غني ولا فقير، لا أعلى ولا أدنى.

وقد ذكر ج.ج.هوليوك (١٨١٧-١٩٠٦) الذي لعب دوراً هاماً في الحركة التعاونية للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكنه كان قد

انحاز إلى القضية عن طريق الفكر الأويني الحر، ذكر، في كتابه "تاريخ التعاون" حرارة وإيمان هذه المجموعات الأولى من المتعاونين الشغوفين بالحياة الجماعية: "الذين كانوا يسمون، آنذاك، بصورة شائعة جداً، "اشتراكيين" كانوا شيوعيين. فقد كانوا يأملون في تأسيس مدن صناعية على أساس طوعي من الاستقلال الاقتصادي والإدارة الذاتية يجري، فيها، تقاسم الثروة بصورة عادلة بين كل الذين خلقوها بعملهم".

تلك هي المرحلة الأولى للحركة التعاونية. وهي تتصف بسمتين: مثل أعلى مرتفع-البعث الكلي للمجتمع-، والفشل الاقتصادي الكامل لكل التجارب. وفي عام ١٨٤٤، ولد، مع رواد روشديل، تصور آخر للتعاون أكثر تواضعاً، ولكنه أشد واقعية. وبدأت مرحلة أخرى مطبوعة بطموحات محدودة: فالروح العملية انتصرت على المثالية. وجاء النجاح الاقتصادي، هذه المرة، ليتوج هذه المحاولات. وأدى النجاح، عام ١٨٦٣، إلى خلق "تعاونية الجملة": واعتباراً من ذلك، بدأ الطور الحديث للتعاونية. و لم تتوقف الحركة عن النمو، ولكنها تزايدت بعداً عن الاشتراكية.

رواد روشديل المنصفين

في ٢١ كانون الأول ١٨٤٤، افتتح، في مستودع مهجور في زقاق صغير فقير من روشديل، مخزن من نموذج جديد سيجعل، في بضع سنوات، المدينة النسيجية الصغيرة الواقعة في اللانكشاير شهيرة في العالم أجمع. وقد أطلقت هذا المخزن المدار بموجب مبدأ تعاوني رابطة عمالية متواضعة تأسست قبل ذلك ببضعة شهور، "جمعية رواد روشديل المنصفين". وقد وجد، بين الرواد، عدد كبير من عمال النسيج المستخدمين في صناعة الصوفيات المحلية، ولكنه وجد، أيضاً، عمال قطن وحرفيون وعمال مطابع. وكان منهم تشارلز هاورث (المحرك الرئيسي) وجيمس سميز

ووليم كوبر. وكان مجموع عدد الشركاء ٢٧ فقط. وكانت أصولهم الأيديولوجية متنوعة: فكان من بينهم أوينيون وميثاقيون وأنصار لإلغاء قوانين الحبوب. ولكنهم كانوا، جميعاً، ممتلئين حماسة وأملاً. ومع ذلك، فالقليل من المشروعات هو الذي بدأ بمثل هذه الوسائل المتواضعة: فرأس المال الصغير جداً (المقترض، جزئياً، من نقابة عمال الحياكة) يبلغ ٢٧ ليرة إسترلينية واحتوى مخزون السلع الهزيل والمتباين على بضعة كيلوغرامات من السكر والزبدة وثلاثة قناطير من الدقيق وكيس من الثريد وبضعة شمعات، ولم يتجاوز سعرها، جميعها، سبع عشرة ليرة. وكان ذلك رهاناً حقيقياً بدا أن كل احتمالات الجمود أو الفشل مجتمعة فيه، لا سيما وأن الأمثلة السابقة لا توفر دوافع تشجيعية: فكل التعاونيات، تقريباً، انتهت إلى الإفلاس. وكان النشاط، في البداية، متواضعاً. فلم يكن المخزن يفتح أبوابه إلا خلال مسائين أسبوعياً. ثم أخذ، وقد سارت الأعمال، يفتح كل مساء، وبعد قليل كل يوم. ووسع الحانوت الذي تحسن تمويله زبائنه. ولم يتوقف الأمر، بعد بضع سنوات صعبة ومظلمة، عند ازدهار المشروع، بل إنه أصبح نموذجاً يحتذى. فقد خلقت، على مثاله، تعاونيات متعددة تجمعت ثم اتحدت. وولدت الحركة التعاونية الحديثة، واكتسب رواد روشديل المتواضعون شهرة عالمية.

المبادئ التعاونية

إذا كانت روشديل، حسب صيغة بياتريس ويب، "بيت لحم التعاونية الديمقراطية"، فذلك لأن الرواد عرفوا كيف يصوغون طرائق تلبي حاجات العالم العمالي وطموحاته مع تأمين حسن السير التجاري للمشروع. وهذه الصيغة للتعاونية الاستهلاكية تستند إلى ثمانية مبادئ أساسية لم يكن أي منها أصيلاً، ولكن التركيب بينها صنع جدتها.

وتحاول المبادئ الثمانيـة التوفيـق بـين المثـل الأعلـى التعـاوني وحـس الأعمـال. والمبدأ الأول هـو التـالي: تـوزع الرابطـة، كـل سـنة، الحصـص مـن الأربـاح المحققـة بصـورة تتناسـب مـع مشـتريات الأعضـاء. وهـذه، بـالطبع، وسـيلة بارعـة لربـط الشـركاء بمصـير المشـروع. ولكـن، ألا تفتـح إعـادة إدخـال الربح والمصلحة الخاصـة البـاب أمـام كـل التسـويات مـع راس المـال؟ والمبـدأ الثاني هو أن البيـع يتـم نقـداً. فـلا يجـازف العمـال، إذن، بالاسـتدانة والربـا. ولكل شريك، ثالثاً، حـق بفـائدة ثابتـة علـى رأس المـال المقـدم-وهـي فكـرة شـائعة لـدى الأوينيـين. ويتصـل المبـدأ الرابـع بـالإدارة الديمقراطيـة: فلكـل شـريك صـوت في الاجتماعـات دون إقامـة اعتبـار لعـدد الأسـهم المملوكـة (المطلـب الميثـاقي حـول الاقـتراع العـام: "رجـل واحـد، صـوت واحـد" واضح التأثـير هنـا). والنقطـة الخامسـة هـي حريـة الانتمـاء، وكـل شـريك جديـد يتسـاوى تسـاوياً كـاملاً مـع الأعضـاء الآخريـن. والمبـدآن السـادس والسـابع هامـان جـداً مـن حيـث الشـاغل الأخلاقـي والـتربوي الـذي يكشفان عنه. فالمخزن يبيـع، حصـراً، منتجـات طبيعيـة وسـلعاً مضمونـة غـير مزيفة (وهو ما كان نـادراً جـداً آنـذاك). ومـن جهـة أخـرى، تلـتزم الرابطـة بتشـجيع التعليـم ورفـع مسـتوى ثقافـة الأعضـاء. وأخـيراً يتخـذ الـرواد، في نقطة ثامنـة، موقفـاً لصـالح الحيـاد السياسـي والديـني: والأمـر يـدوي حـول فك الارتبـاط بـالمفكرين الأحـرار الأوينيـين، أنصـار "الديـن العقـلاني" كمـا مـع مختلـف الطوائـف والعقـائد الدينيـة (يوجـد بـين المؤسسـين منشـقون وموحـدون وبورجوازيـون سـويديون).

نهوض الحركـة التعاونيـة

عرفـت جمعيـة رواد روشـديل، بعـد أن تجـاوزت فـترة همـود ١٨٤٦-١٨٤٨ الصعبة، بسـرعة، نمـواً خارقـاً للعـادة. ففـي حـين لم يتقـدم عـدد الأعضـاء، بـين ١٨٤٤ و١٨٤٨، إلا مـن ٢٨ إلى ١٤٠، فقـد بلـغ ٦٠٠، عـام

١٨٥٠، و٩٠٠، عـام ١٨٥٤، و٣٤٥٠، عـام ١٨٦٠، و٥٣٠٠، عـام ١٨٦٥، وتجاوز العشرة آلاف عـام ١٨٨٠. وخلال الفترة نفسها، ارتفع رأس المال من ٢٨ ليرة إسترلينية، عـام ١٨٤٤، إلى ٣٠٠ ليرة، عـام ١٨٥٠، وإلى ٣٧ ألف ليرة، عـام ١٨٦٠، و٧٨ ألف ليرة، عـام ١٨٦٥، و٢٩٢ ألف ليرة، عـام ١٨٨٠. وقفز رقم الأعمال الذي كان حوالي ألفي ليرة، عـام ١٨٤٨، إلى ١٣ ألف ليرة، عـام ١٨٥٠، و٥٢ ألف ليرة، عـام ١٨٦٠. وتقدمت الفكرة التعاونية، كذلك، في ميادين أخرى: التأمين (جمعية روشديل لرعاية المرضى والدفن) وبناء المساكن (شركة البناء التعاونية). ومن جهة أخرى، اهتم الرواد المنصفون، بموجب التزاماتهم، بتسهيل التعليم: فقد خلقوا، إلى جانب المخزن، مكتبة ومدرسة، وخاصة دروساً مسائية يدرس، فيها، الاقتصاد السياسي والرياضيات والفرنسية...

واحتذي بالمثل في معظم مدن لانكشاير الصناعية الصغيرة. فخلقت، بدفع من روابط شبيهة جداً برابطة روشديل، مخازن تعاونية. وبعد ١٨٥١-١٨٥٢، نشر الاشتراكيون المسيحيون الفكرة التعاونية الإنتاجية، ولكن دون كثير من النجاح. ففي الشمال الصناعي، موطن الولع بالتعاونية، فضل العمال الاقتصار على التعاونيات الاستهلاكية. ولخفض التكاليف، بدأت الروابط في الاتحاد: وهكذا جرى الانتقال من البيع بالمفرق إلى البيع بالجملة. وبفضل إقرار قانون عـام ١٨٦٢ (قانون الشركات الصناعية والرعائية)، ولدت، عـام ١٨٦٣، جمعية بيع الجملة التعاونية، وهي مشروع يوفر، بالجملة، لكل تعاونيات شمال إنكلترا المواد التي تعيد بيعها. وفي عـام ١٨٦٩، ظهرت، في غلاسكو، الشركة الاسكتلندية للبيع بالجملة المكرسة لتغطية كل اسكتلندا. وهاتان الشركتان الكبيرتان اللتان كانتا تملكان مزارع شاي، في سيلان، وحقول قمح، في كندا، وأقساماً متخصصة بالعمليات المصرفية والتأمينات إلخ...

كانتا تتعاملان، تعامل الند للند، مع البيوتات الرأسمالية الضخمة. وجنحت المشروعات التعاونية، ضحية لنجاحها إلى حد ما، إلى التشبه بالمشروعات الرأسمالية.

وقد أسهم عاملان خارجيان في مصير الحركة التعاونية. فسياق الازدهار الاقتصادي يسهل، أولاً، نمو طبقة ميسورة من العمال الذين يسمح لهم ارتفاع مستوى الحياة بشراء كمية متزايدة من السلع من المخازن التعاونية. وهذه الفئة التي تنجح في التوفير تشتري نقداً ولا تحتاج إلى الدين. ولذلك، فهي تشكل زبائن متينين ومنتظمين. والخطر، إذ ذاك، هو أن تفيد التعاونيات أفضل العمال وضعاً، في حين يترك أكثرهم حرماناً للتجارة الكلاسيكية بمخالفاتها ودينها الربوي. وهذا تقدم لبعضهم بدلاً من أن يكون تقدم للجميع. ومن جهة أخرى، لاقت التعاونيات استقبالاً إيجابياً لدى الرأي العام على الرغم من أنها نصبت نفسها، أولاً، منافساً للمشروع الرأسمالي. ورأت، فيها، الطبقات الوسطى فرصة لتلقين العمال حس التوفير وتعقيلهم بجعلهم يشاركون في مزايا توزيعات الأرباح. فبما أن التعاونيات تسهم في تحسين مستوى حياة أعضائها، أفليس هذا مطمئناً للنظام الاجتماعي؟ أليس من الأجدر أن يتوجه العمال نحو مجتمع استهلاكي بدلاً من أن يكونوا محكومين بالحرمان والكراهية، المستشارين الرديئين؟ إن أكثر أرباب العمل استماتة ضد النقابات صفقوا، هم أنفسهم، للمبادرات التعاونية.

روح الحركة التعاونية

لم تكن حسابات البورجوازية مجردة من بعد النظر. ففي حين كان أوائل تعاونيي سنوات ١٨٢٠-١٨٤٠، حسب تعبير هوليوك، بناة عالم جديد، تحول تعاونيو سنوات ١٨٥٠-١٨٧٠ إلى مستهلكين بعقلية رأسماليين صغار مشغولين لأن يضمنوا لأنفسهم سلعاً رخيصة الثمن

ومتلـــهفين إلى قبــض ربـــح. فالطوبــاويون أصبحـــوا بقـــالين. والتعاونيــة الـــــتي انطلقت من رؤية اشــــتراكية نزعـــت إلى العـــودة إلى حضـــن الرأسماليـــة.

ونتيجـــة لذلـــك، تغـــير نـــوع الانتمـــاء. فبقـــدر مـــا نمـــت المخـــازن التعاونيـــة، انخفضـــت نســـبة الأعضـــاء المـــترهين عـــن الغـــرض، أولئـــك الذيـــن أتـــــوا إلى التعاون مدفوعين بالمثاليـــــة. وبالمقـــابل، تزايـــد عـــدد التعـــاونيين الذيـــن اجتذبتـــهم المزايـــا الماليـــة. وخنـــق تراجـــع الاهتمامـــات الغيريـــة روح التضـــامن والتحـــــرر العمالي الأولية. وبـــدلاً مـــن التـــوق إلى الرخـــاء العـــام، جنـــح الحســـاب الأنـــاني والمصلحة الشـــخصية إلى التســـيد. وفضـــلاً عـــن ذلـــك، فـــإن مدلـــول الفـــائدة لم يرفـــض، أبـــداً، مـــن جـــانب المنشـــطين. وهـــاورث نفســـه، وهـــو أحـــــد رواد روشـــديل، لا يـــتردد في أن يصـــرح، عـــام ١٨٦٠، بـــأن الحركـــــــة التعاونيـــــة "توحد بين طلقات الجميـــــع ومواهبـــهم مـــن أجـــل فـــائدة كـــل واحـــد" بفضـــل "رابطة مشتركة، رابطـــة المصلحـــة الشـــخصية".

ولكـــن التعاونيـــة أرادت لنفســـها، دائمـــاً، أن تكـــــون اصطفائيـــــة. فمنظـــــرو الحركـــة يتســـاءلون لمـــاذا لا يكـــون في الإمكـــان التوفيـــق بـــين الأربـــاح الماديـــة والكســـب الروحـــي. ربمـــا كـــان صحيحـــاً أن دكـــان الأربـــاح حلـــت محـــــل الفـــردوس المشـــاعي، ولكـــن التعـــــاونيين يـــــهتمون، مــــا وراء البقالـــــة، أي اكتساب خيرات مادية، بتنميــــة التعليـــم والصحـــة والفضيلـــة. وهـــم يـــرون أنهـــم يســـهمون، علـــى هـــذا النحـــو، في تقـــدم الشـــعب. فالتعـــاوني يدعـــــي رفـــــع مســـتوى العـــامل معنويـــاً بقـــدر مـــا يرفعـــه ماديـــاً. ومـــن بـــين القـــادة، جـــاء بعضـــهم، كـــهوليوك، مـــن العلمانيـــة الأوينيـــة ومـــر آخـــرون، كلويـــد جونـــــز ونيـــل وهيـــوز ولودلـــو، بالاشـــتراكية المســـيحية. فالتعدديـــة محترمـــة كمـــا يبـــين لويـــد جونـــز عـــام ١٨٥٢: :يحتـــوي المخـــزن التعـــاوني والورشـــة التعاونيـــــة، في ذاتهمـــا، القـــدرة علـــى أن تلبيـــا، عمليـــاً، أكـــثر الطموحـــات محدوديـــة كمـــــا تلبيان أكثرها ارتفاعــــاً. فـــهما يؤمنـــان لمـــن يســـعى إلى الربـــح، حصـــراً، ربحـــاً، وللذي يريد تحقيـــق أحـــلام محـــبي البشـــر، إمكانيـــة أن يفعـــل ذلـــك بأرباحـــهما،

فهما يستحقان، من هذه الزاوية، أن يشجعهما المصلحون الاجتماعيون من كل الاتجاهات".

وهكذا، لم يبتعد مثل تحرير العمال الأعلى عن الأنظار. فبدلاً من العزلة التي تفرضها الفردانية الليبرالية، يبعث التعاون على الاتحاد. والانتظام، معاً، في الشراكة، يسمح، في وقت واحد، بتبادل التربية وتحسين حياة كل واحد وحتى الأرباح. ولا شك في أن الأمر لم يعد يدور حول تغيير العالم ولا حول إلغاء اللامساواة أو الملكية الخاصة ولا حول إرغام الآخرين على إرباك النظام الاجتماعي. ولكن العمال سينجحون، بتشكيلهم مجموعات تعاونية مستقلة صغيرة، في الاكتفاء بصورة مستقلة عن العالم الرأسمالي الخارجي. وليس في ضمان منطقة الحماية هذه شيء من الأنانية: وهو ما لن يقتصر على إعطاء الوسيلة للإفلات من البؤس بتنظيم الحياة بصورة مشتركة، بل سيعطي، أيضاً، وسيلة ارتفاع الجميع بالتضامن والتربية والفضيلة.

وحتى ولو كان تطور الحركة التعاونية قد أدى، في نهاية المآل، إلى انتصار الواقعية والروح العملية إلى حد أن الربح اخذ مكان النبوية، فإن إسهامها في الاشتراكية الإنكليزية ليس كمية مهملة. فثلاث سمات أصيلة اتسمت بها تعاونية سنوات ١٨٤٤-١٨٨٠ حضرت دروب العمالية. فهي، أولاً، صيغة شراكة ذات اصل بريطاني خالص: فقد اكتشفت وطبقت في شمال إنكلترا ثم انتشرت في العالم أجمع. والحركة، ثانياً، ناجمة، حقاً، عن المبادرة العمالية: فهي، وقد تصورها عمال ونشطها عمال، تتميز عن محاولات، كالتجارب الأوينية، نظمها بورجوازيون محبون للبشر. وأخيراً، فإن هذه الاشتراكية الهجينة، بعض الشيء، المركزة على روح التشارك والاستهلاك الديمقراطي للخيرات أكثر منها على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج تقوم على مدلول الانتماء الطوعي والحر. فهي تلجأ للإقناع، حصراً، بالتقابل مع اشتراكية الدولة التي تفرض تشريعها

وإلزاماهــا علــى الجميــع. والإدارة الديمقراطيــة وحريــة الاختيـــــار والتصـــــرف هما المركبتان الأساســـيتان للتقليــد الاشــتراكي الإنكلــيزي.

اســتطالات الميثاقيـــة وانبثاقاتـــها

موت الميثاقيـــة أم بقاؤهـــا؟

علــى عكــس أســطورة عنيــدة، لم تمــت الميثاقيــة في ١٠ نيســـــان ١٨٤٨. ولا شــك في أن معظــم التواريــخ الكلاســيكية للحركــة قــد فســـرت مظـــاهرة كومونة كننغتـــون المجهضــة كانهيــار نهــائي للميثاقيــة المنظمــة. فدوليـــانز يقــف بكتابه حول "الميثاقيــة" عنــد هــذه الحلقــة. وهوفيــل لا يكــاد أن يكــرس بضــع صفحــات لســنوات ١٨٤٩-١٨٥٨ الــتي لا يــرى، فيــها، ســـــوى هبـــات هزيلة لا مــدى لهــا وتحركــات مفككــة: احتضــار طويــل لمحتضــر لا يصــل إلى حد الموت. وعلـــى العكــس مــن ذلــك، اســتخلصت كــل الأعمـــال الحديثــة، من هذه السنوات العشر تقريبــاً، رؤيــة أكــثر إيجابيــة. فــلا يقتصــر الأمــر علــى كون الميثاقية التي دفنـــت بأســرع ممــا ينبغــي تتــابع حياتهــا، بــل إنهــا تبــدي، أيضــاً، اندفاعــات قــوة، بــل وأصالــة، بالقيــاس مــع فـــترة ١٨٣٦-١٨٤٨. ويمكن أن نذكـــر أن مظــاهرة بقــوة مظــاهرة ١٠ نيســان نظمــت، في حزيــران ١٨٤٨، في لنــدن وبيشــوب بونــرز فيلــدز وســببت مقــداراً ممــاثلاً مــن الهلــع والاحتياطــات بــين المــالكين. وتتخلــل ربيــع ١٨٤٨، في منـــــاطق الشـــمال الصناعيــة، اجتماعــات وخطابـــــات ومســـيرات ذات صبغـــة ثوريـــة أي، باختصــار، حملــة تذكــر بعــامي ١٨٣٩ و١٨٤٢. وهـــــذه، أيضـــاً، فـــترة الانتفاضــة المجهضــة في أيرلنــدا. وأســهمت عــودة الازدهــار في هبــوط الهيــاج، كما أسهمت، فيه، اعتقـــالات القــادة وتدابــير أمنيــة أخــرى اتخذتهــا الحكومــة. ولكـــن حركــات معزولــة اســتؤنفت بعـــد ١٨٥٠. فالطاقـــات العماليـــة المسرحة تنبثـــق منــذ أن تظــهر الفرصــة المناســبة. وحــتى وإن كـــان لا ينكـــر أن فــترة ١٨٤٩-١٨٥٨ تشــكل، في الجملــة، محلــة انحســار علــى اعتبــار أنـــه لم

يعد للميثاقيين أي أمل في الاستيلاء على السلطة ولا حتى في أن يحققوا، مباشرة، برنامج الميثاق، فإن اتجاهات جديدة وتوجهات جديدة تظهر على الرغم من الظروف غير المناسبة.

والميثاقية التي ضعفت، عددياً، تصلبت أيديولوجياً. وعند ذلك، فقط، تصبح اشتراكية حقاً. فاليسار الميثاقي أفاد من انسحاب معظم القادة القدامى ليحتل قمة الحركة. وأمكن للعدد الأول من جريدة هارناي، "الجمهوري الأحمر"، أن يعلن، باعتزاز، في حزيران ١٨٥٠: "ميثاقية ١٨٥٠ مختلفة جداً عن ميثاقية ١٨٤٠. فقادة البروليتاريا الإنكليزية أثبتوا، بتقدمهم، بهذه السرعة، في بضع سنوات عن كونهم ديمقراطيين حقيقيين وليسوا مشعوذين. فقد انطلقوا من فكرة مجرد إصلاح سياسي وانتهوا إلى فكرة ثورة اجتماعية". وكرمز لهذا التطور، تغير لون العلم الميثاقي: فمن أخضر، قبل ١٨٤٨، تحول إلى أحمر اعتباراً من عام ١٨٥٠.

إلا أن الأعداد قد ذابت. فلم تستعد الحركة بعد ١٨٤٨، قط، القاعدة الشعبية التي صنعت قوتها حتى ذلك الحين. ولم ترتعش الطبقات القائدة، في أية برهة، أمام هذه الميثاقية المنبعثة التي كانت الأيديولوجية ترجح، فيها، الممارسة الثورية. وفضلاً عن ذلك، تقاسم تياران مختلفان اختلافاً شديداً الميراث، وكذلك ما بقي من الجيوش الميثاقية. ودار أحدهما، وهو الأكثر تشدداً، حول الرابطة الوطنية للميثاق، مع جوليان هارناي وإرنست جونز. وتجمع الثاني، الأكثر اعتدالاً، في منظمة جديدة أسسها برونتير أوبريان، الرابطة الوطنية للإصلاح.

هارناي والمنعطف الميثاقي لعام ١٨٤٩-١٨٥٠

بالاتصال بالثوريين الذين توافدوا على لندن، بحثاً عن ملجأ، بعد أحداث ١٨٤٨، اكتسبت الميثاقية أبعاداً اشتراكية وأممية. والصانع الأول لهذا

الانزلاق هو هارناي (١٨١٨-١٨٩٧)، الوحيد من قادة الميثاقيين الذي لم يسجن أو يفقد اعتباره خلال فترة ١٨٤٨-١٨٥٠ (سوف يزاح هارناي، فيما بعد، من جانب إرنست جونز، الدماغ الأفضل تنظيماً والقلم الأشد براعة). وكان، هو نفسه، قد انضم إلى الميثاقية منذ البداية، في حين كان في الحادية والعشرين من عمره. وقد تعاون، بنجاح، وهو نائب لأوكونر، مع جريدة "نجم الشمال" التي أصبح رئيس تحريرها بين ١٨٤٧ و١٨٤٩. وقد سماه كول "طفل الميثاقية المخيف". وكان، بالتأكيد، أكثر قادة الحركة تمثيلاً لفترة ١٨٤٨ بتعلقه الرومنطيقي والمتحمس بالثورة الديمقراطية والاجتماعية. وكان، كذلك، أكثرهم أهمية مع إرنست جونز. فمنذ خريف ١٨٤٥، شارك مع عدد من المهاجرين الألمان والفرنسيين والإيطاليين وبضعة ثوريين إنكليز، في خلق "جمعية الديمقراطيين الأخويين" التي أصبح سكرتيرها. وفي هذا التجمع الذي كان في أوج تخمره (١٨٤٥-١٨٥٢) تعرف هارناي على ماركس. والبرنامج، كما يلخصه هارناي، مطلبي وقريب من الاشتراكية: "نحن نرفض ونطلّق وندين كل ضروب اللامساواة السياسية الوراثية والتمييزات الفئوية. إننا نصرح بأن الأرض، بكل منتجاتها الطبيعية، ملكية مشتركة للجميع. إننا نصرح بأن النظام الحالي للمجتمع الذي يسمح للكسالى والمتآمرين باحتكار ثمار الأرض ومنتجات الصناعة ويحكم على الطبقة العاملة بالعمل بمكافآت غير كافية، بل وبالعبودية الاجتماعية، بالبؤس والإذلال، غير عادل في جوهره".

وقد ترك هارناي "نجم الشمال" التي لم يتوقف توزيعها عن الهبوط (٢١ ألف نسخة عام ١٨٤٨، ١٢٠٠ عام ١٨٥٢) وأصدر "المجلة الديمقراطية" (١٨٤٩-١٨٥٠)، ثم "الجمهوري الأحمر"، عام ١٨٥٠، ثم "صديق الشعب" (إعجاباً بمارا) عام ١٨٥١-١٨٥٢. ويكرر هارناي، دون كلل، أن الميثاقية لا تستطيع أن تعود حركة جماهيرية إلا إذا تبنت برنامجاً

اشتراكياً وديمقراطياً معاً. و"الجمهوري الأحمر" هي التي ترجم، فيها، إلى الإنكليزية "البيان الشيوعي" عام ١٨٥٠. (فضلاً عن ذلك، علق ماركس، بعض الوقت، آماله على هارناي لنشر أطروحاته بين العمال الإنكليز حتى اليوم الذي فضل، فيه، إرنست جونز عليه). وفي السنة نفسها، اتفق الديمقراطيون الأخويون مع أصدقاء ماركس ومع البلانكيين لتأسيس الرابطة العالمية للشيوعيين الثوريين: وأخذت الرابطة على نفسها مهمة إقامة ديكتاتورية البروليتاريا ثم الشيوعية، "شكل التنظيم النهائي للبشرية".

فهارناي نشر، إذن، بمقالاته ونشاطه النضالي، اشتراكية مستوحاة، مباشرة، من ماركس دون أن ينجح، على كل حال، في بثها بين الميثاقيين القدامى. ثم إنه، وهو منظر إلى حد صغير جداً، وفي خصومة شخصية مع إرنست جونز (الذي أفاد من دعم ماركس)، تعب سريعاً من المشادات التي رآها بيزنطية بين مختلف المجموعات الاشتراكية. وكان يود، هو نفسه، أن يحتفظ بعلاقات ودية مع كل الثوريين سواء أكانوا تلاميذ للويس بلان أم لبلانكي أم لماركس. ولذلك سبب لنفسه تهكمات هذا الأخير الذي تلقى منه لقب "المواطن عاش، عاش، عاش!" بحجة أنه كان مستعداً، دائماً، للتصفيق للجميع. وبما أنه لم يقبل عدم التسامح والدوغماتية من جانب ماركس (الذي كان يصفه بأنه "حمار")، فقد تدهورت العلاقات بينهما وقاطعه. واعتباراً من عام ١٨٥٢، انقطع، وقد أصابه الإحباط، عن الإيمان بإمكانية حركة عمالية مستقلة في إنكلترا، وانضم إلى التحالف مع البورجوازية الراديكالية. واختفى، عملياً، من المسرح السياسي عندما غادر لندن عام ١٨٥٣. ونجده، بعد قليل، في جرسي حيث تولى قيادة الراديكالية المحلية، وعلى صلة بفكتور هوغو ومجموعة المهاجرين الفرنسيين الصغيرة التي كانت تسميه "العاري الإنكليزي الكبير".

انتقلـت مقـاليد الحركـة الميثاقيـة، إذ ذاك، إلى يـدي إرنسـت جونـز. فـهذا الأخير الذي خـرج مـن السـجن في تموز ١٨٥٠، يصـرح، منـذ تحـرره، بـأن الميثاق يعني، للعمال، حقوقاً اجتماعيـة بقـدر مـا هـي سياسـية: "خـبزاً ولحمـاً وجعـة". وألقـى جونـز الملتـهب حماسـاً بنفسـه، مـن جديـد، في التحريـض. وانتشـر، في كـل مكـان، في محـاضرات واجتماعـات. وحـاول، مـع هارنـاي، جمـع المنـاضلين المبعـثرين وتجـاوز الإحبـاط وإلهـاب الطاقـات. ومـن أجـل ذلـك، جـرى تبـني تكتيـك مـزدوج: إحيـاء "الرابطـة القوميـة للميثـاق" المتقهقرة منذ ١٨٤٨، ونشر صحافـة شـعبية مـن نمـوذج ثـوري.

وقد فـرض إرنسـت جونـز الـذي أتـى إلى الميثاقيـة متـأخراً نفسـه، في بضعـة أشهر، كأحد القادة. وليس لديه، هـو نفسـه، شـيء مـن العـامل: فقـد خـرج مـن أسـرة عسـكريين وملاكـي أراض وتلقـى تربيـة جيـدة وارتـاد العـالم الأدبي والغـني. ولم يـبدأ، إلا حـوالي ١٨٤٥، في الاهتمـام بالسياسـة. واسـتولت عليـه الأفكـار الراديكاليـة، بسـرعة، فـانضم إلى الميثاقيـة عـام ١٨٤٦. ولقـد لعـب دوراً مـن الدرجـة الأولى في اندفاعـة ١٨٤٧-١٨٤٨ الثوريـة، وهـو مـا اسـتحق عليـه الاعتقـال في حزيـران ١٨٤٨. ولم يضـع في خدمـة الحركـة طاقاتـه السياسـية ودماغـاً جيـد التنظيـم ووضوحـاً كبـيراً في التعبـير، فقـط، بـل ومواهبـه الأدبيـة أيضـاً. فقـد تـرددت "أغـاني الميثاقيـة" (١٨٤٦) الشعبية جـداً والمؤثـرة في كـل احتمـاع أو مسـيرة ميثـاقيين. وكـان صحفياً ممتازاً يملـك الأسـلوب والفطنـة وحـدس مـا يجـذب القـارئ. وكـان لديـه، وهـو المنـاضل الأمـين والثـوري المتحمـس، حـس فطـري بـالتنظيم والدعايـة. وهـذا مـا أدى إلى أن يكتشـفه مـاركس الـذي سـيعقد معـه علاقـات مسـتمرة بـين ١٨٥٠ و١٨٥٦. فقـد مـيز مـاركس، مثـل أنغلـز، لدى جونز، القائد الثـوري الـذي يجـب المراهنـة عليـه والحليـف الـذي يجـب

دعمه كقائد للحركة العمالية البريطانية. وقد كتب أنغلز إلى ماركس، في رسالة يحلل، فيها، بواقعية، الجزر الميثاقي، عام ١٨٥٢، يقول: "إن الميثاقيين، حسب ما أراه، هم من اختلال التنظيم الكامل والتفرق وفي عوز، في الوقت نفسه، إلى شخصيات جديرة إلى حد أصبحت الحركة، معه، محكوماً عليها بالسقوط مزقاً أو بالتراجع إلى مجموعات صغيرة... أو إلى التكون من جديد على أساس جديد تماماً بفضل شخص يعرف شأنه جيداً: وجونز هو، حقاً، الرجل المناسب".

وبالفعل، فإن جونز هو الذي تولى قيادة الحركة بعد القطيعة مع هارناي. ومنذ اجتماع المجلس الميثاقي لعام ١٨٥١، حصل على إقرار برنامج ديمقراطي متقدم، مع شعار: "الميثاق، ولكن ليس الميثاق فقط". وكان هذا يعني التخلي عن المطلب السياسي الخالص لمصلحة المطلب الاجتماعي. فالحرية تبقى، دوماً، الأولى، ولكن الخبز والعمل ليسا أقل منها أولوية ("لا أهمية لإشهاركم طاقية الحرية أمام الجماهير إن لم تشهروا، إلى جانبها، قطعة خبز ضخمة"، كما كتب جونز في "نجم الشمال"). وتشمل نقاط المجلس الميثاقي الاثنتا عشرة تأميم الأرض والحرية الدينية مع الفصل بين الكنيسة والدولة والتعليم للجميع وحق العمل والمساعدة وتنمية التعاونيات والضريبة على الملكية العقارية وديمقراطية الجيش. وهذه الخطوط الكبيرة لديمقراطية اجتماعية، إن لم تكن سياسية.

وعندما تأرجحت "نجم الشمال" في راديكاليتها وغيرت إدارتها، عام ١٨٥٢، أسس إرنست جونز، متابعاً التقليد المفتتح في كتابه "ملاحظات إلى الشعب" (١٨٥١-١٨٥٢)، "جريدة الشعب" التي استمرت من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٨ والتي شارك، فيها، ماركس عدة مرات. ونشر جونز الذي لم يكن منظراً كبيراً، بل مبسطاً ممتازاً، أفكار "البيان الشيوعي". وقد فكك آلية النظام الاجتماعي وهاجم التجاوزات ووعد بمستقبل

سعادة عندما تحدث الثورات المحتومة. وكان واثقاً بإمكانية حزب عمالي مستقل وحض، دائماً، على تنظيم العمال بالاتحادات النقابية. وهذه الاشتراكية المستوحاة من ماركس مباشرة، تستند إلى معطى أساسي، نضال الطبقات المعاد التأكيد عليه دون انقطاع: "الرأسماليون، من أية فئة، أعداؤنا طالما هم موجودون ويخوضون ضدنا حرباً بالسكين. وبالتالي، فيجب أن نطيح بهم، وأن نقف طبقة ضد طبقة-كل المضطهدين، من جهة، وكل من يضطهدونهم في الجهة الأخرى. إن انصهار الطبقات مستحيل حيث يستحيل انصهار المصالح... طبقة ضد طبقة: وكل نمط آخر للعمل أحلام في القمر". فالمهمة الأولى هي، إذن، تنمية الوعي الطبقي لأن تحرر العمال لن يأتي إلا منهم بالذات. ويكتب جونز، في صيغة تعلن عن مقدمة الأممية الأولى: "الفقراء، وحدهم، يستطيعون أن يربحوا معركة الفقراء". ولا شك في أن مثالية الكاتب والشاعر غالباً ما لا تتوافق جيداً، لدى جونز، مع ضبط المادية الديالكتيكية. ومع ذلك، فحتى حين سينفصل عن ماركس سيحتفظ الأخير بتقديره له.

وهناك سمة أصيلة أخرى لدى الميثاقية المجددة والممركسة، لدى إرنست جونز، هي الإلحاح على التضامن الدولي. فعن طريق المجموعة الكوزموبوليتية من المهاجرين الذين جاؤوا من كل أوروبا ولجؤوا إلى لندن، توافدت أصداء المعارك القومية والاجتماعية الجارية في القارة. ولم يدع جونز فرصة ليبين كيف يجب على الأوساط العمالية والميثاقية أن تنفتح على الأممية الثورية: وهو شاغل يتفق مع ذاك الذي عبر عنه، في السابق، هارناي. وبدأت فكرة أممية للعمل تشق طريقها. وفضلاً عن ذلك، تأسست، عام ١٨٥٥، بدفع من جونز، لجنة دولية مرتبطة بالرابطة الدولية للميثاق. وتضخمت لتصبح، بين ١٨٥٦ و١٨٥٩، الرابطة الدولية. وفي الاجتماع الأول لهذه اللجنة الدولية، طور جونز

محاكمة قريبة جداً من محاكمة ماركس حول العلاقات بين الأمة والطبقة، حول الواجبات حيال القوميات المضطهدة، حول المعنى الذي يجب أن يعطى للاستقلال القومي وحول الأممية البروليتارية.

"يا رجال أوروبا! لقد اخترع الملوك والأوليغارشيون العداء بين القوميات ليقسموكم... لقد علّموا حقيقة هنا، وعكسها هناك. ولكن الديمقراطية تشبه الشمس التي يضيء نورها الجميع والتي لا يغير شعاع منها لونه سواء أأشرق على فرنسا أم على إنكلترا، على الألمان أم على البولونيين.

"نحن، هنا، مقاتلو هذه الديمقراطية-طليعة الجيش الذي سيحرر العالم. نحن هنا لثلاثة أسباب هامة وخطيرة: لنحتج على كل تحالف مع الطغاة...، لنساعد القوميات المضطهدة على أن تصبح حرة، ولإعلان وتنشيط حقوق العمل السيد، الملك دون تاج، ولكنه الملك الشرعي الوحيد لهذا العالم. وواجبنا، هو أيضاً، رد الاستقلال للأمم المضطهدة. ولكن أي استقلال؟ إني أجيب: الاستقلال الداخلي، كالاستقلال الخارجي، الاستقلال في الداخل أمام الأرستقراطي أو المرابي، كما في الخارج أمام القيصر أو الإمبراطور. عدم وجود بولونيا أفضل من وجود بولونيا ملكية وأوليغارشية... الأمة ليست، بالنسبة إلينا شيئاً، والإنسان هو كل شيء. لا نعترف إلا بأمة مضطهدة: الجماعة العالمية لفقراء الأرض التي تقاتل، حتى الموت، ضد أمة الأغنياء، التي تعطي صحتها وعملها وحياتها للمجتمع كي تعاني، مقابل ذلك، الحرمانات والمرض والسجن".

ولم يلق جونز، في معظم الوقت، على الرغم من جهوده اليائسة، سوى اللامبالاة في العالم العمالي. فهموم العمال المنظمين كانت محولة نحو أهداف مختلفة تماماً. والاتحادات النقابية الغربية عن المنظورات السياسية، وبالتالي عن الآمال الثورية، تناضل في اتجاه إصلاحي. وتكتيكها يقتصر

على النضال أو الحوار مع أرباب العمل على صعيد المشروع. والطبقة العاملة تتوق، في أعماقها، قبل كل شيء، إلى التقدم الفردي، دون أن تضع المجتمع المسؤول موضع مساءلة. ونجح الميثاقيون، عدة مرات، في تعبئة الطاقات مؤقتاً: بمناسبة هذا الإضراب أو ذاك، بمناسبة حرب القرم، بمناسبة مشروع قانون حكومي يمنع كل نشاط اجتماعي يوم الأحد. ولكن هذه الحلقات لا غد لها. ولم تصل الصحافة الميثاقية سوى عدد محدود جداً من القراء: يتراوح توزيع "جريدة الشعب"، بين ١٨٥٢ و١٨٥٥، بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ نسخة. وبعد هذا التاريخ بدأ تراجع محتوم وزالت "جريدة الشعب" عام ١٨٥٨. وبدأ جونز المحبط، عام ١٨٥٧، في العودة إلى التحالف مع إصلاحيي الطبقة الوسطى الراديكاليين للحصول على الاقتراع العام. ونشأت عن ذلك انشقاقات داخلية: فعناصر الميثاقيين المتشددة رفضت رفضاً مطلقاً التخلي عن نضال الطبقات والاتفاق بين العمال والبورجوازيين. واشتد الانحسار. وفي عام ١٨٥٨، اجتمع المجلس الميثاقي للمرة الأخيرة. وقد ضاع المندوبون في خطابات واقتراحات دون التوصل إلى الاتفاق. وبعد هذا الفشل، انسحب جونز من النضال وأقام، عام ١٨٦١، في مانشستر: والثوري أصبح إصلاحياً. وانضم إلى الحركة من أجل إصلاح البرلمان وفرض نفسه كقائد شعبي جداً في كل المنطقة. ومارس التعاون مع بورجوازية لانكشاير الراديكالية وحاول جر الاتحادات العمالية إلى النشاط من أجل حق الاقتراع. وعين، عام ١٨٦٥، نائباً لرئيس الرابطة من أجل الإصلاح وشهد، قبل وفاته، عام ١٨٦٩، نجاح الحركة: وكان ذلك إصلاح ١٨٦٧ الانتخابي. وعلى صورته، ضاع كثير من المناضلين الميثاقيين القدامى في تيار صبغته الراجحة بورجوازية وسياسية مماثل لتيار سنوات ١٨٣٠-١٨٣٢، أي، في سخرية مريرة للتاريخ، التيار نفسه الذي كانت الميثاقية قد ولدت ضده وقاتلته.

عاد أوبريان الذي كان قد اختفى من المسرح السياسي بعد خلافه مع المظاهرات الميثاقية لعام ١٨٤٨ إلى الظهور في نهاية ١٨٤٩. واستأنف، إذ ذاك، عمله كصحفي وداعية. وفي سلسلة مقالات نشرت، بعد ذلك، في كتاب بعنوان "ولادة البشرية ونموها ومراحل عبوديتها"، يقف ضد استعباد البروليتاريا الحديثة. فالطبقات الكادحة في حالة تبعية كاملة لسادتها "على الرغم من أنها تشكل أساس المجتمع الأوروبي". والمسيحية التي كان من المفروض أن تناضل ضد العبودية الحديث بقدر نضالها ضد العبودية القديمة لم تفعل، على العكس من ذلك سوى دعمها. وهذا التحليل للصراع بين الطبقات الذي ليس فيه أصالة كبيرة يقود أوبريان إلى أن يقترح، كعلاج، الثورة الاجتماعية أو، بالأحرى، "الإصلاح الاجتماعي" حسب تعبيره الجديد. فلا حاجة للجوء إلى العنف من أجل الانتقال من العبودية إلى التحرر: فكل شيء يمكن أن يتحقق "دون موت رجل واحد"، دون أن "يضحي أحد بفلس من ممتلكاته". فنحن، بوضوح، في صميم حلم ١٨٤٨.

ويعلق أوبريان المدعوم بهذا المزيج من التحليل التاريخي والمثالية آماله على بعث للميثاقية مطهرة من أخطائها. وعمل، مطلقاً ميوله القديمة إلى "القوة الجسدية"، على تجميع العناصر الإصلاحية في حركة جديدة هي: الرابطة القومية للإصلاح التي أسسها، في بداية ١٨٥٠، مع رينولدز، وهو ديمقراطي راديكالي، ولويد جونز، وهو اشتراكي أويني. وعبثاً حاول أوبريان أن يكسب لبرنامج الرابطة جمهوراً متنوعاً يمتد من الاشتراكيين والتعاونيين من تلاميذ أوين إلى الراديكاليين المؤيدين للعمل الشرعي والتدريجي. واستمرت الرابطة في الوجود بضع سنوات، ولكنها لم تستطع البقاء حية بعد هجران أوبريان للحياة السياسية عام ١٨٥٥.

ومع ذلك، فقد كان في برنامجه ما يجتذب تعاطف العمال ودعمهم. فكل مطالب الاشتراكية الديمقراطية اجتمعت فيه. ونجد، فيه، خليطاً من تأثير الاشتراكيين الفرنسيين وتقليد الميثاقية الإنكليزي وروح الثورات الأوروبية. و"النقاط السبع" الرئيسية هي التالية: إصلاح المعونة باللجوء إلى الضريبة وضمانات العمل، شراء لدولة لأراض لتضع فيها الذين لا عمل لهم على صورة جماعات تعاونية أوينية أو مستعمرات زراعية مستوحاة من أوكونر، خفض الدين العام حتى الإخماد الكامل بواسطة ضريبة على الملكية، التأميم التدريجي للأرض والمناجم ووجوب استخدام دخلها في تمويل الأشغال العامة وتأمين التعليم للجميع، إصلاح النظام النقدي والائتمان بحيث تشجع التعاونيات الإنتاجية والمشروع الحرفي الصغير، إقامة أسواق لتبادل العمل. وفي مرحلة تالية، جرى تصور تأميم الخطوط الحديدية والقنوات وأرصفة الموانئ ووسائل النقل الأخرى وإصلاح قانون العقوبات والسجون، وكذلك التعاون مع الفكر الحر للرابطة العقلانية الوطنية، وهي منظمة أوينية للدعاية العلمانية.

وخلافاً لثورية هارناي وإرنست جونز، تتخذ ميثاقية أوبريان المحددة اتجاه الاشتراكية المعتدلة والإصلاحية. فالحركة التي تقف على مسافتين متساويتين من طوباويات أوين أو فورييه وضروب العنف الراديكالية أو البلانكية تعلن عن الاشتراكية الدستورية ذات النموذج العمالي. فبدلاً من الإطاحة بالدولة، يدور الأمر حول الاستيلاء عليها ديمقراطياً. ولكن مناخ ١٨٥٠-١٨٦٠ طوى في غياهب النسيان الكتيبة الصغيرة، كتيبة الرابطة القومية للإصلاح. فقد بشر بالرسالة في الصحراء.

إلا أن بعض الأفكار الديمقراطية لاقت، وإن كان ذلك في صورتها المخففة، صدى بفضل الجمهور العمالي للجريدة التي أطلقها رينولدز، "جريدة رينولدز الأسبوعية". فهذه الجريدة الأسبوعية الراديكالية كانت، على الفور، مقروءة جداً من الأوساط الشعبية. وبفضل توزيعها الكبير

منذ البداية (٥٠ ألف نسخة) وأسلوبها الشعبي، مارست تأثيراً عميقاً ومستمراً سوف يصنع ثقافة الجماهير المدينية وعقليتها خلال قرن.

نهاية الميثاقية

يعود الفشل النهائي للميثاقية إلى عدة أسباب. فهناك، أولاً، السياق الاقتصادي: فالنهوض بعد أزمة ١٨٤٧-١٨٤٨، ثم عهد الازدهار الفكتوري الطويل، يبديان تبايناً فاقعاً مع "السنوات الصعبة" بين ١٨٤٦ و١٨٤٨. فالنمو العام للاقتصاد يوفر للأرستقراطية العمالية فرصة صعود تسارع إلى انتهازها. ولكن أجراء الصناعة الكبرى يفيدون منها، أيضاً، على طريقتهم. والأهم من ذلك هي الثقة بالذات التي تعبر عنها الطبقة الحاكمة بعد أن أثبتت، فعلاً، قوة مقاومتها حيال العاصفة قبل ١٨٤٨. فغداة ضروب الفشل الثورية، بدت البورجوازية المتأكدة من استقرار النظام الاجتماعي واثقة من المستقبل أكثر من أي وقت مضى: فبلوغ التبادل الحر والدخول التدريجي إلى سلطات الدولة أعطياها قوة لا يقلقها تجدد الأنشطة الميثاقية. ومثل هذا الانعدام في التساوي في ميزان القوى مدركاً، بوضوح، من جانب أكثر الميثاقيين الثوريين تبصراً وتشعر به الجماهير العمالية حدسياً. فلا عجب، إذن، في أن تتحول هذه الأخيرة عن حركة محكومة بالفشل بهذا الوضوح، خاصة وأن جاذب المجتمع المساواتي والفردوسي الذي وعد به الميثاقيون قد تلاشى في تلك الفترة. وما الذي كان يستطيع أن يفعله المناضلون القدامى، في غياب كل منظور للاستيلاء على السلطة، سوى الخمول أو الانطلاق في أقوال عقيمة؟ فقد كتب ميثاقي قديم محبط، عام ١٨٥٩، إلى إرنست جونز يقول: "يؤسفني أن يكون من واجبي إعلامك بعدم وجود منظمة ميثاقية في هاليفاكس (إحدى القلاع القديمة للحركة) ولا في أي من البلدان العديدة المجاورة... فكثيرون ممن كانوا، في برهة ما، ميثاقيين نشيطين قد

هاجروا. أما الآخرون، فعلى الرغم من أنهم ما زالوا مقيمين هنا، فإنهم قد قرفوا من لامبالاة الجماهير وعدم التفاهما الكلي حيال أوضح مصالحها فهماً إلى حد قرروا، معه، الانقطاع عن تقديم أدنى تضحية لأية قضية اجتماعية". إن مثل هذا الوصف يعبر عن واقع عام في كل البلد.

وقد قوّى التبسيط الأيديولوجي للحركة هذا الفقدان المخيف للجوهر. فقد كان ازدهار الميثاقية يزيد كلما زادت انتقائيتها. وفي الوقت الذي كانت تجتمع، فيها، كل التيارات، تلك التي كانت تنظر إلى الماضي وتلك التي كانت تتطلع إلى المستقبل، وفي الزمن الذي كان التنوع المحلي يتفتح، فيها، بحرية، كانت الدعاية تستمد من هذه العفوية المنبجسة صحة وديناميكية كانتا تؤمنان لها دعم الجماهير، حتى ولو أربكها الطابع المتغاير لهذه القوى. وقد أفقرها المزيد من الضبط المنهجي بعد ١٨٤٨ دون أن يوقف ذلك أحد جراح الماضي: خصومات الأشخاص والمنافسات وأنواع الغيرة التي لا تنتهي، وكل كم المساجلات الفردية.

إلا أن إسهام الطور الأخير من الميثاقية يبدو، في إحدى النقاط، جديداً وإيجابياً دون شك. فقد دخلت الأممية العالم العمالي بعمق. ففي كل مكان، تقريباً، ظهر اهتمام حقيقي بالأحداث التي كانت تجري في أوروبا وأمريكا. وليس هناك أدنى شك في أن هارناي وجونز قد أسهما، بدعايتهما، في الحفز على هذه اليقظة، ولكنهما لم ينجحا إلا لأنهما كانا يستندان إلى المشاعر الحقيقية للجماهير الشعبية. فقد فاض تعاطف طبيعي تماماً مع القوميات المضطهدة، مع الهنغاريين والبولونيين والإيطاليين أو ضد نظامي نابليون الثالث والقيصر الديكتاتوريين. بل إننا نشهد تساؤلات جديرة بالتقدير حول حقوق شعوب الإمبراطورية البريطانية المستعمرة. ومرة أخرى، فإن إرنست جونز هو الذي طرح السؤال بأحد أوضح الصور بمناسبة ثورة الهند الكبيرة عام ١٨٥٧. فهو يبين أن على الشعب العامل أن يمنح تعاطفه بدلاً من أن يقف في صف الجيش

البريطاني المكلف بالقمع: "لا ينبغي أن يكون في أوروبا إلا رأي واحد حول ثورة الهندستان. إنها واحدة من أعدل الثورات التي جرت في تاريخ العالم وأكثرها نبلاً وضرورة. أكانت بولونيا على حق؟ فالهندستان، إذن، على حق أيضاً. أكانت ثورة هنغاريا مبررة؟ فثورة الهندستان مبررة، إذن، بدورها. أكانت إيطاليا تستحق أن تساعد؟ فالهندستان تستحق، إذن، ذلك أيضاً. ذلك أن ما يريده الهنود هو كل ما كانت بولونيا وهنغاريا وإيطاليا تسعى للحصول عليه". ولا شك في أن الأمر كان يدور حول موقف متطرف لا تشاركه، فيه، سوى حفنة من الثوريين. إلا أن الأممية أصبحت، وخلال حوالي عشرين سنة، إحدى مركبات الحركة العمالية.

الحركة العمالية من ١٨٥٠ إلى ١٨٦٠: النقابية والأممية

التطورات الجديدة للنقابية

تطورت العقلية العمالية، بصورة محسوسة، بعد ١٨٥٠، في إنكلترا. فقد سهلت ضروب التقدم في مستوى الحياة شيئاً من التبرجز لدى الأرستقراطية العمالية على الأقل. وسببت الخيبات اللاحقة لفشل الميثاقية، لدى كثيرين، ظاهرة اللاتسييس. وأجرى قائد ميثاقي سابق، توماس كوبر، بمناسبة سفرتين في اللانكشاير، في عامي ١٨٦٣ و١٨٧٠، ملاحظات مؤسية: "من المؤكد أن ألوفاً من عمال اللانكشاير كانوا، في سنوات الميثاقية الجميلة، يرتدون أسمالاً، وأن الجياع كانوا عديدين. ولكن ذكاءهم كان يشع حيثما وجدوا. فقد كنا نراهم يناقشون، في مجموعات، مذاهب العدالة السياسية الكبرى أو يقدمون الحجج، بجدية، على تعاليم الاشتراكية. هذه المجموعات زالت، اليوم، من اللانكشاير. إن عمالاً حسني اللباس يتنزهون وأيديهم في جيوبهم،

ويسمع حديثهم عن التعاونيات وعن أسهمهم وعن شركات الإقراض العقاري. ويقود آخرون، وهم بلهاء حقيقيون، كلاباً صغيرة متنكرة بألبسة فوق ظهورها".

وظهرت قيم جديدة: الاعتبار والجدارة بالاحترام (ومن هنا جاء شعار أن يصبح المرء "محترماً وجديراً بالاحترام")، الاعتدال والتقشف، العمل والتوفير. وأدت جزرية ما إلى ربط فكرة الاشتراكية بوقائع غير خليقة بالاحترام جاءت من الخارج، ولاسيما من فرنسا. وأصبح المثل الثوري الفرنسي مرفوضاً بدلاً من أن يكون موضع إعجاب. ألم تود تخريبات ١٨٤٨ وضروب فوضاها الثورية إلى الفوضى، وهذه إلى الاستبدادية الإمبراطورية؟ ثم كان دور الكومونة التي نشرت الإنذار من جديد. وتوطد العمال في الشعور بأن الاشتراكية الإنكليزية يجب أن تكون نسيجاً وحدها، جزرية وتقليدية، لا تستند إلى الدولة، بل إلى الرابطة المحلية، النقابة، التعاونية. وهذه التيارات ذات النمط الراديكالي المتقدم قوية، في كل البلد، ولكنها أقوى، على الأخص، في المناطق الصناعية. فهي تملك قاعدة كبيرة بفضل الوزن العددي للطبقة العاملة في بريطانيا. وهكذا، فإن جريدة "رينولدز نيوز" التي تعبر، بشكل مدهش، عن هذه الحالة الفكرية وتساهم، في الوقت نفسه، في نشرها، كانت توزع، عام ١٨٦٢، ٣٥٠ ألف نسخة. وغلاباً ما وصلت هذه القناعات إلى النزعة الجمهورية التي بلغت أوج نهوضها حوالي ١٨٧٠-١٨٧٤. ومرة أخرى، أعطيت الأرجحية للنظام السياسي على النظام الاجتماعي.

إلا أن تطورات هامة جداً حدثت، على الصعيد الاجتماعي، منذ منتصف القرن، مع ولادة النقابية "ذات النمط الجديد" حسب تعبير ويب الشهير. والواقع أن هذا المدلول عن نقابية متينة التنظيم ومؤيدة للسلام الاجتماعي، كما ترمز إليها "الجونتا" (أي المجموعة العمالية الصغيرة التي تشرف على مجلس لندن للعمل الذي تأسس عام ١٨٦٠)

قد وضع، بقوة، موضع المساءلة، من جديد، منذ حوالي ثلاثين سنة. وقد درس ويب، دون شك، الحركة النقابية أكثر مما ينبغي على مستوى القيادات، وبدرجة غير كافية على مستوى القاعدة. وقد بين كول أن هذه النقابية، التي تبقى أكثر قتالية مما زعم لا تعني إلا أقلية من المنظمات العمالية، في الدرجة الأولى في التعدين (على اعتبار أن تكوين "الشركة المختلطة للهندسة" عام ١٨٥١، هو الذي يشير إلى ولادة "النمط الجديد") وفي صناعة البناء. أما القطاعات الصناعية التي بقيت خارج الحركة واستمرت في تنظيم نفسها في نقابات تقليدية، فإنها تمثل أغلبية العالم العمالي: وهذه هي الحال مع عمال المناجم والنسيج والطباعة والتعدين الثقيل والزجاج والأحذية إلخ... وتجمع جملة النقابات، عام ١٨٦٨، في منظمة مركزية هي "مؤتمر الاتحادات النقابية" قد أفلت، هو نفسه، من تأثير النمط الجديد. وعلى وجه الإجمال، بدا النشاط النقابي أقل ركاكة وأكثر جرأة، في الغالب، مما قيل. وكما قال كول عن صواب، فإن "التخلي عن المحاولات الثورية شيء، وقبول فلسفة الرأسمالية شيء آخر تماماً".

وحدث تطور هام آخر بين ١٨٧١ و١٨٧٤ في القطاع من الطبقة العاملة الذي بقي، حتى ذلك الحين، خارج كل تنظيم. فلم تكن أية حركة جماهيرية قد تدخلت بين العمال اليدويين أو غير المؤهلين منذ محاولات ١٨٣٢-١٨٣٤. وفي بضعة أشهر، جرت هبة هياج لدى عمال الغاز وعمال الصناعة غير المهرة والبناء والمياومين الزراعيين (بدفع من المناضل الذي لا يكل جوزف آرش)، ولدى عمال الخطوط الحديدية أخيراً. ففي كل مكان تشكلت اتحادات عمالية توافد عليها المنتسبون، واندلعت إضرابات. ولكن "الهمود الكبير" بدأ فجأة. وحطمت الأزمة الحركة على الرغم من ديناميكيتها الخارقة. وسوف ينبغي الانتظار حتى ١٨٨٩ وإضراب حمالي مرفأ لندن من أجل أن تتكون، من جديد،

حركة نقابية بهذه السعة لمصلحة العمال غير المهرة. إلا أن حلقة ١٨٧٢-١٨٧٤ تبرهن على قتالية الحركة العمالية وسط عهد جرى الاتجاه أكثر مما ينبغي إلى اعتباره عهد هدوء واستسلام.

والواقع هو أن معظم الطاقات العمالية التي وجهتها النقابية استقطبت، آنذاك، من جانب استراتيجية مزدوجة. فبين ١٨٦١ و١٨٦٧ جرت، بصورة موازية للنهوض النقابي، حملة واسعة ذات نموذج سياسي هدفها الإصلاح السياسي وحق الانتخاب. واتجهت الحركة العمالية بعد أن حققت نجاحاً جزئياً بفضل قانون ١٨٦٧، في اتجاه آخر، ولكن ذلك كان بالشاغل السياسي والبرلماني نفسه، وبتكتيك التحالف نفسه مع الراديكاليين. وكان ذلك هو النضال من أجل إصلاح التشريع في موضوع النقابة وحق العمل والعلاقات الصناعية. وجربت النقابية التي تحولت إلى مجموعة ضغط، للمرة الأولى نجح هذا النوع من العمل (إقرار قانون النقابات عام ١٨٧١، وقانون أرباب العمل والعمال عام ١٨٧٥). وبعد ١٨٧٥، توطد التحالف مع حزب الأحرار في الوقت الذي تراجع، فيه، الاتجاه الجمهوري: وهذا هو التكتيك العتيد "ليب-لاب" (أحرار-عمال *LIBERAL-LABOR*) الذي ستقف ضده الاشتراكية التي عادت إلى الحياة بعد ١٨٨٠.

الاشتراك البريطاني في الأممية

منذ عام ١٨٤٨، دخلت الأممية روح الحركة العمالية الإنكليزية. وهذه اليقظة التي ترجمت إلى الاشتراك في منظمات مثل "الديمقراطيين الأخويين" و"الرابطة الدولية" وجدت الحافز في وجود عدد من المنفيين السياسيين من كل دول أوروبا. وكل الذين وجدوا ملجأ في مرفأ الأمان هذا، من إيطاليين وبولونيين وفرنسيين وألماناً وروس استمروا، وقد وجدوا الحماية من الثورة المضادة التي تدفقت على القارة، في حبك

خيوط دعاياتهم القومية مع تدخلهم بقدر ما يسمح الحذر بالنضالات الديمقراطية والاجتماعية في المملكة المتحدة. وكانت تلك حال ماركس وماتزيني والاشتراكيين البولونيين. وبالمقابل، كان العمال الإنكليز الذين يفيدون من نظام ليبرالي ودستوري يحسون بتعاطف عفوي مع اللاجئين، المضطهدين البؤساء، بسبب أفكارهم، ومع القضايا التي يدعمونها دون أن يميزوا، بوضوح، على كل حال، بين النضالات الوطنية والحركات الثورية والطبقية. وكثيرون منهم كانوا مقتنعين بأن الحرية غير قابلة للتقسيم وأن "مساً بالحرية على ضفاف التاج يترل ضربة بأصدقاء الحرية على ضفاف التاميز" على حد قول هارناي.

واعتباراً من ١٨٦٠، تضاعفت العلاقات الدولية. وقامت صلات، عام ١٨٦٢، بين العمال الإنكليز والفرنسيين بمناسبة معرض لندن الدولي. وأثارت الأحداث الدولية، غاريبالدي والوحدة الإيطالية، انتفاضة ١٨٦٣ البولونية، حرب الانفصال الأمريكية، الحماس والمساجلات. وأخيراً، فإن القادة النقابيين اللندنيين، وخاصة جورج أودجر، هم الذين ولدت، لديهم، فكرة الاجتماع الذي أدى، في ٢٨ أيلول ١٨٦٤، إلى تأسيس الأممية الأولى. ولا يدور الأمر لدى البريطانيين، أبداً، حول صنع ثورة، بل حول مبادرة تثبت تعاطف العمال الإنكليز مع مضطهدي القارة. وبين مشاريع الإعلان الأول، كتب أحدها أوين والآخر من أنصار ماتزيني إلى أن انتصر نص ثالث هو نص ماركس. ولم تكن النقابات الإنكليزية، بتأييدها هذا التصريح، تؤيد فكرة استيلاء البروليتاريا على السلطة، ولم تكن ترمي إلا إلى غرضين. الأول، الأكثر غيرية، هو تقوية التضامن الدولي بين العمال ضحايا الاضطهاد نفسه عبر العالم. والثاني، الأكثر نفعية، هو التحصن، في حالة قيام إضراب، من الإرسال الكثيف لـ"صفر" يأتون من الخارج. وبعبارة أخرى، فإن الأممية تقدم، ببساطة، بتكتيك التكتل بين عمال مختلف البلدان، وسيلة

دعـم خـط المعركـة الصناعيـة والتشـريعية الـذي سـارت عليـه الاتحـادات العماليـة حـتى ذلـك الحـين. ولذلـك، لم تـول هـذه الأخـيرة مزيـداً مـن الاهتمـام ولا مزيـداً مـن الأهميـة للأممية. وتـابعت تركـيز جـهودها علـى المكسبين اللذين كـانت تتمسـك بهمـا أشـد التمسـك: حـق الاقـتراع بفضـل الإصلاح الانتخابي وإقـرار تشـريع مناسـب للنقابـات والأجـراء.

وكانت بنية الرابطـة الدوليـة للعمـال مختلفـة جـداً، في إنكلـترا، عمـا كـانت عليه في البلدان الأخـرى. ففـي حـين كـان البريطـانيون ممثلـين بنسـبة كبـيرة في المجلـس العـام-أي علـى الصعيـد الـدولي-حيـث يجتمـع قـادة الحركـة العماليـة الرئيسـيين، أودجـر، أبليغـارت، برودهورسـت، وكريمـر، لم يكـن يوجـد، علـى الصعيـد القومـي، مجلس اتحـادي إنكلـيزي ممـاثل للمجلـس الاتحـادي الفرنسـي أو السويسـري أو الإيطـالي... فقـد كـان مـاركس يخشـى، فعـلاً، أن يقـع مجلـس بريطـاني، إذا تشـكل، بـين أيـدي الاتحـادات النقابية، ويفلـت، بالتـالي، مـن نفـوذه. ولذلـك فضـل أن يسـتخدم الممثلـين الإنكلـيز في المجلـس العـام حلفـاء إمكـانيين ضـد خصومـه البـاكونيين أو البرودونيين. ومـن هنـا، تـولى المجلـس العـام مسـؤولية مزدوجـة هـي توجيـه الأممية، علـى الصعيـد العـالمي، وتوجيـه الأعضـاء البريطـانيين. والواقـع هـو أن الأعضاء الوحيديـن، في إنكلـترا، كـانوا يتـألفون مـن النقابـات المتحالفـة الـتي أضيـف إليـها بعـض الأعضـاء الأفـراد والرابطـة القوميـة للإصـلاح (الحركـة الاشتراكية التي أسسـها أوبريـان).

إن كل هذه المنـاورات في الكواليـس هـي الـتي تفسـر، إذن، التنظيـم الطريـف للأمميـة مـن الجـانب البريطـاني. وهـي، أيضـاً، الـتي أدت، في الطـور الأخـير للأمميـة، إلى قيـام مجلـس اتحـادي نقـابي في نهايـة المطـاف. وبـالفعل، مـا أن انسحب القـادة النقـابيين الرئيسـيين مـن المجلـس العـام لعـدم موافقتـهم علـى دعم ماركس لكومونـة بـاريس، ومـا أن ظـهر الممثلـون البريطـانيون البـاقون، منذ ذلك الحـي، أقـل طواعيـة، حـتى دفـع مـاركس، عـام ١٨٧١، إلى خلـق

فروع محلية ومجلس اتحادي بريطاني رئيسه باري وسكرتيره هالز. وهذا المجلس أطلق، خاصة، فكرة حزب عمالي مستقل. ولكنه انهار بعد قليل من الوقت (١٨٧٢) لحرمانه من الدعم لدى النقابات وتخريبه بفعل الخلافات الداخلية. و لم تتوقف الأممية، من جانبها، عن التقهقر. وعندما تقرر نقل مقرها من لندن إلى نيويورك، أنجزت فقدانها الكل مكانة لدى العمال الإنكليز الذين كانت أكثريتهم قد كفت عن الاهتمام بها منذ وقت طويل.

وتتجاوز أسباب الفشل النهائي تجاوزاً واسعاً إطار الحركة العمالية الإنكليزية، ولكن الضعف الولادي للأممية، من الجانب البريطاني، يفسر بأربعة عوامل نوعية. فقبل كل شيء تبقى ضروب التعاطف الأممية للنقابات، مهما كانت مخلصة، في معظم الأحيان، نظرية إن لم تكن عاطفية. فالعمال البريطانيون، مع إبدائهم تضامنهم المبدئي مع العمال الأوروبيين الآخرين، لم يؤيدوا، قط، جدياً، برنامج الأممية. فقد سعوا، في التنظيم، وراء دعم لنضالاتهم الصناعية. و لم تكن أهدافهم الاقتصادية، قبل كل شيء، تتطابق، في شيء، مع الأهداف الاجتماعية للجناح الثوري للأممية. ومنذ أحست الاتحادات النقابية هذا التباين الذي لا علاج له، أي حوالي ١٨٦٧، تضاءلت الانتسابات إلى الأممية. وتوقف النمو العددي، بعد انطلاقة جيدة، عند سقف الخمسين ألفاً ثم تراجع.

وقد أسهم التوضع الجغرافي، كالتوضع المهني، للأممية، ثانياً، منذ البداية، في إضعاف الحركة، وسرعان ما حكم عليها بالركود. فرجحان الحركة في لندن وضعف امتدادها إلى المقاطعات، وخاصة إلى الشمال الصناعي، حرمها من القواعد الاجتماعية الضرورية. ومن جهة أخرى، كانت النقابات المنتسبة إلى الأممية تمثل مهناً في حالة تراجع (حرفة الأحذية، اللباس) أو ضعيفة المكننة (صناعات البناء أو الأثاث). وبالمقابل، بقيت الصناعات الكبرى الحديثة والمتقدمة تقنياً، كالتعدين والمناجم والنسيج،

بعيـــدة. والعـــامل الثـــالث هـــو أن اســـتخدام مـــاركس القـــادة النقـــابيين أدوات لسياســـته اليوميـــة بموجـــب تأرجحـــات خفيـــة ناجمـــة عـــن حســـاباته الخاصـــة ولعبـــة خصومـــه شـــوه طبيعـــة النقابـــات نفســـها، ومـــا أن انفتحـــت عيـــــون الممثلين البريطانيين في المجلـــس العـــام حـــتى رفضـــوا أن يلعبـــوا الـــذي كـــان يـــراد لهم توليـــه.

وأخيراً، فـــإن اللامبـــالاة، شـــبه الكليـــة، لـــدى الأعضـــاء البريطـــانيين، بالمســـائل الأيديولوجية أدى بهـــم إلى الانســـحاب، ببـــطء، ولكـــن بتـــأكيد، مـــن التيـــارات الرئيسية للأممية. وســـرعان مـــا أصبحـــت الفجـــوة مســـتحيلة الـــردم. ومـــا كـــان يسود لـــدى النقـــابيين، وكـــانوا مناضلين صلبـــين ذوي فكـــر عملـــي وواقعـــي، قليلي الاهتمـــام، بحكـــم ميولهـــم، بفنـــون المناقشـــات الثقافيـــة، مـــا كـــان يســـود لديـــهم، في جلســـات المواجـــهات العنيفـــة بـــين القـــاريين في المجلـــس العـــام أو في المؤتمـــرات، هـــو، في أفضـــل الأحـــوال، الحيـــة، إن لم يكـــن الذهـــــول، أمـــــام المشاجرات الـــتي كـــانوا يرونهـــا بيزنطيـــة، وفي أســـوأ الأحـــوال الخـــوف مـــن أن يعـــدوا، هـــم أنفســـهم، ثوريـــين خطريـــن مرتبطـــين بمتطـــرفي الحركـــة. وكـــانت النقابـــات الإنكليزيـــة حريصـــة علـــى سمعتـــها الطيبـــة مـــن أجـــل أن لا تســـيء، لـــدى حلفائـــها الراديكـــاليين، إلى فرصـــها في الحصـــول علـــى التشـــريع الـــــذي كان الغرض الأسمـــى لمســـاعيها. ولذلـــك، بـــدأ القـــادة الإنكلـــيز الذيـــن اســـتولى عليـــهم الخـــوف، منـــذ عـــام ١٨٦٧، حركـــة فـــك ارتبـــاط حـــذرة، وهـــو مـــا اســـتحقوا عليـــه ملامـــات مـــاركس الجارحـــة الـــتي تتهمـــهم بـــالتخلي عـــن التضـــامن مـــع البروليتاريـــا و بــــ"التضحيـــة بمبـــدأ النقابيـــــة علـــــى مذبـــــح البورجوازية للحصـــول علـــى الشـــرعية".

ومع ذلـــك، وعلـــى الرغـــم مـــن الفشـــل النـــهائي، لعبـــت الأمميـــة دوراً هامـــاً في نمو الحركـــة العماليـــة والاشـــتراكية في إنكلـــترا. فخـــلال بضـــع ســـنوات غـــذت الحركة النقابية أمميـــة حقيقيـــة، ســـلمية ومترهـــة عـــن الغـــرض، في تبـــاين كـــامل مع الجنغوية الــــتي ســـتدخل اعتبـــاراً مـــن ١٨٨٠. وهـــذا التقليـــد الأممـــي الـــذي

حـــافظ عليـــه، بعنايـــة، الجنـــاح المتقـــدم للاشـــتراكية ســـيعود إلى الظـــهور بـــين حرب البوير ومعـــارك تصفيـــة الاســـتعمار.

الفصل الخامس

مكان "رأس المال" في تاريخ الاشتراكية

جان بروها

في ١٤ أيلول ١٨٦٧، صدر، في هامبورغ، "رأس المال" لكارل ماركس بعنوان فرعي هو "نقد الاقتصاد السياسي". ولا يدور الأمر إلا حول الكتاب الأول. أما الكتب الثلاثة الأخرى من "رأس المال"، فقد نشرت بعد وفاة ماركس، فنشر الكتاب الثاني عام ١٨٨٥، والثالث عام ١٨٩٤، والرابع اعتباراً من ١٨٩٥. ونديـن لأنغلز بنشر الكتابين الثاني والثالث، ولكاوتسكي بنشر الكتاب الرابع. ويبقى الكتاب الأول أساس المؤلف، منظوراً إليه في جملته، لأنه يحلل المقولات الأساسية للرأسمالية: إنتاج فضل القيمة، إنتاج رأس المال نفسه وتراكم فضل القيمة في رأس المال. وكرس الكتاب الثاني لسيرورة تداول رأس المال، لمسائل تداول مختلف عناصر رأس المال وتحقيق فضل القيمة وإعادة الإنتاج التي جعلها التداول ممكنة. والهدف الذي حدده ماركس للكتاب الثالث هو "اكتشاف ووصف الصور المشخصة التي تولدها حركة رأس المال منظوراً إليه ككل". فهو يعالج، إذن، توزع فضل القيمة إلى ربح لمشروع وفائدة وريع عقاري، وتوزع ربح المشروع إلى ربح صناعي ومصرفي أو تجاري، وكذلك تطور هذا التوزع مع الاتجاه إلى هبوط معدل الربح خاصة. أما الكتاب الرابع، فهو يحتوي على التحليلات النقدية التي طورها ماركس بصدد علماء الاقتصاد الذين سبقوه. وقد نشر تحت

عنوان "نظريات فضل القيمة[1]".

نشوء المؤلف

ظهر الاهتمام بالاقتصاد السياسي في وقت مبكر إلى حد كاف في شواغل ماركس وأنغلز. فمنذ "المجلة الرينانية"، قارب ماركس هذه المسائل، ولكن ذلك من زاوية ضيقة ولأسباب سياسية قبل كل شيء. فقد كان يريد الدفاع عن مزارعي الكرمة في الموزيل وعن الفلاحين الفقراء الذين كانت تحرم عليهم حقوق استعمال الغابات التي كانوا يملكونها منذ أزمان سحيقة القدم. ويلاحظ أنغلز قائلاً: "لقد سمعت، دائماً، من يقول لماركس أن اهتمامه بالتشريع حول سرقات الأخشاب ووضع فلاحي الموزيل هو الذي صرفه، على وجه الدقة، عن السياسة الخالصة إلى العلاقات الاقتصادية وأدت به إلى الاشتراكية". وفي شباط ١٨٤٤، وفي مقال في "الحوليات الفرنسية-الألمانية"، بعنوان: "إسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل، مدخل"، كتب ماركس: "علاقة الصناعة، نمط الثروة، عامة، بالعالم السياسي مسألة رئيسية في الأزمنة الحديثة". ولكن أنغلز سبق ماركس في هذا الدرب. فبسبب إقامته في مانشستر وعمله في مصنع، استطاع أن يتبين (وهو نفسه الذي سيعترف بذلك بعد أربعين سنة) أن "الوقائع الاقتصادية التي لم تكن، حتى الآن، تلعب في علم التاريخ أي درة، أو تلعب دوراً محتقراً فقط، هي، في العالم الحديث على الأقل، قوة تاريخية حاسمة". وهذا ما يفسر كون المقالات التي أعطاها أنغلز للعدد الوحيد من "الحوليات الفرنسية-الألمانية" تتصل بالاقتصاد السياسي. وعلى كل حال، فهذ هي البرهة التي ارتمى، فيها،

١-اقتصرت طبعة وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية على الكتب الثلاث الأولى نظراً لأن العرف جرى على اعتبار الكتاب الرابع مؤلفاً مستقلاً. (المعرب)

ماركس، بنهم، على المؤلفين الذين عالجوا الاقتصاد. ونجد أثراً لهذه القراءات في النص المعروف باسم "مخطوطات ١٨٤٤". فللمرة الأولى يهاجم ماركس الاقتصاد السياسي الذي يعد الملكية الخاصة معطى ولنه لا يفسرها. فنحن، فعلاً، في قلب المسائل التي طرحها تشكل فكر اشتراكي: الملكية، الانفصال بين رأس المال والعمل، علاقة الأجر بالربح، ضيعة العمال إلخ...

ويجب أن نميز، في هذه المسيرة التي ستقود ماركس، بين ١٨٤٤ و١٨٤٨، إلى "رأس المال"، ثلاثة معالم هامة: "بؤس الفلسفة" (١٨٤٧)، محاضرة ماركس، في كانون الثاني ١٨٤٨، في بروكسيل، حول العمل المأجور وراس المال، وأخيراً، وخاصة، "بيان الحزب الشيوعي". إلا أن عام ١٨٥٠ يشكل منعطفاً هاماً. فماركس لم يعد يؤمن بقرب انتفاضة ثورية. وهو، بإقامته علاقة مباشرة بين الأزمات الاقتصادية والأزمات الثورية، مقود، بهذا التفكير، إلى استئناف دراساته الاقتصادية بصورة أكثر منهجية. ويتطابق هذا السعي مع منفاه الإجباري في لندن. فقد كانت إنكلترا، بالنسبة إليه، مرصداً ممتازاً للملاحظة. ألم تكن إنكلترا، آنذاك، أكثر الدول الصناعية في العالم تقدماً؟ لقد كانت خصائص النظام الرأسمالي تظهر، فيها، بمزيد من الوضوح عن البلدان الأخرى حيث كانت تتعايش الصناعة الحديثة وصناعة النمط القديم. ويتمتع المتحف البريطاني بثروات وثائقية استثنائية، وخاصة بتقارير مسحية وسلاسل إحصائية. وأخيراً كان من الممكن، بفضل أنغلز، الحصول على معلومات مباشرة عن حياة مشروع وممارسة الأعمال.

إلا أن ماركس لم يتوصل، للوهلة الأولى، إلى إنضاج "رأس المال. فقد أبطأ المرض والصعوبات المالية عمله إبطاء عظيماً. فقد كان مرغماً، من أجل أن يعيش، على أن يعمل صحفياً -وهو ما كان يبقيه، في جميع الأحوال، على اتصال بالوقائع الجديدة ويجبره، خاصة، على الخروج من

حـدود أوروبـا الغربيـة. وسـوف تسـتطيع جيـني، زوجـة مـاركس، أن تكتـب، بعـد صـدور "رأس المـال"، إلى صديـق قائلـة: "...أشـك في أن يكون أي كتاب آخر قـد كتـب ضمـن شـروط في هـذه الصعوبـة، ويمكنـني، تماماً، أن أروي التـاريخ السـري لخلقـه الـذي سيكشـف عـن مقـدار لا متنـاه من ضروب القلق والعذابـات والهمـوم المخبـوءة". ولكـن الشـيء الخـاص هـو أن مـاركس كـان رجـلاً ذا هواجـس. فقـد أعـاد، تكـراراً، وضـع المخطـط العام للعمل موضـع المسـاءلة، وحـاصر أنغلـز بالأسـئلة. وكـان يريـد أن يقـرأ كل ما كان يصدر حول المسـائل الـتي تشـغله.

ويمكـن أن نمـيز، في تحضـير "رأس المـال"، بـالذات، مرحلتـين. وتقـوم الأولى علـى مخطـوط يعـود إلى ١٨٥٧-١٨٥٨ نشـر، للمـرة الأولى، عـام ١٩٣٩ وعـرف باسـم "عنـاصر نقـد الاقتصـاد السياسـي". ونـرى، فيـه، صياغـة لبعـض المدلـولات الـتي ستسـتعاد في "رأس المـال"، كـالتمييز بـين رأس المـال الثابت ورأس المـال المتحـول وبـين الصـورة المطلقـة والصـورة النسـبية لفضـل القيمة. ويمكـن أن يعـد "إسـهام في نقـد الاقتصـاد السياسـي[1]" الـذي نشـر في أول حزيـران ١٨٥٨ المرحلـة الثانيـة. ففيمـا يتعلـق بتـاريخ الاشـتراكية، قدمـت، في ذلـك الحـين، بعـض الأفكـار الكـبرى الـتي سـتميز الاشـتراكية العلميـة بمزيـد مـن الوضـوح عـن الكتابـات السـابقة. فليـس موضـوع الاقتصاد السياسي أشـياء، فقـط، بـل، أيضـاً، علاقـات بـين البشـر وعلاقـات بـين الطبقـات في نهايـة المطـاف. ويمكـن أن نجـد، فيـه، النقـد الأساسـي للتصـورات الطوباويـة والإرادويـة للاشـتراكية. فالعلاقـات الـتي تقـوم بـين البشـر "في إنتاجـهم الاجتمـاعي لحيـاتهم" هـي، بـالفعل، "مسـتقلة عـن إرادتهـم". فـهي علاقـات "محـددة، محتومـة"، "علاقـات إنتـاج تقـابل درجـة محددة من نمو قواهم الإنتاجيـة الماديـة". ومنـذ ذلـك الحـين، وعلـى عكـس مـا

---

[1]-الترجمة العربية مـن منشـورات وزارة الثقافـة. (المعـرب)

كان يؤكده كثيرون من المنظرين الاشتراكيين، ليس الإنسان هو الذي ينبغي تغييره لتحويل المجتمع، بل نمط إنتاج الحياة المادية لأنه "يشرط سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية عامة". ومن جهة أخرى، توضح مفهوم الثورة الاجتماعية. فماركس يريد أن يعطي كلمة الثورة هذه التي تبدو غير قابلة للفصل عن تاريخ الاشتراكية معنى دقيقاً. فلا يكفي أن يتمنى رجال ثورة حتى تتحقق شروط هذه الثورة. وماركس يعالج، بصورة أوضح منها في "البيان"، مستوى القوى الإنتاجية (موضوع العمل، أدوات الإنتاج والإنسان، نفسه، بوصفه قوة عمل) وطبيعة علاقات الإنتاج، أي العلاقات التي يعقدها البشر فيما بينهم في سيرورة الإنتاج والتي جمدت، بدرجات متفاوتة، في قوانين وقواعد وأنظمة للملكية. ويكتب ماركس ما يلي: "تدخل القوى الإنتاجية المادية، في طور ما من نموها، في تناقض مع علاقات الإنتاج القائمة أو، وهو ما ليس سوى التعبير الحقوقي عن ذلك، مع علاقات الملكية التي كانت تتحرك ضمنها حتى ذلك الحين. فتتحول هذه العلاقات من صور نمو القوى الإنتاجية التي كانت عليها إلى عقبات. وعند ذلك، يفتتح عهد ثورة اجتماعية.

ويمكن دراسة "رأس المال" من وجهات نظر مختلفة. فالمؤرخ والسياسي، وحتى الفيلسوف يجدون، فيه، ضالتهم. وسوف نتخذ، هنا، موقع تاريخ الاشتراكية-على الرغم من أن كل مركبات "رأس المال" متشابكة، فيما بينها، تشابكاً وثيقاً.

السلعة والقيمة

في مركز الكتاب الأول من "رأس المال" يوجد مدلول فضل القيمة. وتؤلف نظرية فضل القيمة التي سبق لماركس أن صاغها منذ حوالي عشر سنين، بالنسبة إليه ولأنغلز، المحتوى العلمي لاستغلال البروليتاريا، علم

بؤسها. و لم تكن كلمات "استغلال" و"مستَغَلين" و"مستغِلين" تعبر، حتى ذلك الحين، إلا عن نوع من احتجاج حانق، أخلاقي ضد شروط الأجر والعمل المفروضة على العمال. وكان بعضهم يستطيع أن يحلم بمجتمع متحرر، مع بقائه رأسمالياً، من هذا الاستغلال. وبدا استغلال رأس المال، منذ ذلك الحين، شرطاً من شروط ولادة الرأسمالية ونموها. وقد يطرأ تعديل على هذه الصور في مجرى التاريخ. فقد تبدو أقل قسوة، أقل اضطهاداً، أقل استلاباً. ويمكن أن يتحول الزمان، بموجب السياق، وفي المكان حسب درجة تقدم بلد ما. ولكن الاستغلال يبقى بالمعنى الذي أعطاه إياه ماركس. فهو، نوعاً ما، جوهر الرأسمالية نفسه. وفي جميع الأحوال، لا يمكن، لفهمه جيداً، فصل مفهوم فضل القيمة عن الهندسة العامة لـ"رأس المال".

ينطلق ماركس من مدلول السلعة. فهو يتساءل عما تقوم عليه قيمة تبادل سلعة ما. والأشياء تبدو، في الظاهر، بسيطة. فتجري مبادلة سلعة بسلعة أخرى أو أنه يمكن، بالمال، الحصول على أية سلعة. ويتكون لدى المرء الانطباع بأن كل شيء يجري على مستوى السوق. والواقع، هناك سر للسوق. فالبحث عن قاسم مشترك يؤدي إلى إمكانية تبادل سلع مختلفة من حيث طبيعتها الفيزيائية أو قيمتها الاستعمالية وهي مسألة حيرت، منذ زمن طويل، منظري الاقتصاد. وكان آدم سميث قد وصل إلى الاستنتاج القائل أن العمل "هو المقياس الحقيقي والنهائي الذي يمكن أن يستخدم، في كل الأزمنة وكل الأمكنة، لتقويم قيم كل السلع والمقارنة بينها". وكانت تلك، أيضاً، أطروحة ريكاردو. وكار ماركس انطلق من هذا الاكتشاف. فهو يستعيده، باستمرار، في صيغ ملونة: "كل السلع، من حيث هي تجسيد مادي للعمل الاجتماعي، تبلورات للوحدة نفسها"، "ليست كل السلع، كقيم تبادل، سوى مقاييس محددة لزمن العمل". وهذا ما قاد ماركس إلى تعميق بعض المعطيات، كالإنتاج

السلعي أو العمل نفسه. وكما هو الأمر، دائماً، لدى ماركس، ينصب الانتباه على تعقيد العلاقات الاقتصادية متزايدة التعقيد تاريخياً. إن هناك صورة بسيطة للإنتاج السلعي. وهي تتضمن تقسيماً معيناً للعمل. ولكنها تتضمن، أيضاً، وجود الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ومنتجات العمل. فالذي ينتج هو، في الوقت نفسه، مالك وسائل الإنتاج ومالك منتجات عمله. فلا فصل بين الملكية والعمل. ويجري الانتقال من الصورة البسيطة لإنتاج إلى الصورة الأعلى عندما يحل محل تقسيم العمل بين المنتجين المستقلين تعارض جديد بين من يملكون الوسائل الإنتاجية التي هي في طريقها إلى التحديث والذين يجب عليهم، لكونهم محرومين منها (أو لكونهم، بعبارة أضبط، جردوا من ملكيتها)، أن يبيعوا قوة عملهم لمالكي وسائل الإنتاج. فالإنتاج الرأسمالي يبدو، إذن، الصورة العليا للإنتاج السلعي.

ولا نفهم من العمل، إذا بقينا عند الظواهر (أي عند ما يرى)، سوى العمل المشخص، العمل الذي ينفقه الإنسان بصورة محددة. إلا أن كل عمل مشخص مختلف عن الآخر. ومنذ ذلك الحين، لا يمكن للعمل المشخص أن يكون تلك الوحدة القياسية للسلع التي لا يكون أي تبادل للسلع مفهوماً دونها. إلا أن لتجليات العمل المشخص شيئاً مشتركاً ما بينها. فهي تقتضي، كلها، إنفاقاً لطاقة جسدية وعقلية من جانب العمال. وهي تعبر عما سماه ماركس، منذ ذلك الحين، قوة العمل. وعمل منتجي السلع، من حيث هو إنفاق لقوة عمل الإنسان عامة، دون حسبان حساب لصورته المشخصة، هو "عمل مجرد". ومن أجل أن يمكن مبادلة سلعة بأخرى، يجب رد صور العمل المشخصة إلى شيء يمكن المقارنة به، أي إلى العمل المجرد. ومنذ ذلك الحين، يتوصل ماركس الى نتيجة أخرى: "قوة عمل المجتمع بكامله التي تتجلى في مجموع القيم ليس لها حساب، بالتالي، إلا كقوة فريدة على الرغم من أنها تتركب من قوى

فردية لا تحصى. وكل قوة عمل فردية مساوية لكل قوة أخرى من حيث أنها تملك طابع قوة اجتماعية متوسطة وتعمل بهذه الصفة، أي لا تستعمل في إنتاج سلعة ما سوى زمن العمل الضروري في المتوسط، أو زمن العمل اجتماعياً. والزمن اللازم، اجتماعياً، لإنتاج السلع هو الزمن الذي يقتضيه كل عمل بدرجة متوسطة من المهارة والكثافة في شروط تكون سوية بالنسبة لبيئة اجتماعية معينة... فهو، إذن، كم العمل أو زمن العمل اللازم، في مجتمع ما لإنتاج صنف يحدد كمية قيمته" (رأس المال، المجلد الأول).

وفضلاً عن ذلك، فالعمل مدلول متمايز إلى أقصى حد. فهو يمضي من العمل البسيط ("إنفاق القوة البسيط الذي يملكه، في تنظيم جسده، كل إنسان عادي دون نمط خاص"، "رأس المال، المجلد الأول) إلى العمل المعقد لمن تلقى تأهيلاً خاصاً. ومن جهة أخرى، فإن زمن العمل اللازم لإنتاج سلعة ما ليس راسخاً. فهو تابع للمستوى الذي بلغته إنتاجية العمل التي تختلف، هي نفسها، بموجب عوامل معقدة: تحسين أدوات الإنتاج، تقدم العمل وتعقيل التقنيات، تسارع الإيقاعات إلخ... وقانون القيمة هو القانون الموضوعي للإنتاج السلعي الذي يريد أن يجري تبادل السلع طبقاً لكمية العمل اللازمة، اجتماعياً، لإنتاجها. وقد فرض النقد نفسه، تاريخياً، كتعبير عملي ومشخص عن القيمة المجردة: فهو المعادل العام. والنقد يخفي علاقة اجتماعية: "إن هذين الشيئين البسيطين، الذهب والفضة، كما يخرجان من باطن الأرض، سرعان ما يتبديان تجسيداً مباشراً لكل عمل بشري... ومن هنا السحر" (رأس المال، المجلد الأول).

قوة العمل

بما أن أساس قيمة السلع هو الزمن اللازم لصنعها، وضع قوة عمل

الإنسان موضع العمل في شروط محددة ومتغيرة، فإن طبيعة هذا العمل هي التي يجب أن تدرس، وكذلك الطريقة التي يستعمل بها. ومن هنا مسيرة فكر ماركس التي ستؤدي إلى نظرية فضل القيمة.

بين كل السلع، توجد سلعة خاصة هي، على وجه الدقة، قوة العمل هذه، أي "مجموع القوى الجسدية والعقلية الموجودة في جسم إنسان ما، في شخصيته الحية والتي يجب أن يحركها لإنتاج أشياء نافعة" (رأس المال، المجلد الأول). وقوة العمل هذه سلعة. وقانون القيمة ينطبق عليها أيضاً.

وقد تقدم ماركس على هذا الدرب الذي قاده إلى فرضية (بالمعنى العلمي للكلمة) فضل القيمة خطوة بعد خطوة. وفي كل مرحلة زادت مفرداته دقة. وعام ١٨٥٩ هو الذي يميز، اعتباراً منه، بين قوة العمل ونتاج العمل. وفيما يتعلق بقوة العمل، يستعيد تعريفاً سبق أن توصل إليه، قبله، علماء الاقتصاد الكلاسيكيين، ولكنه استعاده مدققاً فيه ومستخلصاً منه عدداً من النتائج. ففي عام ١٨٦٥، يطرح، في أحاديثه حول "الأجر، السعر والربح" ما يلي: "إن قيمتها (قيمة قوة العمل) محددة، كأي سلعة أخرى بالضبط، بكمية العمل اللازمة لإنتاجها. فقوة عمل إنسان ما لا تقوم إلا في فرديته الحية. ومن أجل أن يستطيع النمو وصيانة حياته، يجب أن يستهلك كمية محددة من وسائل العيش. ولكن الفرد، كالآلة، يبلى ويجب إبداله بآخر. وفضلاً عن كمية الأشياء الشائعة الضرورية التي يحتاج إليها لمعيشته الخاصة، تلزمه كمية أخرى من مواد الضرورة الأولى هذه نفسها من اجل تربية عدد من الأبناء يستطيعون الحلول محله في سوق العمل وتخليد جنس العمال. وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي أن ينفق، أيضاً، مقداراً جديداً من القيم لتنمية قوة عمله واكتساب مهارة ما".

ولا ينبغي أن نبسط، إلى الحد الأقصى، مفهوم قيمة قوة العمل الماركسي. فهو يحتوي على عنصرين. فهناك، أولاً، عنصر "جسدي خالص". "فمن أجل أن تبقى الطبقة العاملة وتتناسل، من أجل تمديد

حياتها الجسدية، ينبغي أن تتلقى وسائل العيش اللازمة للحياة والتكاثر". إلا أن هناك عنصراً ثانياً يسميه ماركس "عنصراً معنوياً وتاريخياً". فيجب أن يحسب حساب، خارج "الحياة الجسدية" لتلبية "بعض الحاجات المولودة من الشروط الاجتماعية التي يعيش البشر وينشؤون فيها". "قيمة العمل محددة، في كل بلد، بمستوى الحياة التقليدي" (الأجر، السعر والربح). ويمكن لبعض هذه الحاجات، في بعض الشروط التاريخية، وبالنسبة لبعض فئات العمال، أن تكون في إلحاح المقتضيات الجسدية.

التراكم البدائي

تبدأ سيرورة الإنتاج الرأسمالي بشراء الرأسماليين مالكي وسائل الإنتاج لقوة العمل هذه. إلا أنه ينبغي تحقيق شرطين من أجل أن يجد "رجل الليرات" قوة العمل في السوق. الشرط الأول هو أن يستطيع مالك قوة العمل التصرف بها بحرية. والثاني هو أن يجبر على تأجيرها ليعيش. فيجب، فعلاً، أن يكون حراً، حقوقياً، متحرراً، خاصة، من الصلات الإقطاعية والعبوديات للإقطاعيين. وبالفعل، سبق هذا التحرير الحقوقي للأفراد صعود الرأسمالية، دائماً، سواء أدار الأمر حول ثورة ١٧٨٩ الفرنسية أم حول تحرير الأقنان في روسيا. ومن أجل أن يجبر مالك قوة العمل على بيعها، يجب أن يكون مجرداً من ملكية وسائل إنتاجية. ذلك أنه سيستخدم قوة عمله لنفسه طالما توفرت له وسائل إنتاج. فسوف يبيع منتجات عمله ولن يؤجر قوة عمله. وهذا التجريد من الملكية هو أحد وجوه ما يسميه ماركس "التراكم البدائي". فهناك، في أصل تطور الرأسمالية "حلقة مفرغة": "التراكم قبل الرأسمالي يفترض، مسبقاً، وجود فضل القيمة الذي يفترض الإنتاج الرأسمالي الذي لا يدخل مسرح الأحداث، بدوره، إلا في البرهة التي تتراكم، فيها، بين أيدي المنتجين السلعيين، من قبل، كتل رؤوس أموال وقوى عمالية على درجة كافية

من الكبير" (رأس المال، المجلد ٣). وهناك تفسير ذو صبغة أخلاقية للتراكم البدائي "يلعب الدور نفسه، تقريباً، الذي تلعبه الخطيئة الأصلية في اللاهوت"، حسب ملاحظة ماركس الساخرة: "فقد كان هناك سابقاً، ولكن زمناً طويلاً مضى على ذلك، زمن كان المجتمع، فيه، مقسوماً إلى معسكرين: أشخاص نخبويون، كادحون، أذكياء ومزودون، خاصة، بفضائل التدبير، هنا، وكومة من الخليعين الذين يسرحون ويمرحون من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح هناك. ومن البديهي أن الأولين كدسوا الكنز فوق الكنز، في حين أن الآخرين سرعان ما وجدوا أنفسهم مجردين من كل شيء. ومن هنا فقر الكتلة الكبرى التي يجب، على الرغم من عمل دون نهاية أو توقف، أن تدفع من شخصها دائماً، وغنى عدد صغير يحصد كل ثمار العمل دون أن يكون عليه العمل بأصابعه". إن نفس كاتب الكراسات الذي يتخلل مقداراً كبيراً من الصفحات الاشتراكية يمر، أيضاً، عبر المحاكمة العلمية في "رأس المال".

كيف تحقق، إذن، في نظر ماركس، هذا "التراكم البدائي"؟ بالطبع، تغذت الرأسمالية الوليدة، في البداية، بالإنتاج السلعي الصغير الذي تطور، منذ زمن طويل، في أطر مجتمع العبودية، وبصورة أوضح في أطر المجتمع الإقطاعي. ولكن تلك حركة مغالية في بطئها لا يمكن أن يفسر بها تشكل الرأسمالية. فقد دار الأمر حول ظاهرة نهب استمرت بالعنف والحيلة. "هذا التاريخ مسجل في حوليات البشرية بحروف لا تمحى من دم ونار". (رأس المال، المجلد ٣). ويأخذ ماركس مثالاً ذا دلالة كبيرة هو مثال طرد الفلاحين الإنكليز من أراضيهم. ويذكر بقول توماس مور الذي يتحدث عن هذا البلد الغريب "الذي تأكل، فيه، الخراف البشر". وقد سمح تركز الملكية بتراكم رؤوس أموال يمكن أن توظف في الصناعة. وتشكلت سوق داخلية إذ أصبح على الفلاحين المتروعي الملكية، منذ

ذلك الحين، أن يشتروا ما كانوا، في السابق، ينتجونه، وأصبح المستفيدون من التركز، هم أنفسهم، مشتري سلع إنتاج وسلع استهلاك. ولكن الشيء الخاص هو أن الفلاحين المنتزعين من أراضيهم سيؤلفون جيشاً من البروليتاريين كانت الرأسمالية في حاجة إليهم. وإذا كانت الظاهرة قد حدثت، في إنكلترا، على صورة خاصة في كلاسيكيتها، فإنه يمكن تبينها في كل مكان، حتى ولو كان يجب أن تلاحظ متغيرات من حيث الصيغ والتواريخ والإيقاعات. فقد حولت الرأسمالية إلى بروليتاريا قسماً من كل الطبقات الاجتماعية قبل الرأسمالية على الأقل.

ويضيف ماركس الواقعة الاستعمارية إلى نزع ملكية صغار المنتجين المستقلين. "فالتراكم البدائي" يتخذ، إذن، أبعاداً عالمية، "اكتشاف القارات المنتجة للذهب والمنتجة للفضة، في أمريكا، ورد السكان الأصليين إلى العبودية، ودفنهم في المناجم أو إبادهم، وبدايات غزو جزر الهند الشرقية ونهبها وتحويل، أفريقيا إلى سمكة تجارية للصيد في المياه العكرة، هي الطرائق العجيبة للتراكم البدائي التي تعلن عن العصر الرأسمالي في فجره" (رأس المال، المجلد ٣).

فضل القيمة مصدر الربح

خلق التراكم البدائي شروط إنتاج فضل القيمة. وبالفعل، نحن، في الظاهر، أمام تبادل سوي. فالرأسمالي يشتري قوة العمل بقيمتها. والأجر هو السعر، أي الوجه النقدي لقوة العمل. ولا يدور الأمر حول مسألة نظرية فقط. فقد اتفق، تكراراً، في التاريخ، أن طالب منظرون اشتراكيون وعمال مناضلون بالسعر العادل لعملهم. وهذا هو السبب الذي يعود ماركس، من أجله، عام ١٨٧٥، إلى هذه المسألة في "نقد برنامج غوتا". فقد كتب، آنذاك، يقول: "أجر العمل ليس ما يبدو عليه، أي قيمة العمل أو سعره، ولكنه، فقط، صورة متنكرة لقيمة (أو لسعر)

قوة العمل". وذلك مهما كان نمط الأجر. ذلك أن الأجر على أساس القطعة ليس، بالنسبة لماركس، سوى متحولة للأجر على أساس الزمن مفيدة لأرباب العمل (رأس المال، المجلد الثاني). ولو كان الأجر، فعلاً، ثمن العمل أي، بعبارة أخرى، لو كان العامل يتلقى، مقابل عمله، قيمة السلع التي أنتجها، بالضبط، فلن يمكن أن نفهم نمو الرأسمالية ولا ظاهرة الاستغلال من جانب الرأسماليين.

وينطلق ماركس من ثلاث صيغ. ويمكن أن تكتب الأولى كما يلي: س-م-س. فالإنسان ينتج سلعة (س) ويبادلها بمال (م)، وبهذا المال يشتري سلعة أخرى (س). والصيغة الثانية هي م-س-م، وهي تعني أن رجلاً يشتري بالمال (م) سلعة (س) يعيد بيعها ليحصل على مال (م). وليس للعملية أي معنى اقتصادي. وحركة رأس المال مختلفة. ويعبر عنها بالصيغة الثالثة: م-س-م+مَ. فبواسطة المال (م)، تشترى سلعة (س). وهي تعاني تحولاً، وعندما يعاد بيعها، في صورتها الجديدة، تزيد قيمتها (م+مَ). من أين يأتي هذا الفائض الذي يمثله "مَ"؟ إنه لا يمكن أن يستمد أصله من تداول السلع. "مهما يفعل، تبقى الأشياء كما هي. فإذا جرى تبادل متعادلات، فلا يمكن أن ينتج فضل قيمة، وإذا جرى تبادل لا متعادلات، فإنه لا ينتج، كذلك، فضل قيمة. فتداول السلع أو تبادلها لا يخلق قيمة" (رأس المال، المجلد الأول). فلا يمكن لزيادة القيمة أن تحدث إلا في سيرورة الإنتاج. ولقوة العمل خاصة خلق ثروات أكثر من تلك التي تستهلكها إعادة تكوين نفسها. وبعبارة أخرى، تستطيع قوة العمل أن تقدم عملاً أكبر من الذي تكلفه. ومنذ ذلك الحين، يمكن استخدام هذه القوة إلى ما وراء الزمن اللازم لإنتاج القيم الضرورية للمحافظة على مالك قوة العمل. ففي قسم أول من يوم العمل، لا يفعل العامل أكثر من استعادة قيمة السلع الضرورية لمعيشته. وهذا، على وجه الدقة، ما يسميه ماركس "زمن العمل الضروري". ولكن العامل يبقى في

العمل، وهكذا يخلق قيمة إضافية. وهذا القسم الثاني يؤلف "زمن العمل الإضافي"، "زمن العمل المجاني"، "العمل الزائد". والفرق بين كمية العمل التي تقدمها اليد العاملة وكمية العمل الممثلة بكلفتها تبقى بين أيدي الرأسماليين. وهذا هو، بالنسبة لماركس، أصل م+مَ، تفسير الفائض، إنه فضل القيمة. ويمكن أن تكتب النسبة كما يلي:

زمن العمل الإضافي (ز.ض)
= معدل فضل القيمة.
زمن العمل الضروري (ز.ر)

لنتخيل (لحاجات المحاكمة فقط) يوم عمل من ثمان ساعات مقسماً، بالضبط، إلى قسمين متساويين. ففي هذه الحالة، يكون ز.ض/ز.ر=٤/٤؛ ومعدل فضل القيمة هو ١٠٠ . ففضل القيمة هو، إذن، أصل الربح الرأسمالي. وهو مصدره الوحيد. ومرة أخرى، لن ندع أنفسنا نقع في شرك الكلمات وسراب المظاهر. فـ"رأس مال" ماركس أعاد قراءة "منطق" هيغل. وليس ذلك صدفة. فهيغل يبرهن، في "المنطق"، على أن الواقع يحتوي على جوهر يعبر عن نفسه في مظاهر، في ظواهر غالباً ما تتناقض مع هذا الجوهر. ولكن الجوهر هو الذي يجب استخلاصه من اجل فهم الواقع. وجوهر واقع الناظم الرأسمالي يقوم على تشكيل فضل القيمة وتملك رأس المال له.

فلنعد، بهذه الانعطافة، إلى نظرية القيمة. فيجب أن نميز بين تشكل القيمة (في سيرورة الإنتاج) وتحقق القيمة (في سيرورة التبادل). فمن أجل أن يستعيد الرأسمالي رأس المال المسلف ويستخلص ربحاً، (فائضاً على رأس المال المسلف)، يجب أن تباع السلعة. فقيمة السلعة قيمة إمكانية لا تتحقق إلا بالتبادل. فالقيمة ترقد داخل السلعة. وهي لا تستيقظ إلا في السوق. وعندما تمثل السلعة في السوق سعياً إلى ثمن، فإنها تنجز "قفزة خطيرة" (رأس المال، المجلد الأول). "قيمة السلعة تقفز من جسدها إلى جسد الذهب". وهذه البرهة هي التي تتدخل، فيها، لعبة العرض والطلب

للوصول إلى سعر السوق. ولكن هذا السعر لا يمكن إلا أن يتذبذب حول محور هو قيمة السلعة. وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن المشترين والباعة واعون لوجود مثل هذا القانون. فهو يلعب دوره موضوعياً. فليس من الضروري أن تباع كل سلعة بسعر يقابل، بالضبط، قيمتها. فيمكن لبعضها أن يباع بأكثر منها، ولبعضها الآخر بما هو دونها. وعندما يتم البيع بما يزيد عن القيمة، يكون هناك فائض من فضل القيمة المحقق بالقياس مع فضل القيمة المتشكل. ولكن العكس يمكن أن يحدث، في قطاع آخر، وفضل القيمة المتحقق، فيه، أدنى من فضل القيمة المتشكل. والمهم هو أن بيع المنتجات يحقق، جملة (أي في المتوسط)، في السوق، فضل القيمة المتشكل في سيرورة الإنتاج.

ويجري الحديث عن فوائد أو أرباح صناعية أو تجارية إلخ... والأمر قليل الأهمية. فلا يدور الأمر إلا حول صور مختلفة، ظاهراً، لفضل القيمة. ويسخر ماركس قائلاً: "نعرف، فضلاً عن ذلك، في كل العلوم، باستثناء الاقتصاد، أنه يجب التمييز بين ظواهر الأشياء وواقعها" (رأس المال، المجلد الثاني). ولا يبقى قسم من فضل القيمة بين أيدي الرأسماليين. فهو يعاد استثماره في المشروع من أجل أن يسمح، على وجه الدقة، للقانون العام للتراكم الرأسمالي بالعمل. وبالإضافة إلى هذا، يعيد الرأسماليون توزيع قسم من فضل القيمة هذا، بصور متنوعة، على الملاكين العقاريين والتجار والمصرفيين ومختلف الوسطاء، حتى على الدولة عن طريق الضرائب. ويجتهد "رأس مال" كارل ماركس، بصورة خاصة تماماً، في أن يبرهن على كون الربح التجاري والربح المصرفي مشتقان من فضل القيمة (المجلد ٧). ويجب أن لا ينظر إلى الظاهرة ضمن الحدود الضيقة لمشروع واحد، بل يجب أن تفهم وتحلل على نطاق المجتمع مأخوذاً في جملته. وهذه ملاحظة هامة تميز أطروحات ماركس عن النظريات الأخرى التي طرحت في تاريخ الاشتراكية. فلا يكفي، بالنسبة لماركس،

أن يصبح مشـــروع مـــا ملكـــاً لعمالـــه مـــن أجـــل أن تحـــل مســـألة الاســـتغلال الرأسمالي. ولا يمكـــن عـــزل بضعـــة مشـــروعات تتحـــول، فيـــها، ملكيـــة وســـائل الإنتاج إلى العمـــال عـــن جملـــة النظـــام الرأسمـــالي. فالنظـــام الرأسمـــالي كليـــة، ولا يمكـــن تفكيكـــه مشـــروعاً وراء مشـــروع. تلـــك هـــي بعـــض نتـــائج مـــاركس وهي تعارض النتائج الـــتي طرحـــها طوبـــاويون أو تضـــامنيون أو فوضويـــون.

فضل القيمة المطلق وفضـــل القيمـــة النســـبي

تتغذى الرأسمالية مـــن فضـــل القيمـــة. وهـــي، بموجـــب طبيعتـــها، محكـــوم عليـــها بحركة أبديـــة. فالديناميكيـــة هـــي قـــانون النظـــام. "الزيـــادة الثابتـــة لـــرأس المـــال تصبح، بالنســـبة للرأسمـــالي، ضروريـــة للمحافظـــة علـــى رأس المـــال هـــذا نفســـه" (رأس المال، المجلـــد ٤).

وبما أن فضل القيمة هو المصـــدر الوحيـــد للربـــح، فـــإن تزايـــد فضـــل القيمـــة هـــو الاتجـــاه الأساســـي، الحيـــاتي (بـــالمعنى القـــوي للكلمـــة، لأنهـــا مســـألة حيـــاة أو مـــوت) للرأسماليـــة. ولا يـــدور الأمـــر حـــول شـــراهة خاصـــة لبعـــض الأفـــراد. وكـــارل مـــاركس يعلـــم قارئـــه بذلـــك في مقدمـــــة اطبعـــــة الألمانيـــــة الأولى لـــ"رأس المال": "كلمـــــة أخـــرى لتجنـــب ضـــروب ســـوء تفـــاهم محتملـــة. فأنـــا لم أصور بلون وردي الرأسمـــــالي والمـــلاك العقـــاري. ولكـــن الأمـــر لا يـــدور هنـــا حـــول أشـــخاص إلا بقـــدر مـــا هـــم تجســـيد لمقـــولات اقتصاديـــة، دعامـــــات مصـــالح وعلاقـــات طبقـــات محـــددة. ولا يمكـــن لوجهـــة نظـــري القائلـــة أن نمـــو التشكل الاقتصـــادي للمجتمـــع قـــابل للتمـــاهي مـــع ســـير الطبيعـــة وتاريخـــها أن تجعل، أكثر من اية وجهـــــة نظـــر أخـــرى، الفـــرد مســـؤولاً عـــن العلاقـــات الـــتي يبقـــى، اجتماعيـــاً، خليقتـــها مـــهما اســـتطاع أن يفعـــل للتملـــص منـــها". (رأس المال، المجلـــد الأول).

ويميز مـــاركس بـــين طريقتـــين في زيـــادة فضـــل القيمـــة: زيـــادة فضـــل القيمـــة

المطلق أو الانتقال إلى فضل القيمة النسبي.

وتقوم زيادة فضل القيمة المطلق، بكل بساطة، على إطالة يوم العمل. وهو ما يؤدي إلى زيادة العمل الإضافي خلاق فضل القيمة. فلنفترض يوم العمل منتقلاً من ثمان إلى عشر ساعات. فسيكون لدينا ز.ض/ز.ر=٦/٤. فمعدل فضل القيمة سيرتفع، إذن من ١٠٠ إلى ١٥٠ . ويتم الحصول على زيادة فضل القيمة النسبي، دون تعديل للمدة الكلية ليوم العمل، بخفض زمن العمل الضروري. ويمكن الحصول على النسبة التالية: ليكن لدينا يوم عمل من ثمان ساعات أيضاً، فسوف نحصل على ز.ض/ز.ر= ٥/٣، وهو ما يعطي معدلاً لفضل القيمة يبلغ ١٦٠ . ويتم الحصول على هذه النتيجة بزيادة إنتاجية العمل، وهو ما يسمح للعامل أن ينتج، بزمن عمل مخفض، وسائل العيش الضرورية لإعادة إنتاج قوة عمله. والصورة الأولى لزيادة فضل القيمة هي، تاريخياً، صورته المطلقة-في عصر أيام العمل المؤلفة من ست عشرة أو ثمان عشرة ساعة. ولكن هذه الممارسة تصطدم بحدود بيولوجية: فالعامل المنهك لا يعود يستطيع إعادة تكوين قوة عمله. ومن جهة أخرى، يتزايد الضغط العمال (الواقعة واضحة، بدرجة كافية، في إنكلترا في الفترة التي كان ماركس وأنغلز مقيمين فيها) ضد إطالة يوم العمل نجعاً. ومنذ ذلك الحين، ينصب الجهد على فضل القيمة النسبي.

ونتيجة الانتقال من الصورة المطلقة لفضل القيمة إلى صورته النسبية هي تعديل ما يسميه ماركس التركيب العضوي لرأس المال. ففي تحليل رأس المال، يميز ماركس بين رأس المال الثابت ورأس المال المتحول. ورأس المال المتحول هو ذاك الذي يوظف في الأجور لأنه ذاك الذي يقدم فضل قيمة: "القسم، من رأس المال، إلى قيمة عمل يغير قيمته في مجرى الإنتاج.

إنه يعيـــد إنتـــاج قيمتـــه ومعـــها فـــائض، فضـــل قيمـــة يمكـــن، هـــو نفســـه، أن يتحول وأن يكـــون متفـــاوت الحجـــم. وهـــذا القســـم مـــن رأس المـــال يتحـــول، دون انقطـــاع، مـــن مقـــدار ثـــابت إلى مقـــدار متحـــول" (رأس المـــال، المجلـــد الأول). ورأس المـــال الثـــابت هـــو ذاك الموظـــف في أبنيـــة وآلات ومـــواد أوليـــة أو مواد مســـاعدة. وهـــذا القســـم مـــن رأس المـــال لا يعـــدل قيمتـــه في ســـيرورة الإنتاج. ومن هنا اســـم رأس المـــال الثـــابت. وتشـــكل نســـبة رأس المـــال الثـــابت إلى رأس المـــال المتحـــول الـــتركيب العضـــوي لـــرأس المـــال. ونمـــو الصـــورة النسبية لفضل القيمة يزيـــد نصيـــب رأس المـــال الثـــابت.

من التعاون البســـيط إلى الصناعـــة الكـــبرى

نعلـــم بأيـــة طريقـــة ألح كـــارل مـــاركس، في "بيـــان الحـــزب الشـــيوعي"، علـــى كـــون "البورجوازيـــة قـــد لعبـــت دوراً ثوريـــاً، بصـــورة بـــارزة، في التـــاريخ". ويقـــدم "رأس المـــال" تدقيقـــات جديـــدة ذات طـــابع نظـــري مرتبطـــة بـــالمقولات الاقتصادية التي أتينـــا علـــى تحليلـــها. فلـــو كـــان يمكـــن الاكتفـــاء بزيـــادة فضـــل القيمة المطلق، أي بإطالـــة يـــوم العمـــل، فمـــن البديـــهي أنـــه لـــن تكـــون هنـــاك حاجة إلى إدخـــال المكننـــة وتقســـيم العمـــل. فمـــا هـــو ثـــوري، حقـــاً، في نمـــو الرأسمالية هـــو ضـــرورة صـــب جـــهدها علـــى فضـــل القيمـــة النســـبي. والمرحلـــة الأولى هي مرحلة التعاون البســـيط. والتعـــاون البســـيط هـــو صـــورة إنتـــاج قـــائم علـــى اســـتغلال رأسمـــالي معـــزول لعـــدد متفـــاوت مـــن العمـــال المـــأجورين المشـــتغلين، في وقـــت واحـــد، في عمـــل متمـــاثل. ولا توجـــد جـــدة لا في ميـــدان التقنيات ولا في الطاقة. ولكن هنـــاك تقدمـــاً، مـــن حيـــث وجـــود تعـــاون فقـــط، علـــى صـــور الإنتـــاج الصنـــاعي الســـابقة. فـــهناك خفـــض لإنفـــاق العمـــل في وحدة إنتاج المصنـــع. والفـــروق الفرديـــة بـــين العمـــال تـــترع إلى الإمحـــاء: ومـــن هنا استقرار أكبر وانتظـــام أكـــبر في صنـــع الســـلع. ولكـــن هنـــاك، أيضـــاً، خلقـــاً

لقـوة عمـل جديـدة يسـميها مـاركس "العـامل الجمـاعي": "لا يـدور الأمـر حول زيادة القـوة الإنتاجيـة الفرديـة فقـط، بـل، أيضـاً، خلـق قـوة جديـدة، بواسـطة التعـاون، لا تعمـل إلا كقـوة جماعيـة" (راس المـال، المجلـد الثـاني).

والمرحلـة الثانيـة هـي مرحلـة المشـاغل. ويعـرف مـاركس المشـغل كتعـاون رأسمالي قائم على التقنية الحرفيـة، ولكنـه يتضمـن تقسـيماً جديـداً للعمـل هـو تقسـيم العمـل المشـغلي. ففـي السـابق، كـان الحـرفي ينجـز، وحـده، كـل العمليات التي يقتضيـها صنـع شـيء مـا. وقـد فككـت السـيرورة إلى سلسـلة عمليات يعـهد بكـل منـها إلى عـامل يصبـح عـاملاً تجزيئيـاً. ويلـح مـاركس على الفرق بـين هـذا التقسـيم الجديـد للعمـل والصـور السـابقة. فـها هـو، مثـلاً، مـربي الماشـية والدبـاغ والحـذاء. إن هنـاك، حقـاً، تقسـيماً للعمـل، ولكن المنتجات التي يتـم الوصـول إليـها، في كـل حالـة، هـي سـلع: الماشـية، الجلـد المحضـر، زوج الأحذيـة. في حـين أن مـا يصـل إليـه العـامل في نهايـة عمله، في تقسيم العمل المشـغلي، ليـس سـلعة، بـل هـو عنصـر مكـون لسـلعة مقبلـة. "ومـا الـذي يميز... تقسـيم العمـل المشـغلي؟ إنـه كـون العمـال التجزيئيـين لا ينتجـون سـلعاً" (رأس المـال، المجلـد الثـاني). وتقسـيم العمـل المشـغلي "يفـترض السـلطة المطلقـة للراسماليـة علـى كـل البشـر المحولـين إلى مجرد أعضاء آلية تعود إليـه". وهـو]يمسـخ العـامل ويجعـل منـه شـيئاً مشـوهاً بتفعيله النمـو الوهمـي لبراعـة عملـه مضحيـاً بعـالم كـامل مـن الاسـتعدادات والغرائز المنتجـة". ويقـوى الفصـل بـين العمـل اليـدوي والعمـل العقلـي. وفي هـذه المرحلـة، يجسـد الرأسمـالي العمـل العقلـي، ويختلـط التقسـيم إلى عمـل عقلي وعمل يـدوي مـع التنـازع بـين الرأسمـاليين (مـالكي المشـغل) والعمـال الذين لا يملكـون سـوى قـدرة عملـهم. "القـوى العقليـة تنـم مـن جـانب واحـد لأنهـا تـزول في كـل الجوانـب الأخـرى. ومـا يخسـره العمـال

التجزيئيون يتركز، تجاههم، في راس المال" (المجلد الثاني). ولا يقتصر التخصص على البشر، بل يمتد إلى أدوات الإنتاج التي تتحسن وتتكيف مع المهمات الجديدة. إلا أنه يجب تأمين إنتاج أكثر كثافة عندما تتزايد الحاجات إلى منتجات مصنعة. "منذ أن يصل (المشغل) إلى درجة معينة من النمو، تتنازع قاعدته التقنية مع حاجات الإنتاج التي خلقها هو نفسه". (المجلد الثاني).

ويؤلف الانتقال من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة التي هي مرحلة المكننة والصناعة الكبرى الثورة الصناعية (التعبير استعمل، فعلاً، من جانب ماركس، المجلد الثاني). ففي طور أول، يصبح من الضروري تمديد يوم العمل لأن للرأسمالي مصلحة في استعمال الآلة إلى الحد الأقصى. ويميز ماركس بين نموذجين من اهتلاك الآلة: الاهتلاك الطبيعي (الآلة لا تكون في وضع يسمح لها بالعمل) والاهتلاك المعنوي (ضروب تقدم التقنية تتجاوز الآلة). "إنها تصبح... متفاوتة انخفاض القيمة. ويتدنى خطر اهتلاكها المعنوي كلما قصرت الفترة التي تعيد، فيها، إنتاج قيمتها، وتقصر هذه الفترة كلما طال يوم العمل" (المجلد الثاني). ولكن الآلة تسمح، أيضاً، بتكثيف العمل، أي بزيادة فضل القيمة النسبي. وتتفاقم شروط العمل العمالي، فيصبح من الممكن، أولاً، بفضل الآلة، استخدام قوة عمل النساء والأطفال. "تسمح الآلة، بجعلها القوة العضلية نافلة، باستخدام عمال ليست لديهم قوة عضلية كبيرة، ولكن أطرافهم تزداد مرونة كلما كانت قليلة النمو. فعندما استولى رأس المال على العمل، كانت صرخته: عمل نساء! عمل أطفال!" (المجلد الثاني). وهكذا لم يعد ما يشتريه الرأسمالي قوة عمل فرد واحد، بل قوة عمل الأسرة، وهو ما يخفض قيمة قوة عمل الفرد. وتزيد الآلة في تجزئة العمل التي

ظهرت مع المشغل. "في المشغل والمهنة، يستخدم العامل أداة، أما في المصنع، فيستخدم الآلة. هناك تنطلق حركة أداة العمل منه، وهنا لا يفعل سوى متابعتها" (المجلد الثاني). فتبدو الآلة، إذن، للعامل العدو الذي يأتي منه كل الشر. إنها تسحقه هو وأسرته، إنها تقيده، تجعله يفقد حتى ظاهر الاستقلال في تنظيم العمل الذي كان إحدى خصائص الحرفية. وهي تستجر، بإيقاعها الاستبدادي، انضباطاً صارماً. وتزيد من مخاطر البطالة بتحسنها، بقيامها، وحدها، بعمل عدة عمال. ومن هنا نوبات تدمير الآلات. "الصراع بين الرأسمالي والأجير يعود إلى أصول رأس المال الصناعي نفسها وينطلق خلال الفترة المشغلية، ولكن العامل لا يهاجم وسيلة العمل إلا لدى إدخال الآلة. إنه يثور ضد هذه الصورة الخاصة للأداة التي يرى، فيها، التجسيد التقني لرأس المال" (المجلد الثاني).

القانون العام للتراكم الرأسمالي

بعد استخلاص هذه المقولات، ينتقل ماركس إلى دراسته القوانين العامة للتراكم الرأسمالي. ويمكن أن تمثل الدارة بالصيغة التالية: م-س (الإنتاج)-س١-م١. فهناك، إذن، طور إنتاج تصبح، خلاله، كمية معطاة من السلع أكبر من السلع (من س إلى س١). وخلال الطور الثاني الذي هو طور التداول، وبعد إنتاج هذه الكمية من السلع، يتم الحصول، ببيعها، على كمية مال تشترى بها كمية أخرى من السلع (من س١ إلى س). وهذان الطوران غير قابلين للفصل بينهما بداهة. فإذا انقطع طور الإنتاج، تباطأ طور التداول ثم يتوقف بدوره. وإذا تباطأ طور التداول أو توقف، أدى الاختناق إلى توقف طور الإنتاج. ويعرّف ماركس، لهذا السبب، النظام الرأسمالي كنظام إعادة إنتاج. فقد كانت ستوجد إعادة إنتاج بسيطة لو كان الرأسمالي يستهلك فضل القيمة كلياً. إن هذه

الفرضية غير واقعية لأن تصميم إعادة الإنتاج البسيطة تجعل نمو الرأسمالية مستحيلاً. فإعادة الإنتاج الموسعة، إذن، شرط ضروري لعمل النظام. وهي تقابل ظاهرة التراكم الرأسمالي الذي احتفظ، له، بجزء من فضل القيمة. وكلما تزايد هذا التراكم، تعدل التركيب العضوي لرأس المال لأن فضل القيمة الذي يعاد وضعه في الدارة يستخدم، دون شك، لشراء قوى عمل إضافية ولكنه يستخدم، خاصة، لزيادة رأس المال الثابت.

من هذه الحركة يستخلص عدد من النتائج.

فهناك، أولاً، التركز. إن ماركس يميز بين التركز والمركزة. فرأس المال يتزايد، وهو يتركز بفضل إمكانية استثمار قسم من فضل القيمة كرأس مال جديد. أما المركزة، فهي نتيجة زوال أضعف المشروعات، وهو ما يؤدي إلى مركزة رأس المال في عدد صغير من الأيدي. والتركز يسبب المركزة ويسرعها. "في نقطة معينة من التقدم الاقتصادي، تأتي حركة تجاذب متبادل بين أجزاء رأس المال الاجتماعي المتكاملة لتضغط على هذا التجزؤ لرأس المال هذا إلى رؤوس أموال فردية أو على حركة تنافر هذه الأجزاء. فلم يعد التركز هو الذي يختلط مع التراكم، بل، حقاً، تقدم متميز تميزاً عميقاً هو التجاذب الذي يوحد بؤر تراكم وتركز مختلفة، تركز رؤوس أموال سابقة التكون، انصهار عدد كبير من رؤوس الأموال في عدد أدنى، وبكلمة واحدة المركزة الحقيقية" (المجلد الثالث). وفي حين كان هناك، في مرحلة التراكم البدائي، نزع لملكية المنتجين المستقلين، هناك، في مرحلة التراكم الرأسمالي، "نزع رسملة" قسم من الرأسماليين، أي نزع ملكية أضعف الرأسماليين من جانب أقواهم. فالعلاقات بين الرأسماليين هي علاقات منافسة.

وتتصل نتيجة ثانية للتراكم الرأسمالي بالسكان. فإعادة الإنتاج الموسعة

تـودي إلى حركـات قـوى العمـل بسـبب ضـروب اللامسـاواة في تعديـل التركيب العضـوي لـرأس المـال حسـب القطاعـات الصناعيـة. فعلـى عـدة كـرات، يـهاجم مـاركس، في "رأس المـال"، مـالتوس. "كـان أسـهل وأكـثر تطابقـاً مـع مصـالح الطبقـات الحاكمـة، بطبيعـة الحـال، أن ينجـر مـالتوس، بصفتـه كاهنـاً حقيقيـاً، ليفسـر "تزايـد السـكان" بـالقوانين الأزاليـة للطبيعـة مـن تفسـيرها بـالقوانين التاريخيـة للسـكان الرأسمـاليين" (المجلـد الثـاني). وبـالفعل، ليـس هنـاك، بالنسـبة لمـاركس ، قـانون سـكان "مجـرد وراسـخ". فـهو لا ينطبـق إلا "علـى النبـات والحيـوان، وكذلـك ، فقـط، بقـدر مـا لا يعانيان تأثير الإنسـان". "لكـل نمـط مـن أنمـاط الإنتـاج الاجتمـاعي التاريخيـة قـانون سـكانها الخـاص، قـانون لا ينطبـق إلا عليـه. وليسـت لـه، بالتـالي، سوى قيمـة تاريخيـة" (المجلـد الثـالث(. ولا توجـد زيـادة مطلقـة في السـكان، بل زيـادة نسـبية. فنحـن نسـميها نسـبية لأنهـا لا تنجـم عـن تزايـد إيجـابي للسكان يتجـاوز حـدود الـثروة الآخـذة بـالتراكم، بـل، علـى العكـس مـن ذلك، عن تزايد متسـارع لـرأس المـال الاجتمـاعي يسـمح لـه بالاسـتغناء عـن قسـم متفـاوت مـن عمالـه. وبمـا أن هـذه الزيـادة السـكانية لا توجـد إلا بالقيـاس مـع حاجـات الاسـتثمار الرأسمـالي المؤقتـة، فيمكـن أن تتضخـم وأن تعـود إلى الانضغـاط بصـورة مفاجئـة" (المجلـد الثـالث). ويميـل رأس المـال المتحول، مع زيادتـه مـن حيـث القيمـة المطلقـة، إلى الانخفـاض بالقيـاس مـع رأس المال الثابت. وعلى كل حـال، فـإن هـذا الانخفـاض النسـبي لـرأس المـال المتحول أهـم مـن الزيـادة المطلقـة للسـكان. ومـن هنـا وجـود أيـد عاملـة شاغرة تشكل جيشاً احتياطيـاً. وهـو مـن تركيـب معقـد يميـز، فيـه، مـاركس عدة فئات. فهناك زيـادة سـكانية عائمـة مؤلفـة مـن عمـال الصناعـة الكـبرى الذين يعملون، حينـاً، ويلفظـون خـارج الإنتـاج حينـاً، حسـب تطـور الـدارة

الصناعيــة. ثم هنــاك زيــادة الســكان الكامنــة. ويــدور الأمــر حــول بقايـــــا للـــتراكم الرأسمـــالي. فـــهم منتجـــون صغـــار مفلســـون، وفلاحـــون قبـــل كـــــل شيء. وهم لا يشـــتغلون في الزراعـــة ســـوى قسـم مـــن الســنة، ويـــأتون، وقـــد اجتذبتهم المدينـــــة، ليضخمـــوا زيـــادة الســكان الراكـــدة المؤلفـــة مـــن عمـــال لا يعملون إلا بشـــكل غـــير منتظـــم دون أن يرتبـــط انعـــدام الانتظـــام هـــذا بـــدارات اقتصاديـــة: عمـــال في منـــازلهم، عمـــال ينتمـــون إلى صناعـــات منحســـرة. "هـــذه الفئـــة مـــن الطبقـــة العاملـــة تتـــألف مـــن "الفـــائضين" عـــن الصناعـــة الكـــبرى والزراعة، وخاصة في دوائـــر الإنتـــاج الـــتي تســـقط، فيـــها، المهنـــة أمـــام المشـــغل، وهذا الأخـــير أمـــام الصناعـــة الميكانيكيـــة. وإلى جـــانب الأفـــواج المســـاعدة الـــتي ســـتضخم صفوفـــها، تعيـــد إنتـــاج نفســـها بنفســـها علـــى نطـــاق تدريجـــي. ولا يقتصر الأمـــر علـــى كـــون الـــولادات والوفيـــات مرتفعـــاً فيـــها، بـــل إن مختلـــف فئـــات هـــذه الزيـــادة الســـكانية الـــتي هـــي في حالـــة ركـــود تـــتزايد، حاليـــاً، بتناسب عكسي مع مقـــدار الأجـــور الـــتي يـــؤول إليـــها، وبالتـــالي مـــع الأقـــوات الـــتي تعيـــش عليـــها عيشـــة الكفـــاف. ومثـــل هـــذه المســـألة لا تصـــادف لـــدى المتوحشـــين، ولا لـــدى المعمريـــن المتمدنـــين. وهـــي تذكـــر بإعـــــادة الإنتـــــاج الخارقـــة لبعـــض الأنـــواع الحيوانيـــة الضعيفـــة والمطـــاردة باســـــتمرار" (المجلـــــد الثالث). وهنـــاك، أخـــيراً، خـــارج هـــذه الفئـــات الثـــلاث جيـــش مـــن البؤســـاء والســـاقطين الذيـــن يســـكنون "جحيـــم الإمـــلاق". وهـــذه المجموعـــة الأخـــــيرة المتغـــايرة والمتحركـــة تضـــم، أولاً، "الطبقـــات الخطـــرة": المجرمـــين والمتشـــــردين والمومســـات والمتســـولين. ولكـــن هنـــاك، في داخلـــها، عمـــال قـــادرين علـــــى العمـــل وأطفـــال وفقـــراء ينـــالون المســـــاعدة ويتـــــامى ومســـــنين ومرضـــــى ومشـــوهين إلخ... "امـــلاق نـــزل معـــــاقي جيـــش العمـــــال الفعـــــال ووزن احتياطيه الميت" (المجلـــد الثـــالث).

هذه الدراسة أدت بماركس إلى صياغة القانون العام للتراكم الرأسمالي. وليس صحيحاً أن نقدمه بوصفه قانون الإفقار (ماركس يتحدث عن الإملاق وليس عن الإفقار). وهذه هي النظرية المسماة نظرية القطبين، أي "تراكم الثروة في قطب" و"تراكم الفقر والعذاب والإفساد والانحطاط الأخلاقي والعبودية في القطب المقابل، في جهة الطبقة التي تنتج رأس المال نفسه" (المجلد الثالث). وككل القوانين المصاغة في "رأس المال"، يتصف القانون العام للتراكم الرأسمالي بأنه قانون نزوعي، أي أنه يفعل بدرجات متفاوتة من القوة بموجب الضغوط المتناقضة التي تلجم تطبيقه أو، على العكس من ذلك، تسرعه. ومن جهة أخرى، ينبغي لتقويم هذا القانون، عدم الاقتصار على فئة معينة من البروليتاريا مأخوذة في برهة معينة وبلد معين. وفضلاً عن ذلك، فإن كارل ماركس يقترح مثالاً عن هذا النموذج من الدراسة في فصل عنوانه، على وجه الدقة، هو "تمثيل على القانون العام للتراكم الرأسمالي" (المجلد الثالث). ويدور الأمر حول عرض لتطور الشرط العمالي في إنكلترا بين ١٨٤٦ و١٨٦٦. ويتجنب ماركس كل تعميم. وهو يميز سلسلة من الفئات الاجتماعية: العمال السيئي الأجور، "رُحّل البروليتاريا" ("مشاة الرأسمالية الخفيفة التي يلقى بها، حسب حاجات البرهة، إلى هذه النقطة من البلد، حيناً، وإلى نقطة أخرى حيناً آخر")، عمال المناجم، العمال الزراعيين. وهو يحلل تأثير الأزمات على "القسم من الطبقة العاملة الأحسن أجراً، أرستقراطيتها" (بناة السفن المدرعة في هذه المناسبة). وهو يدخل في الحساب الوضع الخاص للشعب الأيرلندي. ويبدو من هذا المثال أن القانون العام للتراكم الرأسمالي لا ينطبق بالقوة نفسها في كل مكان وزمان. ولكنه، مهما يكن من أمر، يوسع قواعد التناقض الأساسي

للنظام الرأسمالي: التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والتملك الخاص لوسائله.

وتتصل نتيجة أخرى لقانون التراكم الرأسمالي بمعدل الربح. وبالطبع، ليس من مصادر أخرى للربح. في نظر ماركس، سوى فضل القيمة. ولكن نمط الحساب يختلف. فمعدل فضل القيمة هو النسبة بين فضل القيمة نفسه ورأس المال المتحول الذي يولده. أما معدل الربح فهو النسبة بين كلية الربح المتجمع خلال فترة معينة ورأس المال الكلي (الثابت والمتحول). وهنا، أيضاً، يجب المضي إلى ما وراء المظاهر. فكما أن الأجر يبدو ثمناً للعمل في حين ليس هو، في الواقع، سوى السعر المدفوع لاستئجار قوة العمل، كذلك، فإن الربح يبدو دخلاً خاصاً مولوداً من فضائل رأس المال الخاصة، في حين أن فضل القيمة هو، في الواقع، أصله الوحيد: "نسبة فضل القيمة إلى رأس المال المتحول تسمى معدل فضل القيمة. ونسبة هذا الأخير إلى رأس المال الكلي تسمى معدل الربح. إن هذين مقياسان مختلفان للمقدار نفسه يعبران، في الوقت نفسه، عن علاقتين أو مصدرين لهذا الأخير نتيجة للفرق بين المعيارين المستعملين. فتحول معدل الربح هو الذي يجب أن يستنتج منه تحول فضل القيمة إلى ربح، وليس العكس. إلا أن الواقع هو أن الانطلاق يجري، تاريخياً، من معدل الربح. ففضل القيمة ومعدل فضل القيمة هما، نسبياً، العنصر غير المرئي والنقطة الأساسية التي يجب حلاؤها، في حين أن معدل الربح، وبالتالي فضل القيمة على صورته كربح، ظاهرتان تظهران على السطح" (المجلد الثالث). وبقدر ما تنمو الرأسمالية، يعدل التركيب العضوي لرأس المال بتزايد النسبة المئوية لرأس المال الثابت. ويلي ذلك، لأن رأس المال المتحول هو المنتج الوحيد لفضل القيمة، هبوط في معدل الربح العام. "بما

أن كتلة العمل الحي المستخدمة تنخفض، باستمرار، بالقياس مع كتلة رأس المال المتجسد مادياً التي تضعها موضع العمل، بالقياس مع وسائل الإنتاج المستهلكة إنتاجياً، فيجب، حقاً، أن يشهد الجزء الذي لم يدفع ثمنه من هذا العمل الحي الذي يتجسد في فضل قيمة نسبته إلى حجم رأس المال الكلي تنخفض باستمرار. إلا أن هذه النسبة، نسبة كتلة فضل القيمة إلى قيمة رأس المال الكلي المستعمل تؤلف معدل الربح. فهذا الأخير يجي، إذن، أن يهبط باستمرار" (المجلد الثالث). هكذا عرّف ماركس قانون هبوط معدل الربح المتوسط.

إنه قانون نزوعي، أي قانون "توقف تحققه الكامل وتبطئه وتضعفه أسباب تعاكسه". وهو، على كل حال، يتفاقم بتناقضات النظام الرأسمالي. فالتنافس يحتد بين الرأسماليين انفسهم لأن هبوط معدل الربح المتوسط يسهل؟ لا مركزة" رأس المال ويسرع ظاهرة "نزع الرسملة" من الرأسماليين المتوسطين. وتنمو المنافسة، كذلك، على المستوى العالمي. "إن رؤوس أموال مستثمرة في التجارة الخارجية تستطيع أن تعطي معدل ربح أعلى لأن المنافسة تجري، هنا، مع بلدان تكون تسهيلات الإنتاج السلعي، فيها، أدنى بحيث أن أكثر البلدان تقدماً سيبيع سلعه بأعلى من قيمتها، على الرغم من أنه يقيمها بسعر أرخص من البلدان المنافسة" (المجلد السادس). والسعي وراء تركيب عضوي أفضل لرأس المال هو أحد عوامل التوسع الاستعماري الذي كان، في البدء، أحد وجوه التراكم البدائي لرأس المال. فرؤوس الأموال المستثمرة في المستعمرات "قادرة، فعلاً، على إعطاء معدلات ربح أعلى لأن معدل الربح، فيها، أعلى، بصورة عامة، بسبب النمو الأدنى، كما أن استغلال العمل، فيها، أعلى، أيضاً، بفضل استخدام العبيد والعمال المحليين إلخ... (المجلد

السادس). وهناك، في الوقت نفسه، زيادة في قوة التناقض بين الرأسماليين والعمال. فالرأسماليون يبذلون جهدهم، فعلاً، في زيادة درجة استغلال العمل من أجل لجم هبوط معدل الربح المتوسط. ومن جهة أخرى، هناك تزايد في فيض السكان النسبي لأن هناك "ذهاباً وأياباً أبديين" لكون "رأس المال يتخلى عن دائرة ذات معدل ربح قليل الارتفاع ويسارع إلى تلك التي تتضمن معدل ربح أعلى" (المجلد السادس). وهذا الذهاب والإياب يوقع الاضطراب في وضع العامل الذي يصبح قابلاً للتبديل: "إلغاء كل القوانين التي تمنع العمال من الانتقال من دائرة إنتاج إلى أخرى، من مكان إنتاج إلى أي مكان آخر"، "لا مبالاة العامل بمضمون عمله"، "رد العمل، بقدر الإمكان، في كل دوائر الإنتاج إلى عمل بسيط"، "زوال كل مستبق مهني من جانب العمال" إلخ... (المجلد السادس).

ويستجر قانون التراكم الرأسمالي، أيضاً، الأزمات الاقتصادية. وكانت هذه الأزمات قد لفتت، بسبب نتائجها الاجتماعية، أنظار الاشتراكيين قبل ماركس. ولكن ماركس يدس تفسيرهم في تحليله العام لخصائص النظام الرأسمالي. وقد حدثت، في حياة ماركس، سبع أزمات على الأقل: ١٨٢٥، ١٨٣٦، ١٨٤٦، ١٨٥٧، ١٨٦٦، ١٨٧٣، ١٨٨٢ (إذا لم نشر إلا إلى سنوات بداية الأزمات). وكان ماركس قد بين، من قبل، في "البيان"، أهمية هذه الأزمات التي بدت له نتائج للتناقضات الملازمة لنظام الإنتاج الرأسمالي. ويمضي ماركس أبعد من ذلك بكثير، في "رأس المال"، على الرغم من عدم وجود فصل مكرس، خاصة، للأزمات الاقتصادية. فالإنتاج الصناعي مقسوم إلى قسمين كبيرين: إنتاج وسائل الإنتاج (القسم الأول). وإنتاج السلع الاستهلاكية (القسم الثاني). واختلال

التوازن بين القسمين محتوم في النظام الرأسمالي. فالطلب القوي، نسبياً، في القسم الثاني، يستجر تزايداً للطلب في القسم الأول. وبالفعل، يجب زيادة الطاقات في القسم الأول لتلبية الحاجات في القسم الثاني. وتصل برهة تتجاوز، فيها، هذه الطاقات حاجات القسم الثاني. وهذا هو الاختناق، الأزمة. ولكن الأزمة تنجم، أيضاً، عن تناقضات أخرى. ففي السباق على الربح، يجب على الرأسمالي أن يثير ضروب تقدم تقنية لا تتوقف. وإحدى نتائج ذلك هي انخفاض قيمة الأدوات الموجودة قبل اهتلاكها السوي. "بقدر ما ينمو نمط الإنتاج الرأسمالي وينمو، معه، حجم قيمة رأس المال الجامد الموظف ومدته، نشهد حياة الصناعة ورأس المال الصناعي تنمو، أيضاً، في كل مشروع خاص إلى أن تمتد سنوات طويلة، عشر سنوات في المتوسط، مثلاً. إلا أنه إذا طالت هذه الحياة بفعل نمو رأس المال الجامد، فهي تقصر، من جهة أخرى، بفعل القلب الثابت لوسائل الإنتاج الذي يشتد، باستمرار، هو أيضاً، مع نمو نمط الإنتاج الرأسمالي. فهو يؤدي، بفعل الاهتلاك المعنوي، إلى تغيير وسائل الإنتاج، إلى ضرورة إبدالها باستمرار على الرغم من أنها لم تستهلك زمنها مادياً. ويمكن أن نسلم بأن دارة الحياة هذه تمتد، حالياً، عشر سنوات، في المتوسط في أكثر فروع الصناعة الكبرى حسماً. ثم إن دقة الرقم ليست بذات أهمية هنا. فهناك نقطة محققة هي أن دارة الدورانات المترابطة فيما بينها والتي يكون رأس المال، خلالها، سجين عنصره الثابت تقدم، بمدها التي تمتد عدة سنوات، أساساً مادياً للأزمات الدورية التي تجعل الأعمال تمر بأطوار متعاقبة من الركود والانتعاش المتوسط والتسارع والأزمة" (المجلد الرابع). ويخلق تدخل الائتمان، أيضاً، شروط نمو غير سليمة لأن الائتمان استباق، سواء أدار الأمر حول ائتمان

صناعي أم حول ائتمان تجاري. بفضل الائتمان، ينمو الإنتاج إلى ما وراء إمكانيات الامتصاص في السوق. ويلي ذلك أن الأزمة تتفاقم، عندما يحدث الاختناق، بفعل الائتمان-الاستباق. وهكذا نجد، في ضوء الأزمات، أحد التناقضات الأساسية للنظام الرأسمالي الذي يعبر عنه ماركس على هذا النحو: قدر الرأسمالية يرغمها "على الإنتاج بموجب القوى الإنتاجية، أي على أن تستغل، بقدر ما يكون ذلك ممكناً، برأس مال معطى، الحد الأعلى من العمل دون إقامة اعتبار لحد السوق ولا للحاجات القابلة للسداد. وكل ذلك بالتوسيع المستمر لإعادة الإنتاج والتراكم، بإعادة التحويل المستمرة للدخل إلى راس مال، في حين تبقى كتلة المنتجين، من جهة أخرى، محدودة ويجب أن تبقى، بموجب نظام الإنتاج الرأسمالي، مقتصرة على الكمية المتوسطة من الحاجات" (تاريخ المذاهب الاقتصادية، المجلد الخامس). ولا يمكن التوفيق بين النظام الرأسمالي وعلم التنبؤ. "كل فكرة ضبط مشترك لإنتاج المواد الأولية وتوجيهه والتنبؤ به مسبقاً-وهو ضبط غير قابل، جملة، أبداً، للتوفيق مع قوانين الإنتاج الرأسمالي ويبقى، دائماً، بالتالي، مجرد أمنية أو يقتصر على خطوات مشتركة استثنائية في برهات الخطر الكبير المباشر والبلبلة الكبيرة-كل فكرة للضبط تدع مكانها للإيمان بأن العرض والطلب يتبادلان الضبط" (المرجع السابق، المجلد السادس).

ومهما تكن التفسيرات المقترحة للأزمات الدورية، ومهما يكن، أيضاً، إيقاعها وتحولاتها، فإنها تولد، دائماً، النتائج نفسها. فهي تسبب، في نهايتها، استئناف الاستثمارات. "لا شك في أن فترات استثمار رأس المال مختلفة اختلافاً قوياً وغير متوافقة، ولكن الأزمة تكون، دائماً، نقطة انطلاق لاستثمار قوي. فهي تقدم، إذن، إلى حد متفاوت-من وجهة

نظـر المجتمـع مـأخوذاً في جملتـه-، أساسـاً ماديـاً جديـداً لـدارة الدورانـات المقبلـة" (المجلـد الرابـع). ولذلـك، فـإن الأزمـات تسـرع حركـة مركـزة رؤوس الأمـوال، في حـين أنها تـؤدي إلى التفـاقم بالشـرط العمـالي (البطالـة وانخفاض الأجـور).

تلك هـي، في الأسـاس، النتـائج الـتي يمكـن اسـتخلاصها مـن "رأس المـال". و"رأس المـال" ليـس مجموعـاً نهائيـاً. إنـه مـؤرخ. فـهو يقـابل، أولاً، عصـراً محـدداً جيـداً، أي أن مـاركس يحلـل، في مؤلفـه، النظـام الرأسمـالي في زمانـه. ومن جهة أخرى، هـو مـؤرخ لأنـه يريـد لنفسـه أن يكـون برهـة مـن بحـث مـاركس وأنـه سـوف يتـابع. إلا أن الاشـتراكيين الذيـن سـيعلنون انتمـاءهم إلى مـاركس سـوف يبذلـون جـهدهم، أمـام الوقـائع الجديـدة، في أن يفـهموها انطلاقـاً مـن المنـاهج العلميـة الـتي جـهزها مـاركس وباسـتعمال المقولات الاقتصاديـة الكـبرى الـتي اسـتخلصها. ونحـن لم نتوقـف، أخـيراً، في عرض "رأس المـال"، إلا عنـد مـا كـان يمكنـه أن يتصـل، مباشـرة أو بصـورة غير مباشـرة، بتـاريخ الاشـتراكية. ويجـدر بنـا، علـى وجـه الدقـة، أن نلـح، الآن، على المدى النظري لـ"رأس المـال" وعلـى تأثـيره المباشـر.

"الاشتراكية العلميـة"

كتب ماركس، قبـل صـدور كتابـه ببضعـة أسـابيع، يقـول: "إنـه، بالتـأكيد، أرهب قذيفـة أطلقـت، قـط، علـى رأس البورجوازيـين (بمـن فيـهم الملاكـون العقـاريون)". ولا شـك في أنـه ليـس هنـاك حـل استـمرار فجـائي يميـز الاشـتراكيات قبـل الرأسمالية و"رأس المـال". إلا أنـه وضعـت، مـع مؤلـف ماركس، مبادئ ما سـوف يسـميه أنغلـز الاشـتراكية العلميـة. وبـالفعل، فـإن غرض ماركس هو أن يقيم عمـل البروليتاريـا علـى أسـس علميـة.

إن قانون فضـل القيمـة يبـدو القـانون الأساسـي للإنتـاج الرأسمـالي. ومعيـار

هذا النظـــام، مـــهما كـــانت الصـــور الـــتي سيســـتطيع اتخاذهـــا خـــلال تطـــوره، يبقى تملك الرأسمـــاليين مـــالكي وســـائل الإنتـــاج الحديثـــة لفضـــل القيمـــة. وحـــتى إذا كان العمال لا يعـــون ذلـــك، فـــإن الرهـــان، حـــين يخوضـــون المعركـــة ضـــد الرأسماليين، هو معـــدل فضـــل القيمـــة ســـواء أدار الأمـــر حـــول الأجـــر أم حـــول مـــدة العمـــل. وقـــد تخيـــل مؤلـــف "رأس المـــال"، في صفحـــة مشـــوقة، خطـــاب العامل للرأسمالي: "الســـلعة الـــتي بعتـــك إياهـــا تتمـــيز عـــن حثالـــة كـــل الســـلع الأخرى لأن استعمالها يخلق قيمـــة، وقيمـــة أكـــبر ممـــا تكلفـــه هـــي نفســـها. مـــن أجل ذلـــك اشـــتريتها. ومـــا هـــو، بالنســـبة إليـــك، تزايـــداً في رأس المـــال هـــو، بالنسبة إلي، فـــائض عمـــل. لا نعـــرف، أنـــا وأنـــت، في الســـوق ســـوى قـــانون واحـــد، قـــانون تبـــادل الســـلع. اســـتهلاك الســـلعة لا يخـــص البـــائع الـــذي يضيعها، بـــل المشـــتري الـــذي اقتناهـــا. فاســـتعمال قـــوتي يخصـــك إذن. ولكـــن علي أن أستطيع، بسعر بيعـــها اليومـــي، إعـــادة إنتاجـــها وبيعـــها مـــن جديـــد... أنت تبشـــرني، باســـتمرار، بـــإنجيل "التوفـــير" و"التقشـــف" و"الاقتصـــاد". حســـن جـــداً! أريـــد، كمديـــر عـــاقل وذكـــي، توفـــير ثـــروتي الوحيـــدة، قـــوة عملـــي، والامتناع عن كـــل تبذيـــر مجنـــون. أريـــد أن لا أحـــرك منـــها، كـــل يـــوم، أن لا أحـــول منـــها إلى عمـــل، وبكلمـــة واحـــدة أن لا أنفـــق منـــها إلا مـــا ســـيكون متوافقـــاً، بـــالضبط، مـــع مدتهـــا الســـوية ونموهـــا المنتظـــم... أنـــت تدفـــع قـــوة عمل يوم عندمـــا تســـتعمل واحـــدة مـــن ثـــلاث. أنـــت تخـــرق عقدنـــا وقـــانون المبادلات. فأنـــا أطلـــب منـــك، إذن، يـــوم عمـــل مدتـــه ســـوية، وأطلبـــه دون أن أتوجه إلى قلبـــك لأنـــه لا مكـــان، في الأعمـــال، للعاطفـــة... أنـــا أقتضـــي يـــوم عمـــل بمـــدة ســـوية لأني أريـــد قيمـــة ســـلعتي، مثـــل أي بـــائع آخـــر" (المجلـــد الأول). والمعركـــة مـــن أجـــل مســـتوى حيـــاة العمـــال هـــي، في نهايـــة المطـــاف، أحد العنـــاصر الأساســـية لنضـــال الطبقـــات في الأزمنـــة الحديثـــة. وهكـــذا يتـــم

التوارد بين معارك العمال اليومية والتفكير النظري. وبعبارة أخرى، هناك توارد بين سيرورتين: سيرورة صراع الطبقات وسيرورة المعرفة النظرية التي تستخلصها قوانين الصيرورة التاريخية. وبقدر ما يعي العمال (أو نخبة منهم على الأقل) هذا التوارد، تتوصل معركتهم التي هي الصورة الحديثة لصراع الطبقات إلى مستوى أعلى، المستوى السياسي. ويقف ماركس ضد قانون لاسال المسمى قانون الحد الحيوي الأدنى الذي يقول أن الضغط السكاني يجعل كل رفع للأجور مستحيلاً. فهذه المسألة، بالنسبة لماركس، هي "مسألة توازن قوى المتقاتلين". وفي الوقت نفسه الذي كان يكتب، فيه، "رأس المال"، تقريباً، فسر الأمر على هذا النحو في "الأجر، السعر والربح". وهو يخلص، إذ يعالج مسائل تطرحها مسائل الربح، إلى أن درجة "المعدل الأقصى للربح غير محددة إلا بالصراع الدائم بين رأس المال والعمل، فيحاول الرأسمالي، بطبيعة الحال، أن يخفض أجور العمال إلى حدها الفيزيولوجي الأدنى وأن يمدد يوم العمل إلى حده الفيزيولوجي الأعلى، في حين يمارس العامل، باستمرار، ضغطاً في الاتجاه المعاكس". وإذا تخلت الطبقة العاملة عن مقاومتها ضد تجاوزات رأس المال، "فإنها سوف تنحط إلى أن لا تعود سوى كتلة لا شكل لها، مسحوقة، من كائنات تتضور جوعاً لا توجد لها، نقطة خلاص أبداً". (الأجر، السعر والربح). إلا أن لهذه المعركة، وقد قدم البرهان على ذلك في "رأس المال"، حدوداً تعود إلى طبيعة النظام الرأسمالي نفسه. ولا شك في أننا لا نجد، في "رأس المال"، تعميقاً منتظماً للتمييز بين الصراع الطبقي الاقتصادي (ضد تفاقم الشرط العمالي) والصراع السياسي (الذي يحدد هدفه الأعلى بالثورة الاشتراكية) ولكن كل محاكمة "رأس المال" تقدم الأسس النظرية لهذا التمييز. وفضلاً عن ذلك، فإن ماركس قد

عرّف، قبل إنجاز مؤلفه بسنتين، ضمن هذه الروح، دور المنظمات النقابية. فقد كتب أن النقابات "يجب أن لا تنسى أنها تناضل ضد النتائج لا ضد أسباب هذه النتائج وأنها لا تستطيع سوى تأخير الحركة الهابطة، وليس تغيير اتجاهها، وأنها لا تقدم إلا مسكنات، ولكن دون أن تشفي المرض. فلا ينبغي، إذن، أن تدع هذه المناوشات المحتومة التي تولدها، دون انقطاع، تجاوزات رأس المال غير المتوقفة أو تغيرات السوق تستغرقها كلياً". (الأجر، السعر والربح). وتلك هي دلالة القرار الذي حضره ماركس حول النقابات والذي أقره المؤتمر الأول للرابطة الدولية للعمال عام ١٨٦٦. ومهما يكن المستوى الذي وصل إليه النضال العمالي، فهو يؤدي إلى حركة تعظيم للبروليتاريا لأن "العامل المعزول، العامل بوصفه بائعاً "حراً" لقوة عمله يسقط، دون مقاومة ممكنة منذ أن يكون الإنتاج الرأسمالي قد بلغ درجة معينة" (المجلد الأول).

من المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع الاشتراكي

ليست الرأسمالية نظام إنتاج أبدياً. فهو ليس سوى مقولة تاريخية، أي انتقالية. وهي مدعوة، للزوال، بدورها، كما زالت أنظمة الإنتاج التي حلت محلها. وهي تحتوي، في داخلها، على تناقض أساسي بين الطابع الإنتاجي-الاجتماعي للعمل والتملك الفردي لوسائل الإنتاج. ولن يمكن تجاوز هذا التناقض إلا بمجتمع اشتراكي محدد بطابعه الأساسي، وغير الحصري، أي التملك الاشتراكي لوسائل الإنتاج. "بقدر ما ينخفض عدد سلاطين رأس المال الذين يغتصبون ويحتكرون كل مزايا هذه الفترة من التقدم الاجتماعي، يتزايد البؤس والاضطهاد والعبودية والانحطاط والاستغلال، إلا أنه تتزايد، أيضاً، مقاومة الطبقة العاملة المتضخمة دون انقطاع والمتزايدة انضباطاً، التي وحدتها ونظمتها آلية الإنتاج الرأسمالي

نفسها. ويصبح احتكار رأس المال عائقاً في وجه نمط الإنتاج الذي كبر وازدهر معه وتحت رعايته. وتصل جماعية العمل ومركزة نوابضها المادية إلى نقطة لا تعود، معها ، تستطيع الصمود في غلافها الرأسمالي. وهذا الغلاف يتحطم إلى شظايا. لقد دقت ساعة الملكية الرأسمالية. ومنتزعو الملكية تنتزع ملكيتهم بدورهم" (المجلد الثالث). فالنظام الرأسمالي يحمل، في ذاته، بذور تجاوزه. إنه لم يستطع الظهور والنمو دون أن يولد القوى التي ستدمره. والمجتمع الاشتراكي يقع في منظور التاريخ. وهكذا نصل، ولكن بدروب مختلفة تماماً، إلى الفكرة التي صاغها سان سيمون عام ١٨١٤: "ليس العصر الذهبي للجنس البشري وراءنا، بل هو أمامنا. إنه في كمال النظام الاجتماعي. إن آباءنا لم يروه أبداً، وسيصل إليه أبناؤنا يوماً: وعلينا نحن أن نشق لهم الطريق".

إن "الهدف النهائي" لـ"رأس المال" هو "الكشف عن حركة المجتمع الحديث". "وحتى حين يتوصل مجتمع ما إلى اكتشافها"، فإنه لا يستطيع "أن يتجاوز بقفزة ولا أن يلغي بمراسيم أطوار نموه الطبيعي". ولكن دور البشر يبقى، لأن المجتمع "يستطيع اختصار فترة الحمل وتلطيف آلام ولادته" (المجلد الأول).

ويرفض ماركس، في "رأس المال"، كل إغراءات الطوباوية. إنه لا يرسم "نموذج" مجتمع اشتراكي. وهو لا يقصد صياغة "وصفات لقدور المستقبل" (المجلد الأول). ولن يميز ماركس مرحلتين في تكوين المجتمع الاشتراكي إلا عام ١٨٧٥، فقط، في نقده لبرنامج الاشتراكيين الألمان المجتمعين في غوتا للانصهار. إلا أنه يمكن أن نجد، من قبل، في "رأس المال" (شريطة أن نعزل المؤلف عن المؤلفات التي سبقته)، بعض الدلالات على الصفات العامة للمجتمع الاشتراكي. ويدور الأمر حول مجتمع دون طبقات (سبق أن طرحت هذه الفكرة في "البيان"). وتزول فوضى الإنتاج والمبادلات التي كان فورييه كبير الحساسية لها. "لنفترض أن

المجتمع شيوعي بدلاً من أن يكون اشتراكياً... إن الأمر يرتد، ببساطة، إلى ما يلي: يجب أن يحسب المجتمع، مقدماً، كمية العمل ووسائل العيش التي يستطيع أن يستعملها، دون أي ضرر، في مشروعات، كتمديد خطوط حديدية مثلاً، لا تقدم خلال وقت على ما يكفي من الطول، سنة وحتى أكثر، لا وسائل إنتاج ولا وسائل عيش ولا أية نتيجة مفيدة، بل تنتزع من الإنتاج السنوي الكلي للعمل وسائل إنتاج وعيش. وعلى العكس من ذلك، فمن الممكن المحتوم، في المجتمع الرأسمالي الذي لا يبرز الحس الاجتماعي السليم قيمته إلا متأخراً، أن تحدث، باستمرار، اضطرابات كبيرة" (المجلد الرابع). وتصبح خطة منسقة ممكنة. فهنا، فقط، حيث يكون الإنتاج تحت الإشراف الحقيقي والمخطط للمجتمع" يمكن لهذا الأخير "أن يقيم علاقة بين زمن العمل الاجتماعي المستخدم لإنتاج بعض الأصناف وحجم الحاجات الاجتماعية التي يجب أن تلبى بهذه الأصناف" (المجلد الرابع). ويبقى العمل الزائد المؤدي إلى فضل قيمة هو "نتاج زائد". "وسوف ينبغي أن يوجد العمل الزائد، دائماً، بقدر ما هو عمل فائض عن مستوى الحاجات المعطاة". ولكن هذا النتاج الزائد ليس، في المجتمع الاشتراكي، ملك بضعة أفراد أحرار في التصرف به، بل يعود إلى جملة المجتمع. وقد تصدى ماركس للوجوه السياسية للمسألة في مؤلفات أخرى.

مدى "رأس المال"

على الرغم من أن الكتاب الأول من "رأس المال هو، وحده، الذي صدر عام ١٨٦٧، فقد كان من الضروري عدم الاقتصار عليه، بل الرجوع إلى جملة المؤلف. إلا أن تاريخ الرأسمالية لا يمكن أن يتوقف عند ذكر النظريات الاشتراكية. لقد أتينا على تلخيص النظريات التي طورها ماركس في "راس المال". ومن المهم أن نعرف إلى أي حد، وفي أي

تاريخ، ومدى العمق الذي استطاعت هذه الأفكار أن تدخل به إلى الطبقات العاملة. لقد كان تأثير رأس المال محدوداً جداً في السنوات التي تلت صدوره مباشرة. وفي عام ١٨٦٨، اتخذ المؤتمر الأول للرابطة الدولية للعمال القرار التالي: "نوصي عمال كل البلدان بـ"رأس المال" الذي نشره كارل ماركس في السنة الماضية. ونحن نلح، دون أن نوفر جهداً، على أنه من الضروري الإسهام في ترجمته إلى اللغات التي لا يوجد، فيها، بعد". والواقع هو أنه على الرغم من هذا النداء الذي لم يكن يمكن، فضلاً عن ذلك، أن يبلغ سوى طليعة، فإن صدى "رأس المال" كان ضعيفاً. ولم يطبع من الطبعة الألمانية الأولى سوى ألف نسخة لم تنفذ حتى نهاية ١٨٧١. ولن تصدر الطبعة الثانية إلا عام ١٨٧٣. وفي ١٥ شباط ١٨٦٩، هاجم ماركس "جبن سادة المهنة" وندد بـ"مؤامرة الصمت في الصحافة البورجوازية والرجعية". وتعود الترجمة الروسية إلى عام ١٨٧٢، وهذه السنة نفسها هي التي بدأ يصدر، فيها، في ملازم باللغة الفرنسية. والترجمات الأخرى أكثر تأخراً: الترجمة البولونية عام ١٨٨٤، الترجمتان الإيطالية والدانمركية عام ١٨٨٥، الترجمة الإسبانية (غير الكاملة فوق ذلك) عام ١٨٨٧، والإنكليزية عام ١٨٨٧. وكانت العروض في الصحافة نادرة جداً. وبعضها كتبه أنغلز الذي لم يكن، هو نفسه، يتراجع أمام أية حيلة لتحطيم جدار الصمت. وقد كتب إلى ماركس، في ١١ أيلول ١٨٦٧، يقول: "ما رأيك؟ هل يجب، لوضع المسر على الدرب، أن أهاجم الكتاب من وجهة نظر بورجوازية؟". ورد عليه ماركس بأن مشروعه هو "أفضل حيلة حرب". وأشار أوجين ديورينغ الذي سيهاجمه أنغلز عما قريب، والذي كان، في تلك البرهة، شهيراً إلى الكتاب، وسر ماركس من ذلك. إلا أن الدكتور كوغلمان وأوغست

ببيل وولهلم ليبكنشت قاموا، في ألمانيا، بكل الضجة الممكنة، ولكن تسويقهم لم يعط سوى نتائج هزيلة جداً. فلا يحصى، لعامي ١٨٦٧ و١٨٦٨، سوى بضعة مقتطفات أو مقالات نقدية في عدد صغير من الصحف والمجلات ذات الجمهور المحدود: "ذي تزوكونفت" في برلين، و"دير بيوباشتر" في شتوتغارت، و"الجريدة الديمقراطية الأسبوعية" في لايبزيغ، و"بريد هانوفر" و"البيرفيلدر تزايتونغ"، و"الديمقراطي الاشتراكي" في برلين، و"اتحاد العمل" في نيويورك، و"جريدة الحرية" في نابولي، و"الفلسفة الوضعية" و"البريد الفرنسي" في باريس.

وهكذا، إذن، يفتتح مؤلف ماركس مرحلة جديدة في تاريخ الاشتراكية، إلا أنه يجب أن ننتظر حوالي عشر سنين بعد صدور الكتاب الأول من "رأس المال" لنستطيع أن نتحدث، فعلاً، عن انتشار للماركسية.

الفصل السادس
الرابطة الدولية للعمال (١٨٦٤-١٨٧٦)

أني كريغل

الرواد

يبدو أن وجود وعي طبقي بين عمال مختلف البلدان يقع في الخطوط الكبرى لتطور يترع، على مستوى الأفكار، إلى بلورة تصور عالمي للصيرورة الاجتماعية. وهذا ما حمل و.تشركاسوف، مثلاً، عندما تساءل، عام ١٨٨٩، حول سوابق الرابطة الدولية للعمال، على العودة إلى توماس مور، إلى مونتزر واللامعمدانيين. صحيح أن الأممية، متصورة كموقف عام لصالح ما يوحد بين البشر بدلاً من الذي يفرقهم، قديمة قدم البشرية المتمدنة. ومن هذه الزاوية، لا شك، إذن، في أن الأممية تيار يغوص بعيداً في الماضي ويؤثر في حركات فكرية ومجموعات سياسية وفئات اجتماعية متعددة ومتنوعة. ونفهم، لهذا السبب، لماذا نجد تأثيرات قوية "بورجوازية" (ديمقراطية حسب مفردات العصر) طيلة تاريخ الرابطة الدولية للعمال.

يبقى أن ظهور الكلمة حديث. فـ"قاموس القرن التاسع عشر" (١٨٧٣) يذكر كلمتي "دولي" و"دولية"، ولكنه لا يذكر كلمة "أممية". ولا نجد هذه الكلمة إلا عام ١٨٧٩ في ملحق قاموس ليتري.

ولا شك في أن الظاهرة سبقت الكلمة، وذلك، على كل حال، بقدر ما تماهي، بدرجات متفاوتة، مع دفاع عن السلام بين الدول والجماعات من مختلف المستويات. وبالفعل، إذا كان تأثير المسيحية، في عالم عمالي

إنكليزي مطبوع بالثورة الميتودية، راجحاً، ففرنسا، بالمقابل، هي التي يرجح، فيها، التقليد الأممي الثوري الذي يعود إلى ١٧٨٩. ومراسيم الجمعية التأسيسية (٢٢ أيار ١٧٩٠) والكونفنسيون (١٩ تشرين الثاني و١٥ كانون الأول ١٧٩٢) الشهيرة هي أبلغ تعبير عنها:

"حتى هذه البرهة، تداولتم في فرنسا ومن أجل فرنسا. وسوف تتداولون، اليوم، من أجل الكون وفي الكون. وأجرؤ على القول بأنكم ستصبحون جمعية الأمم"

وفكرة السلام الذي يفرضه العمال على الطغاة هي من النوع نفسه:

"فلنقل لأوروبا أن كل المعارك التي تخوضها الشعوب ضد بعضها بأمر من الطغاة تشبه ضربات يتبادلها، في الظلام، صديقان أثارهما تحريض ماكر. فإذا ظهر ضوء النهار ألقيا بأسلحتهما وتعانقا وعاقبا من كان يخدعهما. وكذلك، إذا ضرب ضوء الفلسفة عيون الجيوش المعادية، عندما ستقاتل جيوشنا، فإن الشعوب سوف تتعانق في وجوه الطغاة المخلوعين من عروشهم، وأمام الأرض المعزّاة والسماء الراضية" (إيسنار، خطاب ٢٩ تشرين الثاني ١٧٩١).

وما من إصلاحي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، في صيغ قابلة، على كل مستويات الجماعة، على حفظ الوفاق: ففورييه يقترح مشركه، وأوين تجربته في نيو هارموني، وكابيه جمهورية إيكاريا. وقد عُمِق موضوعان على نحو أخص. والأول هو موضوع "السلام بالتقدم". فاعتباراً من مونتسكيو الذي يلح، في "روح القوانين"، على الصلات بين السلام والتجارة، يقع في هذا الخط بنتام وخطته من أجل "سلام عالمي وأبدي" وجان باتيست ساي وأوغست كونت وسان سيمون وبيكور وكوبدن ومدرسة مانشستر. والموضوع الآخر والأعقد هو موضوع

الاتحادية. ويجب، هنا، أن ننطلق من المادة الثانية من "مشروع سلام أبدي" لكانت الذي يرى أن الدول "يجب أن تتخلى، كالأفراد، عن حريتها الوحشية لتتوافق مع ضغط القوانين العام وتشكل دولة أمم". ويترجم ماتزيني هذا الطموح، بصورة مشخصة، عندما خلق، عام ١٨٣٤، جمعية "أوروبا الفتاة"، وهي استباق وأداة لاتحاد أوروبي في إطار جمهورية دولية مطبوعة بالاشتراكية. وكان على مزيد من الدقة سان سيمون الذي كانت مسيحيته الجديدة المدعوة إلى "تشكيل كل الشعوب في دولة سلام دائم" تستوحي النموذجين الأمريكي والسويسري لتقترح تشكيل حكومة أوروبية، وهو اقتراح سيستعيده بيكور وكونسيديران لحسابهما. وتبنى ليبراليو "رابطة السلام والحرية"، وعلى رأسهم فكتور هوغو، كراية لهم، مشروع الولايات المتحدة الأوروبية هذا.
وحتى ولو سبقت ظاهرة الأممية الكلمة بقدر ما تختلط بالنزعة السلمية، فإنه يمكننا أن نعتبر أنها، في معناها الحديث، تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي إلى زمن يعرّف، بصورة أساسية، بالنسبة لمختلف أشكال القومية ودرجاتها. فهي، من هذه الزاوية، نتاج عصر مطبوع بموجة ١٨٤٨ الثورية وبالحركتين القوميتين الألمانية والإيطالية. وهي تؤلف ما يشبه الترياق لقومية كان يمكن، فعلاً، التساؤل عما إذا لم تكن تنطوي على نزعة حربية مخيفة. وأممية ١٨٤٨ التي كان يجب، كما فكر مؤسسوها، أن تكون رابطة عمالية حصراً-حسب تعابير المقطع الأول من مقدمة أنظمتها نفسها: "نظراً لكون تحرير العمال يجب أن يكون من صنع العمال أنفسهم..."-كانت، آنذاك، نتاج تطور مس، على الأخص، الجماهير العمالية، فكانت مرحلة في تاريخ الحركة العمالية. وأحداث ١٨٤٨ قدمت، حسب هذه الفرضية، تجربة حاسمة بقدر ما

أنجز، فيـــها، الفصـــل بـــين البروليتاريـــا الفرنســـية والاتجـــاه الجمـــهوري، في حـــين كـــان يتيلـــور، علـــى النطـــاق الـــدولي، محيـــط مـــن المبعديـــــن والمـــــهاجرين السياسيين كانت فكرة منظمة دولية ممارســــة، فيـــه، مـــن قبـــل.

الأصول المباشـــرة

على الرغم مـــن أن ظـــروف خلـــق الرابطـــة الدوليـــة للعمـــال معروفـــة إلى درجـــة كافية، فقد نوقشت أصولهـــا المباشـــرة كثـــيراً.

بالنســـبة للفرنســـيين الذيـــن شـــاركوا في اجتمـــاع قاعـــة ســـان مارتـــان، في ٢٨ أيلول ١٨٦٤، أتت المبـــادرة مـــن بـــاريس: فالرابطـــة الدوليـــة للعمـــال، حســـب تعبير بيبـــال الظريـــف، "طفـــل جـــاء إلى العـــالم في فرنســـا ووضـــع للرضاعـــة في لندن". ونحن نعلم، فعلاً، أن وفـــداً فرنســـياً كـــان قـــد ذهـــب إلى معـــرض لنـــدن العـــالمي عـــام ١٨٦٢: وهنـــاك انعقـــدت صلـــة أولى مـــع محركـــي النقابـــات العماليـــة البريطانيـــة، ثم تتـــابعت المحادثـــات، بمناســـبة اجتمـــاع عقـــد في لنـــدن، في ٢٢ تمـــوز ١٨٦٣، تـــأييداً لبولونيـــا، بـــين النقـــابيين الإنكلـــيز الذيـــن كـــان بينهم جورج بوتـــر وجـــورج أودجـــر وســـتة باريســـيين، عـــاملي الـــبرونز تـــولان وبيراشـــون والميكـــانيكيين أوبـــر ومـــــورا والمعمـــــاري كوهـــــادون وخيـــــاط القمصان بيبال. وقـــد انتـــهت إلى نشـــر بيـــان مـــن العمـــال الإنكلـــيز إلى العمـــال الفرنسيين. وبعـــد قليـــل، وبواســـطة فرنســـي يعيـــش في لنـــدن، فكتـــور لولوبـــيز، اقترح تـــولان دعـــوة مؤتمـــر دولي. وأخـــيراً، جـــرت مفاوضـــات أخـــيرة بواســـطة جمـــهوري، هـــنري لوفـــور، ذهـــب إلى لنـــدن بمناســـبة الاســـتقبال الحـــار الـــذي نظمه العمـــال الإنكلـــيز لغاريبـــالدي في ربيـــع ١٨٦٤.

وضمـــن هـــذا الإطـــار، تنـــاقش المســـألة الثانويـــة، مســـألة إلى أي حـــد تصـــرف تـــولان وأصدقـــاؤه وحدهـــم أو إلى أي حـــد تصرفـــوا بالاتفـــاق مـــع بعـــض أوســـاط البـــلاط الإمـــبراطوري. فقـــد ثبـــت، فعـــلاً، أن أرمـــان ليفـــي، ناشـــر

جريدة "الأمل" الصادرة في جنيف وسلسلة من "النشرات العمالية" عرض نفسه، بين ١٨٦٠ و١٨٦٢، لتسهيل تقارب بين أوساط البلاط الليبرالية-خاصة الإمبراطور نابليون-وممثلي الحركة العمالية. وثبت، أيضاً، أن الحكومة الإمبراطورية التي تمنت، لأنها كانت في صعوبة آنذاك، أن تحصل على دعم الطبقة العاملة هي التي مولت رحلة الوفد الفرنسي إلى معرض لندن العالمي عام ١٨٦٢ على الرغم من أنه من الصحيح أن تولان قطع، وبصورة واضحة جداً، الجسور قبل المعرض بالضبط. وهكذا، من نقطة إلى أخرى، نصل إلى الأطروحة التي دافع عنها السان سيمونيون والتي تقول أن أصل الأممية العمالية توقيع معاهدة تجارية، عام ١٨٦٠، بين فرنسا وبريطانيا.

وأثار المؤرخ بوريس نيكولايفسكي، من جهته، المسألة الهامة، مسألة دور الماسونية في تشكيل الرابطة الدولية للعمال. وهو يلح، خاصة، على النصيب الذي أسهم به محفل الفيلادلفيين التابع لسلك ممفيس. فقد كانت لهذا المحفل علاقات وثيقة مع مبعدي كومونة باريس الثورية التي أسسها، عام ١٨٥٢، فيليكس بايا وكوسيديير وبواشو، وكذلك مع الأوساط الغاريبالدية والماتزينية التي اتخذت مبادرة "المؤتمر الديمقراطي" الذي انعقد في بروكسيل بين ٢٦ و٢٨ أيلول ١٨٦٣. وهذا المؤتمر هو، حسب أقوال البلجيكي سيزار دو باب والألماني يوهان فيليب بيكر اللذين شاركا فيه، أكثر سوابق الأممية الأولى مباشرة.

ويبدو جيداً، فعلاً، أن مجموعات أخرى متفاوتة في سريتها وتمثل مصالح مختلفة وتنزع إلى اكتساب بعد دولي استبقت، فضلاً عن المجموعات النقابية الإنكليزية والتضامنية الفرنسية، تأسيس الرابطة الدولية للعمال أو أسهمت، فيها، بدرجات متفاوتة. وهذه هي الحال مع "الديمقراطيين

الأخويين" الذين تاسست جماعتهم في لندن، في آذار ١٨٤٦، على أيدي ميثاقيين ومبعدين، وهذه هي الحال مع "الرابطة الدولية" التي عملت في لندن بين ١٨٥٦ و١٨٥٩ وضمت مهاجرين فرنسيين من الكومونة الثورية، ومع ميثاقيي "لجنة دولية"، ومع اشتراكيين بولونيين ومع شيوعيين ألمان.

والخصومة حول نسب الأهمية الأولى بالنسبة للمجموعات والروابط التي سبقتها أو قدمت لها ليست شيئاً، أيضاً، إذا قيست بتلك التي تتصل بنسبها الأيديولوجي. فالمؤرخون والمنظرون الماركسيون ألحوا طويلاً للحصول على اعتراف لمؤلف "رأس المال" على الأبوة الحصرية والشرعية للرابطة الجديدة. إلا أنه إذا صح أن ماركس قاد المجلس العام منتصراً على خصومه الماتزينيين والبرودونيين والبلانكيين والفوضويين، فلم يكن صحيحاً -وماركس، نفسه، لم يزعم، قط، ذلك- أنه كان له نصيب ما في تسيير التجربة. فلن يلعب، وهو المدعو في اللحظة الأخيرة، إلى اجتماع قاعة سان مارتان و"المتفرج الصامت على المنصة"، حسب تعبيره، دوراً فعالاً إلا فيما بعد، لدى اجتماع اللجنة الفرعية المكلفة بصياغة أنظمة التجمع الجديد. لماذ قبل أن يمضي إلى هذا الاجتماع الذي كانت روحه نصف النقابية ونصف البورجوازية أحرى بأن تكون غريبة عنه وهو الذي كان قد قرر، بعد فشل رابطة الشيوعيين "رفض كل دعوة من هذا النوع"؟ إنه يشرح ذلك في رسالة مؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٨٦٤ يروي، فيها، مفصلاً، لأنغلز أحداث الأسابيع الأخيرة: "قررت التخلي عن مبدأ رفض كل دعوة من هذا النوع لأنه كانت تتبدى، هذه المرة، قوى حقيقية، من الجهة اللندنية كما من الجهة الفرنسية". وهو ما يوافق عليه أنغلز في رده المؤرخ في ٧ تشرين الثاني:

"كان الأساسي، في نهاية المطاف، أن تبقى، من جديد، على علاقات بالناس الذين كانوا يمثلون طبقتهم على الأقل" مضيفاً، على كل حال، أنه كان ينبغي توقع انشقاق "إلى عناصر بورجوازية، نظرياً، وعناصر بروليتارية، نظرياً، منذ أن يدقق في الأمور قليلاً". ولكن ماركس لم يكن يغذي أي وهم حول تمكنه من الحصول على تبني مذهب "قدامى" رابطة الشيوعيين وسياستهم الثورية من جانب هذه الرابطة الدولية للعمال التي بدت، له، حقاً، ملتقى اتجاهات و"طوائف" متنوعة. وربما تغير ماركس: فلم يعد يؤمن بنجع الروابط، بل بنجع "الحركات".

وانبثقت الرابطة الدولية للعمال، في نهاية المطاف، كنتاج توارد مؤقت لمصالح مختلفة. فالنقابات الإنكليزية كانت، إذ تابعت الشؤون السياسية الكبرى عن كثب-الحرب الأهلية الأمريكية، عام ١٨٦٢، والثورة البولونية عام ١٨٦٣-، معنية، خاصة، بمسائل اقتصادية ونقابية: وبدت لهم الرابطة الدولية للعمال مفيدة إذا استطاعت أن تمنع، خاصة، استيراد محطمي إضرابات أو عمال أجانب منافسين تدفع لهم أدنى الأجور إلى إنكلترا. أما العمال الفرنسيون، فقد كانوا يبحثون عن نموذج. فقد كانوا، فعلاً، غير واثقين من الدرب التي يجب أن يسلكوها: صراع سياسي، بالتحالف مع البورجوازية الجمهورية، ضد إمبراطورية تتردد بين الاستبدادية والتوجه إلى الشعب؟ أم صراع اقتصادي ضد أرباب عمل مذعورين من المنافسة الإنكليزية الجديدة وغير المتكيفين مع سرعة التحولات التي عرفها الاقتصاد الفرنسي آنذاك؟ والحق أن المناقشة كانت قد حسمت، من قبل، ضمنياً، لصالح الحد الثاني من الخيار.

وقد أعطت أهمية افتتاح حوار فرنسي-بريطاني القصوى نقطة رسو مشخصة للرابطة الجديدة. إلا أنه ينبغي، أيضاً، بصورة أعم، أن نلاحظ

أن كل أوروبا كانت مسكونة بقلق مزدوج: قلق سياسي ناجم عن الثورة الفرنسية وقلق اجتماعي ناجم عن الآثار الأولى للثورة التقنية والصناعية الجارية: وهذا ما يشهد عليه، مثلاً، النداء الذي وجهه، عام ١٨٦١، عمال نابولي إلى رفاقهم الإنكليز: فهم يطلبون، فيه، المساعدة في نضالهم لفرض وحدة إيطاليا وحريتها. وهم يطلبون، فيه، أيضاً، مساعدة "من أجل تنظيم العمل".

المجلس العام ودوره

تشكلت الرابطة الدولية للعمال، في نهاية المطاف، خلال سفرة جديدة قام بها، إلى لندن، عام ١٨٦٤، تولان وبيراشون مصحوبين بعامل القياطين ليموزان. وفي ٢٨ أيلول، أقر اجتماع قاعة سان مارتان المشروع الفرنسي لخلق فروع في كل بلدان أوروبا بقيادة لجنة مركزية.

وتبين اللجنة المؤقتة التي انتخبها المجلس، مع حق اختيار العضو لزميل له، بتركيبها، تعقيد العملية إلى حد كاف. فنجد، فيها، كما يمكن أن نتوقع، أرجحية فرنسية-إنكليزية: ٢١ إنكليزياً و٩ فرنسيين، وكذلك نجد، فيها، من المهاجرين، عضوين بولونيين و١٠ ألمان، منهم ماركس، وستة إيطاليين وسويسريين. والعمال، على الصعيد الاجتماعي، أغلبية بالتأكيد، ولكننا نجد، أيضاً، محامين ورجال سياسة ومحبين للبشر كانوا يرتادون الأوساط الديمقراطية الراديكالية الكوزموبوليتية. وأخيراً، كان يتجاور، على الصعيد الأيديولوجي، ماركسيون وليبراليون وبرودونيون وميثاقيون سابقون ونقابيون واشتراكيون آخرون من كل الانتماءات.

وفي تشرين الأول، كلفت لجنة فرعية بصياغة أنظمة مؤقتة وتصريح مبدئي. وهذه اللجنة الفرعية التي كانت نوعاً من لجنة دائمة أو جهاز تنفيذي يحضر للاجتماعات العامة ويصرف الأمور الجارية يجمع، كل

أسبوع، السكرتيرين-المراسلين المكلفين بالاحتفاظ بالصلة مع الفروع المنشأة في بلد أو مجموعة بلدان هي التي لعب ماركس، داخلها، دوراً حكم عليه بعضهم بأنه غير متناسب: فقد قال عنه خصمه جيمس غيوم أنه "كالوقواق، فقد جاء ليبيض في غير عشه". وبالفعل، لم يكن ماركس يمثل أية منظمة عمالية، حتى ولا ألمانية. إلا أنه سوف يهيمن، إلى حد بعيد، على مصائر الرابطة الجديدة، ولكن ذلك كان بحذر شديد ودون أي أثر من التعصب الذي يتهم به طواعية.

وكبداية، اشترك ماركس اشتراكاً فعالاً في كتابة الأنظمة المؤقتة و"الإعلان الافتتاحي". وكانت الأنظمة المؤقتة تنص، خاصة، على أن المجلس العام المنتخب من المؤتمر السنوي والمسؤول أمامه "سيتألف من عمال ينتمون إلى مختلف البلدان الممثلة في الرابطة الدولية للعمال" (المادة ٤) وأنه "سيقيم علاقات بين مختلف الروابط العمالية بحيث يكون عمال كل بلد على اطلاع، دائماً، على حركات طبقتهم في البلدان الأخرى" (المادة ٦).

ويقدم البيان أو الإعلان الافتتاحي للأممية كشفاً بحساب تطور الشرط العمالي منذ فشل ثورات ١٨٤٨:

"إنها لواقعة ذات أهمية كبيرة أن لا يكون بؤس العمال قد انخفض، أبداً، بين ١٨٤٨ و١٨٦٤، في الفترة التي تتميز بنمو لا مثيل له في الصناعة، بتنام غريب في التجارة".

إلا أن المعارك العاملية لم تكن عديمة الجدوى. وكذلك أثبتت التجارب التعاونية التي جرت منذ أوين أن البروليتاريين قادرون على الاستغناء عن الرأسماليين.

إن تعددية الأهداف والدوافع والتأثيرات والتقاليد التي يمكن تشخيصها في فعل تأسيس الرابطة الدولية للعمال نفسه يميز، أيضاً، الجمعيات والمجموعات المحلية التي سوف تتكاثر بسرعة مذهلة دون أن تكف الرابطة، لهذا السبب، عن أن تكون، حسب صيغة تشارلز رابابورت الموفقة، "روحاً كبيرة في جسد صغير".

ففي فرنسا، ترسخت الأممية، بين ١٨٦٥ و١٨٦٧، حول ثلاث نوى. الأولى هي، بطبيعة الحال، باريس حيث أقام فرع، منذ كانون الثاني ١٨٦٥، في ٤٤ شارع غرافيلييه. والثانية هي ليون التي ضمت، في تبعيتها، فروعاً تأسست في نوفيل وفلوريوسورسون وفيلفرانش وتورون وفيينا. والثالثة، الأعجب، هي نواة كان الذي تأسس، فيها، فرع في حزيران ١٨٦٥ وامتد إلى ليزيو وكونديه وغرانفيل وأرجنتان وبون ليفيك وتوري-هاركور وبونفيل، واحتمالاً إلى رين.

ويجب أن نحاذر من المبالغة في ثبات هذه الشبكة ما لم يكن معنى ذلك إدخال اعتبارات أكثر تعسفاً حول إشعاع الأممية. ففرع باريس ضم ٢٠٠ عضو، عام ١٨٦٥، و٦٠٠، عام ١٨٦٦. ولم يكن لمعظم فروع المحافظات العديدة التي تاسست بين ١٨٦٥ و١٨٦٧ (كاستلنودراي، كونديه-سور-نوارو، أوش، أورليان، نانت) سوى وجود إسمي. ولم ينم سوى فرع ليون (تأسس عام ١٨٦٥، ٥٠٠ عضو عام ١٨٦٧) ثم، في وقت أكثر تاخراً، فرعي روان ومرسيليا (٢٨٠ عضواً في شباط ١٨٦٨). وفي المجموع، نحن بعيدون جداً عن الأسطورة التي غذاها أصدقاء الرابطة، كما غذاها خصومها، والقائلة أنه كان هناك، في فرنسا، عدة مئات من ألوف الأمميين: فإذا التزمنا المنهج المضبوط،

والشكلي قليلاً، منهج تعداد الانتسابات المسجلة والمثبتة حسب الأصول، فإننا لا نتجاوز، قط، رقم بضعة الوف. وإذا مضينا حتى حساب انتسابات جماعية غالباً-كانتساب الغرف النقابية في عامي ١٨٦٩-١٨٧٠ مثلاً-أو النمتفاوتة الوقتية-التي تجري، مثلاً، في حرارة جو اجتماع أو في سياق نشاط مطلبي مظفر-، فإن أقرب تقدير إلى الاحتمال لا يتجاوز، أيضاً، رقم بضعة عشرات من الألوف.

وهذه التعبئة الهزيلة كانت، أيضاً، في البداية-عام ١٨٦٥-مختلطة جداً. ففي باريس، كان عمال البرونز وطلاب الطب أكثر المهن تمثيلاً: فيجب، إذن، تعديل الرأي المفرط الحسم الذي يقول أن دوليي باريس لم يكونوا يؤخذون إلا من بين العمال اليدويين. وفي كان التي ليست منطقتها، كما نعلم، صناعية جداً، ارتبط النجاح بنشاط مراسل قوي هو طبيب الأسنان تالبوت. ويبدو أن عنصرين قد سهلا، بشكل خاص، نمو المنظمة الجديدة. ففي البداية، وإذا صدقنا فريبور، "كان كل الباقين من المنظمات الجمهورية التي حلتها الإمبراطورية يسجلون أنفسهم في غرانفيلييه". فيجب، إذن، الاعتراف بأن الرابطة الدولية للعمال، وهي رابطة خلقت خارج فرنسا ومقرها في لندن، ظهرت، برهة، كوسيلة، غير مذكورة في القانون، للالتفاف على منع تكوين روابط يزيد عدد اعضائها على عشرين عضواً. ومن هنا جاء انضمام بورجوازيين ليبراليين. فقد كتب فريبور يقول: "قدم اطباء وصحفيون وصناعيون وموظفون في الجيش إسهامهم في العمل". ومن جهة أخرى، إذا كان فرع فيينا، عددياً، واحداً من أهم الفروع (٥٠٠-٦٠٠ عضو)، فذلك لأنه انضم، بصورة متفاوتة المباشرة، إلى جمعية بوروغار الزراعية والصناعية، الجمعية التعاونية الفوريرية الاتجاه، القديمة والنافذة جداً:

فيمكن، إذن، أن نفكر في أن "الفروع لا تظهر صدفة ولا تولد، فجأة، من لا شيء. فغالباً ما تتابع عمل منظمة سابقة الوجود، تعاونيات زراعية بصورة عامة (بالأعضاء النشيطين أنفسهم) أو تنضاف إليها" (ج.روجري).

وفي بلجيكا، أكثر بلدان أوروبا تصنيعاً بعد إنكلترا، كانت الجمعيات العقلانية وحركات المفكرين الأحرار هي التي جاءت الأممية لتنضاف إليها كما تبرهن على ذلك شهادة ج.دونت الأمينة. فجمعية "التحرر" التي تاسست عام ١٨٥٤ وتألفت من بورجوازيين ليبراليين وحرفيين ميالين للاشتراكية، تكونت لتأمين الدفن المدني لأعضائها. وبعد ثلاث سنوات، انفص قسم من المنتمين، عام ١٨٥٧، عن البيت الأم ليشكلوا جمعية جديدة، "المتضامنين". وفي عام ١٨٦١، أسست مجموعة من الحرفيين والطلاب، داخل جمعية المتضامنين، رابطة أرادت لنفسها أن تكون مؤيدة لـ"الديمقراطية المناضلة" وسمت نفسها "الشعب": وكانت، بالفعل، حركة اشتراكية واضحة. إلا أن أعضاء من هذه الجمعية الأخيرة، بينهم فيريكن وبون ودو باب، اجتمعوا، في ١٧ تموز ١٨٦٥، ليقرروا خلق الفرع البلجيكي الأول للرابطة الدولية للعمال التي نشرت انظمتها في "منبر الشعب" الناطقة بلسان جمعية "الشعب". وفضلاً عن ذلك، قامت مشادة حامية حول معرفة ما إذا كان على الجمعيات الديمقراطية أن تنصهر في الأممية: وفي نهاية المطاف، كانت الأممية البلجيكية هي التي تحولت، في كانون الأول ١٨٦٥، باقتراح من دو باب، إلى "فرع من "رابطة الشعب"، مع تركها لأعضاء الفرع المذكور أكمل استقلال في إدارة فروعهم". وسوف يبقى الأمميون البلجيكيون، دائماً، مطبوعين بتأثير الجمعيات الديمقراطية والجمهورية التي كانوا

ينتمون إليها، أولياً، وبتقاليد تعـود حتى إلى عـهد النقابـات القديمـة.

وردت سويسرا بصورة مؤيـدة، استثنائياً، علـى اعتبـار أن ١٥ فرعـاً سويسرياً قـد مثلـت في مؤتمـر جنيـف ١٨٦٥ مقـابل أربعـة فـروع فرنسية وثلاثـة فـروع ألمانيـة. وهـذا يعـود، بـين عوامـل أخـرى، إلى نشـاط شـخصيات رائعـة يمكـن أن نتعـرف بينـها علـى أوائـل المنـاضلين العمـاليين بالمعنى الحديث للكلمة. وقبـل كـل شـيء، يـبرز وجـه يوهـان فيليـب بيكـر، وهو ثوري ألماني قـديم مـن عـهد مـا قبـل آذار عـاد إلى جنيـف منـذ ١٨٦١ لينشط وسط الألمان المقيمـين فيـها داخـل "الجمعيـة العماليـة للتعليـم". وكـان الأساس الموزع الـذي أخـذت منـه فـروع جنيـف ولـوزان وفيفـاي ومونـترو القويـة أعضاءهـا يتـألف مـن جمـهوريين فرنسـيين وإيطـاليين وألمـان وثـوار سـابقين مـن عـهد ١٨٤٨ وعمـال ليونيـين مـهاجرين لأسـباب اقتصاديـة وراديكـاليين مـن جنيـف وصـانعي سـاعات وعمـال طباعـة وأعضـاء في جمعيـات مسـاعدة متبادلـة أو تربيـة عماليـة ومنشـطي منظمـات متفاوتـة السـرية-محـافل وجمعيـات مسـتوحاة مـن الماسـونية أو الكاربونـاري. وفي الجورا البـرني والنيوشـاتيلي، انتشـرت الفـروع اعتبـاراً مـن شـودوفون، وهـو مركز لصنـع السـاعات ذو روح قتاليـة ضعيفـة، ولكنـه أصبـح إحـدى قـلاع الأممية بفضل التأثـير الفعـال للدكتـور كولـري، وهـو طبيـب فقـراء لم يكـن يرى، في البداية علـى الأقـل، أي تنـافر بـين أفكـاره الخاصـة كمحـب للبشـر وأفكار الأممية. وكـان جيمـس غيـوم هـو الـذي أسـس ونشـط، في لوكـل، عـام ١٨٦٦، فرعـاً وجريـدة لـه هـي "التقـدم". وبالمقـابل، كـانت ضـروب التقدم بطيئـة جـداً في سويسـرا الألمانيـة علـى الرغـم مـن أن العمـال كـانوا، فيـها، أكـثر عـدداً وأشـد تركـزاً. ففـي بـال، انضـم، في بدايـة ١٨٦٦، بكثافة، عمال القيـاطين الذيـن كـانت مهنتـهم تعـاني مـن اضطرابـات عنيفـة

أطلقتها تغيرات الأزياء النسائية، ولكن أول فرع لكانتون زوريخ لم يتأسس، في وتزيكون، إلا في شباط ١٨٦٦، ويجب الانتظار حتى آب ١٨٦٧ من أجل أن يقوم فرع في مدينة زوريخ، نفسها، بتأثير من الفوريري السابق كارل بوركلي.

وقد كانت فرنسا وبلجيكا وسويسرا، في القارة الأوروبية، الأولى التي عرفت، فيها، الأممية، نسبياً، أكبر نجاحاتها. وفي إيطاليا، أعلن عن خلق الرابطة الدولية للعمال، ف.ب.سافي لدى مؤتمر الجمعيات العمالية الإيطالية الذي انعقد في نابولي بين ٢٥ و٢٧ تشرين الأول ١٨٦٤. وتقرر، إذ ذاك، إرسال وفد إيطالي إلى المؤتمر الول للأممية الذي كان قد تقرر عقده عام ١٨٦٥. والحقيقة هي أن إرادة الاشتراك هذه لم تتجسد، أبداً، فيما بعد. ولأسباب متعددة يصعب أن نقول ما هو أكثرها تحديداً، دخلت الجمعيات العمالية الإيطالية، بدرجات متفاوتة، في حالة سبات حتى عام ١٨٧١.وما من شك في أن ماتزيني كان متحفظاً حيال مشروع يستعيد، بروح أخرى، فكرة حركته، "أوروبا الفتاة"، منافساً إياها واستبعد منها أنصاره، منذ البداية، نتيجة لمناورات ماركس. ومن المحتمل، أخيراً، أن يكون مطلب الوحدة القومية قد كبت كل الاهتمامات التي كانت مطالبها مختلفة تماماً.

وفي ألمانيا، كان على أعضاء سابقين في "اتحاد الشيوعيين" أن يشكلوا، منذ ١٨٦٥، بطلب من ماركس الذي سمي سكرتيراً مراسلاً للمجلس العام عن ألمانيا، فرعين محليين في برلين ورينانيا: وربيع ١٨٦٦ هو الذي نشر، فيه، سيغفريد ماير، عضو الرابطة الدولية للعمال البرليني، الطبعة الأولى من "البيان الشيوعي" المطبوعة في ألمانيا. ولعب فرع اللغة الألمانية للرابطة الدولية للعمال الذي كان يحركه ج.ب.بيكر في جنيف ومجلته

الشهرية "ديرفور بوتيه"، أيضاً، دوراً أساسياً كوسيط بين مجلس لندن العام والحركة العمالية الألمانية. وكان ماركس، من جهته، يعقد مراسلة سياسية مباشرة مع ل. كوغلمان من هانوفر، ومع بول ستومبف الذي أسس فرعاً في مايانس وكارل كلاين الذي أدار فرع سولنغن. وعلى الرغم من هذه الجهود، أعيق نمو الرابطة الدولية للعمال، في ألمانيا، لكون أهم منظمة عمالية كانت، آنذاك، الرابطة العامة للعمال الألمان (آداف). ونحن نعلم أنها، وهي اللاسالية الوحي، كانت تنزع، إلى حد ما، مثيرة حنق ماركس، إلى السعي وراء حل للمسألة الاجتماعية في اتفاق مع الحكومة البسماركية.

وهكذا نجحت الرابطة الدولية للعمال، في السنتين الأولى والثانية من حياتها، دون أن تخرج من أوروبا تقريباً -على الرغم من اتصالات معزولة بين بضع منظمات أمريكية والمجلس العام-، في احتواء حوالي مائة جمعية وتجمع، ولكن مجموعها كان على تغاير نادر: فالنقابيون البريطانيون وجمعيات المساعدة المتبادلة الفرنسية و"مصنع" جنيف -اسم عام لعمال الساعات في المدينة- والمفكرون الأحرار البلجيكيون والبورجوازيون الليبراليون جعلوا من الرابطة الدولية للعمال منظمة تتفوق، فيها، بجلاء، عوامل التنوع على الرغم من تشبعها، حقاً، بفكرة التضامن.

الانطلاق

أمكن للمجلس العام، في تقريره لمؤتمر بروكسيل (١٨٦٨)، أن يهنئ نفسه على النتائج المحققة:

"في فترة نمو سلمي، اتخذت الرابطة الدولية للعمال أبعاداً قوية إلى درجة تكفي من أجل استجرار تنديدات حاقدة من جانب البورجوازية الأوروبية والتظاهرات العدائية من جانب الحكومات".

وبالفعل، تخذت المنظمة، في البلدان التي وجدت فيها، سعة لا سابق لها. وهذا الانطلاق الذي وصلت الأممية، بفضله إلى ذروتها، في عامي ١٨٦٩-١٨٧٠ مرتبط بفترة سياق اقتصادي مقطوع، فقط، بصورة فجائية، بركود ١٨٦٦-١٨٦٨ القاسي. ومثل هذا السياق الذي يسمح بالأمل في إنتزاع ترضيات محسوسة يشجع الحركة العمالية على خوض معارك مطلبية. فتضاعفت الإضرابات، إذن، منذ ١٨٦٤: ومن بين أكثرها دوياً، إضرابا عمال البرونز في باريس-النقابة التي كان ينتمي إليها تولان، وإضراب ١٨٦٥ من أجل المطالبة بيوم العمل المؤلف من عشر ساعات، وإضراب ١٨٦٧ الموجه ضد أرباب العمل الذين ادعوا لأنفسهم حق منع عمالهم من الانتماء إلى "جمعية التضامن"، وهي نقابة (دون أن تسمى كذلك) لعمال البرونز المنضمة، رسمياً، إلى الرابطة الدولية للعمال. وفي آذار-نيسان ١٨٦٨، قاتل ثلاثة آلاف من عمال البناء في جنيف من أجل يوم العمل المؤلف من عشر ساعات وتعرفة للحد الأدنى. وفي بلجيكا، على أثر تخفيضات في الأجور وتسريحات سببتها أزمة ١٨٦٧ الفحمية، قامت حركة مطلبية، عام ١٨٦٨ وخلال كل عام ١٨٦٩، في مناطق النسيج والمناجم ومعظم المدن الصناعية الكبرى.

وكانت بعض هذه الإضرابات دامية، خاصة في المناجم: إضرابا الإيين (١٨٦٦) وسيرنغ (نيسان ١٨٦٩) في بلجيكا، إضرابا الريكاماري (١٣ قتيلاً في حزيران ١٨٦٩) وأوبان (١٤ قتيلاً في تشرين الأول).

وحملت الحكومات، جميعها، مسؤولية هذه الإضرابات للأممية. ففي فرنسا، أقامت الحكومة الإمبراطورية، في ٣٠ كانون الأول ١٨٦٧، دعوى على مكتب الفرع الباريسي بتهمة رابطة غير مرخصة.

والحقيقة هي أنـه إذا كـانت الأممية عـاجزة، حقـاً، عـن لعـب الـدور الـذي كان ينسب إليـها، وإذا كـانت قـد اقتصـرت، في كثـير مـن الحـالات، علـى إثارة التضامن بـين عمـال فـروع وبلـدان مختلفـة دون أن تتوصـل، فضـلاً عـن ذلك، إلى هذا الأمـر بصـورة ملموسـة-لأنها كـانت "رايـة أكـثر منـها قـوة مادية كبـيرة" (ج.دونـت)، "فقـد القـى الإضـراب (بالعمـال) في الأمميـة"علـى حد قول أ.دوبـون، فيمـا يتعلـق بـالإضراب المظفـر: "حـوالي ١٨٧٠، كـانت الرابطة الدولية للعمال والإضرابـات والنقابـات علـى صلـة وثيقـة".

ففي معظم الحـالات، كـان الإضـراب، فعـلاً، نقطـة انطـلاق حركـة تضـامن عمـالي جديـدة: ومـن المؤكـد أن الحركـة اتخـذت، أيضـاً، شـكلي جمعيـات المسـاعدة المتبادلـة وجمعيـات التضـامن القديمـين، ولكنـها اتخـذت، كذلـك، شكل جمعية المقاومة الجديـد، المماثل، تقريبـاً، للنقابـات المقبلـة.

وفي بلجيكـا، حيـث لم تتوسـع الرابطـة الدوليـة للعمـال، حـتى النهايـة القصـوى لعـام ١٨٦٧، علـى الرغـم مـن وجـود فـرع بروكسـيل، جـرت الاختراقـة، عـام ١٨٦٨، بمناسـبة حركـة احتجـاج علـى المشـروع الحكومـي برفع القرعة السنوية من عشـرة آلاف إلى ثلاثـة عشـر ألـف مجنـد. وقـد سمـح تأسيس رابطـة ضـد التجنيـد والجيـوش الدائمـة وتنظيـم سلسـلة اجتماعـات معاديـة للعسـكرية بإقامـة أولى الاتصـالات في فيرفييـه ولييـج وأنفـرس حيـث انضمـت رابطـة عماليـة تاسسـت عـام ١٨٦٧، الرابطـة الشـعبية، إلى الأمميـة في كـانون الثـاني ١٨٦٨. وأدخـل إضـراب الإيـين (آذار ١٨٦٨) الأمميـة إلى منطقـة هينـو. وفي خريـف ١٨٦٨، كـانت البوريـناج، في منطقـة مونـز هي الـتي تم العمـل عليـها، بدورهـا. ومـن هنـاك امتـد النشـاط نحـو شـرق مقاطعة نيمـور. وفي الوقـت نفسـه، حلـت البلبلـة في القسـم الفلمنكـي مـن البـلاد مـع تشـكيل فـرع في بـروج (آب)، وخاصـة الفـرع الغبـاني (١١

تشـرين الأول). وأخـيراً، بـدا جيـداً أن أغلبيـة عمـال النسـيج والمناجم والتعدين، في بلجيكا، قـد انضمـوا إلى الأممية ولـو لم يكـن ذلـك إلا بصـورة عابرة، في اندفاعة حماسة إثـر اجتمـاع حـار.

وقد جمعت الفـروع الـتي تضـم عمـالاً مـن مختلـف المـهن في إقليـم كومونـة واحـدة، في اتحـادات ذات أسـاس جغـرافي أيضـاً. ولم يوجـد في القسـم الفلمنكـي سـوى اتحـاد واحـد. أمـا في القسـم الفـالوني، فقـد تأسـس، في كـانون الثـاني ١٨٦٩، اتحـاد فـروع البوريـنـاج وحـددت جيمـاب كمقـر للمجلـس الاتحـادي. وفي آذار، تأسسـت أربعـة اتحـادات (الشـمال، الشـرق، الغـرب والوسـط) تقـاسمت الفـروع الاثنـين والأربعـين لحـوض شـارلروا. وفي آذار ونيسـان، تأسـس اتحـاد لييـج واتحـاد وادي الفيسـدر (منطقـة فيرفييـه)، الـذي كـانت جريدتـه الرسمية "مـيرابو". ولإدارة الكـل، تشـكل مجلـس بلجيكي عـام مـن سـكرتير عـام (هيـتر) وسـكرتيرين مراسـلين مـع الخـارج (أحدهما دو باب) وأمـين صنـدوق ومراسـلين لمختلـف الفـروع.

ولم تكن ضـروب التقـدم في فرنسـا، علـى الرغـم مـن اضطـهاد إمـبراطوري مـتزايد الشـدة، أقـل سـرعة: فالحركـة العماليـة والأمميـة الـتي أصبحـت مرشدها تطورتـا، فيـها، نحـو أشـكال يمكـن، فعـلاً، وصفـها، تقريبـاً، بأنهـا نقابية ثورية. وقـد بـدأ التطـور عـام ١٨٦٧ عندمـا شـكلت الوفـود العماليـة المنتخبة لحضور معـرض بـاريس لجنـة، برلمانـاً عماليـاً مصغـراً، تطـالب، قبـل كـل شـيء، بحـق تشـكيل غـرف نقابيـة. وإذا كـانت الإمبراطوريـة قـد رفضـت ذلـك، ولكنـها وعـدت، علـى الأقـل، في آب ١٨٦٨، بتسـامح واسـع. ولكـن موجـة إضرابـات ١٨٦٨-١٨٦٩ هـي الـتي ضـاعفت، أكـثر من شـبه الليبراليـة هـذه، الغـرف التعاونيـة. وشـكلت الأمميـة أطرهـا: ففـي بـاريس، جمعـت غرفـة اتحاديـة تأسسـت بـين آذار وكـانون الأول ١٨٦٩،

جمعيات العاصمة العمالية الرئيسية. وكان كل محركيها (وفي مقدمتهم عامل التجليد أوجين فارلان) دوليين. وبصورة موازية لذلك، تشكلت، في بداية ١٨٧٠، شبكة فروع أحياء تجمعت، بدورها، في اتحاد الفروع الباريسية (٣ آذار ١٨٧٠) ضم حوالي عشرين فرعاً: وقادت الغرفة الاتحادية واتحاد الفروع النضال مترابطين ترابطاً وثيقاً. وكذلك ضم فرع روان الذي كان يحركه أ.أوبري جمعيات المدينة وضواحيها العمالية في اتحاد عمالي رواني. وتشكل اتحادان مماثلان، في مرسيليا بتأثير أ.باستيليكا، وفي ليون بتأثير أ.ريشار. وأصبحت الأممية الفرنسية، منذ ذلك الحين، قوة: فقد ضمت، احتمالاً، عدة عشرات من الألوف الأعضاء.

ومدت الرابطة، كذلك، نفوذها إلى بلدان لم يكن لها، فيها، موطئ قدم قط.

وهذه هي الحال مع إسبانيا التي لم تدخلها الرابطة الدولية للعمال إلا عام ١٨٦٨، على الرغم من أن المجلس العام كان قد سمح، في٢٢ تشرين الثاني ١٨٦٤، لأوتو فون بريدشفريت الشتوتغارتي الأصل،"بمراسلة أصدقاء التقدم في إسبانيا باسم الرابطة". وعندما انعقد المؤتمر العمالي الأول في برشلونة بين ٢٤ و٢٦ كانون الأول ١٨٦٥ وقرر توحيد النقابات الأربعين الممثلة، علم المجلس العام بذلك من "نشرة جريدة باريس، الرابطة".وعند ذلك عين لافارغ سكرتيراً مراسلاً من أجل إسبانيا. ولكن الأمور بقيت عند ذلك، تقريباً، حتى السفرة العتيدة، عام ١٨٦٨، سفرة فانيلي، مبعوث باكونين، الذي أدت اتصالاته مع مجموعة من العمال والطلاب المرتبطين بالتيار الاشتراكي للحزب الديمقراطي إلى تشكيل الفرع البرشلوني الأول للأممية (أيار ١٨٦٩).

وفي ألمانيا، قطع عدة قادة بارزين من "الرابطة العامة للعمال الألمان"- ومن بينهم ولهلم براكه-علاقاقم مع ج.ب.فون شفايتزر والاشتراكية اللاسالية: وفي آب ١٨٦٩، دعوا، في إيزناخ، مع بيبل وليبكنشت، إلى مؤتمر خرج منه حزب جديد، الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الذي استعاد برنامجه تعابير مقدمة الأنظمة الدولية للعمال. و لم ينضم الحزب الجديد، شكلياً، إلى الأممية بسبب القوانين الألمانية التي تمنع الانتماء الجماعي إلى الرابطة الدولية للعمال، ولكن أعضاء الحزب الجديد، دعوا، بمبادرة من ليبكنشت، إلى الانضمام فردياً.

المؤتمرات الأربعة الأولى

كانت بدايات صعبة في سنوات ١٨٦٥-١٨٦٧، ثم نهوض ملحوظ، من نموذج نضالي في مجرى نضالات ١٨٦٨-١٨٧٠ المطلبية الحامية. وأعمال المؤتمرات الأربعة الأولى للرابطة الدولية للعمال تتبع التقسيم نفسه إلى حقب.

لم يمكن عقد مؤتمر أول كان قد تقرر عقده في بروكسيل عام ١٨٦٥، فاستعيض عنه باجتماع انعقد في لندن (٢٥-٢٩ أيلول) حيث اكتفي بتثبيت الاتصالات المعقودة عام ١٨٦٤.

وفي مؤتمر جنيف (٣-٨ أيلول ١٨٦٦)، وهو المؤتمر الأول حقاً، سيطر على الجو الوفد الفرنسي المؤلف بكامله، أو بكامله تقريباً من برودونيين. فقد دافع، وكان يرأسه تولان، عن فكرة التحرر العمالي بتعميم "التضامنية": فيجب إقامة "التبادل على أساس التبادل، بتنظيم منظومة ائتمان متبادل ومجاني، قومي ثم دولي. ولا يدور الأمر حول تهديم المجتمع القائم، بل حول ترتيبه": لا ثورة، لا إضراب.

وكانت السيطرة الفرنسية واضحة، أيضاً، في مؤتمر لوزان (٢-٨ أيلول

١٨٦٧)، على الرغم من أنها قد خدشت. وقد أبدى ماركس شيئاً من تعكر مزاج: "كان ذهن السادة الباريسيين ممتلئاً بأكثر عبارات برودون خواء. إنهم يتحدثون عن العلم ولا يعلمون شيئاً". والواقع أن انتصار الأفكار البرودونية كان ظاهراً فقط. فحتى في فرنسا، وخاصة فيها، لم تعد هذه الأخيرة تستجيب لتطور الحركة العمالية. فالمشروعات التعاونية، خاصة، التي أرادت لنفسها أن تكون عمالية فشلت جميعها. وفوق ذلك، اتجهت ممارسة الإضراب ثم الغرفة النقابية إلى فرض ذاتها.

ففي مؤتمر بروكسيل (٦-١٣ أيلول ١٨٦٨)، وقف المندوبون، إذن، إلى جانب مشروعية الإضراب وضرورته. وأعادوا التأكيد على ضرورة التعاون العمالي، ولكن ذلك في منظورات مختلفة تماماً عن منظورات المؤتمر السابق: فيجب أن تشكل الروابط التعاونية أساس المجتمع الاشتراكي المتحرر المقبل. وبناء على اقتراح البلجيكيين، أعلن المؤتمر تأييده للتملك الجماعي للأرض والمناجم والمقالع والغابات ووسائل النقل: وهكذا، وأمام دهشة حلقة أخيرة من البرودونيين المعتدلين، أشعر بنفسه النفوذ المتزايد لـ"الجماعيين" الذين لم يكونوا كلهم "ماركسيين" بل، غالباً مثل سيزار دو باب قريبين من ماركس.

وجرى الانعطاف الكبير، في نهاية الأمر، في المؤتمر التالي، مؤتمر بال (٥-١٢ أيلول ١٨٦٩). ففي هذا الاجتماع الدولي حقاً (كان فيه ٧٢ مندوباً: ٢٧ فرنسياً، ٢٤ سويسرياً، ١٠ ألمان، ٦ إنكليز، ٥ بلجيكيين، نمساويان، إيطاليان، إسبانيان وأمريكي)، جرى تثبيت القرارات الجماعية التي اتخذت في بروكسيل بأربعة وخمسين صوتاً ضد أربعة أصوات وامتناع ثلاثة عشر عن التصويت (المعارضة ما زالت فرنسية).

"يصرح المؤتمر بأن للمجتمع الحق في إلغاء الملكية الفردية للأرض وإعطاء

الأرض للجماعـــة".

وكان القرار الأهم، أيضـــاً، هـــو ذاك المتخـــذ بالإجمـــاع والـــذي يؤكـــد ضـــرورة تنظيم نقـــابي دولي:

"يرى المؤتمر أن على كـــل العمـــال السـعي، بصـــورة فعالـــة، إلى خلـــق جمعيـــات تعاونية في مختلـــف المـــهن".

الأممية والحـــرب والكومونـــة

ولكن الأمميـــة ســـرعان مـــا واجـــهت مشـــاغل أخطـــر: فقـــد اندلعـــت الحـــرب الفرنســـية الألمانيـــة، في ١٥ تمـــوز ١٨٧٠، بعـــد أن وقـــف الأمميـــون الفرنسيون، في بيان مـــدو (١٢ تمـــوز)، عبثـــاً، ضدهـــا:

"الحـــرب مـــن أجـــل مســـألة تفـــوق أو ســـلالة لا يمكـــن أن تكـــون، في نظـــر العمال، سوى عبـــث إجرامـــي".

وبعـــد أن أطـــاحت هزيمـــة ســـيدان بالإمبراطوريـــة، حـــيى مـــاركس، باســـم المجلس العـــام، ولادة الجمهوريـــة محـــذراً العمـــال، فضـــلاً عـــن ذلـــك، مـــن كـــل محاولة ثورة ســـابقة لأوانهـــا:

"الطبقة العاملـــة الفرنســـية موجـــودة في ظـــروف معقـــدة إلى أقصـــى حـــد. وكـــل محاولة لقلـــب الحكومـــة الجديـــدة في الوقـــت الـــذي يقـــرع، فيـــه، العـــدو علـــى أبـــواب بـــاريس، تقريبـــاً، ســـتكون جنونـــاً يائســـاً... فليفيـــدوا (أي العمـــال) بهـــدوء وتصميـــم مـــن الحريـــة الجمهوريـــة ليعملـــوا، منـــهجياً، علـــى تنظيمـــهم الطبقي" (إعـــلان ٩ أيلـــول).

إلا أن باكونين هـــرع، فعـــلاً، مـــن جنيـــف إلى ليـــون، في ٢٨ أيلـــول، خصيصـــاً ليحاول إطلاق "العواطـــف الرديئـــة" الشـــعبية. وأفـــاد مـــن مظـــاهرة للمســـتائين، فاحتل البلديـــة الـــتي أعلـــن، منـــها، إلغـــاء الدولـــة. ولكـــن الأمـــر هـــو، كمـــا يلاحظ ماركس بخبـــث، هـــو أن،

"الدولة على صورة سريتين من الحرس الوطني البورجوازي دخلت من باب نسوا أن يحرسوه وجعلت باكونين يسلك طريق جنيف على عجل".

وأخيراً حدثت الانتفاضة السابقة لأوانها والتي كان يخشاها ماركس. كومونة ١٨ آذار ١٨٧١، آخر ثورات القرن التاسع عشر، انتفاضة بروليتاريا من النموذج القديم ما زالت مشبعة بذكريات الثورة الكبرى وبعقلية يعقوبية.

وقد لعبت، فيها، الأممية الفرنسية دوراً لا يهمل، ولكنه لم يكن دوراً حاسماً. فقد تصدت للحرب بعد أن أضعفها كثيراً الاضطهاد المنتظم من جانب الإمبراطورية. ومع ذلك، فالأمميون هم الذين نشطوا، خلال الحصار، "لجان السهر" في الدوائر، ثم لجنتها المركزية، ثم وفد الدوائر الإحدى والعشرين. وفي انتخابات الجمعية الوطنية، في ٨ شباط ١٨٧١، سمى الباريسيون، وسط أغلبية ساحقة من النواب البورجوازيين الراديكاليين، دوليين هما مالون وتولان. وبالمقابل، لم يكن للدوليين أي نصيب، أو تقريباً، في تشكيل اللجنة المركزية للحرس الوطني التي قامت بالثورة. وكان في مجلس الكومونة حوالي عشرين دولياً سوف يأخذون مكانهم بين "الأقلية" الاشتراكية المعارضة لـ"الأغلبية" ذات الاتجاه اليعقوبي والبلانكي.

هذه الثورة ذات النموذج القديم غير ماركس وجهها بتفسيره لها، باسم المجلس العام، في ٣٠ أيار ١٨٧١ ("الحرب الأهلية في فرنسا"):

"كانت الكومونة، في جوهرها، حكومة للطبقة العاملة... فقد وجد، أخيراً، الشكل السياسي الذي سيسمح بتحقيق التحرر الاقتصادي للعمل".

وقد بدأ رجال الكومونة في هدم الحكومة المضطهِدة "باترين الأعضاء القمعية الخالصة للسلطة الحكومية القديمة"، وقائمين بإلغاء الجيوش الدائمة والبوليس والبيروقراطية، جاعلين الوظائف انتخابية، محطمين "الأداة الروحية للقمع، سلطة الكهنة" بالفصل بين الكنيسة والدولة، مبدلين الحكومة القديمة "الفائقة المركزية" باتحاد حر لكل كومونات فرنسا، قائمين، أخيراً، بتحرير العمل عن طريق التنظيم التعاوني للإنتاج. ومنذ ذلك الحين، أصبح لدى الماركسية نظرية للدولة. بقي أن نعرف ما إذا كانت الرابطة الدولية للعمل قد تبنت هذه النظرية.

نهاية الرابطة الدولية لعمال

مع سحق الكومونة، اعتقل معظم المناضلين في إطار القمع أو اضطروا إلى سلوك درب المنفى. وتفرقت الفروع الفرنسية: ففي عام ١٨٧٣، وعلى الرغم من تعنت بعض مجموعات الجنوب والمحاولة العقيمة لإحياء فروع في السر، كان التنظيم الفرنسي، بكامله، قد أبيد تماماً. وكان على النقابية الفرنسية التي ولدت في نهاية الإمبراطورية، برعاية الرابطة الدولية للعمال أن تخلد إلى النوم بعض الوقت. وبذلت الحكومة الفرنسية، فوق ذلك، جهدها أن تتوسع بالقمع إلى البلدان الأجنبية باقتراحها نوعاً من التكتل الأوروبي المعادي للاشتراكية: ويشهد على ذلك البلاغ الذي أرسله من فرساي جول فيري إلى كل الحكومات الأوروبية في ٦ حزيران ١٨٧١. فأعلنت الأممية، إذن، خارج القانون في إسبانيا. ولوحق أعضاؤها، بانتظام، في الدانمرك. أما في ألمانيا، فقد حرص بسمارك الوفي لسياسته الداخلية المركزية والمعادية للكهنوت والليبرالية على أن تقتصر التدابير المتخذة خلال محادثات الأباطرة الثلاث على إعاقة دخول الحركة العمالية الألمانية الرابطة الدولية للعمال. ولا يدور الأمر حول المس

بالمنظمات الشرعية للاشتراكية الديمقراطية الألمانية. ووهذا هو معنى الحكم على بيبل وليبكنشت، في ٢٧ آذار ١٨٧٢، بالسجن لمدة ١٨ شهراً. وفي النمسا، اتهم قادة "الرابطة العامة لعمال هنغاريا"، ومن بينهم كارولي فاركاس الذي كسبه ج.ب.بيكر لقضية الرابطة الدولية للعمال لدى إقامته في سويسرا والذي أسس، لدى عودته إلى مسقط رأسه في مدينة تيميسفار، مجموعة أممية، بالخيانة العظمى وأحيلوا إلى العدالة وبرئوا في نيسان ١٨٧٢. وفي إيطاليا، عمدت الحكومة، بعد أن أمرت بحل فرع نابولي-أول فرع تاسس في شبه الجزيرة في كانون الثاني ١٨٦٩، إلى اعتقال قادته، ومن بينهم كافييرو، في آب ١٨٧١.

وكان هذا القمع المنسق تنسيقاً واسعاً على الرغم من امتناع الحكومات الإنكليزية والبلجيكية والهولندية عم الرد على بلاغ ج.فيري، وكذلك الشعور بانقلاب الرأي العام الليبرالي الذي أصبح، في حالات كثيرة، معادياً للحركة العمالية عاملين ثبطا همة كثير من المناضلين. إلا أن تثبيط الهمة كان عابراً، والحساب الختامي، غداة سحق الكومونة، لم يكن حساب إفلاس. وعلى العكس من ذلك، فحتى عام ١٨٧٢، تطور دوي الملحمة الباريسية وأنضج شعوراً بالتضامن العمالي تقدم، بصورة مفارقة، بإشعاع الرابطة الدولية للعمال ورسوخها في الوقت نفسه الذي أعطى إمكانيات جديدة لتدخل مجلس لندن العام.

ولم تعرف القوة العددية للرابطة تراجعاً إلا، بالطبع، من حيث امحاء فرنسا. بل إنه أمكن لأنغلز أن يؤكد أن الأممية سجلت، إذ ذاك، "نجاحاً عملاقاً". فالحق هو أن الوضع الاقتصادي الذي أصبح جيداً جداً في بلجيكا بعد همود ١٨٦٦ الموقت كان مناسباً جداً لظهور حركات مطلبية موفقة ولازدهار لاحق للمنظمات العمالية. وفي إيطاليا حيث لم

ينضم إلى الرابطة الدولية للعمال، حتى عام ١٨٧١، سوى بضعة فروع معزولة، أسهم معطيان جديدان في كنس الماتزينية كتيار رئيسي في الديمقراطية الإيطالية: اكتمال سيرورة التوحيد وإدانة ماتزيني للكومونة. فقد أراد هذا الأخير، باسم قيم الحرية التقليدية، أن يبقى على الحياد بين "جماعة فرساي" (أي الديكتاتورية البورجوازية) ورجال الكومونة (أي ديكتاتورية البروليتاريا). ولكنه لم يلق التأييد: فقد رأى الرأي العام الثوري الإيطالي، على العكس من ذلك، في الكومونة البرهان القاطع على أنه ينبغي، منذ ذلك الحين، مواجهة النضال الطبقي في بعده الأممي. فعملت أفتى عناصر الديمقراطية الإيطالية وأكثرها قتالية، إذن، بموافقة غاريبالدي الذي كانت الاشتراكية، في نظره، "شمس المستقبل"، على تأسيس فروع للرابطة الدولية للعمال في كل مكان. وفي إسبانيا، لم تمنع تدابير القمع التي اتخذها الوزير ساغاستا أعداد أعضاء الأممية من الزيادة ضمن اندفاعة النجاحات الأولى التي تم الحصول عليها اعتباراً من ١٨٦٨. وأطلقت مسألة وراثة عرش إسبانيا واستئناف الحرب الكارلية وإعلان "الجمهورية الديمقراطية والاتحادية"، عام ١٨٧٣، في أقدم دولة موحدة ومركزية في أوروبا، تخمراً مرتبطاً بالتقاليد الاستقلالية الكاتالانية والأندلسية: فقد أدى التطرف الثوري بالاتحادية إلى الكانتونية والكومونية المعادية للدولة. وفي هنغاريا، لم يكن للأممية، حتى صيف ١٨٦٩، سوى ثلاث مجموعات-في بودابست وتيميسفار (تيميزاورا) وبوسزوني (براتيسلافا)-أسسها عمال هنغاريون كانوا، في منفاهم في لندن أو جنيف أو فيينا، أعضاء في المجلس العام (كالنجار يانوس هرابجه) أو على علاقة مع وجوه معروفة في الرابطة الدولية للعمال. وبعد ١٨٧١، أقام كارولي فاركاس مراسلة منتظمة مع ليو فرانكل الهنغاري

الأصل، المندوب السابق لشؤون العمل في كومونة باريس والمهاجر إلى لندن. وفي عام ١٨٧٦، عاد ليو فرانكل، هو نفسه، إلى بودابست. وسوف يكون لكليهما، في الثمانينات، إسهام مباشر في تأسيس "حزب عمال هنغاريا العام" الذي سوف يتبنى، عام ١٨٩٠، اسم "حزب هنغاريا الاشتراكي الديمقراطي". وفي روسيا، لم تسهم أفكار الرابطة الدولية للعمال-التي لم تمس، حتى ذلك الحين، سوى أعضاء من الهجرة الثورية الروسية في زوريخ وجنيف ولندن (من بينهم من كان، بالأحرى، مرتبطاً بماركس، مثل ن.ي.أوتين، أ.أ.سيرنوسولوفيتش، ج.أ.لوباتين، وخاصة ب.ل.لافروف، وآخرون مرتبطون بباكونين مثل ف.زايتسيف وب.كروبوتكين)-مباشرة، في تشكيل الحركة الشعبانية الفتية إلا بعد كومونة باريس أيضاً.

أما المجلس العام فإنه، من جانبه، "لم يبد أية علامة إعياء أو تخل، ولا ماركس وأنغلز من جهة أخرى" (م.مولنار). وعلى العكس من ذلك، اتخذ سلسلة من التدابير لتقوية تماسك الرابطة الدولية للعمال التي هزتها الحرب الفرنسية الألمانية والكومونة. وعلى هذا النحو، استدعى إلى لندن، بين ١٧ و٢٢ أيلول ١٨٧١، اجتماعاً اتخذت، فيه، قرارات عديدة ترمي إلى توثيق الصلات بين لندن واتحادات مختلف البلدان وفروعها. وجرت محاولة لتصفية الأمور في سويسرا الروماندية. وأخذ أنغلز على عاتقه أن يكون سكرتيراً مراسلاً لإسبانيا وإيطاليا. وأقيم اتحاد إنكليزي. وفحصت كيفية متابعة الأمور بشكل أفضل في البلدان الهامشية كهولندا والدانمرك والنمسا أو في بلدان ما وراء البحار كالولايات المتحدة.

فسحق الكومونة لم يكف، إذن، لقتل الأممية. وعلى العكس من ذلك،

بدت هذه الأخيرة، بصورة ما، بعد ١٨٧١، أفضل وأوسع تجذراً من أي وقت مضى.

إلا أن ذلك ليس سوى وجه واحد للواقع. أما الوجه الآخر فهو أن الأممية غدت، منذ ذلك الحين، ممزقة تمزيقاً عميقاً، وهو تمزيق كان بحيث سيتذرع به، فجأة، في مؤتمر لاهاي في ٢٢ أيلول ١٨٧٢، ماركس لينقلب ويصل إلى نتائج متطرفة.

وبالطبع فإن أبرز تعبير عن هذا التمزق هو الخصومة بين الماركسيين والباكونيين.

وهذه الخصومة-الكلمة ضعيفة-بين "السلطويين" و"أعداء السلطة" هي، أولاً، (وهو ما يعطيها حدتها الدراماتيكية الخارقة)، صراع بين شخصيتين كانتا خارجتين، بالتأكيد، عن المألوف، ماركس وباكونين "الشديدي الاختلاف عن بعضهما بأصولهما وثقافتهما وتجربتهما ومزاجهما" (أ.لينينغ).وفوق ذلك، كان باكونين، على ما يبدو، معجباً إعجاباً صادقاً برجل العلم والمنظر اللذين كانهما ماركس: وعلى كل حال، فهو يقول أنه كانت لديه إلفة حميمة مع كتابات مؤلف "رأس المال".

كان صراعاً شخصياً، ولكنه يمكن أن يفسر، بصورة أوسع، كصراع بين عالمين وثقافتين. ذلك أنه من المؤكد ان موقف ماركس حيال روسيا لم يكف عن أن يعتبر من جانب باكونين كموقف كراهية منتظمة لروسيا بكل بساطة:

لماذا "تركز كل ضواعق رفض عمال أوروبا وتطلق على نقطة وحيدة: على القوة الروسية البربرية، الشريرة، والمهددة فقط؟ ولكن هل هي الوحيدة اليوم؟".

ويرد باكونين على هذه "الكراهية الصريحة للروس"، على هذه "الكراهية

الضمنية للسلافية" التي يشتبه بوجودها لدى خصمه بكراهية للجرمانية ليست اقل انتظاماً. فهو يعلق، مثلاً، على العبارة غير الموفقة المستعارة من رسالة لماركس، من بيان اللجنة المركزية للحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي المنشور في "الفولكستات" في ١١ أيلول ١٨٧٠:

"هذه الحرب (الفرنسية الألمانية) حولت نقطة ثقل الحركة العمالية من فرنسا إلى ألمانيا".

ويكتب باكونين ما يلي:

"في هذه الكلمات، تلقى كل فكر الماركسيين وأملهم وطموحهم. فهم يؤمنون، حديثاً، بأن الانتصار العسكري والسياسي الذي حققه الألمان، مؤخراً، على فرنسا يشير إلى بداية عصر كبير في التاريخ تكون ألمانيا مدعوة، اعتباراً منها، إلى لعب الدور الأول، من كل الزوايا، في العالم من أجل خلاص العالم نفسه دون شك".

ولكن ما كان بين ماركس وباكونين، ما وراء الصراع الشخصي، هو صراع من مستوى نظري أساسي ينصب، خاصة، على نقطتين: على مسألة الانضباط الداخلي للرابطة الدولية للعمال إذ يقتضي الباكونينيون الاستقلال الكامل للفروع أو الاتحادات القومية وإلغاء "ديكتاتورية" المجلس العام، وحول قضية موقف الحركة العمالية حيال السياسة، إذ يبشر الفوضويون بالإلغاء الثوري للدولة القمعية والاستنكاف الكلي في موضوع السياسة في انتظار ذلك: وهكذا يستعيدون، بعد بضع سنوات، المواقف التي كانت مواقف البرودونيين.

ولم ينتظر الصراع أيام ما بعد الكومونة ليندلع. فقد كان في حالة حضانة منذ عدة سنوات.

فباكونين (١٨١٤-١٨٧٦) الذي أفلت من سيبيريا والمعروف في

أوروبا، كان، منذ ١٨٤٨، يتمتع بمكانة كبيرة بين الديمقراطيين والثوريين لم يصبح عضواً في الأممية إلا خلال صيف ١٨٦٨ بانضمامه إلى فرع جنيف. لماذا هذا الانضمام المتأخر؟ للسبب نفسه الذي كان قد قاد ماركس إلى الانتماء إلى الرابطة الدولية للعمال عام ١٨٦٤: على أمل أن ينشر، فيها، أطروحاته. وبالفعل، ففي ذلك الصيف نفسه، تجمع باكونين وأنصاره الذين كانوا، حتى ذلك الحين، يشكلون اقلية اشتراكية داخل "رابطة السلام والحرية" في منظمة جديدة، "التحالف الدولي للديمقراطية الاشتراكية" طلبت الانضمام إلى الأممية. ورفض المجلس العام هذا الانضمام الكثيف لأممية في الأممية ولكنه قبل، في تشرين الثاني ١٨٦٩، "اتحاد الديمقراطية الاشتراكية في جنيف" كفرع للرابطة الدولية للعمال.

وسرعان ما استكمل المعسكران تعبئة أنصار كل منهما: فقد تحددت الألعاب منذ منتصف عام ١٨٧٢.

وكان المعسكر الماركسي يستند، في البدء، إلى المجلس العام حيث رتب ماركس أغلبية آلية. وتلقى دعماً دون حدود، ولو أنه "أفلاطوني"، بدرجة كافية، حسب تعبير أنغلز، من جانب اشتراكيي حزب إيزناخ الديمقراطيين الألمان. ووقف النمساويون، بطبيعة الحال، في الخط نفسه. وفي سويسرا، تشكلت نقطة دعم أساسية من ج.ب.بيكر الذي لا يتعب والذي كان يحمل، معه، أصوات الاتحاد الروماندي وفروع زوريخ ولوسرن وبال في سويسرا الألمانية.واستكملت شبكة اصدقاء ماركس ببعض الفروع المعزولة في إيطاليا واتحادات صغيرة، شبه وهمية فضلاً عن ذلك، في إنكلترا وإسبانيا والبرتغال وبعض عناصر متفرقة داخل الفروع الهولندية، وأخيراً باتحاد أمريكا الشمالية من حيث كونه مؤلفاً، حصراً

تقريباً، من عمال من أصـــل ألمـــاني.

وفي الصف المقابل، تعبـــأ معظـــم المعســـكر البـــاكونيني مـــن سويســـرا الرومانديـــة وبلجيكـــا وإيطاليـــا وإســـبانيا. وفي بلجيكـــا، اتخـــذ الاتحـــاد، منـــذ كـــانون الأول ١٨٧١، موقفـــاً ممـــاثلاً لموقـــف الجوراســـيين. وانتصـــر بـــاكونين في إيطاليـــا، إلا في توريـــن ولـــودي. وفي إســـبانيا، كـــانت المجموعـــة المدريديـــة الصغـــيرة الـــتي شـــكلها ونشـــطها لافـــارغ، منـــدوب المجلـــس العـــام، غـــير متعادلـــة مـــع الفوضويين الذين أسســـوا، تحـــت القيـــادة الثابتـــة لمركـــز جنيـــف، منـــذ ١٨٦٨، شـــبه كليـــة الفـــروع المنتميـــة، في الوقـــت نفســـه، إلى الرابطـــة الدوليـــة للعمـــال والتحـــالف البـــاكونيني واســـتمروا في الإمســـاك بهـــا جيـــداً. وكـــان للفوضويـــين، بطبيعة الحـــال، أيضـــاً، أنصـــار متفرقـــون في فرنســـا وإنكلـــترا وهولنـــدا وأمريكـــا الشمالية والنمســـا.

والتقلبـــات الـــتي كـــان يجـــب، في إطـــار معركـــة مســـتميتة بـــين المجموعتـــين، أن تقود إلى مـــوت الأمميـــة معروفـــة. ومؤتمـــر بـــال هـــو، خاصـــة، الـــذي أصبحـــت المواجهة بين ماركس وبـــاكونين، بعـــده، حـــادة. وبـــالفعل، كـــان مـــاركس قـــد كتب،قبل بال، إلى أنغلـــز يقـــول:

هذا الروســـي يريـــد، بديـــهياً، أن يصبـــح ديكتـــاتور الحركـــة العماليـــة. فليتنبـــه! وإلا فسوف يحـــرم".

وفي المؤتمـــر نفســـه، لم تكـــن المعركـــة بصـــدد الإرث قـــد ســـهلت الأمـــور. فبـــاكونين كـــان، بـــالفعل، قـــد اقـــترح، ضـــد قـــرار مـــاركس، قـــراره الخـــاص الذي أعلـــن، وقـــد جـــرى إقـــراره بالأغلبيـــة، "ضـــرورة الإلغـــاء الكـــامل والتـــام لحـــق الإرث". وقـــد عـــده مـــاركس "ابتـــذالاً ســـان ســـيمونياً". وعلـــى وجـــه الإجمال، بين مؤتمر بال بعذ التقـــدم البـــاكونيني. وهـــذا، علـــى الأقـــل، مـــا كـــان يراه بـــاكونين:

"منذ ١٨٦٨، عهد دخولي الأممية، أثرت في جنيف حملة صليبية ضد مبدأ السلطة نفسه وبشرت بإلغاء الدول وشملت باللعنة نفسها هذه الديكتاتورية الثورية المزعومة التي يوصينا بها يعاقبة الأممية، تلاميذ ماركس، بوصفها وسيلة ضرورية إطلاقاً، كما يزعمون، لتوطيد انتصار الشعب وتنظيمه [...]. وقد أحرزنا، في مؤتمر بال، انتصاراً يمكن وصفه بالكامل، ليس على البرودونيين المذهبيين المسالمين وفرديي باريس أو اشتراكييها البورجوازيين فقط، بل، أيضاً، على شيوعيي مدرسة ماركس السلطويين. وهذا ما لم يستطع ماركس، قط، أن يغفره لنا والسبب الذي ، من أجله، بدأ، منذ ما بعد هذا المؤتمر، هو وجماعته في شن حرب ضدنا لا تترع إلى أقل من تدميرنا الكامل".

والواقع هو أن المناقشة جرت وسط الارتباك: فقد كان من الصعب التمييز بين الماركسيين والباكونيين الحقيقيين في حشد مندوبي المؤتمر.

إلا أن محاولة "التدمير" هذه وجدت تطبيقاً لها في الإطار السويسري أولاً. ففي جنيف، كان لفرع "التحالف الديمقراطي الاشتراكي" تركيب متغاير جداً: "متآمرون ماتزينيون، مناضلون راديكاليون جنيفيون، اشتراكيون من ١٨٤٨، مبعدون جمهوريون من مختلف البلدان، مناضلون من فروع جنيفية أخرى". (ب.فيللوميه). وكان، كما هو، يتميز، بوضوح، عن "الفرع المركزي" الذي كانت تنتمي إليه الجماعات المهنية والذي كان يسيطر عليه قادة فرعي الساعات والصياغة "المرتبطون جداً بالحزب الراديكالي والمرتابون جداً حيال الجماعية"، وذلك بحيث أن الفرع الجنيفي للتحالف لم يستقبل في اتحاد الفروع الروماندية حيث كان ساعاتيو جنيف وشو-دو-فون يؤلفون أغلبية معتدلة على الرغم من قبول المجلس العام له في الرابطة الدولية للعمال. وبالمقابل، كسب

باكونين نصيراً مختاراً، عام ١٨٦٩، في شخص جيمس غيوم الذي كان يجب أن يحمل له ولاء فروع الجورا. و لم يكن التعارض الذي كان يرتسم، على هذا النحو، بين الجنيفيين والجوراسيين يستند إلى فرق ما في التركيب الاجتماعي للفرعين: فلم يكن الشرط العمالي لعمال الساعات في "الجبال" مختلفاً، جوهرياً، عن شرط زملائهم على ضفاف البحيرة. بل كان ذلك انكساراً، بالأحرى، بين القادة الذين اصطدموا، خاصة، حول الإسهام في الحياة السياسية المحلية. فقد كان الجنيفيون أنصار تحالف مع البورجوازية الراديكالية التي كانت، فضلاً عن ذلك، في المعارضة في جنيف، في حين كان الجوراسيون الذين كان عليهم الاختيار بين تحالف مع البورجوازية الراديكالية الحاكمة أو تكتل مع المحافظين يحتمون بالاستنكاف. وفي مؤتمر اتحاد الفروع الروماندية (نيسان ١٨٧٠)، تنازع الجوراسيون والجنيفيون، فضلاً عن ذلك، تحرير جريدة "المساواة". وانسحب الجنيفيون، في نهاية المطاف، من المؤتمر. وشكل التحالف وفروع الجورا اتحاداً منشقاً (سمي، في تشرين الثاني ١٨٧١، "الاتحاد الجوراسي").

وكان مجلس لندن العام قد بقي، في البدء، بحذر، خارج المساجلة. وكان ماركس قد ندد بدسائس الباكونيين للاستيلاء على إدارة الرابطة الدولية للعمال في "رسالة سرية" إلى كل الفروع (آذار ١٨٧٠).

وبعد فاصل الحرب والكومونة القصير، استؤنفت المعارك. وفي اجتماع لندن، في أيلول ١٨٧١، كان ماركس يملك، من بين ٢٣ مندوباً، ١٣ ممثلاً، موالين تماماً: وفي حين بذل البلجيكي دو باب جهوده في سبيل التوفيق عبثاً، فإنه لم يبق سوى اربعة معارضين من بينهم الفرنسي باستيليكا والإسباني لورنزو. فحصل ماركس، إذن، بسهولة، على

انتصار أطروحاته في القرار التاسع حول العمل السياسي الضروري للطبقة العاملة:

"نظراً لكون البروليتاريا لا تستطيع التصرف كطبقة، ضد السلطة الجماعية للطبقات الحاكمة، إلا بتشكلها، هي نفسها، في حزب سياسي متميز معارض لكل الأحزاب القديمة التي شكلتها الطبقات الحاكمة،

ولكون هذا التشكل للبروليتاريا في حزب سياسي ضرورياً لضمان انتصار الثورة الاشتراكية وهدفها الأسمى: إلغاء الطبقات،

ولكون تكتل القوى العمالية الذي تم الحصول عليه، من قبل،بالنضالات الاقتصادية يجب، أيضاً، أن يستخدم رافعة بين أيدي هذه الطبقة في نضالها ضد السلطة السياسية لمستغليها:

يذكر الاجتماع أعضاء الأممية بأن الحركة الاقتصادية للطبقة العاملة وعملها السياسي، في حالتها النضالية، متحدان بصورة لا تفصم".

ولكن فروع الجورا المجتمعة في مؤتمر في سونفيلييه (١٢ تشرين الثاني ١٨٧١) رفضت قبول القرارات "الاستبدادية" المتخذة في لندن. وفي عام ١٨٧٢، ندد المجلس العام (أي ماركس)، بعنف، بالفوضويين في نشرة بعنوان: "الانشقاقات المزعومة للأممية" رد عليها، فوراً "رد بعض الأمميين من الاتحاد الجوراسي".

وأنجز الانشقاق في مؤتمر لاهاي (٢-٧ أيلول). فقد جاء الجوراسيون ومعهم تفويض بطلب "إلغاء المجلس العام وحذف كل سلطة في الأممية". ولكن الماركسيون كانوا يملكون أغلبية مريحة على الرغم من كونها متغايرة. فقد قدم لهم البلانكيون المهاجرون، مؤقتاً، دعمهم بتأثير من فايان. فأقر المؤتمر، إذن، تعابير قرار لندن التاسع ووطد سلطة المجلس العام وقرر طرد باكونين وجيمس غيوم. واتخذ، أخيراً، باقتراح من

ماركس وأنغلز، قراراً بنقل المجلس العام إلى نيويورك. وكان معنى هذا "نحر" الرابطة، بوضوح، في أوروبا.

وكان آخر عمل للمجلس العام اللندني نشر تقرير موجه ضد الفوضويين: "تحالف الديمقراطية الاشتراكية والرابطة الدولية للعمال".

إلا أن الرابطة الدولية للعمال انطفأت، بهدوء، في نيويورك: ففي ١٥ تموز ١٨٧٦، قرر اجتماع فيلادلفيا حل المجلس العام.

ولكن "أعداء السلطة"، لم يكونوا في الوقت نفسه، يعترفون بأنهم مغلوبون. ففي ١٥ أيلول ١٨٧٢، عقد، في سانت-إمير، مؤتمر استثنائي لممثلي خمسة اتحادات منشقة، الاتحاد الجوراسي والإيطالي والإسباني واتحاد أمريكي هيكلي واتحاد فرنسي شبحي. وأبدت هذه الأممية المنشقة قوة أكبر من قوة المنظمة الرسمية في نيويورك. فباستثناء الألمان، انضمت إليها كل الاتحادات التي بقيت في أوروبا، لا سيما المنظمة البلجيكية التي ما زالت قوية (١٨٧٦). وقد عقدت، في جنيف (١-٦ أيلول ١٨٧٣)، مؤتمراً سادساً صوت بالإجماع على إلغاء المجلس العام وتبني أنظمة جديدة تحترم استقلال الفروع وتؤيد الإضراب العام كوسيلة لتحرير البروليتاريا ثورياً. وفي العام التالي، عقدت مؤتمراً سابعاً في بروكسيل، وثامناً في برن، في تشرين الأول ١٨٧٦. والواقع هو أنها لم تجمع سوى أقليات صغيرة. ولم تتوقف قواها عن التضاؤل. وغادرها باكونين في نهاية حزيران ١٨٧٤، وتوفي في ١٤ تموز ١٨٧٦. وتركها، بدورهم، عدة رجال منفيين من الكومونة، منهم بينوا مالون وجول غيسد. وجرى الإلحاح على الإيطاليين من اجل أن يبدؤوا الأعمال الثورية، فقطعوا علاقتهم بها ليحاولوا القيام بانتفاضات محلية في عامي ١٨٧٤ و١٨٧٦، في حين أن تياراً معتدلاً بدأ ينافس، في إيطاليا، المنظمات الفوضوية. ولم

يلتحق البلجيكيون إلا مؤقتاً واستأنفوا، شيئاً فشيئاً، طريق الاشتراكية الديمقراطية. وعقدت الأممية المعادية للسلطة مؤتمرها الأخير في فيرفييه (٦-٨ أيلول ١٨٧٧) وعقدت القلعة الأخيرة، الاتحاد الجوراسي، مؤتمرها الأخير، في لاشو-دو-فون، في التاسع والعاشر من تشرين الأول ١٨٨٠.

وإذا كانت تقلبات المواجهة بين الماركسيين والباكونيين معروفة إلى درجة كافية (وفضلاً عن ذلك، فإن ذكرها ما زال يثير عواطف ما زال تفسير كل حلقة، معها، موضوع مساجلة علمية)، فإننا نود، بالمقابل، أن نحصل على توضيحات إضافية حول سلسلتين من المسائل.

الأولى تمس آليات تبلور المعسكرين. فلا يسعنا أن نتجاهل الأهمية الباطنية لموضوعات التعارض ذات المستوى النظري والمذهبي بين ماركس وباكونين. وتبقى هذه الموضوعات، في قسم كبير منها، على نصيب ملحوظ من "الحداثة": فتطور الحركة الاشتراكية اللاحق وتقلباتها أحيت، فضلاً عن ذلك، هذه الخلافات الأساسية أكثر مما أضعفتها. ولكننا نريد، أيضاً، فهماً أفضل للعوامل التي أمكنها الإسهام في تسهيل التجذر الإقليمي لكل مذهب. فقد طرحت، مثلاً، فرضية تقول أن الباكونينية-أي نموذجاً معيناً من الفوضوية-انبثقت، أو ازدهرت على الأقل، في البلدان الأوروبية التي كان تطورها الاقتصادي يسجل أكبر تأخر نسبي: البلدان المتوسطية. إن في ذلك، بالتأكيد، اتجاهاً للبحث. وطرحت، أيضاً، الفرضية التي تقول أن الفوضوية الجوراسية كانت تؤلف الانعكاس الأيديولوجي لصناعة مبعثرة من نموذج قديم: فاليد العاملة لعمال الساعات العاملين في بيوتهم أشبه بالحرفية القديمة منها بالطبقة العاملة المركزة والأقل تأهيلاً في الصناعة الكبرى التي كانت في

دور الحمل. ولكن الأبحاث المشخصة لم تبين، بصورة قاطعة، أن المهن المنحسرة والمهن القديمة كانت أنسب للفوضوية، في حين كانت النقابات الجديدة والمهن الجديدة والبنى الاجتماعية-الاقتصادية الجديدة الأرض المختارة للماركسية. فالستينات والسبعينات عصر طفرة كانت، فيه، العناوين القاطعة أكثر إرضاء للذهن مما كانت مطابقة لواقع معقد وتصعب الإحاطة به. وهكذا، فإن اندفاعة الفوضوية الفالونية تتخذ جذورها في التقاليد القروسطية في الوقت نفسه الذي تحتدم، فيه، بمعارضتها للإدارة البروكسيلية والقلعة الاشتراكية الديمقراطية التي صارت إليها الحركة العمالية الفلمنكية حول غاند.

وتفتتح سلسلة ثانية من المسائل الفرضية العامة التي طرحها المؤرخ ميكلوس مولنار والتي تقول أن "تماوت" الرابطة الدولية للعمال ربما تسارع بسبب الانقسام إلى ماركسيين وباكونيين، في حين أنه كان على كل حال، في الاتجاهات العامة للنمو: فالرابطة الدولية للعمال، المولودة من "حركة واقعية" للجماهير العمالية ماتت، كذلك، لكون هذه "الحركة الواقعية" قد أفلتت منها.

فمن الثابت، فعلاً، أنه إذا كانت المعارضة الباكونينية قد انتزعت من المجلس العام الماركسي الأراضي الموعودة في محيط المتوسط، فإن المعسكر الماركسي، بوصفه كذلك، قد عرف، أيضاً، في أكثر البلدان نمواً أزمة داخلية جعلت المجلس العام يفقد، تدريجياً، سيطرته على أنصاره بالذات وحكمت عليه بالدوران في الفراغ.

ونلاحظ، أولاً، أن تقهقر الرابطة الدولية للعمال قد بدأ فعلاً، وهي ما تزال في أوج نموها، بصورة محسوسة جداً، في هذه الإنكلترا التي كانت عمودها الأول: فنلاحظ، فعلاً، منذ ١٨٦٧-١٨٦٨، حركة تراجع

"إصلاحية" داخل الاتحادات العمالية، حركة أدت إلى الارتداد الكثيف للنقابيين البريطانيين الذي يشهد عليه، بجلاء، رفضهم توقيع النداء الموجه، في ٣٠ أيار ١٨٧١، لصالح الكومونة: "الحرب الأهلية في فرنسا". و لم تقبل الاتحادات فكرة ماركس القائلة أن النضال الاقتصادي والاجتماعي يجب أن "ينجز" و"يكتمل"، بنضال طبقي سياسي في إطار حزب. ومن المؤكد أن بعض المنظمات النقابية كانت ما تزال تنتمي لاتحاد ج.هالز الإنكليزي المنشق، وبقيت فروع تعيش حياة خاملة، بصورة مستقلة، في مانشستر وأيرلندا. ولكن فشل الرابطة الدولية للعمال، في إنكلترا، غدا، سريعاً جداً، واضحاً للعيان: وزاد في دلالته كون الرابطة الدولية للعمال قد ولدت من وعي تضامن ضروري بين الطبقتين العاملتين الفرنسية والبريطانية. إلا أن انفصال النقابية عن الرابطة الدولية للعمال لم يكن ضاراً في البداية: وهو ما يبين جيداً أن الأمر لا يدور حول انحطاط، بل حسب صيغة مولنار، حول "تغير اتجاه" النقابية الإنكليزية.

وسوف نلاحظ هذا "التغير في الاتجاه"، كذلك، في الحركة العمالية الناطقة بالألمانية. فالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي تجمعت، عام ١٨٦٩، في أممية اشتراكية جديدة ذات إلهام ماركسي ولدت ونمت خارج الرابطة الدولية للعمال. وفي انتظار ذلك، فقدت هذه الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية اهتمامها بأممية ماركس، ولو كانت توافق على برنامج المجلس العام، لأن المسائل التي كان عليها أن تحلها مختلفة عن تلك التي تحمست لها الرابطة الدولية للعمال. فمسائل الحرب والسلم والجيوش والأمم المضطهدة التي طالما نوقشت في مؤتمرات الستينات غريبة عن العقد التالي الذي حققت، فيه، في أوروبا الغربية، ألمانيا وإيطاليا، وحدة

كل منهما والذي كانت ألمانيا المنتصرة، فيه، تتمنى الحفاظ على سلام دائم. وبالمقابل، فإن المسائل الجديدة التي كانت ترتسم ارتبطت بسيرورة التحويل الديمقراطي التي مست المؤسسات الاجتماعية-السياسية في جملة البلدان الأوروبية: اتساع حق الاقتراع وحرية الصحافة وحق الاجتماع أصبحت، منذ ذلك الحين، أهدافاً تقتضي من المنظمات العمالية نضالاً سياسياً في الإطار القومي.

وفي نهاية المطاف، وبعد ثمانية أعوام، تجاوزت الرابطة الدولية للعمال التغيرات التي حدثت على مستوى القوى العميقة التي يكون التاريخ محصلة لها. وقد أمكن تجاوز التنوع الأولي للعناصر التي وجدت فيها- النقابيون، التضامنيون البرودونيون، الماتزينيون والبلانكيون الماركسيون- لبرهة ما لكون المسائل المعلقة قد سمحت، لبرهة، ببوارد عمل دولي. وما أن مرت هذه البرهة حتى انتصر التنوع من جديد. ولكن ذلك لم يكن يعني، أبداً، مجرد عودة إلى الوراء: فعلى العكس من ذلك، بدا واضحاً، منذ ذلك الحين، أن النقابية والاشتراكية الديمقراطية والفوضوية هي الاتجاهات المتباينة الثلاث التي سيكون على الحركة العمالية لكل بلد أن تختار بينها.

فلا يمكن، إذن، اعتبار الرابطة الدولية للعمال جملة معترضة. فهي تجربة عظيمة قابلت، على وجه الإجمال، البنى الاقتصادية والاجتماعية التقليدية، نسبياً، للستينات: والعوامل الخارجية التي هيمنت على نمو المجتمع الصناعي في أكثر البلدان تقدماً، خلال السنوات ٧ -٨٠ كان يجب، في الوقت نفسه، أن تكرس نهاية هذه التجربة. وتجلى نفاذ بصيرة ماركس، بأعلى درجة، في كونه قد أدرك أنه كان ينبغي التخلي عن مشروع كن مؤلف "رأس المال" قد ضحى من أجله بالكثير من وقته،

حتى ولو لم يكن، قط، قد اعتبره حزباً بالمعنى الذي اعتبر به رابطة الشيوعيين كذلك. وكان ينبغي ذلك من أجل أن يسمح هذا الموت بحلول نمط جديد من المعركة البروليتارية، وهو، هنا، الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي سيتولى الأمميون القدامى، ليبكنشت وغروليش ودو باب وكونن وفايان ولافارغ، في كل مكان، قيادتها. وقد كتب أنغلز إلى سورج، عضو المجلس العام النيويوركي يقول: "سادت الأممية عشر سنوات من التاريخ الأوروبي من جانب معين، الجانب الذي فيه المستقبل، ويمكن أن تنظر، بفخر، إلى الوراء، إلى عملها. ولكنها بقيت حية على صورتها القديمة. وأعتقد أن الأممية القادمة ستكون، بعد أن تكون كتابات ماركس قد أثرت بضع سنوات، شيوعية بصورة مباشرة وتغرس مبادئنا".

عقبتان

يبدو أننا نستطيع أن نسجل، لصالح هذا الحساب الختامي الذي يدعونا إليه أنغلز كون الرابطة الدولية للعمال قد عرفت، بين عقبات صغيرة عديدة، عقبتين كبيرتين سوف تصطدم بهما، في المستقبل، التجارب المتعاقبة من النموذج نفسه.

والعقبة الأولى هي عقبة البنى الداخلية لمنظمة طبقية على النطاق العالمي وذات وجهة سكونية. وقد سبرت الأممية الأولى صعوبة التوفيق بين طموح إجمالي إلى تحقيق أهداف مشتركة تحت قيادة جهاز مركزي-المجلس العام-وشاغل الحفاظ على أصالة المجموعات التي تنتمي إليها واستقلالها ومبادرتها. إلا أنه إذا اتفق على أن المجلس العام ليس هيئة أركان لجيش متسلسل ومنضبط بصورة صارمة، وإذا لم يكن يقرر، بل يقتصر على التنسيق وعلى تشكيل متبادل تسري، بفضله، بصورة أفضل،

الأفكار والمعلومات التجارب العملية، فإن معرفة المستوى الذي تتخذ، فيه، القرارات، وإلى أي حد تصلح هذه القرارات لم تحل. والتغاير الأولي لأول مجلس عام انتخب عام ١٨٦٤ وتنوع القوى المتفاوتة التنظيم التي استقطبها قويا من الطابع الشرس لمطلب الاستقلال الذي كان يرتفع من كل مجموعة مكونة: وليس ذلك حيال ادعاءات افتراضية للندن لفرض نظراها فقط، وليس، فقط، حيال المجالس الاتحادية عندما أمكن (نادراً) أن تنتخب على النطاق القومي، بل حيال الفروع التي ظنت أن لها حقوقاً (كانت لييج وغاند، مثلاً، تريدان أن تدافعا عن نفسيهما ضد "ديكتاتورية" بروكسيل)، وكذلك حيال الفروع القائمة بصورة أخرى على المستوى الجغرافي أو النقابي (الجورا ضد جنيف، عمال البناء ضد عمال المصنع إلخ...).

وللعقبة الثانية التي ترتبط، فضلاً عن ذلك، إلى حد ما، بالأولى وجه مزدوج: فتسلل "القضايا القومية" إلى مشروع ذي وجهة عالمية يبدو، قبلياً، أنه يستبعدها والنمو غير المتساوي للنضال الطبقي داخل كل مجموعة قومية قد أسهما في تفسيخ الأساس الذي كانت تقوم عليه الرابطة الدولية للعمال، أي الشعور بالانتماء إلى جماعة من نموذج آخر غير الجماعة القومية.

فنحن، هنا، أمام عقدة للتاريخ. فمن البديهي أن الأمم والأممية فئتان تراهنان على صيرورتين متعارضتين.

ومع ذلك، فالتسلسل الزمني قاطع: فعقد الستينات المطبوع بولادة الأممية الأولى لم يكن أقل من ذلك انطباعاً بقضية القوميات المدفوعة إلى حدود شدها القصوى مع حرب إيطاليا وانتفاضة ١٨٦٣ البولونية والحرب الفرنسية-الألمانية، إلى حد تفرض، معه، الحقيقة المفارقة نفسها: فالأممية

ولدت من مسألة القوميات. واجتماع قاعة سان جيمس العتيد كان، صراحة، قد استدعي للتعبير عن غضب العمال الفرنسيين والإنكليز أمام تخلي الحكومات والطبقات الحاكمة عن بولونيا. والبضع عشرات من المهاجرين البولونيين الذين أسسوا، في لندن، عام ١٨٦٥، "الفرع الممثل للرابطة الديمقراطية البولونية" (التي تحولت، في السنة التالية، إلى "الكومونة اللندنية المركزية لاتحاد الهجرة البولونية") كانوا يرون في الرابطة الدولية للعمال التي انتمت إليها منظمتهم، قبل كل شيء، إمكانية الاستناد إلى المجموعات الثورية لأوروبا الغربية لبلوغ هدفهم الخاص: استعادة الاستقلال البولوني.

والنزعة الأممية التي جاءت، أولاً، إلى البروليتاريا الإنكليزية صاحبت، حقاً، التجدد العمالي الذي شهد عليه إضراب عمال بناء لندن عام ١٨٥٩، ولكنها تبلورت بمناسبة المطالب القومية في القارة: "سرعان ما أصبح غاريبالدي معبوداً!". وعبأت القضية البولونية، أكثر من ذلك أيضاً، في حين كانت حكومة بالمرسون قد قررت عدم التدخل، الرأي العام البريطاني الذي مضى، عن طريق وفد من قادة الاتحاد العمالي، حتى مطالبة رئيس الوزراء بأن يواجه، في نهاية المطاف، إمكانية اللجوء إلى الحرب ضد روسيا.

ويصرح النداء الإنكليزي في قاعة مارتن هول قائلاً: "يجب أن يكون أول جهد مشترك بيننا لمصلحة حرية بولونيا. إن عدالة القضية تقتضي ذلك، والمعاهدات تجعل منه إلزاماً ملحاً، والواجب يدل على الطريق. فيجب على شعبي بلدينا أن يطلقا، فوراً، عرائض تعلن حقوق البولونيين التي لا تناقش كمحاربين وأن تقدم، متزامنة، إلى حكومتينا مع التصميم الثابت على التصرف، أيضاً ودائماً، لمصلحة هذا الشعب الجدير بذلك".

وأخـــيراً، لا يمكـــن أن نخفـــض، في الســـنوات الأولى، تمامـــاً، مـــن حيـــاة الرابطـــة الدوليـــة للعمـــال، دور المـــهاجرين السياســـيين الذيـــن كـــان معظمـــهم كذلـــك من أجل اشتراكهم في معـــارك مـــن طبيعـــة وطنيـــة.

ومـــن المؤكـــد أن هـــذا الوضـــع قـــد نالـــه التعديـــل بســـرعة كافيـــة. والفقـــرة الأخيرة من "الإعلان الافتتـــاحي" حـــوت، فعـــلاً، الأطروحـــات الأوليـــة:

" إن الموافقـــة المفتقـــرة إلى الحيـــاء وضـــروب المحاكـــاة المضحكـــة للتعـــاطف الـــتي تأملت، بها، طبقـــات أوروبـــا العليـــا غـــزو قلعـــة القوقـــاز وقتـــل بولونيـــا البطلـــة على أيـــــدي الـــروس والتجـــاوزات الـــتي لا تجابـــه لهـــذه الســـلطة البربريـــة الـــتي يوجد راســـــها في ســـان بطرســـبورغ والـــذي تتصـــرف أياديـــه في كـــل دواويـــن أوروبا، كل هذا علـــم العمـــال أن عليـــهم واجبـــاً هـــو اخـــتراق أســـرار السياســـة الدولية ومراقبـــة التصرفـــات الدبلوماســـية لحكومـــاتهم".

وبـــذل مـــاركس، فضـــلاً عـــن ذلـــك، جـــهده لإبعـــاد الوصايـــة الماتزينيـــــةالتي كانت تهدد بجر الرابطة الدوليـــة للعمـــال إلى جـــانب تفســـير بونـــابرتي.

إلا أنه حـــــدث، خاصـــة بصـــدد المســـألة البولونيـــة، ارتـــداد حقيقـــي. فقـــد أراد مـــاركس، فعـــلاً، عـــام ١٨٦٥، مدعومـــاً مـــن الإنكلـــيز أن يطـــــرح مســـــألة بولونيا بتقديمه لاجتماع لندن قـــراراً-برنامجـــاً مصاغـــاً كمـــا يلـــي:

"من الملح محق النفـــوذ المكتســـح لروســـيا في أوروبـــا بتطبيـــق "حـــق كـــل شـــعب في التصـــرف بنفســـه" علـــى بولونيـــا وإعـــادة قيـــام هـــذا البلـــد علـــى أســـــاس اجتماعي وديمقراطـــــي".

وقد حاربـــــه، بعنـــف، الفرنســـيان لولوبـــيز وفيزينييـــه. وأعطـــت هـــذه المســـاجلة الفرصة للبلجيكي دو بـــــاب مـــن أجـــل توســـيع موقفـــه الخـــاص الـــذي يســـتبق، نوعاً ما، موقف روزا لوكســـمبورغ بعـــد ثلاثـــة عقـــود:

"يقول المواطن دو باب أنـــــه لم يكـــن ينبغـــي، في رايـــه، الانشـــغال بهـــذه القضيـــة

بالمرة. فلا يمكن لإعادة بولونيا أن تفيد سوى ثلاثة طبقات: النبالة العليا والنبالة الدنيا والكهنوت... أنتم تريدون إبادة النفوذ الروسي... فأنت أطلب، إذن، تحطيم نفوذ كل حكومات أوروبا... فهناك من الشعوب التي تعاني ما يكون، معه، ظلماً عميقاً أن لا نذكر منها إلا واحداً".

وفي السنة التالية، تكرر السيناريو نفسه في مؤتمر جنيف. فالنقطة التاسعة من البرنامج التي صيغت كما يلي:

"حول ضرورة إبادة النفوذ الروسي في أوروبا بتطبيق مبدأ حق الشعوب بالتصرف بنفسها وإعادة تكوين بولونيا على أسس ديمقراطية واجتماعية"،

أقرت، ولكن المندوبين الفرنسيين عبروا، علناً، عن عدم موافقتهم:

"نصرح، كأنصار للحرية، أننا نحتج ضد كل المستبدين وندين ونستهجن، بقوة، تنظيم الاستبدادية الروسية واتجاهاتها من حيث أنها ستوصل إلى أكثر أنواع الشيوعية إفساداً للإنسان. ولكننا، كمندوبين إلى مؤتمر اقتصادي نعتقد أنه ليس لدينا ما نقوله حول إعادة التكوين السياسي لبولونيا".

وعبثاً ما ألقى بيكر مرافعة مضت في اتجاه ماركس (والإنكليز الذين ذكروا بأن "أول اتحاد للعمال الفرنسيين والإنكليز من أجل عمل مشترك قد صنع من أجل إبداء مشاعرهم ضد اضطهاد بولونيا")، فإنه لم يترك للألمان والسويسريين سوى حرية التوقيع على اقتراح لصالح إعادة تكوين بولونيا.

وفضلاً عن ذلك، أصبحت الأمور متزايدة التعقيد: فلن يبدي الإنكليز حيال "قضية أيرلندا" الحماسة نفسها التي كانوا قد أبدوها حيال "القضية الإيطالية" أو البولونية. أما بالنسبة لـ"القضية الألمانية"، فإن الفرنسيين

سوف يريدون فحصها من زاوية النزعة السلمية أكثر من فحصها من زاوية قضية قومية.

وبإيجاز، تبين، خلال انبجاس "القضايا القومية"، أن الأممية لم تكن تملك نظرية حول مسألة القوميات.

وفضلاً عن ذلك، نعرف أن برودون كان، على وجه الدقة، يرفض هذا المبدأ:

"أحس، أنا، أن قضية القوميات كما يفهمونها مبدأ زائف، معطى زائف، قدامية أنكرها وأمزقها قطعاً".

وهو يذكر ما يلي:

"لا يفعلون أكثر من الصياح: عاشت هنغاريا، عاشت بولونيا! وهما أسوأ بؤرتين أرستقراطيتين على وجه الأرض".

وذلك كان، على وجه الإجمال، موقف باكونين:

"مبدأ القومية هذا، كما تطرحه، في أيامنا، حكومات فرنسا وروسيا وبروسيا، بل وكثير من الوطنيين الألمان والبولونيين والإيطاليين والهنغاريين، ليس سوى ألهية تعارض، بها، الرجعية روح الثورة.

إن هذا المبدأ الأرستقراطي حتى الأعماق إلى درجة احتقار لهجات الشعوب غير المتعلمة وينكر، ضمنياً، حرية المقاطعات واستقلال الكومونات الحقيقي... لا يعبر عن شيء خلاف الحقوق التاريخية المزعومة وطموح الدول.

لن يستطيع حق القومية، أبداً، إذن، أن يعتبر من جانب الرابطة أكثر من نتيجة طبيعية لمبدأ الحرية السامي، إذ يكف عن أن يكون حقاً منذ أن يطرح ضد الحرية أو، فقط، خارج الحرية".

وبالمقابل، اتخذ ماركس، في هذا المجال، موقفاً أكثر مرونة وغنى من ذاك

الذي ينسب إليه لمجرد رؤية ما كتبه في "البيان". فإذا كان "البيان" يصوغ، فعلاً، كل أفكار الأممية البروليتارية، فإنه يبقى أن المؤلفين، حيال موجة ١٨٤٨ الثورية التي سادها العنصر الديمقراطي ضمن روح ١٧٩٢، اقتصرا، عمداً، على أممية من نموذج ١٨٤٨ محددة بثلاث عناصر: النضال ضد الحكم المطلق والرجعية، قضية الحرب وقضية تقرير الأمم لمصيرها.

وفيما يتعلق بالعنصر الأول، فإن ماركس جسده في غرض واحد: النضال ضد الحكم الروسي المطلق الذي نعرف أنه سيبقى هاجس ماركس حتى نهاية حياته ويوجه رؤيته المفصلة للتنظيم الأوروبي. أما بالنسبة للثاني، فقد رفض ماركس، منطقياً، النزعة السلمية حتى ولو كان هذا الرفض من طبيعة تعزل الحركة العمالية الثورية عن ليبرالي اليسار. وعن هذا السبيل، أدخل في الفكر الاشتراكي مفهوم "الحرب العادلة" المأخوذ عن أيديولوجية ١٧٩٢: "و"الحرب العادلة" التي كان يدور الأمر حولها، بالنسبة إليه، بالطبع، هي الحرب ضد روسيا القيصرية، قلعة كل ثورة مضادة في أوروبا. وبما أن بالمرسون لم يكن يريدها، فإنه اتهم، مباشرة، بأنه "مباع" للروس. أما بالنسبة للعنصر الثالث، تقرير الأمم لمصيرها، فقد تبنى ماركس مبدأه، ولكن ذلك كان مع إحاطته بكل أنواع التضييقات. فـ"حق الشعوب في التصرف بنفسها" لم يعترف به، أولاً، من جانبه، كمبدأ اشتراكي، بل كمبدأ ديمقراطي، فقط، كان ينبغي الدفاع عنه، بوصفه كذلك، بقدر ما كانت البروليتاريا تقاتل إلى جانب البورجوازية "طالما لم تنتصر الديمقراطية". ثم إنه لا ينبغي للمبدأ الديمقراطي، مبدأ تقرير الأمم لمصيرها، أن يطبق على كل القوميات: فيجب التمييز بين الأمم "التاريخية"، الشعوب "الضرورية" (كالبولونيين

والهنغاريين مثلاً) والشعوب "غير الضرورية" (نفايات الأمم") القوميات التي لن تصبح، قط، أمماً، كالاسكتلنديين والغاليين والبروتونيين والسويسريين الناطقين بالألمانية والبلجيكيين الناطقين بالفرنسية إلخ...

"لا مستقبل لشعب سلافي غير البولونيين والروس وسلافيي الإمبراطورية العثمانية احتمالاً".

وأخيراً، أدخل ماركس وأنغلز معياراً حديثاً حداثة خاصة، هو معيار البعد غير المرغوب فيه للأمم: فهما يلحان على "الوحدات القومية الكبيرة". ومن هنا جاء موقفهما المهم جداً، لدى خرب الانفصال، من الشؤون الأمريكية، رفعهما لنكولن إلى مصاف المثل الأعلى واعترافهما لليانكي "بانتزاع كاليفورنيا من هؤلاء الكسالى المكسيكيين".

إلا أنه كان هناك، أخيراً، التباس لكون القضية القومية تبدو مرتبطة ارتباطاً جوهرياً باكتمال المجتمع البورجوازي، حول دور الطبقة العاملة في الفترة الوسيطة قبل أن يكون قد أمكن للثورة البروليتارية أن تدخل، في مجال العلاقات بين الشعوب، نظرية الأممية البروليتارية وممارستها.

فعدم وجود نظرية اشتراكية، حقاً، لمسألة القوميات كان قد أعاق، إذن، إعاقة قوية نمو الأممية في الستينات. وبعد ١٨٧٠، كان بناء الأممية هو نفسه الذي قتل الأممية. فالحرب الفرنسية-الألمانية التي منعت، فيها، هبة الشوفينية الفرنسية ممثلي البروليتاريا حتى من التسليم بالطموحات القومية الألمانية هي نهاية فترة أوهام فترة ١٨٤٨ حول تصالح الشعوب في الأخوية الأممية. فصعود الأمم والأحزاب القومية كسر الاندفاعة الأممية لبرهة على الأقل.

الخاتمة

الاشتراكية والحركة العمالية عام ١٨٧٥

جاك دروز

إلى أي حد دخلت الاشتراكية الحركة العمالية الأوروبية في البرهة التي أكملت، فيها، الأممية مسيرتها العابرة؟

لا يسع أحد أن ينكر أن تاثير الأممية كان، في هذا المجال رئيسياً. فبفضل الرابطة الدولية للعمال، اكتسب قسم كبير من العالم العمالي تصورات بسيطة وواضحة حول دوافع معركتها. فقد راى عمال ذوو معارف بدائية أنفسهم، عندما وصلوا إلى مراحل نمو مختلفة، يستعملون الأقوال نفسها التي قرها منهم وفسرها مناضلوهم الخاصون. وتطور في العالم العمالي تصور نضال مشترك وموحد. وقد ساعدته الرابطة الدولية للعمال على وعي القوة التي يمثلها وأسهمت في إعطائه شيئاً من الخبرة بحياة النضال (دونت). وبعبارة موجزة، لم يعد عامل ما بعد ١٨٧٠ العامل الذي كان في بداية الستينات. والعنصر الحاسم لا يقع، في هذا الميدان، في القاعدة، بل في القمة: فالمجلس العام، أي ماركس وأصدقاؤه، وهو الذي لعب، هنا، الدور الحاسم.

ومع ذلك، فالعالم العمالي كان يتجه نحو التنويع، والصيغ الأيديولوجية التي كان يستند إليها كانت متنوعة ومتناقضة. فقد شوهد، فعلاً، نوع من "تقويم" متزايد للحركات العمالية وتوطد لكل بروليتاريا وتأكيد من كل منها لوجودها كبروليتاريا أولاً، ثم كبروليتاريا قومية. وقد فهم ذلك، جيداً، ماركس الذي أنهى الأممية في مؤتمر لاهاي لتفسح المجال لأشكال

جديدة من النضال أكثر مناسبة، وسوف تتعمم خلال السنوات التالية (روجري). وهذا التطور يتفق مع السياق السياسي الجديد الذي يسهل، بعد تحقيق الوحدتين القوميتين الكبيرتين في إيطاليا وألمانيا واستبعاد خطر الحرب لفترة ما، انطواء الأحزاب القومية على شؤونها الداخلية، على نضال قومي خالص.

ويقابل هذا التقويم للحركة العمالية تنوع متزايد للاتجاهات الممكنة. فلا شيء أكثر زيفاً من الرغبة في حبس طموحات الحركة العمالية في كلمات مفرطة الدقة. وتعابير الماركسية والباكونينية والبرودونية لا تدل على مواقف جامدة، ومن المستحيل اعتبار ما يجري على صعيد الروابط العمالية المحلية صدى بسيطاً للمناقشات النظرية التي تجري على مستوى القيادات. فالبرودونية التي بقي عدد كبير من العمال الفرنسيين والبلجيكيين أوفياء لها تحولت تحولاً عميقاً خلال الستينات بسبب الممارسة العمالية والشروط والضرورات المباشرة للنضال: فالممارسة قد محت الأيديولوجية تدريجياً. أما بالنسبة للفوضوية المستلهمة من باكونين التي انضمت إليها بلدان عديدة، كإسبانيا وإيطاليا وسويسرا الجوراسية وبلجيكا، فقد فسرت تفسيرات مختلفة جداً حسب الحالات. وغالباً جداً ما كان في مثل هذا الاختيار مجرد رغبة لإنقاذ استقلال الفروع ضد مجلس عام مفرط التسلط، وارتد بعضهم إلى اشتراكية أكثر تنظيماً عندما أدركوا الطابع المتناقض لكثير من التأكيدات الفوضوية. ولم تكن الأممية المعادية للسلطة تستند، في أي مكان خارج إسبانيا، إلى حركة جماهيرية حقيقية وأخيراً، فلم تكن الماركسية قد بلغت تلك السلطة التي يريد بعض المؤرخين أن ينسبوها إليها منذ منتصف السبعينات: والحزب الوحيد الذي يمكن أن يذكر بها هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني

الـذي تشـكل لـدى مؤتمـر غوتـا عـام ١٨٧٥، ولكـن البرنـامج المصـاغ، آنذاك، يسـتند إلى تسـوية بـين الأنصـار الذيـن كـانوا مـا يزالـون عديديـن للاسال الذي سـيبقى نفـوذه، لزمـن طويـل، قويـاً في ألمانيـا ويوجـه الأذهـان نحـو موقـف إيجـابي حيـال الدولـة. ومسـائل التنظيـم وليـس مسـائل الأيديولوجيـة، هـي الـتي هيمنـت علـى مناقشـات غوتـا. ويمكـن أن نتبـين، كنتيجة، أن الراديكاليـة، بـالمعنى الأساسـي للكلمـة، انتصـرت في كـل مكـان تقريبـاً وأن الفكـر الثـوري استـبعد الإصلاحيـة، ولكـن الحركـة العماليـة لم تنضم، بعد، إلى برامـج نظريـة مشـتركة (مولنـار).

فيبدو مـن المسـتحيل، إذن، تثبيـت الحركـة العماليـة، حـوالي ١٨٧٥، في أطـر محددة جيداً. ومـن المؤكـد أنـه يمكـن تمييـز اربعـة اتجاهـات سـائدة: النقابـة البريطانية الصفـة، الفوضويـة الـتي تبـدو مرتبطـة، علـى الرغـم مـن أن ذلـك ليس حصرياً، بالبلدان الـتي مـا زالـت ضعيفـة التصنيـع، النقابيـة الثوريـة الـتي عرفت صعـوداً واسـعاً في فرنسـا ولكـن القمـع، علـى مـا يبـدو، حطمـها، والاشـتراكية الديمقراطيـة الـتي كـان يمكـن أن تتبـاهى بأنهـا أنشـأت، للمـرة الأولى في التـاريخ، حزبـاً بروليتاريـاً جماهيريـاً مكرسـاً لأن يسـتخدم "نموذجـاً" للأحـزاب الاشـتراكية الـتي كـانت في طريقـها إلى التشـكل في البلـدان الأخـرى. ولكنـه يبـدو أن أيـة دولـة لم تكـن قـد اختـارت، عـام ١٨٧٥، بصـورة نهائيـة، بـين هـذه الاتجاهـات المتنوعـة. ومثـال بلجيكـا وسويسرا يوضـح، بشـكل خـاص جـداً، تعايشـها. ففـي الأولى، رأينـا سـيزار دو بـاب ينتقـل مـن البرودونيـة إلى الماركسـية ثم يتبـنى، ضـد مـاركس، مواقـف باكونينيـة. والمـرء يتوجـه إلى الفوضويـة أو إلى الماركسـية حسـبما يكـون ينـاضل في بروكسـيل أو في غـاند. والتعارضـات، في البلـد الثـاني، أوضح بين الاتحـاد الجوراسـي للأمميـة الـذي ينـادي، مـع غيـوم وشـفيتزغيبيل،

بالاستنكاف السياسي وخلق "ورشات صغيرة" تكون "خلايا الكومونة الاجتماعية" المقبلة ويميل نحو جماعية فوضوية شبه صوفية، والحزب الاشتراكي الديمقراطي ذي النموذج الإيزناخي الذي تشكل في زوريخ بدافع من هرمان غروليش، مدير "التاغفاكت" الذي استطاع تشكيل رابطة عمالية لكل سويسرا (١٨٧٣)دون أن يستطيع أن يدخل، فيها، الروابط العمالية القديمة التي تستعصي بنيتها اللاسياسية وتوجهها المهني والتربوي الصارم على كل عمل ثوري.وهذان البلدان يشكلان، على الرغم من مساحتهما الصغيرة، حقل التجربة الحقيقي لاشتراكية لم تجد، بعد، طريقها. فلا يمكن، إذن، الأخذ بالحل المبسط القائل أن الطبقة العاملة لا يمكن أن تكون إلا نقابية اتحادية وأنه يجب تعليمها الاشتراكية من الخارج. وعلى العكس من ذلك، فالاشتراكية يمكن أن تولد من الممارسة العمالية. ويبدو، في نهاية المطاف، أن مسألة العلاقات بين الأيديولوجية والحركة يجب أن تقلب: فالنضال هو الذي يتعلم، خلاله، جزء فعال، على نحو خاص، من الطبقة العاملة الاشتراكية. (روجري).

ولكن هذه الملاحظات لا يمكن أن تنطبق إلا على البلدان التي قامت، فيها، صلة بين الفكر الاشتراكي والطبقة العاملة. و لم يكن الأمر قد وصل إلى ذلك، بعد، في قسم هام من أوروبا، وخاصة في روسيا، كما في الدول البلقانية: فقد بقيت الاشتراكية هناك من شأن "أنتليجنسيا" صغيرة تجد أفرادها لدى بعض النبلاء، وبصورة أعم في بعض أجزاء البورجوازية الصغيرة: أبناء كهنة، موظفون صغار، تجار، وفيما بعد فلاحون، التي ردت، بعنف، ضد الأوتوقراطية والأورثوذوكسية والتي ستقدم، بعد ١٨٦٠، ملاكات الحركة الثورية. ولكن المطلب الاجتماعي يبقى، في هذه الأوساط، مرتبطاً بحالة الاقتصاد الروسي المتخلفة. وسوف

يوسع هيرزن، خلال الخمسينات، في الهجرة، نظامه الذي يدعي التوفيق بين محبة السلافية والنزعة الغربية داخل اشتراكية يكرس لها نظام "المير" روسيا وتجنب هذه الأخيرة المرور بالمرحلة الرأسمالية. وفيما بعد، سوف يقدر "الشعبانيون" الذين يحسون، حيال الطبقات الشعبية، بإحساس تبكيت ضمير ومسؤولية احتماعية أن واجبهم هو "الذهاب إلى الشعب"، ولكن الكتلة الفلاحية هي التي سيتوجهون إليها: فعدم وجود أسواق خارجية وضيق السوق الداخلية يجعلان من المستحيل، في نظرهم، قيام الرأسمالية. وهم لا يرون في البروليتاريا الصناعية سوى قوة مساندة للفلاحين. وسواء توجه الفكر الثوري، مع لافروف، إلى "تربية" الشعب أو، مع باكونين، نحو انتفاضته، وسواء رسم، مع نتشاييف، صورة الإرهابي الكامل أو عرّف، مع تكاتشيف، شروط الاستيلاء على الحكم من جانب أقلية ثورية، فنحن، دائماً، أمام إرادة التضحية بنخبة تمجدها. إلا أن أحداً من هؤلاء الكتاب لم ير أنه من الممكن التفكير فيه ان تتبع روسيا طريق الرأسمالية الغربية. وقد ترجم "رأس المال" إلى الروسية عام ١٨٧٢،و الروابط العمالية الأولى تعود إلى عام ١٨٧٥.ولكن الاتصال بين بعض مجموعات الأنتيليجانسيا والجماهير العمالية سينشيء بعد ذلك بكثير.

محتويات الكتاب

القسم الثالث:

ليست الاشتراكية جديدة، فقد يكون عمرها عمر الإنسان، وكذلك الظلم والبحث عن العدالة إلا أنها بقيت تصنوراً طوباوياً عن عباقرة من مقياس أفلاطون وجان جاك روسو.. وغيرهما أنفسهم حتى القرن التاسع عشر حيث بدأ مفهومها يصير اجرائياً مع برودون وفوريه وغيرهما.

هذه الاجرائية أخذت شكلها الأدق والأكثر علمية مع ماركس وآنكليز والقيادات الشيوعية في القرن التاسع عشر والعشرين، وسوف تنهض في السنوات المقبلة من الكبوة التي أصابتها مع انهيار الاتحاد السوفييتي على الخصوص أن التفاوت في الثروات يصير اليوم بمثابة فضيحة انسانية.

فالكتاب هذا بأجزائه الخمسة والذي يسعد وزارة الثقافة أن تقدمه لقرائها يدعو حقاً إلى التفكير، لا لأنه يؤرخ لمفهوم الاشتراكية وحسب، بل يرسم ملحمة صراع الانسان مع الظلم.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

٢٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٥٥٠ ل.س